المكتبة التاريخية

تاريخ مملكة الغساسنة

(السياسي والحضاري)



أ.د. حنان قرقوتي

دار النفائس

المكتبة التاريخية

تاريخ مملكة الغَساسِنَة

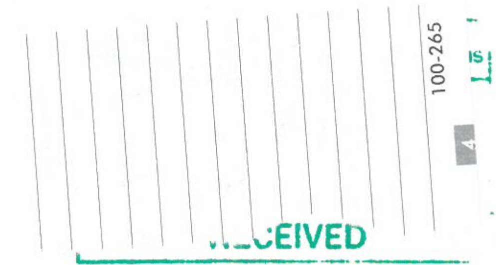
(السياسي والحضاري)

تأليف

أ. د. حنان قرقوتي

أستاذة في كليّة الإمام الأوزاعيّ للدّراسات الإسلاميّة

بيروت ـ لبنان



دار النفائس

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغلاف: من بقايا قصر القسطل في الأردن

تاريخ مملكة الغَساسِنَة (السياسي والحضاري)
تأليف: أ. د. حنان قرقوتي

الطبعة الأولى: 1437 هـ ـ 2016م
ISBN 978 - 9953 - 18 - 546 - 0

نشر
Publisher

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 ـ 009611810194
بيروت ـ لبنان

DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Web Site: WWW.alnafaes.com
Email: alnafaes@yahoo.com

تمهيد

واجَهَت العمل على موضوع «الغساسنة» عدّة أمور تمّ العمل على حلّ بعضها بطرق متعدِّدة، ومن هذه الأمورِ النقاط التّالية:

١ ـ وجود نقص في بعض المعلومات عنهم في بعض المراحل التّاريخيَّة.

٢ ـ وجود تضارب أحياناً في المعلومات المذكورة عنهم في كتب المؤرِّخين.

٣ ـ وجود نقص في بعض المعلومات التَّفصيليَّة عن طبيعة حياتهم وعاداتهم.

٤ ـ تعدُّد طرق كتابة بعض أسماء الأشخاص والأماكن في المصادر والمراجع بشكل يُشوِّش القارئ، بحيث يظنُّ أنَّ الكلام يدور حول عدَّة أشخاص وأماكن، بينما الكلام يدور حول شخص واحد ومكان واحد.

وحدث هذا الأمر نتيجة لتعدُّد المؤرِّخين واختلاف لغاتهم الأصليّة، بحيث ذَكر كُلٌّ منهم الأسماء حسب ما اعتمدها قومه، وحسب ما فهِمها أو ترجمها من لغات أخرى.

وقد تمَّ اعتماد بعض الأمور لحلِّ هذه المشكلة، ومن هذه الأمور:

١ ـ اعتماد إملاءٍ واحدٍ للأسماء، مع الإشارة، إلى أغلب الأسماء المتعدِّدة للشَّخص أو المكان الواحد في أماكن ورودها للمرَّة الأولى.

٢ ـ اعتماد الأسماء العربيَّة للأشخاص والمدن العربيَّة وليس الأسماء الأجنبيَّة، مع الإشارة إلى الأسماء الأجنبيَّة.

٣ ـ اعتماد حرف «السّين» بدل حرف «الزّاي»، وحرف «الكاف» بدل حرف «القاف»، وحرف «الياء» بدل حرف «الجيم»، وذلك في الأسماء الرّوميَّة، عند تعدّد أشكال إملاء الأسماء في المصادر والمراجع؛ لأنَّ هذان الحرفان هما المشهوران في لغة الرّوم.

وتَستخدم اللُّغة الألمانيَّة وبعض اللُّغات الأوروبيَّة الأخرى حرف «الياء» بدل حرف «الجيم»، وكانت الإمبراطوريَّة الرّومانيَّة تشمل تلك المناطق.

كما تمَّ توحيد نهاية الأسماء الرّوميَّة المنتهية بـ«نوس» و«نُس» باعتماد «نوس».

٤ ـ اعتماد حرف «التّاء المربوطة» بدل حرف «الألف» في نهاية أسماء المناطق والدّول، لتعدُّد إملاء بعض تلك الأسماء بالحرفَين، وكان الإملاء لغاية نهايات ستّينيّات القرن العشرين الميلاديّ تقريباً يَعتمد «التّاء المربوطة» ثمَّ تَحوّل إلى «الألف».

٥ ـ وجود معلومات خلافيّة كثيرة تتعلّق بالغساسنة بين المؤرِّخين، ومنها الخلافات في تسلسل الأنساب، وتسلسل الحكّام، وأمكنة وتواريخ موت الحكّام أو قتلهم. وقد تمَّ التَجاوز عن كثير من تلك الخلافات، التي لا طائل من ذِكرها في هذا البحث، وتمَّ الاعتماد، في ما كُتِبَ فيه، على الأرجح بين أقوال المؤرِّخين.

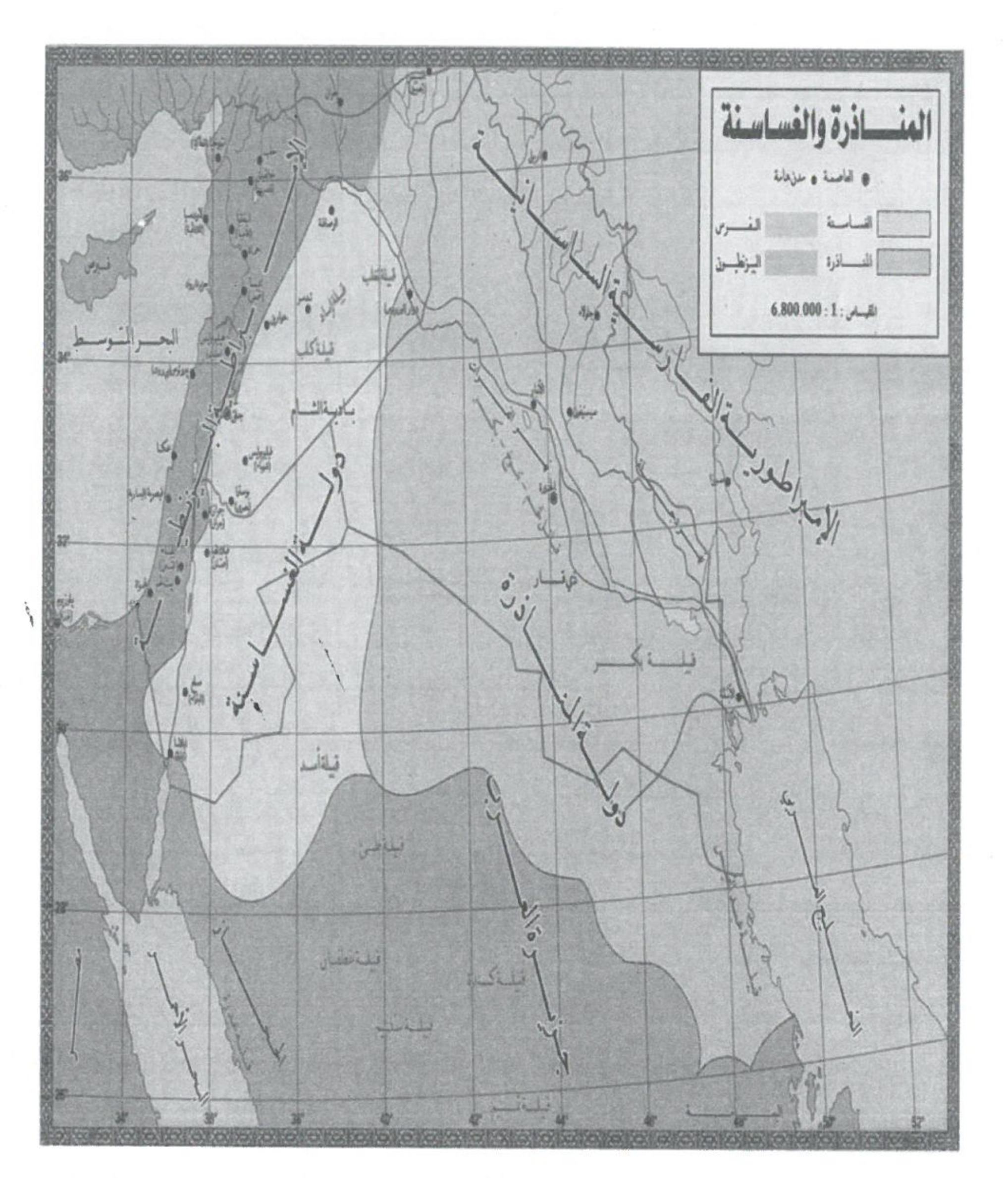
٦ ـ عدم النَّقل الحرفيّ من المصادر والمراجع إلّا قليلاً، ولهذا خلا البحث في أغلبه من الأقواس المحدِّدة للنَّقل الحرفيّ، وتمَّ العمل على أساس التَّصرُّف بالنُّصوص عبر إعادة صياغتها مع إضافة عليها، أو عبر دمج معلومات عدّة مصادر ومراجع في صياغة واحدة، وقد تمّت الإشارة إلى المصادر والمراجع المأخوذ عنها المعلومات في الهوامش في أماكنها.

٧ ـ توجد في البحث أسماء «أشخاص» كثيرة جرى العمل على التَّعريف الموجز لبعضها، وكذلك توجد أسماء «أماكن» كثيرة جرى العمل على التَّعريف الموجز لبعضها أيضاً.

٨ ـ استخدم بعض المؤرِّخين لفظ «الرّومان» مع لفظَي «الرّوم» و«البيزنطيّين» بمعنىً واحد، دون مراعاة أنَّ لفظ «الرّومان» كان يُطلق على الإمبراطوريَّة الموحَّدة كما كان يُطلق على الإمبراطوريَّة الرّومانيَّة الغربيَّة التي بقيت عاصمتها «رومة (روما)» بعد انقسام الإمبراطوريَّة إلى إمبراطوريَّتين. وكذلك كان الأمر بالنسبة لاستخدام لفظَي «رومة (روما)» و«بيزنطة»، التي كانت تعني «القسطنطينيَّة» عاصمة الإمبراطوريَّة الرّومانيَّة الشَّرقيَّة، حيث تمَّ استخدامهما بمعنى واحد يرمز إلى الإمبراطورية الرّومانيّة.

ولهذا، وحتّى لا يضيع القارئ في الأسماء المتعدِّدة، فقد تمّ استبدال لفظ «الرّومان» بلفظ «الرّوم» الأشهر استخداماً في أغلب مرحلة حكم الغساسنة، مع تركه كما هو في أماكن محدودة تطلّبها ذلك[1].

(١) كانت الإمبراطوريَّة الرّومانيَّة، وعاصمتها رومة (روما)، تمتدُّ على مساحات واسعة من أوروبَّة وآسية وأفريقية، ثمَّ انقسمت عام ٣٩٥م إلى قسمين:
١ ـ «غربيٌّ روميٌّ» يُسمّى: «الإمبراطوريّة الرّومانيّة» وعاصمته «رومة (روما)»، التي يشير إليها بعض المؤرِّخين أحياناً بلفظ «رومة (روما)» أو «الرّومان»، وهو يتبع «الكنيسة الغربيّة».
٢ ـ «شرقيٌّ بيزنطيٌّ» يُسمّى: «الإمبراطوريّة البيزنطيّة» وعاصمته «القسطنطينيّة (أصبح اسمها بعد أن فتحها السّلطان العثمانيّ محمّد الفاتح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إسلامبول؛ أي: الإسلام الكثير، وتحرَّف الاسم إلى: إستانبول، إسطمبول، إسطنبول)»، التي يشير إليها بعض المؤرِّخين أحياناً بلفظ «بيزنطة» أو «الرّوم»، وهو يتبع «الكنيسة الشّرقيّة».



خريطة دولة الغساسنة، نقلاً عن سيف الدّين الكاتب، أطلس التاريخ القديم، سلسلة أطلس تاريخ الحضارات، دار الشرق العربي، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

مقدّمة

أصل الغساسنة

لم يجئ مجد «الغَساسِنَة» عن عبث، فلقد أثبتت أرومَتُهم «العربيَّة القَحْطانِيَّة» أنَّهم أصحاب مجد وحضارة.

«وكان «قَحطانُ» أبو «اليَمَنِ» كلِّها، ولمّا كانوا مُبعِدين عن التَّرف والمُلك، فقد حافظوا على قوَّتهم وعددهم، وتعدَّدت أفخاذُهم وعشائرهم، وتنافسوا مع إخوانهم من «العمالِقَةِ» في بناء الدَّولة والسلطة، ونبغ «يَعْرُبُ بن قَحْطانَ» فكان من أعاظِم ملوكهم، وقيل: إنَّه أوَّل مَن حيّاه أولاده بتحيَّة المُلك».

وقال ابن سعيد: «وهو الذي ملك بلاد اليَمَن، وغلَب عليها قومَ «عاد»[١]، وغلَب «العَمالِقَةَ» على «الحِجاز». وولّى إخوته على جميع أعمالهم، فولّى «جُرْهُماً» على «الحِجاز»، و«عادَ بن قَحْطانَ» على «الشِّحر»[٢]، و«حَضْرَمَوْتَ بن قَحْطانَ»[٣] على جِبالها، و«عُمانَ بن قَحْطانَ»[٤] على بلاد «عُمان»، وقيل: إنَّه هو أوَّل مَن نطق بالعربيَّة، وإليه أشار «حَسّان بن ثابِتٍ»[٥] بقوله:

---

(١) ورد ذِكر عادٍ في القرآن الكريم بقول الله ﷻ في الآية ٦٥ من سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف/ ٦٥].

(٢) الشِّحر: مدينة في حَضْرَمَوْت في اليمن.

(٣) حَضْرَمَوْتُ بن قَحْطان: عن ابن لَهيعة قال: أهل الكتاب يقولون: «حَضْرَمَوْتُ بْنُ قَحْطانَ بْنِ عابِر، وهو هود. ويقولون: سَبَأُ بْنُ قَحْطانَ بْنِ عابِر، وهو هود». ابن وَهْب، الجامع في الحديث، تحقيق د. مصطفى حسن حسين محمّد أبو الخير، دار ابن الجوزيّ، الرّياض - المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص٣٥.

(٤) عُمانُ بن قَحْطان: سُمِّيَتْ باسمه منطقة عُمان. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ج٥، ص١٨.

(٥) حسّان بن ثابت (ت٥٤هـ/ ٦٧٤م): الصّحابيّ، شاعر النّبيّ ﷺ، وأحد المُخَضْرَمينَ الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام. عاش ستّين سنة في الجاهليّة، ومثلها في الإسلام. وكان من =

تَعَلَّمْتُمْ من مَنْطِقِ الشَّيْخِ يَعْرُبٍ فَصِرْتُمْ مُعْرِبِينَ ذوي نَفَرِ
وكُنْتُمْ قَديماً ما لَكمْ غَيْرَ عَجْمَةِ كَلامٍ، وكُنْتُمْ كَالبَهائِمِ في القَفْرِ

وقال شاعر آخر:

فَما مِثْلُ قَحْطانَ السَّماحَةِ والنَّدى ولا كَابْنِهِ رَبُّ الفَصاحَةِ يَعْرُبِ

وملَك بعده ابنه «يَشْجَب»، ثمّ «عبدُ شَمْسٍ» الملقّب بـ«سِباء»، وكان لهذا عشرة أولاد، فسكن اليمنَ ستّة والشّامَ أربعة، فالذين سكنوا اليمنَ «كِنْدَةُ» و«مَذْحِجُ»[1] و«أَزْدُ» و«أنْمارُ» و«حِمْيَرُ» و«الأشْعَرِيّون»[2]، والذين سكنوا «الشّامَ» «غسّانُ» و«لَخْمُ» و«جُذامُ» و«عامِلَة»، ولُقِّبَ بـ«سِباء» لكثرة سَبْيِه[3].

وهو الذي ابتنى سَدَّ «مَأْرِبَ» العظيم في اليمن، على بعد ثلاث مراحل من مدينة «صَنْعاءَ» في القرن الثّاني قبل الميلاد، بين جبلين بالصّخر والقار، وساق إليه سبعين وادياً تصبّ مياهها فيه[4]. ولمّا انهدم السَّدُّ تفرَّقَت «الأزْد»، فمنهم مَن رحل إلى «عُمانَ» فسُمِّيَ «أزْدَ عُمان»، ومنهم مَن نزل بـ«الثَّنْي» من «شَنٍّ» فسُمِّيَ «أزْدَ شَنُوَّة»، ومنهم من استوطن «الأراكَ»[5] بـ«بَطْنِ مُرّ»[6]، فكانت

= سكان المدينة المنوَّرة. واشتهرت مدائحه في الغسانيّين، وملوك الحيرة، قبل الإسلام، وعَمِيَ قُبيل وفاته. لم يشهد مع النّبيّ ﷺ مشهداً، لعلّة أصابته. خير الدّين الزِّرْكِلِيّ، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط١٥، ٢٠٠٢م، ج٢، ص١٧٥.

(١) ورد عن ابن شهاب، مرفوعاً، قال: (**أَكْثَرُ القَبائِلِ في الجَنَّةِ مَذْحِجُ**). ابن وَهْب، م. س، ص٣٤.

(٢) الأشْعَرِيّون: قبيلة تنسب إلى الأشعر بن ادر بن يزيد بن يشجَب، نزلوا غور تهامة من اليمن. عبد الرّؤوف بن تاج العارفين بن عليّ بن زين العابدين الحدّاديّ، التّيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشّافعيّ، الرّياض ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج١، ص٤٢٤.

(٣) منير الذّيب، سورية الجنوبيّة حوران منذ عهد الكنعانيّين حتّى عهد الاستقلال، الجذور التّاريخية الانتماء الوطن والتّراث، نينَوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، دمشق ـ سورية، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٥٧.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) الأراك: جَبَلٌ لهُذَيْل. مرتضى الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحقِّقين، دار الهداية، د. ت.، ج٢٧، ص٣٦.

(٦) بَطْنُ مُرّ: قرية عظيمة كثيرة الأهل والمنازل، وعلى أربعة أميال منها قبر ميمونة زوجة النّبيّ ﷺ، وعلى ستّة أميال من ذلك مسجد عائشة، ثمّ إلى مكّة (المكرّمة) ستّة أميال، ومنها =

«خُزاعَةُ» حامِيةَ «الكعبة المشرَّفة»، ولحق بـ«يَثْرِبَ»[1] «الأَوْسُ» و«الخَزْرَج»، ولحق بـ«بُصْرى»[2] و«الحَفيرِ»[3] من أرض «الشّام» «بَنو غَسّان». ثمّ ذهب آخرون إلى أرض «العِراق»، وصارَت غَلَبَةُ الغَساسِنَةِ لـ«الضَّجاعِم»[4][5].

اختلاف الرّواة في نسبة مؤسّسي الدّول التي ظَهرت قُبيل الإسلام

يختلف الرّواة ومؤرِّخو العرب في نسبة مؤسِّسي الدّول التي ظهرت قُبيل ظهور الإسلام في شمال جزيرة العرب، فبعضهم ينسِبهم إلى «بني قحطانَ» من «حِمْيَرَ» و«كَهْلانَ» أو «مَعَدٍّ» أو «العَمالِقَة»، وأهمّها دول: «الغَساسِنَةِ» في «الشّام»، و«المَناذِرَةِ» في «العِراق»[6]، و«كِنْدَةَ» في «نَجْد».

وعلى أيّ حال، فإنّ دليلَ «قَحطانيّة» هذه الأمم يرجع إلى أقوال النَّسّابين،

= يُحرِم أهل مكّة (المكرّمة)، وهو حدّ الحَرَم، فمِن بطن مرّ إلى مكّة (المكرّمة) ستّة عشر ميلاً. ابن خِرْداذَبَّة، المسالِك والممالِك، دار صادر، أُفْسِتْ لَيْدِن، بيروت ـ لبنان، ١٨٨٩م، ص١٨٧.

(١) يَثرب: مدينة الرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة والسلام، وسماها المدينة، وكره أن تسمى يثرب. وكانت المدينة عاصمة الإسلام ومنها انطلقت أعظم فتوحاته، وبها مرقد خير البشر، وفي الحديث: (**إن الإسلام ليَأْرِزُ إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحيَّة إلى جحرها**). عاتق بن غيث، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، مكة المكرمة ـ المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٢٨٥.

(٢) بُصرى: موضع بالشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٩٩٥م، ج١، ص٤٤١.

(٣) الحَفير: موضع بين مكة والبصرة. المرجع نفسه، ج٢، ص٢٢٧، وتقع الحَفير على أربعة أميال من البصرة. ابن العربيّ الإشبيليّ، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصّحابة بعد وفاة النّبيّ ﷺ، تحقيق محبِّ الدّين الخطيب، محمود مهدي الإستانبولي، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١٥٧.

(٤) الضَّجاعِم: هم بنو ضجعم بن حَماطة بن سعد بن سَليح بن عَمْرو بن الحاف بن قضاعة، وكانوا الملوك بالشأم قبل قدوم الغساسنة. أبو جعفر البغداديّ، المُحَبَّر، تحقيق إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان، د. ت.، ص٣٧٠.

(٥) منير الذّيب، م. س، ص٥٧ ـ ٥٨.

(٦) كان «المَناذِرَةُ آلُ نَصْرٍ» في آخر أمرهم عُمّالاً لـ «الأكاسِرَةِ» على عرب العراق. وأصلُهم من اليمن من «الأزْدِ بني كَهْلان»؛ لأنّ «الأزْدَ» لمّا أحسَّت بـ «مَأْرِبَ» انتقاض «العَرِم» وخشِيَت السَّيْلَ تفرَّقَت. رزق الله يوسف شيخو، مَجاني الأدب في حدائق العرب، مطبعة الآباء اليسوعيّين، بيروت ـ لبنان، ١٩١٣م، ج٣، ص٣١٢.

لكن هناك دليلٌ يشير إلى «عدنانيّة» هذه الدّول، وأنهم من «عرب الشّمال»، وهو معبوداتهم، فمعبوداتهم ترجع إلى عرب الشّمال، ولو كانوا من «عرب اليمن» لوُجِدَ بين معبوداتهم اسم «عِشْتار» أو «إيلَ» أو نحوِهما.

وكذلك يُقال في أسمائهم، فليس فيها رائحة الأعلام «السَّبْئِيَّة» أو «المَعينِيَّة»، بل هي مثل أسماء سائر عرب الشّمال قبلهم؛ كـ«الأنْباط» ونحوهِم، ومنها: «الحارِثُ» و«ثَعْلَبَةُ» و«جَبَلَةُ» و«النُّعْمانُ» وغيرهم. ولا يُعترض بما ذكره العرب بين أسماء ملوك «حِمْيَرَ» من أمثال هذه، فإنّ أكثرَها مُبْدَلٌ بأسماءٍ شماليّة، وعدم تنافي ما ذُكِرَ على الأسماء التي وَقفوا عليها في الآثار المنقوشة.

أما الدّليل على «قحطانيّة» هذه الأمم فقَوْلُ النّسّابين، وهو أضعف من أن يُعَوَّلَ عليه، وما أغنى «القحطانيين» عن الرّحلة إلى «بادية الشّام والعراق» والرّجوع إلى البداوة، وهي شاقّة على مَن تَعَوَّدَ الحضارة والرّخاء[1].

لمحة عن العرب قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربيّة

لا يستطيع أحد أن يزعم أنه كانت هناك أُمَّةٌ عربيّة واحدة في أهدافها في «شبه الجزيرة العربيّة»، تلك المساحة الشّاسعة من الأرض المحاطة بالبحار من جوانبها الثّلاثة، فلم تكن القبائل المتفرّقة في وسطها أو نواحيها، والتي كانت تتبادل فيما بينها العداوات والأحلاف بحسب الظّروف، تُحِسُّ بأنّ أُمَّةً واحدة تجمعها، ولا كانت تستشرف هذه الوحدة، أو تعمل من أجلها، مع أنّه كانت هناك إمبراطوريّتان كبيرتان تحدّان «شبه الجزيرة العربيّة» شمالاً وشرقاً، هما دولتا «الفُرْسِ»[2] و«الرّوم»[3]، كما كانت هناك دولتا «الغَساسِنَةِ» و«المَناذِرَة»،

(١) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، تاريخ الفكر الدّينيّ الجاهليّ، دار الفكر العربيّ، ط٤، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص١١٣.

(٢) فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح، أول حدودها من جهة العراق أرّجان، ومن جهة كرمان السّيرجان، ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف، ومن جهة السند مكران. لمزيد من التفصيل انظر ياقوت الحموي، م. س، ج٤، ص٢٢٦ وما بعدها.

(٣) الرّوم: هم سكان الإمبراطورية الرومانية الشرقية والمعروفة بالإمبراطورية البيزنطية، وكانت تحكم دول: اليونان والبلقان، وآسيا الصغرى؛ وسورية وفلسطين، وحوض البحر الأبيض المتوسط بأسره؛ ومصر، وكل إفريقية الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكان ابتداء =

ودولة «حِمْيَرَ» في «اليمن». وكانت دولة «الفُرْسِ السّاسانيّينَ» ذات سلطان وقوّة ونظام، لعَراقتهم في نظام الدّولة، ممّا أعطاهم خبرة كبيرة في شؤون الإدارة والحرب، وعلى رأس الدّولة مَلِكٌ يُسمّيه العرب «كِسْرى»[1]، وهو تعريب لَلفظ «خُسْرُف (خُسرَو)» باللّغة «الفارسيّة»، ومعناه «المَلِكُ» أو «السُّلطان»، وكانت ديانتهم وثنيّة وهي: «الزَّرادِشْتِيَّةُ» أو «المَزْدَكِيَّة»، وهي تقوم على عبادة «النّار»، وسمّاها العرب «المَجوسِيَّة[2]»[3].

ظهور الغساسنة

كان «بَدْوُ شبه الجزيرة العربيّة»، في الفترة التي كانت تتوارى فيها دولة «تَدْمُرَ» في الظّلام بعيداً عن المسرح السّياسيّ والحضاريّ، يمتلئون بقوّة جديدة، فالظّروف الاقتصاديّة التي أحاطت باليمن، من انهيار سَدِّ «مَأْرِب»، وحدوث سَيْلِ «العَرِم» وغيره من أحداث أدّت إلى اضمحلال «دولة حِمْيَرَ اليَمَنِيَّة»، كلّ ذلك وغيره كان سبباً في أن تهاجر قبائل بأسرها من جنوب بلاد العرب إلى شمالها، بحثاً عن أرض جديدة.

وكانت النّتيجة الأخيرة لهذه الحركة أن ذاق «الفرسُ» و«الرّومُ» مُرَّ العذاب من هجرة «الأعْرابِ» وغزواتهم، فأنشؤوا على أطراف الصّحراء الحصون، ومدّوا الطّرق العسكريّة ليأمنوا غارات قبائل «البَدْو»، وليُسَهِّلوا طرق التّجارة،

= الإمبراطورية المذكورة سنة ٣٩٥م، وانتهاؤها بغلبة العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م. أبو الحسن الندوي، السيرة النبوية، دار ابن كثير، دمشق ـ سورية، ط١٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م، ص٦٩.

(١) لم تكن «الدّولة الفارسيّة» قبيل ظهور «الإسلام» قد تدهورت، أو آلَتْ إلى السّقوط، ولكنّ هزيمتها أمام العرب كانت بسبب أنّهم واجهوها بالإسلام، وهو أعظم قوّة في الأرض، فاستطاع في وقت قصير القضاء عليها وتحرير أهلها. وبالسّلاح نفسه أيضاً غلب العرب «الرّومَ البيزَنْطِيّين»، ولم تكن دولتهم على أيّام «هِرَقْلَ» ضعيفة أو متدهورة، فعندما هاجم العرب «الشّامَ» كانت دولة «الرّومِ» في أوْجِ قوّتها، ولكنّ الانتصار كان بفضل الإسلام، وهي العبرة الباقية والدّائمة للمسلمينَ على مَرِّ الأيّام. عبد الله بن عبد المُحْسِنِ التُّرْكِيّ، الملك عبد العزيز آل سعود أُمَّةٌ في رجل، وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السعوديّة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٢.

(٢) المَجوسِيَّة: عقيدة المجوس التي تقدّس الكواكب (الشّمس والقمر) والنّار. المعجم الوجيز، م. س، ص٥٧٣.

(٣) عبد الله بن عبد المُحْسِنِ التُّرْكِيّ، م. س، ص٢٢.

واتَّخذَ «الفرسُ» قبائل من «العرب» عُرِفوا بـ«اللَّخْمِيّينَ» أو «المَناذِرَة»، كما اتَّخذَ «الرّومانُ» أوّلاً قبائل من «بَني سَليح»[1]، ثمّ قبائل من «بَني غَسّانَ» أعواناً لهم.

وهكذا جاءت عقب دولتَي «البَتْراءِ» و«تَدْمُرَ» دوَيْلتان جديدتان على أطراف الصّحراء، ففي القرنَيْن الخامس والسّادس الميلاديّين، ازدهرت حول «دِمَشْقَ» مملكة «الغَساسِنَة»، وفي الوقت نفسه ازدهرت دوَيْلة «اللَّخْمِيّينَ» في «الحيرَةِ» بالقرب من ضفاف «الفُرات». وكانت هاتان الدُّوَيْلتانِ تابعتَيْن لإمبراطوريَّتَيْ «بيزَنْطَة» و«فارِس»، وكانتا بمثابة مَرْكَزَيْ حراسة لهما على حدود الصّحراء، وقد نتج عن هذه السّياسة التي سارت عليها الإمبراطوريّتان القديمتان دوامُ الحرب بين دولتَي «المَناذِرَةِ» و«الغَساسِنَة»، وهما أبناء عمٍّ ومن دم واحد، ولكنّهما اضْمَحَلّتا واختَفَتا قُبيل «الفتح الإسلاميّ العظيم»، تاركتَيْن الإمبراطوريَّتَيْن وجهاً لوجه مع الهُداة الجُدُد، حَمَلَةِ لواء الإسلام، وهداية «القرآن الكريم»، وسُنَّةِ المُصطفى صلوات الله وسلامه عليه[2].

(١) بني سَليح: بني سليح بن حلوان من قضاعة، ومنهم الضجاعمة. محمد بيّومي مَهْران، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة. مصر، ط٢، د. ت.، ص٥٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٠٣ ـ ٥٠٤.

الفَصْلُ الأوَّلُ

أصل الغساسنة والظّروف التي أدّت إلى قيام دولتهم

النّسب والتّسمية

«الغساسِنَةُ» قومٌ من «عرب اليمن» غادروا أوطانهم على إثر حدوث سيل «العَرِمِ» نحو سنة ١٢٠ للميلاد[1].

ويرجع أصل الغساسنة إلى قبائل «الأزْدِ»[2] التي هاجرت من جنوب بلاد العرب بعد حدوث سيل العَرِمِ وانهيار سدّ مَأْرِب[3].

غير أنّ بعض «مؤرِّخي العرب» يُرجّحون أنّ «الغساسِنَة» و«المَناذِرَة» هم من «عرب الشّمال» لأسبابٍ منها:

(١) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، أصدَق ما كان عن تاريخ لبنان وصفحة من أخبار السُّريان، مطابع جوزف سليم صيقلي، بيروت ـ لبنان، ١٩٤٨م، م٢، ص٦.

(٢) الأزْد: هم من ولد «الأزْدِ بن الغَوْثِ بن نَبْتِ بن مالِكِ بن أدَدِ بن زَيْدِ بن كَهْلان». ومن قبائلهم «الغساسنة» ملوك الشّام، وهم بنو «عَمْرِو بن مازِنِ بن الأزْد». ومنهم: «الأوْسُ» و«الخَزْرَجُ» أهل «يَثْرِب»، وهم «الأنْصارُ» رضي الله عنهم. ومنهم: خُزاعَة، وبارِق، ودَوْس، والعَتيك، وغافِق، فهؤلاء بطون الأزْد. أحمد بن يحيى القرشيّ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثّقافيّ، أبو ظبي ـ الإمارات العربيّة المتّحدة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ج٤، ص٢٥٤.

(٣) هناك خلاف بين العلماء حول زمن هجرة الغساسنة والمناذرة من اليمن إلى الشّام، صحيحٌ أنّ الرّوايات العربيّة تحدِّد ذلك بانهيار سدّ مَأْرِب، ثُمَّ حدوث سَيْلِ العَرِم، ولكن صحيحٌ كذلك أنّ سدّ مَأْرِبَ إنّما انهار عدّة مرّات خلال الفترة الطّويلة التي مضت منذ تشييده لأوّل مرّة، في منتصف القرن السّابع قبل الميلاد، وربّما الثّامن كذلك، وبين آخر مرّة أُصْلِحَ فيها السَّدُّ في عام ٥٤٣م على أيّام «أبْرَهَةَ الحبشيّ»، إذ إنّ هناك عدّة إشارات في النّصوص العربيّة الجنوبيّة إلى تهدُّم السَّدِّ وإصلاحه، ومن ثَمَّ فلا يُعرف على وجه التّحديد في أيّ وقت من هذه الفترة، التي ربّما تزيد على اثني عشر قرناً، قد حدثت هذه الهجرة. وأمّا الرّوايات العربيّة، فبعضها يذهب إلى أنّ ذلك إنّما كان قبل الإسلام بأربعة قرون، وبعضها يرى أنّ ذلك إنّما كان على أيّام «الحَبَشَة»، وبعضها يرى ذلك في القرن الخامس الميلاديّ، على أيّام «حَسّانَ بن تَبّانَ أسْعَد»، وهناك روايات ترى أنّ ذلك إنّما كان في القرن الرابع الميلاديّ. محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٦.

١ ـ أنّ لغة «الغساسنة» و«المناذرة» إنّما هي لغة «عدنانيّة» أكثر منها «قحطانيّة»، بل إنّها لا تَمُتُّ إلى «الحِمْيَريَّة» الجنوبيّة بصِلَة.

٢ ـ أنّ أسماءهم إنّما تشبه في مجموعها أسماء «عرب الشمال».

٣ ـ أنّ العادات والدّين أكثر انطباقاً على عادات وديانة «عرب الشّمال»[1].

واختلف المؤرِّخون في أصل تسمية «الغساسنة» فقالوا: «غسّانُ أبو قبيلةٍ باليمن، وهو مازِنُ بن الأزْدِ بن الغَوْث. وقالوا: غسّانُ ماءٌ بسدّ مأْرِب باليمن، وقيل: بالمُشَلَّل، نزلوا به فنُسبوا إليه. وقالوا: غسّانُ اسم ماءٍ نزل عليه قومٌ من الأزْدِ فنُسبوا إليه، منهم: بنو جَفْنَةَ رَهْطُ الملوك. ويقال: غسّانُ اسم قبيلة. وقالوا: غسّانُ أبو قبيلةٍ باليمن، منهم: ملوك غسّان. وقالوا: غسّان: بنو جَفْنَة، والحارثُ وهو مُحَرِّق، وثَعْلَبَةُ وهو العَنْقاء، وحارِثَة، ومالِك، وكَعْب، وخارِجَة، وعَوْفُ بن عَمْرِو بن عامِرٍ (ماءِ السَّماءِ) ابن حارِثَةَ الغِطْريفِ بن امرئِ القَيْسِ (البِطْريق)[2]، ويقال عن غسان: البَهْلولُ بن ثَعْلَبَةَ بن مازِنَ بن الأزْد. وقالوا: غسّان: هو اسم ماءٍ نزل عليه بنو مازِنَ بن الأزْدِ بن الغَوْث، وهم: الأنصار، وبنو جَفْنَة، وخُزاعَة، فسُمّوا به. وقالوا: الغساسنة ملوك الشّام، وهم: بنو عَمْرِو بن مازِنَ بن الأزْد»[3].

وهناك رأي آخر يقول بأنّ لفظ «الغساسنة» «سُرْيانِيٌّ» «آرامِيٌّ» الأصل، وفي ذلك قال «الفيكُنْت فيليب دي طَرّازي»: «لمّا انتزح العرب اليمنيّون عن مسقط رأسهم واحتلّوا بلاد «بَشّانَ»[4] الآراميّة غلَب عليهم فيما نرى اسم تلك البلاد. فتَسَمَّوا «بَسّانَ» Basan بقلبهم «الشّينَ» الآراميّة «سيناً» تبعاً لاصطلاح «الرّوم» أسياد البلاد في تلك الآونة. وبتمادي الزّمان صَحَّفَ «العرب» ذلك الاسم فجعلوه «غَسّانَ» بدلاً من «بَسّانَ» أو «بَشّان»؛ لأنّ العرب اعتادوا أن يُحَرِّفوا أسماء الأعلام، فقالوا مثلاً: «عيسى، يحيى، يونُس، طالوت، جالوت،

(١) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٥.
(٢) البِطْريق: لقبٌ كان يُطلق على القائد من قُوّاد دولة الرّوم. المعجم الوجيز، م. س، ص٥٤.
(٣) عمر رضا كحّالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت ـ لبنان، ط٧، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج٣، ص٨٨٤.
(٤) بلاد بشّان: كانت تمتدّ من فلسطين إلى سورية عبر الأردنّ.

إلخ.»، بدلاً من «يسوع، يوحَنّا، يونان، شاوُل، جُلْيات، إلخ.»[1].

وقد يكون لفظ «ماء غَسّانَ» من فِعل «غْسا» «السُّرْيانِيِّ» الآراميّ بمعنى «فاض وسال»، ومصدره «غَسْيان»»؛ أي: «الفيضان والسَّيَلان». أمّا فعل «غَسَنَ» العربيّ فلا علاقة له بَتَّةَ بـ«الغساسنة» ولا بمعنى الفعل «السُّرْيانِيِّ» المشار إليه. فالنّتيجة أنّ لفظة «غَسّانَ» ليست «عربيّةً»، لكنّها «سُرْيانِيَّةٌ» بحتةً قد تكون تحريف «بَشّانَ»، أو تكون من فِعل «غْسا» السُّرْيانيّ، والله أعلم»[2].

ويُطلق على الغساسنة عدّة أسماء، ولعلّ أهمّها:

١ ـ أزْدُ غَسّان: مَرَدُّ الكلمة كما يروي الأخباريّون أنّ «أزْدَ» إنّما هو اسم قبيلة، وأمّا «غَسّانُ» فهو اسم ماءٍ في «تِهامَة»، نزل القوم عليه وشربوا منه، ومن ثَمَّ فقد عُرِفوا بـ«أزْدِ غَسّان»، وعُرِفَ نسلُهم بـ«الغساسنة»[3].

٢ ـ آلُ ثَعْلَبَة: نسبةً إلى جَدٍّ لهذه الأسرة يُعْرَفُ بـ«ثَعْلَبَةَ بن مازِن»[4].

٣ ـ آلُ جَفْنَةَ وأولاد جَفْنَة: نسبةً إلى جدِّهم الأكبر «جَفْنَةَ بن عَمْرٍو (مُزَيْقياءُ) بن عامِرٍ[5] (ماءِ السَّماءِ) بن حارِثَةَ بن امرئِ القَيْسِ بن ثَعْلَبَةَ بن مازِنِ بن الأزْد»[6].

الغساسنة في تِهامَة قبل وصولهم إلى الشّام

يذكر نسّابو العرب أنّ «الأزْدَ» لم يرحلوا إلى «الشّام» مباشرة، وإنّما أقاموا

(١) كلّ أصحاب الأسماء المذكورة التي اتّهم الفيكنت فيليب دي طَرّازي العرب بتصحيفها وُلِدوا في المنطقة العربيّة في الضّفة الغربيّة في فلسطين، ما عدا يونس ﷺ في نينوى في العراق، والأسماء التي اعتبرها الفيكنت أصليّة هي أسماء غربيّة، فهل كانت هي الأساس من قِبل الرّوم في فلسطين أو السُّريان والآراميّين وحرّفها العرب؟ أم في الأصل هي عربيّة حرّفها الرّوم والسُّريان والآراميّون؟
(٢) الفيكُنْت فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٧ ـ ٨.
(٣) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٧.
(٤) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، تاريخ العرب في عصر الجاهليّة، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة ـ مصر، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٩٧.
(٥) د. محمود عرفة محمود، العرب قبل الإسلام، أحوالهم السِّياسيّة والدِّينيّة وأهمّ مظاهر حضارتهم، عين للدّراسات والأبحاث، القاهرة ـ مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص١٢٧.
(٦) د. حلمي محروس إسماعيل، الشّرق العربيّ القديم وحضاراته (بلاد ما بين النَّهْرَيْن والشّام والجزيرة العربيّة القديمة)، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة ـ مصر، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص٣٦٤.

حيناً من الوقت في «تِهامَة» بين بلاد «الأشْعَرِيّين» و«عَكّ»[1]، على ماءٍ يُقال له: «غسّان» فنُسِبوا إليه[2]، ويفسّر «المسعوديّ» هذه النّسبة بقوله: «وإنما «غسّان» ماءٌ شربوا منه، فسُمّوا بذلك، وهو ما بين «زَبيدٍ»[3] و«رمع»[4]، ووادي «الأشْعَرِيّينَ» بأرض اليمن». ويدعم «المسعوديّ» هذا التّفسير ببيت من الشِّعر لـ«حسّان بن ثابت»:

أمّا سَألْتَ فإنّا مَعْشَرٌ نُجُبُ   الأزْدُ نِسْبَتُنا والماءُ غسّانُ[5]

وذكر «بطليموس» بأنّ ذلك كان في أواسط القرن الثّاني للميلاد، وقال: «إنّهم يقيمون على شواطئ جزيرة العرب الغربيّة نحو ما هو الآن: تِهامَة»[6].

هجرة الغساسنة إلى الشّام بقيادة عَمْرو بن مَزّيقْياء

واصل الغساسنة هجرتهم نحو الشّام، حيث استقرّوا في الأُرْدُن وجنوبيّ سورية في بُصْرى التي كانت تقع ضمن سلطان «سَليح»، وكان الرّوم قد ولّوا «الضّجاعِمَة» من «آلِ سَليح القُضاعِيّينَ» على تلك البلاد، وقاد «الغساسِنَة» في هجرتهم زعيمهم «عَمْرو (مَزّيقياء) بن عامر (ماء السّماء) بن حارثَةَ الغِطْريفِ بن امْرِئِ القَيْسِ (البِطْريق) بن ثَعْلَبَةَ بن مازِنِ بن الأزْدِ بن الغَوْثِ[7] بن نَبْتِ بن مالِكِ بن زَيْدِ بن كَهْلانَ بن سَبَأ»[8].

ويفسّر الأخباريّون سبب تسمية «عَمْرِو بن عامِرٍ» بـ«مَزّيقياء» بتفاسير عدّة،

(١) عَكّ: قبائل عَكّ من العدنانيّة، نزلت في نواحي زيدة وجنوب تِهامَة، وقد ذكَرها اليونان في كتبهم فسمّوها Acchitae. محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٠٢.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٥.
(٣) زَبيد: اسم واد به مدينة يقال لها الحصيب، ثمّ غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلّا به، وهي مدينة مشهورة باليمن. ياقوت الحموي، م. س، ج٣، ص١٣١.
(٤) رَمْع: وادي رمع من أودية السراة مما يلي زبيد، وهو واد حارّ ضيِّق. ابن الحائك، صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٤م، ص٧١.
(٥) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٤.
(٦) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١١٤.
(٧) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٤.
(٨) نشوان بن سعيد الحِمْيَرِيِّ اليَمَنِيّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكُلوم، تحقيق د. حسين بن عبد الله العُمَرِيِّ وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، دار الفكر، دمشق ـ سورية، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج٢، ص١١٢٠.

منها قول «حمزة الأصفهانيّ»: «وتزعم الأزْدُ أنّ عَمراً إنّما سُمِّيَ «مَزيقياء» لأنّه كان يُمَزِّقُ كلَّ يوم من سِني مُلْكِهِ «نُمَيْرَة»، فسُمِّيَ هو «مَزّيقْيا»، وسُمِّيَ ولدُه «المَزّاقِيَّة». وقيل: «إنّما سُمِّيَ «مَزّيقْياء» لأنّ الأزْدَ تمزّقت على عهده كلَّ مُمزَّق، عندما تهدَّم سَيْلُ العَرِم»[1]، «فاتَّخَذَتِ العربُ افتراقَ الأزْدِ عن أرض سَبأ بسَيْلِ العَرِمِ مثلاً، فقالوا: ذهبَت بنو فلان أيادي سَبأ»[2].

ويُعتبر التّفسير الأوّل تفسيراً خرافيّاً، ربّما قُصِدَ به إظهارُ ثراءِ «عَمْرِو بن عامِرٍ»[3] وجاهِه.

ويعتبر التّفسير الثّاني، تفسيراً مقبولاً لأنّه يعتمد على قوله ﷻ: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ/١٩][4].

ومنهم مَن قال: بأنّ «مَزّيقياء» هو «جَفْنَةُ بن عَمْرو» مؤسّس مُلْكِ «غسّان»، وهو أوّل مَن تولّى قيادة الغسّانيّينَ إلى أطراف الشّام الجنوبيّة، وإليه يُنسب الغساسِنَة فيُقال لهم: «آلُ جَفْنَةَ» و«أولادُ جَفْنَة»، وفي هذا قال الشّاعر حسّانُ بن ثابت:

لِلَّهِ دَرُّ عِصابَةٍ نادَمْتُهُمْ   يَوْماً بجِلِّقَ[5] في الزّمانِ الأوّلِ
أوْلادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أبيهِمْ   قَبْرُ ابْنِ مارِيَةَ[6] الكَريمِ المُفْضِلِ

(١) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٢١.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٦.
(٣) يُرجِع «نسّابو العرب» نَسَبَ هذه الأسرة الحاكمة إلى الملك «عَمْرِو بن عامِرٍ» الذي أُلْبِسَتْ شخصيّته مَسحة من الخُرافة. وهذا يتّفق على الأرجح مع الرّوايات القديمة، إذ إنّ سكان يَثْرِبَ، الذين ينتمون أيضاً إلى قبيلة غسّان، كانوا يُرجِعون نَسَبَهُمْ إلى «عَمْرِو بن عامِرٍ» بحسب شهادة حسّانَ بن ثابِت. ثيودور نولدكة، أمراء غسّان، وهي رسالته «أمراء غسّان من آل جَفْنَة»، نشرتها أكاديميّة العلوم البْروسْيانيّة في برلين، نقلها إلى العربيّة وأضاف إليها تصحيحات مؤلِّفها الأخيرة د. بيدلي جوري، د. قسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكيّة، منشورات كليّة العلوم والآداب، الجامعة الأميركيّة في بيروت، بيروت ـ لبنان، ١٩٣٣م، ص٣.
(٤) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٤.
(٥) جِلِّق: اسم لكورة الغوطة كلها، وقيل: بل هي دمشق نفسها، وقيل: جلّق موضع بقرية من قرى دمشق. ياقوت الحموي، م. س، ج٢، ص١٥٤.
(٦) مارِيَةُ ذات القِرْطَيْن: هي التي يقال فيها: «ولو بقِرْطَيْ مارِيَة». وهي مارِيَةُ بنت الأرقم بن =

يُسْقَوْنَ مِنْ وَرْدِ البُرَيْصِ عَلَيْهِمِ ... بَرَدى يُصَفِّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ

بيضُ الوُجوهِ كَريمَةٌ أحْسابُهُم ... شُمُّ الأُنوفِ مِنَ الطِّرازِ الأوَّلِ[١]

واقع الشّام قبل وصول الغساسنة إليها

كان يسكن مشارف الشّام قبل وصول «الأزْدِ الغساسِنة» إليها قومٌ يُعْرَفونَ بـ«الضَّجاعِمَةِ»، وهم قبائل «بني سَليح بن حُلْوانَ» من «قُضاعَة»[٢].

وكانت «سَليح» بدورها قد تغلَّبت على «تَنوخ»[٣] وتَنَصَّرَتْ[٤]، فمَلَّكَتْها الرّوم على العربِ الذين بالشّام، وهم وَلَدُ «سَليح بن حُلْوانَ بن عِمْرانَ بن الحافِ بن قُضاعَة»[٥]، وأعطوهم ألقاباً مثل «فيلارْكوس»[٦]، وأوّل مَن حصل على هذا اللّقب هو جدُّهم «ضَجْعَم»[٧] الذي أُعطي هذا اللقب في عهد

= ثعلبةَ بن عَمْرِو بن جفنة. وقيل: مارِيَةُ بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية بن ثور، وهو كِنْدَة، وإليها ينتسب ملوك غسّان. عليّ بن الحسن الخزرجيّ الزّبيدِيّ، العقود اللّؤلؤيّة في تاريخ الدّولة الرّسوليّة، تحقيق: محمّد بن عليّ الأكوع الحواليّ، مركز الدّراسات والبحوث اليمنيّ، صنعاء، اليمن، دار الآداب، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج١، ص٢٧.

(١) نشوان بن سعيد الحِمْيَرِيِّ اليمنيّ، م. س، ج٢، ص١١٢٠.

(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٧.

(٣) مَلَكَ من «تَنوخَ» «النُّعْمانُ بنُ عَمْرِو بنِ مالِك»، ثمّ مَلَكَ بعده «عَمْرو بنُ النُّعْمانِ بنِ عَمْرو»، ثمّ مَلَكَ بعده «الحَوارِيُّ بنُ النُّعْمان»، ولم يملِك من «تَنوخَ» إلّا هؤلاء. المَسْعودِيّ (عليّ بن الحسين بن عليّ المسعوديّ)، مروج الذّهب ومعادن الجوهر، شرحه وقدَّم له د. مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٤، ص١١٥.

(٤) النّصرانيّة: الاسم الأصليّ لـ «الرّسالة السّماويّة» التي نقلها رسول الله «السَّيِّد المسيح» عليه السلام هو «النّصرانيّة»، ولكن غَلب استعمال تعبير «المسيحيّة» في معظم المصادر والمراجع وعند العامّة، ولهذا سيتمّ استبدال تعبير «المسيحيّة» في هذا البحث بالاسم الأصليّ الذي هو «النّصرانيّة».

(٥) المَسْعودِيّ، م. س، ج٤، ص١١٥.

(٦) فيلارْكوس: فيلارْكُس، فيلارْخوس، فيلارْك، فيلارْخ، Phylarkos, Phylarcos, phylarchos, Phylarchus Phylarch، وتعني: رئيس قبيلة، سيّد قبيلة، شيخ قبيلة، عامل (حاكم منطقة). وترجم العرب هذه الألقاب بمعنى «مِلك». تمّ أخذ معلومات هذا الهامش من مراجع عدّة وردت في هذا الكتاب.

(٧) ضَجْعَم: من ولد سَليح وأولاده الضّجاعمة كانوا ملوكاً بالشّام. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، دار بيروت، بيروت ـ لبنان، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج١٢، ص٣٥٣.

«تيتوس»[١]. وكانت ديار «قُضاعَة» في المناطق الواقعة بين «جبل الشّيخِ» و«جبال فلسطين» و«البَلْقاء»[٢] و«الغَوْر»[٣] و«العَقَبَة»[٤] و«جبال الكَرَك».

حكم الغساسنة في الشّام بعد القضاء على الضجاعمة

استقرّ الحكم للغساسنة في الشّام بعد أن أخذوا الحكم بالقوّة من أيدي أُناسٍ كانوا يحكمون هذه المنطقة قبلهم، ويُدْعَوْنَ الضَّجاعِمَة[٥]، وهم من «سَليح بن حُلْوان»، على يد القائد الغسّانيّ «ثَعْلَبَة بن عَمْرِو بن المُجالِدِ بن عَمْرِو بن عَدِيٍّ بن مازِنِ بن الأزْد»، ومن نَسْلِهِ كان ملوك «غسّان».

و«بَنو سَليح» الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة، هم عربٌ ينسِبُهم النَّسّابون إلى «سَليح بن حُلْوانَ بن عِمْرانَ بن الحافِ بن قُضاعَة»، وقد نَسَبَهم «ابن دُرَيْدٍ» إلى «سَليح بن عِمْرانَ بن الحاف»، وجعل لـ«سَليح» شقيقاً هو «تَزيدُ» جَدُّ «التَّزيدِيّين»[٦].

ويقول المستشرِق الألمانيّ «نولْدْكِة»[٧] في أصل الضَّجاعِمَة: «وقد أفادني

(١) تيتوس «Titus»: طيطُس، طيطُش: إمبراطور بيزنطي، خرب القدس في سنة ٧٠م. د. جواد علي، م. س، ج٥، ص١٠٨.

(٢) البلقاء: محافظة أردنيّة قاعدتها السَّلط.

(٣) الغَوْر: غور الأردنّ بالشام بين البيت المقدّس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سمي الغور، طوله مسيرة ثلاثة أيام، وعرضه نحو يوم، فيه نهر الأردن وبلاد وقرى كثيرة، وعلى طرفه طبرية وبحيرتها ومنها مأخذ مياهها، وأشهر بلاده بيسان بعد طبرية، وهو وخم شديد الحر غير طيب الماء، وأكثر ما يزرع فيه قصب السكر، ومن قراه أريحا مدينة الجبّارين. ياقوت الحموي، م. س، ج٤، ص٢١٧.

(٤) العَقَبَة: مرفأ أردنيّ على خليج العقبة في البحر الأحمر.

(٥) وُجِدَ «الضَّجاعِمَةُ» من عرب اليمن في حَوران وجنوبيّ سورية قبل الإسلام بأحقابٍ متطاولة، وفي زمن النَّبيِّ «إيلْياء» عليه السلام؛ أي: قبل «المَسيحِ» عليه السلام بنحو ستّمائة سنة. فقد جاء القائد «نُعمان» العربيّ من «الشّام» يستشفي من «البَرَصِ» عند «أليشَعَ» تلميذ «إيلْياء» عليه السلام، ثمّ كان «بَنو سَليح»، وكانوا يحكمون حتّى أبواب مدينة دمشق. محمّد رشيد رضا، مجلّة المنار (صدرت أعدادها بدءاً من عام ١٨٩٩م في المنصورة ـ مصر، وتوقّفت عام ١٩٤٠م)، القاهرة ـ مصر، ج٢٢، ص٦٢٤.

(٦) د. جواد عليّ، المفصّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار السّاقي، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٦، ص٨٢.

(٧) ثيودور نولدكة: اعتمد بعض المؤلِّفين على معلومات المستشرق الألمانيّ ثيودور نولدكة عن الغساسنة؛ لأنّه أقدَم مَن درَس الغساسنة في أطروحته الجامعيّة عام ١٩٣٣م.

الأستاذ «Gutschmid»، في كتاب بعثه إليّ، أنّ الضَّجاعِمَةَ هم سلالة «زوكوموس» الذي عاش في أواخر القرن الرابع لـ«المسيح ﷺ»، وكان عامِلاً لدى الرّوم في سورية في زمن ازدهار سلطتهم»[1].

وكان الضَّجاعِمَةُ قد استقرّوا هناك، ورضخوا لحكم الرّوم ودانوا بـ«النّصرانيّة»، واعترفت «الدّولة البيزنطيّة» بهم ووضعتهم تحت حمايتها، واتّخذتهم أعواناً لها ضدّ المناذرة والفرس، وكان ذلك في زمن الإمبراطور[2] «أنستاسيوس»، حوالي آخِر القرن الخامس الميلاديّ، ومن ثَمَّ كانوا أوّل مَن شيّد مُلْكاً للعرب هناك[3].

ومن ملوك «سَليح» الذين ذكَرَهم الأخْبارِيّونَ «زِيادُ بن الهَبولَةِ»[4] ملِك الشّام، وجعلوه من مُعاصِري «حُجْرِ بن عمرو بن مُعاوِيَةَ بن الحارِثِ الكِنْديّ (آكِلِ المُرّار)[5]»[6]، وذكروا أنّه سَمع بغارة قام بها «حُجْرٌ» على «البَحْرَيْن»،

(١) ثيودور نولدكة، م. س، ص٦.

(٢) الإمبراطور: المَلِك، ورديفها كلمة «قَيْصَر»، وهي من أصل لاتينيّ هو «سيسَر Cesar». د. جواد عليّ، م. س، ج١٦، ص٣٥٤.

(٣) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٥.

(٤) زِيّادُ بن الهَبولَة: من أشهر ملوك الضّجاعمة. محمّد كُرْدْ عليّ، **خُطَطُ الشّام**، مكتبة النّورِيّ، دمشق ـ سورية، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج١، ص٢٥.

(٥) آكل المرار: اختلف المؤرخون في تحديد اسمه، فقيل: هو حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الأصغر، من كندة من بني حمير، سيد كندة في عصره، وولي على قبائل معد بن عدنان في الحجاز، وهو أول ملوك كندة، وقيل: بل آكل المرار هو جد امرئ القيس: الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية، ويسمون ملوك اليمن «آل آكل المرار». السمعاني، الأنساب، تحقيق عبد الرحمٰن بن يحيى المعلمي اليماني وآخرون، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ـ الهند، ط١، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ج١٢، ص١٧١.

(٦) تذكُر الأخبار أنَ «حُجْراً» قام إثر تولّيه المُلك بحملات تَوسَّع بها في أطراف «نَجْد»، إذ هاجم قبائل «الحِجاز» وشماليّ «شبه الجزيرة العربيّة» وجِهات «البَحْرَيْن»، بعد أن بسط سيطرته على أرض «اليمامة» في الشّرق، وانتزع جانباً من الأراضي التي كانت تحت سيطرة «مناذرة الحيرة». وفي روايةٍ: إنّه بينما كان في غزوةٍ بجِهات «عُمان»، استغلّ أحد أمراء الغساسنة فرصة غيابه عن بلاده، فأغار على أراضيه وغنم أموالاً كثيرة، وقَيْنَةً (مُغَنِّيَةً) من أحَبِّ قِيانِهِ إليه. ويُرجع الأخباريّون سبب تسميته بلقب «آكِلِ المُرّار»، الذي غلب عليه، لهذه المناسبة، بينما يذكر آخرون أنّ سببه تكشيرٌ كان به، يشبه تكشير الإبِل إذا أكلت مُرّاراً فقلّصَت مشافِرَها. =

فسار إلى أهل «حُجرٍ»، فأخذ الحريم والأموال، وسَبى منهم «هِنْدَ بنتُ ظالِمِ بنِ وَهْبِ بن الحَرْثِ بن مُعاوِيَة»[1].

سبب الحرب بين الغساسنة والضَّجاعِمَة

لم يكن دخول الغساسنة للشّام وتغَلُّبُهم على الضَّجاعِمَةِ أمراً يسيراً، فقد ذَكر حمزةُ الأصفَهانِيُّ أنَّ الغساسنة لمّا نزَلَت في جِوارِ «سَليح بن حُلْوانَ» ضَرَبَت «سَليح» عليهم الإتاوة، فلمّا طالب «سُبَيْطُ الضَّجْعَمِيُّ» «ثَعْلَبَةَ بن عَمْرو الغسّانيّ» بالإتاوة، تحايل عليه حتّى قتله أخوه «جِذْعُ بن عَمْرو»، فقامت الحرب بين سَليح وغسّان وانتهت بهزيمة سَليح، وآلَ المُلك إلى الغساسنة[2].

وتفصيل ذلك أنّ «سَليحاً» لمّا ضربوا الإتاوة على الغساسنة كان الذي يلي جبايتها منهم «سُبَيْطاً»، فاستبطأهم، فخاطب «سُبَيْطٌ» «ثَعْلَبَةَ» رأسُهم، وقال: لَتُعَجِّلَنَّ لي الإتاوة أو لآخُذَنَّ أهلك. وكان ثَعْلَبَةُ حليماً، فقال: هل لك في مَن يزيح عِلَّتَكَ بالإتاوة؟ قال: نعم. قال: عليك بأخي جِذْعِ بن عَمْرو. وكان «جِذْعٌ» فاتِكاً، فأتاه سُبَيْطُ وخاطبه بما كان خاطب به ثعلبة، فخرج عليه ومعه سيفٌ مُذَهَّب، وقال: فيه عِوَضٌ من حقِّك إلى أن أجمع لك الإتاوة. قال: نعم. قال: فخُذْه. فتناول سُبَيْطُ جَفْنَ السّيف[3] واسْتَلَّ جِذْعٌ نصلَه وضربه به. فقيل: خُذْ من جِذْعٍ ما أعطاك. فذهبَت مَثَلاً. فوقعت الحرب بين سَليح وغسّان، فأخرَجَت غَسّانُ سَليحاً من الشّام وصاروا ملوكاً[4].

= ولمّا توفّي «حُجْرٌ» طاعِناً في السِّنِّ خلَفَه ابنه «عَمْروٌ» الملَقَّب بـ«المَقصور»، ربّما لأنّه اقْتَصَرَ على ما تحت نفوذه من أراضٍ، ولم يستطع الوقوف أمام القبائل التي انشقّت عنه، أو لأنّ «ربيعَةَ» قَصَرَتْهُ على مُلك أبيه، الأمر الذي يدعو إلى الظَّنِّ أنّه لم يكن قويّاً صاحب عَزْمٍ وإرادة. ويُروى أنّه عقد علاقات طيِّبة مع المناذرة، لا سيّما وأنّه زَوَّجَ ابنته من «الأسود بن المنذر الأوّل» مِلك الحيرة، فوَلَدَتْ له ابنه «النُّعْمانَ بن الأسودِ» الذي مَلَكَ الحيرةَ بين (٤٤٩ ـ ٥٠٣م)، كما كانت له علاقات وثيقة مع ملوك اليمن، وحَسَنَةٌ مع مختلف القبائل. توفيق بِرّو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٥٤.

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص٨٢.

(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٧.

(٣) جفن السيف: غمده. أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت ـ لبنان، ط١، ص١٧٥.

(٤) رِزْقُ الله يوسف شَيْخو، مَجاني الأدب في حدائق العرب، م. س، ج٣، ص٣١٣.

غير أنّ تغَلُّب الغساسنة على «بني سَليح الضَّجاعِمَة» لم يقضِ على هؤلاء نهائيّاً، ومن ثَمَّ فقد بَقوا، كما يرى نولدكة، في مواضع أخرى من الشّام إلى زمن متأخّر، بدليل أنّ «النّابِغَةَ الذُّبْياني» قد زار أحدهم في «بُصْرى»[١]، وأنّ جماعة منهم قد حاربوا «خالد بن الوليد» ﷺ، في «دَوْمَةِ الجَنْدَلِ (الجَوْف)» تحت قيادة «ابن الحُدْرُجان»، وفي «قُصَم[٢]»[٣]. وذكَرَهم أهل الأخبار في أخبار الفُتوح، فذكروا أنّهم كانوا في جملةِ مَن أقام على «النّصرانيّة» مِنَ عرب الشّام. وقد أسْلَمَ قسم منهم، وكانوا في «قِنّسْرينَ» في أيّام «المهديّ»[٤].

إقامة مملكة الغساسنة

لما تمّ للغساسنة التَّخلُّص من سَطْوِ بَني سَليح، أقاموا مملكة لهم في أرض «حَوْرانَ» المحيطة بـ«جبل الدّروز»، و«البَلْقاءِ» و«الجَوْلان»، واتَّخذوا من «بُصْرى» عاصمةً لهم قبل تحويل عاصمتِهم لاحقاً إلى «الجابِيَة (في مرتفعات الجَوْلان)[٥]»[٦].

وكانت بلاد غسّان معروفة ببلاد «بَشّان» أو «بَسّان». وكانت حدود دولة «بَشّانَ» باديةُ «سورية» شرقاً، و«غَوْرُ الأُرْدُنِّ» غرباً، وأراضي «دمشقَ» شمالاً،

(١) يقول «النّابِغَة»:

لَعَمْري لَنِعْمَ المَرْءُ مِنْ آلِ ضَجْعَم ... نَزورُ بِبُصْرى أوْ بِبَرْقَةَ حارِبِ

فَتىً لَمْ تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍّ قَريبَةٍ ... فَيَضْوى، وَقَدْ يَضْوى سَليلُ الأقارِبِ

أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٧.

يَضْوى: يضعُف. وفي الحَديث الشّريف: **(اغْتَرِبوا لا تَضْووا)**؛ أي: انْكَحوا الغرائِب، فوَلَدُ القرائِب أضوى؛ أي: أَضْعَف. ابن الجوزيّ، غريب الحديث، تحقيق د. عبد المعطي أمين القلعجيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج٢، ص٢١.

(٢) قُصَم: موضع بالبادية قرب الشّام من نواحي العراق، مرَّ به خالد بن الوليد ﷺ لمّا سار من العراق إلى الشّام، فصالحه به بنو مَشْجَعَةَ بن التَّيْمِ بن النّمر بن وَبْرَةَ من قضاعة. ياقوت الحَمَويّ، م. س، ج٤، ص٣٦٥.

(٣) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٦.

(٤) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص٨٢.

(٥) الجابية: أصلها في اللُّغة: الحوض الذي يُجبى فيه الماء للإبل، وهي قرية من أعمال دمشق، وفي هذا الموضع خطب عمر بن الخطّاب ﷺ خطبته المشهورة. وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع. ياقوت الحَمَويّ، م. س، ج٢، ص٩١.

(٦) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٢٧.

وأرض «جِلْعادَ»[١] جنوباً. وكان يخترق جانبها الشّرقيّ «جبل الدُّروز»، وهو جبل «بَشّانَ» القديم، وقد ورد اسم «بَشّانَ» أكثر من ستّين مرّة في «الكتاب المقدّس»، فذَكَرَ مُلْكَها، ووَصَفَ جبالها وثيرانها وبلّوطها وخَصْبَ تُربتها[٢].

ووصل الغساسنة إلى تخوم «دمشق»، وسكنوا بلاد «حَوران» وبادية الشّام، ثُمَّ اتَّخذوا «الجابِيَةَ» في «الجَولان» عاصمة لدولتهم التي امتدت بين «دمشقَ» و«تَدْمُرَ»، أو بين «دمشق» و«الرُّصافَة»[٣] على شاطئ «الفرات»[٤].

وكانت سلطتهم تشمل جميع القبائل النّازلة في جنوب سورية والأردنّ وفلسطين، وامتدّت من جهة الجنوب إلى البحر الأحمر (بحر القُلْزُم)، ومن الشّمال إلى ضفّة الفرات، وكانت تَدْمُرُ وضواحيها من جملة البلاد المُذعِنَة لأوامرهم[٥].

وعلى العموم لم تكن حدود مملكة الغساسنة ثابتة، بل كانت تتبدّل وتتغيّر بحسب تبدُّل سلطة الملوك وتَغَيُّرها. وهي عادةٌ تبدو موجودة لدى جميع الممالك والإمارات التي تكَوَّنَت في البادية أو على أطراف البوادي، حيث تكون معرَّضة لغزو القبائل، ولنفوذ القبائل الفتيّة القويّة التي تطمع في مُلك الإمارات التي تجد فيها شيئاً من الوهن والضّعف، وفي رؤسائها دَعَةً أو حَزْماً[٦]. ولهذا

(١) جِلْعاد: كان هذا الاسم قديماً اسم البلاد الجبليّة في فلسطين بين الأردنّ والبادية. المُنجِد في اللّغة والأعلام، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، ط٣٥، ١٩٩٦م، ص٢٠٣.

(٢) الكتاب المقدس: سفر العدد ٢١: ٣٣، ويشوع ١٣: ٣٠، ومزامير داود ٢١: ١٣ و٦٧: ١٦، ونحميا: ٩: ٢٢، إلخ. الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٧.

(٣) الرُّصافة: هي اليوم أطلال مدينة سوريّة في بادية تدمر. وقال عنها الأصمعي: «الزّوراء رصافة هشام وفيها دير عجيب وعليها سور، وليس عندها نهر ولا عين جارية، إنّما شربهم من صهاريج عندهم داخل السور، وربّما فرغت في أثناء الصيف، فلأهل الثروة منهم عبيد وحمير، يمضي أحدهم إلى الفرات العصر فيجيء بالماء في غداة غد، لأنّه يمضي أربعة فراسخ أو ثلاثة ويرجع مثلها». ياقوت الحَمَويّ، م. س، ج٣، ص٤٧. وهي مدينة قديمة ورد خبرها في النّصوص «المِسماريّة»، ومن ذلك نَصٌّ يعود إلى سنة ٨٤٠ قبل الميلاد، وسُمِّيَتِ الرُّصافة في هذه النّصوص بـ «Ra - Sap - Pa». د. جواد عليّ، م. س، ج٥، ص١٣٦.

(٤) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٦.

(٥) منير الذّيب، م. س، ص٥٨.

(٦) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٣٠.

كان مُلك الغساسنة يتوسّع[1] ويتقلّص بحسب الظّروف، وأثناء توسُّعِهم وصل نفوذُهم إلى مقربة من دمشق[2]، وإلى «فلسطين الثّانية»[3] و«الكورَة[4] العربيّة»[5] و«فلسطين الثّالثة» و«فينيقيَةَ لبنان»، وإلى ولايات سورية الشّماليّة في بعض الأحيان[6]، و«الجَولان» و«جبل الثّلج»[7].

ويقول حسّان بن ثابت واصفاً امتداد سلطتهم:

مَـلَـكْـنـا مِـنْ جَـبَـلِ الـثَّـلْـجِ إلـى ... جَـانِـبَـيْ أيْـلَـةَ مِـنْ عَـبْـدٍ وَحُـرّ

أتَـيْـنـا فـارِسَ فـي دِيـارِهِـمْ ... فَـتَـنـاهَـوْا بَـعْـدَ إعْـصـارٍ بِـقُـرّ[8]

---

(١) حينما وصلت دولة «الغساسنة» إلى ذُروة اتّساعها، كانت تمتدّ من قرب «البَتْراءِ» إلى «الرُّصافَةِ» شماليّ «تَدْمُر»، وتشمل «البَلْقاءَ» و«الصَّفا» و«حَرّان»، وأصبحت «بُصْرى» التي بُنيت «كاتدرائيتها» في عام ٥١٢م العاصمة الدّينيّة في المنطقة، فضلاً عن شُهرتها كمركز تجاريّ مهمّ. محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥١٢.

(٢) مثال ذلك: كانت ديارهم، طبقاً لبعض الرّوايات العربيّة، في «اليَرْموكَ» و«الجولانَ» وغيرِهما من «غوطَةِ دمشقَ» وأعمالِها (المناطق التّابعة لها)، ومنهم من نزل الأُردنَّ من أرض الشّام، وامتدّت دولتهم حتّى شملت «الجولان» و«حَوران» و«البلقاء»، وأحياناً «فينيقية (لبنان)»، فضلاً عن أعْرابِ سورية وفلسطين. المصدر نفسه، ص٥٠٧.

(٣) فلسطين الثّانية: هي الأردنّ ضمن التّقسيمات الإداريّة الرّومانيّة. د. جواد عليّ، م. س، ج٥، ص٦٧. وقسمت فلسطين في العصر الروماني إلى ثلاث مناطق: فلسطين الأولى ومركزها قيسارية على شاطئ البحر الأبيض، وتشمل القدس ونابلس وغزة ويافا. وفلسطين الثانية ومركزها بيسان وتشمل طبرية ونهر الأردن الشمالي، وفلسطين الثالثة ومركزها البتراء في صحراء شرق الأردن. د. سلمان أبو سته، حدود فلسطين مدخل إلى الاستعمار، مجلة عالم الفكر، الكويت ـ الكويت، العدد ٤، المجلد ٣٢، ابريل، ويوليو ٢٠٠٤م.

(٤) الكورَة: كل صقع يشتمل على عدّة قرى، ولا بدّ لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك. ياقوت الحموي، م. س، ج١، ص٣٧.

(٥) الكورة العربيّة: من التقسيمات الإداريّة الرّومانيّة، فقد ضُمَّتِ «العربيّة النَّبَطِيَّة» سنة ١٠٥ أو ١٠٦م إلى الأملاك الرّومانيّة، وكُوِّنَ منها، ومن أرَضين أخرى ضُمَّتْ إليها، مقاطعة جديدة عُرفت باسم «الكورة العربيّة»، «Provincia Arabia»، «المقاطعة العربيّة»، وجُعِلَتْ تحت حكم حاكم بلاد الشّأم المدعوّ «كورنليوس بالما A. Cornelius Palma». ولم تكن حدود «الكورة العربيّة»، «المقاطعة العربيّة»، ثابتة، بل كانت تتغير وتتبدّل، وتتقلّص وتتوسّع تبعاً لمراكز الحكام ومنازلهم. د. جواد عليّ، م. س، ج٥، ص٥٧.

(٦) المصدر نفسه، ج٦، ص١٣٠.

(٧) جبل الثّلج: جبل الشّيخ. محمّد كُرْدْ عليّ، م. س، ج٢، ص١٦٨.

(٨) منير الذّيب، م. س، ص٦٨.

ووصلوا أيضاً إلى مساحات شاسعة من البادية إلى المدى الذي يصل إليه سلاحهم[1].

وفي أيّام ضَعفهم كان مُلكُهم يتقلَّص إلى أقلّ من ذلك بكثير، لضَعف الأمير المالِك، ولطمع القبائل فيه، ولاختلافه مع السّلطات الرّوميّة. ويَظهر من شِعر حسّانَ بن ثابتٍ أنّ مُلك «الغساسنة» كان يمتدّ من «حَوران» إلى «خليج العَقَبَة»[2].

ولم يتّخذ «آلِ جَفْنَة» مكاناً محدّداً ليكون عاصمتهم السّياسيّة، فقد كانت في البدء مخيّماً متنقّلاً، ثُمَّ استقرّت بعد ذلك في «الجابِيَة»[3] في منطقة «الجَولان» جنوب غربيّ دمشق، كما كانت في بعض الوقت في «جِلِّق» في جنوب «حوران»، والتي ربّما كانت «الكِسْوَة» الحاليّة، على بعد عشرة أميال جنوبيّ دمشق، وعلى أيّ حال، فليس هناك من دليل على أنّ الغساسنة قد مَلَكوا المدن الكبيرة[4] ومن أهمّ المراكز التي اتُّخِذَتْ كعواصم للغساسنة المراكز التّالية:

١ ـ **الجَوْلان**: ورد ذكر الجَولان في الشِّعر العربيّ، وفيها دُفِنَ بعض الأمراء الغسّانيّين. وكانت من الأراضي التّابعة لولاية «فلسطين الثّانية» في التّقسيم الإداريّ عند الرّوم[5]. وفي الجَولان كانت «الجابِيَة»، وهي قرب «نَوى»، وإليها أشار حسّانُ بن ثابتٍ بقوله:

إنّ خالي خَطيبُ جابِيَةِ الجَولانِ ... عِـنْـدَ الـنُّـعْـمـانِ حيـنَ يَـقـومُ[6]

---

(١) د. جواد علي، م. س، ج٦، ص١٣٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) يقول نولدكة: «نستدلُّ من اتّخاذ «الجولان» قاعدة لمُلك «بَني جَفْنَة»، ومن الأهميّة الخاصّة التي أصبحت لـ «الجابِيَة»، أنّ في سهول «الجولان» كان مركز «الجَفْنِيّينَ» الخاصّ، أو على حَدِّ تعبير «يوحَنّا الأفَسُسِيِّ» حَرْثاً أو معسكراً لأسرة «الحارِثِ بن جَبَلَة. وكلمة «حَرْثاً» أو «معسكراً» التي استعملها «يوحَنّا» تدلُّ صراحةً على أنّ الغساسنة لم يكونوا قد انفصلوا تماماً عن حياة «البداوة»، إذ إنّ معنى الكلمة في «السُّرْيانيَّةِ» هو: «حَظيرَة» أو شيء من هذا القبيل». د. عمر شرف الدّين، الشّعر في ظلال المناذرة والغساسنة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٣٩.

(٤) محمّد بيومي مَهْران، م. س، ص٥٠٧.

(٥) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٣٠.

(٦) منير الذّيب، م. س، ص٥٨.

«واشتهرت «الجابية» بأنّها كانت مقرّ ملوك الغساسنة، ولذلك عُرِفَتْ بـ«جابِيَةِ المُلوك»، وهي عبارةٌ عن قريةٍ يسكنها قومٌ من «الحَضَر»[1]، مع ملحقاتٍ تُحْدِقُ بها يأوي إليها أهل «الوَبَر»[2]، وكان ملوك غسّان في وسطهم كشيوخ القبيلة، يقطنون قصراً ابْتَنوهُ في ظَهرانيهم»[3].

٢ ـ جِلّق: تقع جِلِّقُ على نهر «بَرَدى»[4]. وقد أشار حسّان بن ثابتٍ إلى هذا الموضِع في قوله:

أنْظُرْ خَليلَيَّ ببطنِ جِلِّقَ هَلْ ... تَوَنَّسَ دونَ البَلْقاءِ مِنْ أحَدِ

وقوله أيضاً:

لِلَّهِ دَرُّ عِصابَةٍ نادَمْتُهُمْ ... يَوْماً بِجِلِّقَ في الزَّمانِ الأوَّلِ[5]

٣ ـ الرُّصافَة: يوجد في الرُّصافة مشهد القدّيس «سِرجيوس»، وهو من القدّيسين الجليلين عند الغساسنة، وكانوا يتبرَّكون بزيارة قبره، ويتقرَّبون إليه بالهدايا والنّذور. وكان لـ«آلِ جَفْنَةَ» مساكن فيها، وقد قاموا بإصلاح ما كان يتهدّم منها. فقام «النُّعْمانُ بنُ الحارِثِ» بإصلاح وترميم صهاريج[6] المدينة. وكان «النُّعْمانُ بنُ جَبَلَةَ» فيمَنْ أقام بها.

٤ ـ السُّوَيْداء: تقع السّوَيْداءُ في حَوران، وقد أرجع حمزةُ الأصفهانيّ بناءها إلى «النُّعمانِ بن عَمْرِو بن المُنْذِر»[7].

ومن الأماكن التي كان يعيش بها ملوك الغساسنة أيضاً: «عذراء (عذرا، عدرا)» إلى الشّرق من دمشق، و«مَرْجُ الصَّفَرَيْن (موضع في غوطة دمشق)»، و«البُرَيْصُ» الذي هو فرع من نهر «بَرَدى»، وقصر «دومَةِ الجَنْدَل»، و«البَلْقاء»،

(١) الحَضَر: المدن والقرى والرّيف. المعجم الوجيز، م. س، ص١٥٧ . **والمقصود هنا**: أهل المدن.

(٢) الوَبَر: صوف الإبل والأرانب ونحوها، وأهل الوَبَر هم أهل البادية؛ لأنّهم يتّخذون بيوتهم من الوَبَر. المرجع نفسه، ص٦٥٨.

(٣) د. عمر شرف الدّين، م. س، ص١٣٩.

(٤) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٥.

(٥) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢١٠.

(٦) الصِّهريج: حوض كبير للماء. المعجم الوجيز، م. س، ص٣٧٢ .**والمقصود هنا**: خزّانات مياه المدينة.

(٧) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٣٠.

و«المَحْبَس»، و«السَّنَد»، و«بُصْرى»، و«صِفّين»، و«عَيْنُ أباغ»[1]، و«حارِب[2]»[3]، ومن ديارهم «مَحْنَل»[4].

وهناك مواقع أثريّة تابعة للغساسنة ما زالت غير مدروسة، حيث يوجد خرائب وتُلول كثيرة تتحدّث عن تاريخ مطمور، ففي شمال الأردنّ كُشِفَتْ أعظم الكنائس في «إرْبِدَ» التّابعة لحَوران تاريخيّاً، وكذلك كُشِفَتْ كنائس في «جَرَش» و«عَجْلونَ» و«السَّلْط»، و«مَأْدَبا» التي عُرِضَتْ فيها أعظم فُسَيْفِساءَ في كنائس الشّرق والتي دلّت على خريطة لمواقع فلسطين وسورية المقدّسة، وحُدِّدَتْ فيها نقاط مهمة من نهر الأردن التي فيها غُسِّلَ وعُمِّدَ السَّيِّد «المسيح» عليه السلام على يد النَّبيِّ «يحيى (يوحنّا المَعْمَدان)» عليه السلام، وسُمِّيَ هذا المكان بـ«المَغْطَس» فهو من جهة «حوران» الجنوبيّة. وامتدّت المواقع والقصور إلى بادية «شرق الأردن» لحماية الثُّغور، وهي عبارة عن قصور وقلاع حصينة لحماية الحدود من غارات المعتدين[5].

(١) عين أباغ: ليست بعين ماء، وإنّما هو وادٍ وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشّام. ياقوت الحَمَويّ، م. س، ج٤، ص١٧٥.

(٢) حارِب: موضع من أعمال دمشق بحَوران قرب مرج الصّفّر من ديار قضاعة. المرجع نفسه، ج٢، ص٢٠٤.

(٣) منير الذّيب، م. س، ص٦٧.

(٤) عمر رضا كحّالة، م. س، ج٣، ص٨٨٥.

(٥) منير الذّيب، م. س، ص٧٠.

الفَصْلُ الثّاني

حُكم الغساسنة

الغساسنة حرس حدود الرّوم

كان من عادة قبائل «البدو» الدّخول تحت حماية الدّول الكبرى لِما فُطِرَ عليه أهل «البادية» من التّنازع والتّخاصم. ولهذا كانت كلّ قبيلة تسعى في الانضمام إلى دولة تستنجِدُها أو تلجأ إلى جُنْدِها عند الحاجة، وقد يتسابق بعضهم إلى التَّقرُّب منها للتّفاخُر بخدمتها، كما كان «بنو يَرْبوع» يتفاخَرون برَدافَةِ[1] ملوك «الحيرة»[2]. ومرّت برهة من الدّهر كان فيها الانتماءُ إلى إحدى تلك الدّول كالفرض الواجب، فمَن لا ينتمي إلى إحداها سمّوه «الأحْمَس»[3]، والجمع «حُمْس»، وأشهر «الحُمْسِ» في الجاهليّة «حُمْسُ قُرَيْش»، فكانوا لَقاحاً[4] لا يَدينون للملوك. ويزداد العرب قُرباً وبُعداً من إحدى الإمارتين تبعاً لسَطوة الفرس أو الرّوم، وكانت الغَلَبَة لهما[5].

ولما انحلّت مملكة تَدْمُرَ عهِدت «الإمبراطوريّة الرّومانيّة» إلى أُسَرٍ أخرى بالحكم في تلك الأرجاء، وثبّتت الإمارة في الغساسنة، ودامت فيهم ثلاثة قرون. ودان رؤساء الغسانيّين بـ«النّصرانيّة»، واشتركوا مع الرّوم في حرب فارس من القرن الرّابع إلى القرن السّادس الميلاديّين، وكان أحدهم «الحارث

(١) الرَّدْف: الرّاكب خلف الرّاكب على الدّابّة أو تابِعُه. المعجم الوجيز، م. س، ص٢٦١. **والمقصود هنا:** هو مُرافِقو الملوك وحاشيتهم.
(٢) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١١٤.
(٣) الأحْمَس: حَمِسَ الرّجل حَمَساً: صَلُبَ واشتدّ، فهو «أحْمَس». المعجم الوجيز، م. س، ص١٧١. **والمقصود هنا:** حَمَوْا أنفسَهم بأنفسِهم.
(٤) اللَّقاح: يُقال: «قومٌ لَقاح» و«حَيٌّ لَقاح»: لم يَدينوا للملوك، ولم يُملَكوا، ولم يُصبهم في الجاهليّة أسْر. المرجع نفسه، ص٥٦٢.
(٥) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١١٤.

الخامس» من قُوّام مقام القائد «بليزارْيوس (بليزير)» في حملة «آسية»[1].

ومع الزّمن، أصبح «الغساسنة» أقيالاً[2] وعمّالاً لملوك «البيزنطيّين (الرّومان)» الذين اتَّخذوا من دولة الغساسنة «دولة حاجزة Buffer State» تحجز بينهم وبين دولة المَناذِرَة (اللَّخْمِيّين)[3]، أصحاب الحيرة، المتحالفة مع الفرس، لتكون مِجَنّاً[4] يقيهم شَرَّ هجمات «البدو» عليهم من أطراف الصّحراء من جهة[5]، ويستعينوا بهم على شَرِّ الفرس من جهة أخرى[6].

(١) محمّد كُرْدْ عَليّ، م. س، ج١، ص٦٦.
(٢) القَيْل: حاكمٌ من ملوك اليمن في الجاهليّة دون «الملك الأعظم». المعجم الوجيز، م. س، ص٥٢٠. **والمقصود:** رتبة من رتب الحكم.
(٣) كان اللَّخْمِيّونَ عُمّال الفرس على أطراف العراق، كما كان الغساسنة عُمّال الرّوم على مشارف الشّام. وتُسمّى هذه الدّولة: دولة آل نَصر، وآل لَخْم، وآل عَمْرِو بن عَدِيّ، أو ملوك الحيرة، أو المَناذِرَةِ على السّواء. وتاريخ هذه الدّولة أوضح من تاريخ آل غسّان؛ لأنّه كان مُدَوَّناً في كتب الحيرة ومُثْبَتاً في كنائسهم. وكانت الحيرة على ثلاثة أميال من مكان «الكوفة» في موضع يقال له: «النَّجَف»، على ضفّة الفرات الغربيَّة، في حدود البادية، بينها وبين العراق، وتقع الآن في الجنوب الشّرقيّ من «مشهد عليّ». وبعض المؤرِّخين يذهب إلى أنّ لفظها «سُرْيانِيّ»، وبعضهم الآخر يذهب إلى أنّه «عربيّ». محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٢٢.
وقد أقامت إمارَةَ اللَّخْمِيّينَ مجموعة من القبائل من «بني تَنوخ» الذين استقرّوا في المنطقة المتاخمة للضَّفَّةِ الغربيّةِ للفرات في أوائل القرن الثّالث الميلاديّ، وهو الوقت ذاته الذي استقرّ فيه الغساسنة في بادية الشّام، وكان «التَّنوخِيّونَ» يشكّلون عدداً من قبائل مجموعة أكبر، هي مجموعة قبائل «اللَّخْمِيّينَ» الذين ربّما كانوا يشكّلون هجرة يَمَنِيَّةً إلى المنطقة، وربّما كانوا يشكّلون مجرّد تسرّب بطيء من قبائل البادية إليها. وقد أقام التَّنوخِيّونَ مقرّاً لهم في الموقع الذي عُرف بعد ذلك باسم «الحيرة»، على مقربة من «بابِل»، على مسافة كيلومترات قليلة جنوبيّ «الكوفة». ونحو أواخر القرن ذاته، أسَّس أحد التّنوخيّين، وهو عَمْرو بن عَدِيٍّ بن نصر بن ربيعة بن لَخْم، إمارة في المنطقة وضعت نفسها في خدمة الإمبراطوريَّة الفارسيّة. وقد ظهر هذا واضحاً في اشتراك «المُنْذِرِ الأوّل» إلى جانب السّاسانيّين (الفرس) في حربهم ضدّ البيزنطيّين ابتداءً من عام ٤٢١م، وفي قيام «المُنْذِرِ الثّالث» حوالي (٥٠٥ ـ ٥٥٤م) بغارات على سورية خرّبت أراضي المنطقة حتّى «أنطاكْيَة» إلى أن تصدّى له الحارِثُ الغَسّانيّ. لطفي عبد الوهّاب، العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة ـ مصر، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص٣٥١.
(٤) المِجَنّ: التُّرْس. المعجم الوجيز، م. س، ص١٢٢.
(٥) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٢٨.
(٦) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٤. وانظر أيضاً: محمّد كُرْدْ عَليّ، م. س، ج١، ص٦٦. وانظر كذلك: عمر رضا كحّالة، م. س، ج٣، ص٨٨٤.

وكانت دولة الغساسنة تقع تقريباً في الأطراف الجنوبيّة من «الصّحراء الشّاميّة»، ممّا كان يُطلق عليه «بلاد العرب الصَّخْريَّة»، و«بلاد العرب الصَّحْراوِيَّة»، بعيداً عن «الشّمال»، أو «الشّام (سورية)»، وتأسّياً على ذلك بعيداً عن «الشّمال البعيد» في «القُسْطَنْطينِيَّة» قاعدة «الأباطِرَةِ البيزَنْطِيّين»[١].

وكانت عاصمة الغسّانيّين «الجابِيَة»، وامتدّ سلطانهم إلى تدمر فالفرات شمالاً وإلى الأردنّ جنوباً[٢].

وعندما غلب الغساسنة «الضّجاعِمة» وتفرّدوا بمُلْكِ الشّام، كان الصّراع قائماً بين الرّوم والفرس، فخاف ملك الرّوم أن يُعينوا عليه الفرس، فكتب إليهم واستدعاهم، ورئيسهم يومئذٍ «ثعلبةُ بن عَمْرو» أخو «جِذْع بن عَمْرو»، وكتبوا بينهم الكتاب على أنّه إن دَهَمَ الغساسنةَ أمرٌ من العرب أَمَدَّهُمُ الرّومُ بأربعين ألف مقاتل، وإن دَهَمَ الرّومَ أمرٌ من الفرس أَمَدَّهُمُ الغساسنةُ بعشرين ألف مقاتل[٣].

وكان المناذرة يجمعون الضّرائب من القبائل العربيّة القريبة منهم ويقدّمونها للفرس، كما كان الغساسنة يجمعون مثل هذه الضّرائب ويقدّمونها للرّوم[٤].

مَهَمَّةُ حِفظ الحدود

لم تكن مَهَمَّةُ حِفظ الحدود مَهَمَّةً سهلةً هيِّنة، حتّى على أهل البادية أنفسهم، فمنطق القبائل يقول: «إنّ القبيلة إذا كانت قويَّةً ذات بأس، وشعرت بقوّتها، جاز لها أن تطلب لنفسها ما تشاء، وأن تغزو مَن تشاء، كائناً مَن كان. وكان يحدث أحياناً أن يُصبح مَن توكَلُ إليه حراسة الحدود هو نفسه هدفاً للغزو؛ لأنّه لم يُطْعِمِ «الغازين»، ولم يقدّم لهم ما يُرضيهم من تَرْضِياتٍ وأُعْطِيات، أو لأنّ «الغازين» رأوا في قرارة أنفسهم أنّهم أَحَقُّ بحماية الحدود من الذين يقومون بحمايتها، ولهذا يَرَوْنَ وجوب انتزاعها منهم بالقوّة، كما انتزعها هؤلاء القائمون بالحماية مِمَّنْ سَلَفَهُم. وفي الحالات التي كان

(١) د. عمر شرف الدّين، م. س، ص١٣٧.

(٢) نشوان بن سعيد الحِمْيَرِيّ اليَمَنِيّ، م. س، ج٢، ص١١٢٠.

(٣) منير الذّيب، م. س، ص٥٨.

(٤) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٤.

«الغازون» ينتصرون فيها على «الحاكمين»، لم يَكُنْ أمام «الدّول الكبرى» غيرَ التّسليم بالأمر الواقع، ودَفْعَ «الجَعالات»[١]، التي كانوا يدفعونها إلى «الحرس القديم»، أن يدفعونها إلى «الحرس الجُدد» الذين أظهروا قُوَّةً فاقت قُوَّةَ «القدماء» في ميدان التّنافس والقتال؛ لأنّ كلّ ما يهمُّ الدّول الكبرى في مثل هذه المواقف هو فقط حماية الحدود بغضِّ النّظر عن مَن يحميها.

ومع رغبة الدّول الكبرى في التّعامل جَهْدَ الإمكان مع أصحابهم القدماء الذين اطمأنّوا إليهم فأوكلوا لهم حراسة حدودهم، فإنّهم كانوا، إذا ما شعروا بسوء نيّة أولئك الحرس، أو طمعِهم، أو إلحافِهم في زيادة الجَعالات، أو بضَعْفٍ أو تَهاوُنٍ في الدّفاع عن الحدود وإنزال القِصاص بـ«المُغيرين»، يهدِّدون ذلك الحرس بنزع وظيفة «الحراسة» منهم وتسليمها إلى خصومهم ومنافسيهم. وفي الحالات الشّاذّة كانوا يوكِلون الحراسة إلى قُوّادِهِمُ الأشدّاء لتَعقُّب المُغيرين، وإنزال ضربات شديدة بهم، إلى أن يتَّفِقوا مع «حارس جديد»، أو أن يتَّفق أهل «الحارس القديم» على اختيار شخص جديد، كما في حالات وفاة أحد رؤساء «آلِ نَصْرٍ» أو «آلِ غَسّان».

وليس من الصّعب بالطّبع على «حُماةِ الحدود» إدراك الأدوار الخطيرة التي يقومون بها، والخدمات الكبيرة التي كانوا يؤدّونها، للدّولة التي يتولّون حماية حدودها وضبطها من غارات «الأعراب» عليها. ولهذا صاروا يتحيَّنون الفرص السّانحة، والظّروف المواتية، لإرغام الدّولة التي يحمونها على رفع جَعالاتِهم، وزيادة امتيازاتهم، وإلّا أضرَبوا عن الحراسة، وأثاروا الأعراب عليهم، وهاجموا هم أنفسهم تلك الحدود حتّى تُجاب مطالبهم أو يُسْتَرْضَوْا، وعندئذٍ يقبَلون بالعودة إلى عملهم. وفي تواريخ المناذرة والغساسنة أمثلة عديدة من أمثلة خروج أمراء هاتين الحكومتين على السّاسانيّين والبيزنطيّين، لعدم تلبية مطالبهم في زيادة الجعالات، وفي الحصول على امتيازات جديدة تزيد على امتيازاتهم السّابقة الممنوحة لهم.

وكان من نتائج العداء الموروث بين السّاسانيّين والبيزنطيّين أن انتقلت عدواه إلى العرب أيضاً، فصار أُناسٌ منهم مع الفرس، وآخرون مع الرّوم،

(١) الجَعالَة: ما يُجْعَلُ على العمل من أجْر. المعجم الوجيز، م. س، ص١٠٨.

وبين «العَرَبَيْنِ» عداوة وبغضاء، مع أنّهما من جنس واحد وكِلاهُما غريبٌ عن السّاسانيّين والبيزنطيّين. وقد تَجسَّمَت هذه العداوة في غزو «عرب الحيرة» للغساسنة، وفي غزو الغساسنة لأهل الحيرة، حتّى في الأيّام التي لم يكن فيها قتال بين الفرس والرّوم، ممّا أدّى أحياناً إلى تكدير صَفْوِ السِّلْم الذي كان بين السّاسانيّين والبيزنطيّين. وتَجسَّمَت أيضاً في شِعْرِ «المدح» و«الهجاء» في حَقِّ «آلِ نَصْرٍ» أو «آلِ لَخْمٍ»، من الشُّعراء الذين وجدوا في هذه البغضاء مُتَّسَعاً لهم ومَفْرَجاً في الرِّزْق، فصار بعضهم يُساوِم في أجور «المدح» وفي أجور «الذَّم».

وقد انتهت حدود «الأرْضين» التي خضعت لحكم البيزنطيّين أو سلطانهم عند حدود «المقاطعة العربيّة الجنوبيّة»، فلم تتجاوزها إلى ظهور الإسلام، أمّا فيما عدا ذلك من جزيرة العرب، فلم يكن للبيزنطيّين سلطان سياسيّ أو تَدَخُّلٌ فِعْلِيّ. ولهذا اقْتَصَرَتْ فَعالِيّاتُهم السِّياسيَّة والعسكريَّة مع العرب على العرب النّازلين في «الأرْضين» التي خضعت لحُكمهم ولسلطانهم، وعلى «عرب بادية الشّام» و«عرب العراق»»[1].

وقد قام الغساسنة، على أطراف «جنوب الشّام» امتداداً حتّى منطقة «الجولان» جنوبيّ دمشق، بتكوين «دولة حاجِزَة ووسيطة» على أطراف «بادية الشّام» تَدينُ بالولاء لدولة الرّوم البيزنطيّة وتنتفع منها وتعمل باسمها، فيما قام اللَّخْمِيّونَ المَناذِرَةُ بمثل هذا الدّور على أطراف العراق لصالح الفرس. وكان الغساسنة أحْدَثَ عهداً من المناذرة بنحو قرنَيْن من الزّمان، كما كان أتباعهم أقلّ استقراراً في حواضِرِهم من أهل الحيرة، وربّما كانوا أقلَّ ثراءً وبذخاً أيضاً من المناذرة. وأخذ «النّصارى» منهم بـ«المذهب المونوفيزي اليَعْقوبِيِّ»[2] دون

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٤، ص٢٨٣.

(٢) المذهب المونوفيزي اليَعْقوبِيّ: Monophysites، مذهب نصرانيّ ظهر في القرن الخامس الميلادي، وكلمة مونوفيزية، في الأصل اليوناني، تعني عقيدة الطبيعة الواحدة. وهذه الفكرة نشرها أوتيخوس في القسطنطينية في منتصف القرن الخامس الميلادي. وفي تعليم هذا الراهب أن اتحاد الكلمة الأزلي مع الحقيقة الإنسانية في المسيح عليه السلام أعطى طبيعة واحدة فيه؛ أي: أن إنسانية المسيح قد ذابت في ألوهيته كما تذوب نقطة العسل في الأوقيانوس.
وأدان المجمع الخلقيدوني، المنعقد سنة ٤٥١م، هذه العقيدة مؤكداً على الطبيعتين في المسيح عليه السلام. وانتشرت المونوفيزية في كنائس الشرق الأوسط وخاصة لدى الأقباط في مصر والحبشة، ولدى اليعاقبة في سورية والعراق ولدى الأرمن. موسوعة الأديان (الميسرة)، =

«المذهب النِّسْطورِيّ»[1] الذي أخذ به أغلب «نصارى الحيرة»[2].

مدّة حكم الغساسنة

إنّ تاريخ دولة الغساسنة غامضٌ لقلَّة المصادر، ولامتزاج الحقائق فيه بالأساطير، ولضياع معظم آثار «بني غسّان»، ومن ثَمَّ فلا تَتَّفِق المصادر «العربيّة» مع المصادر «اليونانيّة» حول تاريخهم إلّا في النَّزْرِ اليسير[3].

كما أنّ هناك غموضاً محيطاً بتاريخ سِني حكم ملوك الغساسنة وترتيب تَوَلّيهم المملكة. فقد اختلف المؤرِّخون في عدد ملوك هذه الدّولة وفي مدّة حكمها، فذكر «حمزة الأصفهانيّ» أنّ ملوك غسّان كانوا اثنين وثلاثين مِلِكاً، ملَكوا ستمائة وست عشرة عاماً، وذكر «أبو الفداء» أنّهم كانوا ثلاثين مِلِكاً، بينما يرى كلٌّ من «المسعوديّ» و«ابن قُتَيْبَة» أنّهم كانوا أحد عشر مِلِكاً فقط[4]، وأما المستشرق «نولدكة» فالرّأي عنده أنّ عددهم لا يتجاوز العشرة، وأنّهم حكموا في الفترة ٥٠٠ ـ ٦٣٥م، بل إنّ المستشرق «هِرشْفِلْد» يحدِّدهم بسبعة فقط، ويرى «جرجي زيدان» أنّهم سبعة عشر، وأنّهم حكموا في الفترة ٢٢٠ ـ ٦٣٣م[5].

= دار النفائس، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، كتبه للموسوعة هنري كريمونا، ص٤٧٢.

(١) «المذهب النِّسْطورِيّ»: نسبة لـ «نسطور (٣٨٠ ـ ٤٥١م)» بطريرك القسطنطينية، وكان نسطور يقول: إن في المسيح عليه السلام شخصين، وهما: الشخص الإلٰهي والشخص الإنساني، عكس ما تعلِّمه الكنيسة من أن المسيح عليه السلام هو شخص واحد في طبيعتين إلهية وإنسانية.
وأدان مجمع أفسس المنعقد سنة ٤٣١م النسطورية واعتبرها خارجة عن الإيمان القويم. وقد اعتنقت بلاد الفرس النسطورية، بعد إدانتها بحوالي خمسين عاماً، فدعيت الكنيسة النسطورية. وما لبثت أن امتدت في القرون الوسطى إلى بلاد ما بين النهرين والهند وحتى الصين دون أن تجد لها سنداً رسمياً طوال تاريخها. وتتواجد حاليّاً الكنيسة النسطورية في العراق وفي إيران. كتبه لموسوعة الأديان (الميسرة)، م. س، هنري كريمونا، ص٤٧٤ ـ ٤٧٥.

(٢) عبد العزيز صالح، تاريخ شبه الجزيرة العربيّة في عصورها القديمة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ـ مصر، د. ت.، ص١٥٨.

(٣) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٤.

(٤) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٢٨. وانظر أيضاً: د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٢١.

(٥) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٤.

وقيل: استقرّ مُلك الغساسنة ٤٠٠ سنة ونيِّف[١]. وقيل: قامت دولة الغساسنة في بادية الشّام، واستمرّت فترة طويلة تتراوح بين أربعمائة وستّمائة عام[٢]. وقيل: أقام الغسّانيّون في بلادهم الجديدة ببادية الشّام وبلاد حَوران منذ أوائل القرن الثّاني للميلاد[٣]. وقيل: كان حكمهم قد بدأ منذ القرن الثّالث الميلاديّ حتّى «الفتوحات الإسلاميّة»، غير أنّ بعض الباحثين يدَّعون أنّ سيادتهم بدأت منذ القرن الأوّل الميلاديّ، ولعلّ هذا الاختلاف يرجع إلى أنّ سَدَّ مَأْرِبَ لم يتصدَّع دفعة واحدة، ممّا قد يكون سبَب هجرات متتالية للغساسنة سبَّبت مثل هذا الاختلاف[٤].

ومن أسباب هذا الاختلاف أيضاً:

١ ـ اختلاط أخبار «آل غسّان» بأخبار «القبائل العربيّة» التي سبقتهم إلى سورية، ودانت بـ«النّصرانيّة»، وخضعت لحكم «الرّوم».

٢ ـ اقتصار مؤرِّخي العرب على النّاحية الأدبيّة من تاريخ الغساسنة، وإهمال تاريخهم السِّياسيّ، بالطّريقة التي أهملوا بها تاريخ «اليونان» و«الرّوم».

وتمّ الاعتماد في هذه النّاحية على قصائد الشُّعراء، فلِعَدَدٍ من شعراء الجاهليّة أشعارٌ في مدح «آلِ جَفْنَة» أو ذَمِّهم، ولهم معهم ذكرياتٌ حُفِظَتْ بفضل هذا الشِّعر الذي يرويه الرُّواة ويروون المناسبات التي قيل فيها، فلولاه ضاع أيضاً هذا القليل المعروف من أخبار الغساسنة[٥].

٣ ـ التَّشابه في الأسماء بين «حارثٍ» و«مُنْذِرٍ» و«نُعْمان»، واختلاط ذلك أيضاً بالتَّشابه والتَّقارب مع أسماء ملوك المناذرة[٦].

ويرى المستشرِق «نولدكة» أنّ «الكَتَبَةَ (المُؤرِّخينَ)» الأقدمين؛ كـ«الطَّبَرِيِّ» وغيرِه، كانوا يجهلون هذه الأسرة جهلاً يكاد يكون تامّاً، إذ هم لا يحدِّدون

(١) رزق الله يوسف شيخو، مَجاني الأدب في حدائق العرب، م. س، ج٣، ص٣١٣.
(٢) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٤.
(٣) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٢٠.
(٤) منير الذّيب، م. س، ص٥٨.
(٥) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٣٣.
(٦) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٥.

زمانها، فلم تكن لهم معرفة واضحة بغير أفراد قلائل من «بني جَفْنَة»، وكانوا يجهلون تاريخ حكم كلٍّ منهم وطولَ مدَّته.

كما استغرَب «نولدكة» أنَّ ما لم يُقدِم عليه «ابن الكَلْبِيّ»[١]، أقدم المؤرِّخين العرب، وأبوه، رغم قرب عهدِهِما ببني جفنةَ وحِفْظِهِما أخباراً حَريَّةً بالاعتبار عن تاريخ ملوك الحيرة، قد أقدَم عليه «الكَتَبَةُ (المُؤَرِّخونَ)» المتأخِّرون. فقد كان يميل إلى الظَّنِّ بأنَّ حمزة الأصفهانيّ، الذي كَتب عام ٩٦١م، هو أوّل من نَظَّمَ اللّائحة العظيمة لـ«أمراء غسّان» التي تشتمل على اثنين وثلاثين أميراً مَلَكوا جميعهم ستّمائة عام وعام. لكنَّه عثر في «العِقْدِ الفَريدِ» لـ«ابن عبد رَبِّه»، الذي وُضع قبل تاريخ حمزة الأصفهانيّ بخمسةٍ وعشرين عاماً، على رواية شبيهة برواية حمزة الأصفهانيّ تماماً، تفيد بأنَّ سبعةً وثلاثين ملِكاً من ملوك غسّان حكَموا في سورية مدَّة ستّمائة وستَّ عشرة عاماً إلى أن جاء الإسلام.

ورجَّح نولدكة أنَّ هذا الأديب الظَّريف، ابن عبد رَبِّه، لم يختلِق هذه اللّائحة، بل وجدَها عند أحد الكَتَبَةِ السّابقين.

أمّا الاختلاف في مدَّة «إمارة بني جفنة»، بين أن تكون ٦٠١ أو ٦١٦ عاماً، فسببه، برأي نولدكة، أنَّ الكاتبَ (المؤرِّخَ) الأوَّل أضاف إلى الـ ٦٠١ عاماً، التي ظَنَّ خطأً أنَّها تمتدُّ إلى عام الهجرة فقط، خمس عشرة عاماً أخرى من بعد الهجرة إلى فتح الشّام، ولهذا رجَّح أنَّ العدد ٦٠١ هو الأقدَم.

وأشار نولدكة أيضاً إلى أنَّه لم يستطع التَّوفيق بين عدد الملوك في الرِّوايتين: اثنين وثلاثين عند حمزة الأصفهاني، وسبعة وثلاثين عند ابن عبد رَبِّه. ورجَّح أن يكون أحد الكَتَبَةِ قد أخذ من غير هذه المصادر خمسة

(١) ابن الكَلْبِيّ: هشام بن محمد بن السائب الكلبي: (ت٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها، ومن أشهر النسابين على الإطلاق وأكثر المؤلفين الأوائل عدد كتب وتنوع موضوعات. وقسم ابن النديم موضوعات كتب ابن الكلبي إلى تسعة موضوعات، هي: أولاً: كتبه في الأحلاف. ثانياً: كتبه في المآثر والبيوتات والمنافرات والموءودات. ثالثاً: كتبه في أخبار الأوائل. رابعاً: كتبه فيما يقارب الإسلام من أخبار الجاهلية. خامساً: كتبه في أخبار الإسلام. سادساً: كتبه في أخبار البلدان. سابعاً: كتبه في أخبار الشعر ومآثر العرب. ثامناً: كتبه في الأخبار والأسماء. تاسعاً: كتبه في الأنساب وتشمل قسمين: قسماً في أنساب اليمن، وقسماً في أنساب العدنانية. مصطفى الشكعة، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط١٥، ٢٠٠٤م، ص٩٧ ـ ٩٩.

أسماء أخرى وأضافها إلى أسماء اللّائحة الأولى؛ كاسم «الأعرج» مثلاً الذي لم يذكره حمزة الأصفهانيّ.

واعتبر نولدكة أنَّ الأساس الذي بُنِيَ عليه جدول «أمراء آلِ جفنة»، وهو مدّة حكم الأسرة، واهٍ جداً، وأنَّ فيه نقائصَ مهمة ومناقضاتٍ داخليَّة. ومثال ذلك: حَكَمَ ستَّةَ إخوة، الحُكّام: ٧ ـ ١٢، مدة ٩٤ عاماً وثمانية أشهر. ومثال آخر: إنَّ النّابغة يَذكُر أنْعامَ «أبي الأمير الخامس عشر» عليه، ويَرثي «الأمير السّادس والعشرين»، ويُنشِد بعض أشعارٍ في حوادث وقعت في مدّة حكم «الأمير السابع والعشرين»، وكلُّ ذلك يستغرق ما يزيد على ٢٥٠ عاماً.

أما أن الأسماء في اللائحة لا تعني عُمالاً متعاصرين، فهذا واضح من مجموع عدد الأعوام البالغ ٦٠١. وأنَّ هذا العدد، الذي وُضع عمداً بدلاً من ٦٠٠، ليس إلّا نتيجةَ محاولة ترمي إلى جعل حُكم أمراء بني غسّان مساوياً في القِدَم لحُكم خصمائهم أمراء الحيرة، الذين أيضاً بالَغ الكَتَبَةُ كثيراً في تقدير مدَّة حُكمهم.

ونشأ من هذا الأمر، في اعتبار نولدكة، ذلك التَّقدير التّاريخيّ، المبنيّ على أساس ضئيل، الذي يُرجع حُكم «أمراء بني جفنة» الأوّلين إلى أيّام خراب «أورشَليم (القدس)»، أو إلى أوائل عهد «النَّصرانيَّة». وذلك التَّقدير التّاريخيّ، شبيهٌ، في نظره، بما يقوله «ابن خَلِّكانَ» من أنَّ «تيتوس»، هادِمُ «أورشَليم»، هو الذي عيَّن أوَّل أمير عربيّ من بني سَليح. ولهذا اعتبر أنَّ العدد ٦٠١ يُقسَم إلى ثلاثة أقسام متساوية تقريباً على هذه الصّورة: الأمراء «١ ـ ١٢» وقد حكَموا ٢٠١ عاماً وأحد عشر شهراً، والأمراء «١٣ ـ ٢٢» وقد حكموا ١٩٩ عاماً وتسعة أشهر، والأمراء «٢٣ ـ ٣٢» ومدتهم ١٨٤ عاماً وأربعة أشهر، وأنَّه إذا تمّت إضافة الخمس عشرة سنة التي وقعت بين الهجرة والفتح الإسلاميّ إلى المدَّة الأخيرة، أصبحت هذه المدَّة ١٩٩ عاماً وأربعة أشهر، وكان مجموع مدَّة الحكم كلّها ٦٠١ عاماً. ورأى نولدكة أنّ في هذا كلّه من التَّكَلُّف والتَّطبيق ما لا يحتاج إلى دليل، ولهذا يجب عدم الاهتمام بما ورد مثلاً في أوّل الجدول من أنّ «جفنة»، جَدُّ هذه الأسرة، حَكم مدَّة خمسة وأربعين عاماً وثلاثة أشهر.

كما رأى أنّه يُحتمل أن تكون بعض تلك الأعداد، التي يتألَّف منها مجموع الأعوام، صحيحةً وموثوقاً بها، إلّا أنّه لا سبيل لمعرفة ذلك الآن، وجُلُّ ما يمكن قوله هو افتراض ذلك لا غير[1].

مؤسِّس دولة الغساسنة

اختلف المؤرِّخون في مَن كان مؤسِّس دولة الغساسنة، «جفنة» أم «الحارث» أم غيرُهما.

فأوّل أمراء غسّان، وَفْقاً لحمزة الأصفهانيّ، هو «جَفْنَةُ بنُ عَمْرٍو (مَزَيْقِياء)». ويذكر حمزة الأصفهانيّ بأنّ «جفنة» هذا مَلَكَ في أيام «نِسْطوريوس (نِسطورُس)» الذي مَلَّكَهُ على عرب الشّام. فلمّا مَلَكَ «جفنةُ» قَتَلَ ملوك قُضاعَةَ من «سَليح» الذين يُدْعَوْنَ «الضَّجاعِمَةَ»، ودانت له قُضاعَة، ومَن بالشّام من الرّوم، وبنى «جِلِّقَ» و«القرية» و«عدَّة مصانع». وأورد «اليعقوبيّ» هذا الخبر مع تغيير بسيط، هو أنَّه بَدَّلَ «نِسْطوريوسَ» بـ«نوشَر»، والمقصود بـ«نِسْطوريوسَ» أو «نوشَرَ» الإمبراطور الرّومانيّ «أنستاسيوس (٤٩١ ـ ٥١٨م)».

ولكن المَسْعوديَّ وابن قُتَيْبَةَ يُخالفان حمزة الأصفهانيَّ واليَعْقوبيَّ في اسم أوَّل من مَلَكَ من الغساسنة، فيذْكُران أنَّ أوّل مَن تَولّى مُلْكَ الغساسنة هو «الحارِثُ بن عَمْرو بن عامِر»[2].

فقد ذكر المسعوديُّ أنَّ أوّل مَن مَلَكَ من بني غسّان بـ«الشَّأمِ (الشّام)» «الحارِثُ بن عَمْرو بن عامِرِ بن حارِثَةَ بن امْرِئِ القَيْسِ بن ثَعْلَبَةَ بن مازِنِ بن غَسّانَ بن الأزْدِ بن الغَوْث»، ومن بعدِه «الحارِثُ بن ثَعْلَبَةَ بن جَفْنَةَ بن عَمْرو بن عامِرِ بن حارِثَة»، وهو «ابن مارِيَة»[3].

وقد ذكر «ابن دُرَيْد» أن «الحارِثَ بن عَمْرِو بن عامرٍ» لُقِّبَ بـ«مُحرِّق»؛ لأنّه كان أوّلَ مَن عَذَّبَ وحَرَّقَ النّاس بالنّار.

و«جفنة» الذي صَيَّرَهُ حمزة الأصفهانيّ أوّلَ مَن مَلَكَ من غسّان، هو «جفنة بن عَمْرو»، وهو «مَزَيْقِيا بن عامرٍ (ماءُ السّماء)». وقد نَجَلَ (وَلَدَ)

(١) ثيودور نولدكة، م. س، ص٦٢ ـ ٦٣.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٨.
(٣) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص٨٩.

عَمْرو بن عامر، على رواية «ابن خَلْدون»، جملة أولاد، منهم: جَفْنَة، والحارِثُ وهو «مُحَرِّق»، وثَعْلَبَةُ وهو «العَنْقاء (العنقاه)»، وحارِثَة، وأبو حارثة، ومالِك، وكَعْب، ووادِعَة، وعَوْف، وذُهْل، و«واكِل». فيكون جفنة على هذه الرّواية أخاً للحارِثِ بن عَمْرٍو الذي عَدَّهُ المسعوديُّ وابن قُتَيْبَةَ أوَّل مَن تَمَلَّكَ من الغساسنة في ديار «الشّأم». ويُطلِق العرب على ملوك الغساسنة من «بني جفنة» اسم «ملوك الشّام».

وذهب «محمّد بن حبيب» إلى أنَّ أوّل مَن مَلَكَ من الغساسنة بالشَّأْم هو «ثَعْلَبَةُ بن عَمْرِو بن المُجالِدِ بن عَمْرِو بن عَدِيٍّ بن عَمْرِو بن مازِنِ بن الأَزْد»، وذلك بعد فتك «جِذْع» بالضَّجاعِمَة. فعَهد إليه مَلِكُ الرّوم «ديقْيوسَ»[1] أمر تَوَلّي رئاسة «عرب بلاد الشَّأْم»، ومَلَّكَهُ وتَوَّجه، فصار بذلك أوّل مَلِكٍ من ملوك غسّان[2].

ويذكر حمزة الأصفهانيّ أنّه تَوَلّى بعد جفنة ابنه «عَمْرو بن جفنة» الذي أقام عدداً من الأدْيِرَة في الشام، منها: دَيْرُ حالي، ودير أيّوب، ودير هند. ثمّ تَوَلّى بعد عَمْرٍو ابنه «ثَعْلَبَةُ» الذي يُنسب إليه بناء «عَقَّةَ» و«صَرْحُ الغَديرِ» في أطراف حَوْرانَ ممّا يلي البَلْقاء، وخَلَفَهُ ابنه «الحارِثُ» المعروف بـ«الحارِثِ الجَفْنِيّ»[3].

أمّا ابن قُتَيْبَةَ، الذي جعل الحارِثَ بن عَمْرٍو (مُحَرِّق) أوَّل ملوك آلِ غسّان، فقد وضع «الحارِثَ بن أبي شَمِرٍ» من بعده. وقال: «إنَّه «الحارِثُ الأعْرَجُ بن الحارِثِ الأكبر»، وأمُّهُ «مارِيَةُ ذاتُ القِرْطَيْن»، وكان خيرَ ملوكهم، وأيْمَنَهُمْ طائراً، وأبْعَدَهُم مَغاراً. وكان غزا «خيبرَ» فسَبى من أهلها، ثم أعْتَقَهُمْ بعد ما قَدِمَ الشّأْم. وكان سار إليه «المنذر بن ماءِ السّماء» في مائة ألف، فوجّه إليهم مائة رجل، فيهم «لَبيدٌ» الشّاعر وهو غلام، وأظهَر أنَّه إنَّما بعث بهم

(١) ديقيوس: إمبراطور بيزنطي عاش في القرن الثالث للميلاد. الزركلي، م. س، ج٢، ص٩٩. كانت مدّة ملكه ستين سنة. وأمعن فى قتل النصارى، ومنه هرب أصحاب الكهف. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٢٣هـ، ج١٥، ص٢٦٥.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص٩٠.

(٣) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٨.

لمصالحته، فأحاطوا برُواقِهِ فقتلوه، وقتلوا من معه من الرُّواق، وركبوا خيلهم، فنجا بعضهم وقُتل بعض، وحمَلَت خيل الغسّانيّين على عسكر المنذر فهزموهم. وكانت له بنت يُقال لها «حليمة»، كانت تُطَيِّبُ أولئك الفتيان يومئذٍ وتُلْبِسُهُمُ الأكفان والدُّروع، وفيها جرى المَثَل: «ما يَوْمُ حَليمَةَ بِسِرّ». وكان فيمَن أُسِرَ يومئذٍ أُسارى من «بني أسد»، فأتاه النّابغة فسأله إطلاقهم، فأطلَقَهم. وأتاه «عَلْقَمَةُ بن عَبْدَةَ» في أُسارى من «بني تَميم»، فأطلَقَهم إكراماً لشأنه. وفي جملة مَن أطلَق حرِّيَّتهم «شَأْسُ بن عَبْدَةَ» شقيق «عَلْقَمَة».

وروى ابن قُتَيْبَةَ أيضاً أنّ عَلْقَمَةَ بن عَبْدَةَ قال في الحارِثِ بن أبي شَمِرٍ قصيدة مطلعها:

إلى الحارِثِ الوَهّابِ أعْلَمْتُ ناقتي ... بكَلْكَلِها، والقَصْرَيْنِ وجَبيبُ
وفي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتُ بِنِعْمَةٍ ... فَحَقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَداكَ ذَنوبُ

فقال «الحارث»: «نعم، وأذْنِبَة».

وجعل محمّد بن حبيب، ثَعْلَبَةَ أوّل مَن مَلَكَ من الغساسنة، الحُكم لـ«الحارِثِ بن ثَعْلَبَةَ» من بعده، ثُمَّ لابنه «جَبَلَةَ بن الحارِثِ بن ثَعْلَبَة»، ثُمَّ لابنه «الحارِث»، وهو «ابن مارِيَةَ ذاتِ القِرْطَيْن»، ثُمَّ لـ«النُّعْمانِ بن الحارِث»، ثُمَّ لـ«المُنْذِرِ بن الحارِث»، ثُمَّ لـ«المُنَيْذِرِ بن الحارِث»، ثُمَّ لـ«جَبَلَةَ بن الحارِث»[1].

وإذا كان أوَّل مَن مَلك من أمراء غسّان موضع خلاف عند الأخبارِيّين، فإنَّ أوَّل مَن يوثَقُ في صحَّة إمارته منهم، برأي أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، هو «جَبَلَةُ بن الحارِثِ بن ثَعْلَبَةَ» الذي ذكَره «ثيوفانيس»[2] تحت اسم «جَبَلَس Jabalac»، وذكَر أنَّه غزا فلسطين فيما يَقرُب من عام ٥٠٠م، وقد نَسب إليه حمزة الأصفهانيُّ بناءَ «القَناطِر» و«أذرح» و«القَسْطَل»[3].

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص٩١.

(٢) ثيوفانيس: ثيوفانِس، مؤرِّخ بيزنطيّ، ألَّف ثيوفانيس في الإسكندريّة (حوالي ٨١٤م) وليو الشّماس المولود في عام (٩٥٠م) تاريخَين قيِّمَين لأيّامهما والأيّام القريبة منها. وِلْ دْيورانْت (ويليام جَيْمْسْ دْيورَانْت)، قصّة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، تونس ـ تونس، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج١٤، ص١٨٢.

(٣) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٨.

ومع هذه الاختلافات، فقد أجمعَت «الأحاديث التّاريخيّة»، و«الشُّعَراءُ» المعاصِرون لتلك الحقبة، على أنّ جَدَّ هذه الأسرة هو «جفنة». فالنّابغَةُ الذُّبيانِيُّ دعا أحد أمراء هذا البيت القدماء بـ«الحارثِ الجَفْنِيّ»، وأطلَق حسّان بن ثابت اللّقب نفسه على أمير آخر من أمراء هذا البيت، وسَمّى العائلة بأسرِها «أولادَ جفنة» و«آلَ جفنة». ويُستنتج من قصيدة متأخِّرَة له أنَّ جفنة كان شيخاً من أهل العصور القديمة يَفتخر به سكان يَثْرِبَ (المدينة المنوَّرة) الذين ينتمون هم أيضاً إلى الغساسنة.

وورد في شِعْرٍ لعَلْقَمَة، وفي إحدى القصائد المُدرَجة في تاريخ «الطَّبَرِيّ»، ذِكْرُ أحد أمراء غسّان، فدُعِيَ فيهما «ابن جفنة»، إلّا أنَّ «جفنة» المقصود هنا هو والد هذا الأمير نفسه، وبالتّالي هو شخص آخر متأخِّرٌ عن «جفنة» جَدِّ الغساسنة[١].

وبجفنةَ هذا سُمِّيَ ملوك الغَساسِنَةِ «آلَ جَفْنَة»، كما سُمِّيَ خصومهم المَناذِرَةُ «آلَ لَخْم». وإلى هذا الرّأي ذهب «الأَصْمَعِيّ»، فقد قال: «وجفنةُ أوّل مَلِكٍ مَلَكَ من غسّان، وإليه تُنسب ملوك غسّانَ التي ذكرها حَسّانُ بن ثابِتٍ الأنْصارِيّ في شِعره». وقد نَسب الأَصْمَعِيُّ له وصيَّةً قال: إنَّه أوصى بها بَنيه في كيفيَّة السَّير بالنّاس، وتَسيير المُلك[٢].

قوائم ملوك الغساسنة

اختلف المؤرِّخون في ترتيب ملوك الغساسنة كما اختلفوا في مَن كان أوّلَهُم، فتوَحَّدَ ترتيب بعض الأسماء بينهم، واختلف ترتيب أسماءٍ أخرى، وزيدَتْ أسماءٌ عند بعضهم، وحُذِفَتْ أسماءٌ عند آخرين.

ولهذا، وبسبب هذا الاختلاف، فسيتمُّ الاكتفاء هنا بعرض بعض القوائم التي تناولت ترتيب ملوك الغساسنة، وليس كلّها، مع عدم الدُّخول في مكامِن الاختلاف بينها وأسبابه، ويمكن الرُّجوع إلى هذه المكامِن والأسباب في الكتب التي تناولت الغساسنة بشكل موسَّع، ومنها بعض مصادر ومراجع هذا البحث.

(١) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣ ـ ٤.
(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص٨٩.

وأهمُّ القوائم التّاريخيَّة هي القوائم التّالية:

١ ـ **قائمة ابن الكَلْبِيّ**: إنَّ ابن الكَلْبِيِّ هو أقدم المؤرِّخين العرب، وهو يذكُر سُلَفاءَ الحارِثِ بشيءٍ من التَّدقيق، غيرَ أنَّه لا يُعَدِّدُ بعدئذٍ سوى أولاده.

٢ ـ **قائمة المسعوديّ**: ترتكز قائمة المسعوديّ (كَتَبَ سنة ٩٤٧م) على قائمة ابن الكَلْبِيّ، وتُعتبر رواية ابن خَلْدونَ أوْفى الرّوايات المحفوظة عن المسعوديّ[١].

وذكر المسعوديّ أنَّ جميع مَن مَلَكَ من ملوك غسّانَ بالشّام أحد عشر ملكاً، ولكنَّه لم يذكرهم كلّهم في قائمته بل ذَكَرَ منهم سبعة فقط على النَّحو التّالي: «الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس»، ثمَّ «الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو»، ثمَّ «النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة»، ثمَّ «المنذر أبو شَمِرِ بن الحارث بن جبلة بن ثعلبة»، ثمَّ «عوف بن أبي شَمِر»، ثمَّ «الحارث بن أبي شَمِرٍ» وكان مُلْكُهُ حين بُعِثَ رسول الله ﷺ، ثمَّ «جبلة بن الأيهم»[٢].

٣ ـ **قائمة الجُرْجانِيّ**: تعتمد قائمة الجُرْجانِيِّ (توفِّي عام ٩٧٦م، أو بحسب رواية أخرى عام ١٠٠١ ـ ١٠٠٢م)، أيضاً على قائمة ابن الكلبيّ، وأوردها ابن خَلْدونَ أيضاً[٣].

٤ ـ **قائمة ابن قُتَيْبَةَ الدّينَوَرِيّ**: تختلف قائمة ابن قُتَيْبَةَ الدَّينوريّ تماماً عن سائر القوائم التي تَقَدَّمَ ذِكْرُها، إذ إنَّها تكاد تكون مبنيّة كلّها على شواهد الشُّعَراءِ وعلى الرِّوايات المرتبطة بها[٤].

وتختلف قائمة ابن قُتَيْبَةَ الدَّيْنُورِيِّ بأسماء ملوك غسّان اختلافاً كبيراً عن قائمة حمزة الأصفهانيّ، وعن قائمة المسعوديّ[٥].

وقد رَتَّبَ ابن قتيبة الدَّينوريّ أسماء ملوك الغساسنة على النَّحو التّالي:

(١) ثيودور نولدكة، م. س، ص٥٨ ـ ٥٩.
(٢) المسعوديّ، م. س، ج٢، ص١٠٧.
(٣) ثيودور نولدكة، م. س، ص٥٩. ولمزيد من التفصيل انظر: ابن خلدون، كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، م١، ص٧٥٢ ـ ٧٥٩.
(٤) ثيودور نولدكة، م. س، ص٦٤.
(٥) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٢٢.

أ ـ الحارِثُ بن عَمْرو، وهو مُحَرِّق، وهو الحارِثُ الأكْبَر، ويُكنّى أبا شَمِر.

ب ـ الحارث بن أبي شَمِر، وهو الحارِثُ الأعْرَج بن الحارِثِ الأكْبَر، وأُمُّهُ مارِيَةُ ذاتُ القِرْطَيْن.

ج ـ الحارِثُ بن الحارِثِ بن الحارِث. وهو الحارِثُ الأصْغَرُ بن الحارِثِ الأعْرَج بن الحارِثِ الأكْبَر[1].

٥ ـ **قائمة اليَعْقوبيّ**: اسْتَقَلَّتْ قائمة اليَعْقوبيّ (كَتَبَ حوالي ٨٧٥م)، بنفسها، كما اسْتَقَلَّ اليَعْقوبيُّ بنفسه عن بقيّة المؤرّخين بأخبارٍ عديدة، أصاب في بعضها وأخطأ في بعضها الآخر[2]، برأي المستشرق نولدكة.

٦ ـ **قائمة حمزة الأصفهانيّ**: ذكَر حمزة الأصفهانيّ أسماء مَن حَكَمَ الغساسنة بعد «النُعمان» على الترتيب التّالي:

أ ـ المُنْذِرُ بن الحارِث، أي شقيق المُنْذِر والنُّعْمان، ومدَّة حُكمه ثلاثة عشر عاماً، ولَقَبُهُ «الأصْغَر»، وكُنْيَتُهُ «أبي شَمِر».

ب ـ جَبَلَة، أخو المُنْذِرُ بن الحارِث، ومنزله بـ«حارِب»، وهو من بنى «قصر حارِب» و«مُحارِب» و«صَنيعَة»، ومدَّة حُكمه أربعٌ وثلاثون عاماً.

ج ـ الأيْهَم، أخو جَبَلَة، وحَكَمَ ثلاثة أعوام، وبَنى «دَيْرَ ضَخْمٍ» و«دَيْر النُّبُوَّة» و«دَيْرَ سَعْف».

د ـ عَمْرو أحد أبناء الحارث بن جبلة[3].

٧ ـ **قائمة المستشرق نولدكة**: درس المستشرق نولدكة، في رسالته الجامعيَّة «أمراء غسّان من آلِ جفنة»، معظم القوائم التي رواها الأخبارِيّون عن أمراء الغساسنة، ونقدها وغربَلَها، وقارَن الحاصلَ بما وجده في الموارد «السُّرْيانِيَّة» و«البيزَنْطِيَّة»، واستخلص من تلك الدِّراسة القائمة التّالية:

أ ـ أبو شَمِرٍ جَبَلَة، وحَكم حوالي عام ٥٠٠م.

ب ـ الحارِثُ بن جَبَلَة، وحَكم من حوالي عام ٥٢٩ حتّى عام ٥٦٩م.

---

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٣٤.

(٢) ثيودور نولدكة، م. س، ص٦٥.

(٣) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٠٩ ـ ١١٠.

ج ـ أبو كَرِبِ المُنْذِرُ بن الحارِث، وحَكم من عام ٥٦٩ حتّى عام ٥٨٢م.

د ـ النُّعمانُ بن المُنْذِر، وحَكم من عام ٥٨٢ حتّى عام ٥٨٣م.

هـ الحارِثُ الأصْغَرُ بن الحارِثِ الأكْبَر.

و ـ الحارِثُ الأعْرَجُ بن الحارِثِ الأصْغَر.

ز ـ أبو حُجْرٍ النُّعْمان، وحَكم من عام ٥٨٣ وحتّى عام ٦١٤م.

ح ـ عَمْرو، أخو أبو حُجْرِ النُّعْمان.

ط ـ حُجْرٌ بن النُّعْمان.

ي ـ؟؟؟.

ك ـ جَبَلَةُ بن الأيْهَم، وحَكم حوالي سنة ٦٣٥م.

٧ ـ **كتاب «المُحَبَّر»**: رَتَّبَ محمّد بن حبيب في كتابه «المُحَبَّر» ملوك غسّان على النحو التّالي:

أ ـ ثَعْلَبَة.

ب ـ الحارِث بن ثَعْلَبَة.

ج ـ جَبَلَة بن ثَعْلَبَة.

د ـ الحارِث بن ثَعْلَبَة، وهو المعروف بابن مارِيَةَ ذاتِ القُرْطَيْن.

هـ النُّعْمانُ بن الحارِث.

و ـ المُنْذِر بن النُّعْمانِ بن الحارِث.

ز ـ المُنَيْذِرُ بن الحارِث.

ح ـ جَبَلَةُ بن الحارِث.

ط ـ أبو شَمِرِ بن الحارِثِ بن جَبَلَةَ بن الحارِثِ بن ثَعْلَبَةَ بن الحارِثِ بن عَمْرِو بن جَفْنَة.

ي ـ الحارِثُ الأعْرَجُ بن أبي شَمِرِ بن عَمْرِو بن الحارِثِ بن عَوْف[1].

---

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٣٤ ـ ١٣٥.

الفَصْلُ الثَّالِث

الحارِثُ بن جَبَلَةَ أعظم ملوك الغساسنة

نَسَبُ الحارث بن جبلة

لم يتَّضح شأن الحكّام الغساسنة في المحيط السّياسيّ قبل أوائل القرن السّادس الميلاديّ، وكان أشهر مَن احتفظت الرِّوايات البيزنطيَّة والعربيَّة بأعماله منهم هو «الحارِثُ الثّاني بن جَبَلَة» وولده المُنْذِر[1].

وجبلة هو «جَبَلَس» عند «ثيوفانيس»، الذي ذكر أنَّ جبلة غزا فلسطين حوالي سنة ٥٠٠ للميلاد. وقال حمزة الأصفهانيّ و«البَطَلْيوسِيُّ» إنَّ جبلة بن الحارث حكم عشر سنين، وبنى «القناطر» و«أذرح» و«القسطل».

وجاء بعد جبلة ابنه الحارث بن جبلة، ويعتبر نولدكة أنَّ الحارث بن جبلة هو «أريتاس Aretas,Arethas» الذي ذكره المؤرِّخ السُّرْيانيّ «أيونيس مَلالاس».

وتكاد المصادر العربية تُجمع على أنه ابن امرأة تسمى مارية ذات القرطين بنت عمرو بن جفنة أو بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو، أو بنت ظالم بن وهب بن معاوية بن ثور وهو كندة، أو بنت الهاني من بني جفنة.

ويُعتبر «الحارث بن جبلة بن الحارث الجفنيّ (٥٢٩ ـ ٥٦٩م)»، الذي ذكره المؤرِّخ السُّريانيُّ «أيونيس مَلالاس» على أنَّه كان عاملاً للرّوم، أوَّل أمراء الغساسنة العِظام[2].

وكان الحارث بن جبلة معاصراً للإمبراطور «يوستنيانوس» البيزنطيّ (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، ولِمَلِكَيْن من ملوك الفرس هما «قُباذ (٤٤٨ ـ ٥٣١م)». و«كسرى أنو شِرْوان (٥٣١ ـ ٥٧٩م)»[3]، وكذلك لـ«المنذر الثّالث بن النُّعمان»

(١) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٥٩.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٩.
(٣) المصدر نفسه

المعروف بـ«ابن ماء السّماء» مِلك «الحيرة»[1].

مساندة الحارث بن جبلة للرّوم ضدَّ الفرس

اشترك الحارث بن جبلة في سنة ٥٤١م. في الحملة البيزنطيَّة الموجَّهة لمحاربة الفرس تحت قيادة «بليزارْيوس»، ولكنَّ الحارث بن جبلة لم يكد يَعبر نهر «دِجْلَة» حتّى ارتدَّ إلى مواقعه السّابقة عن طريق أخرى غير الطّريق التي سلكها معظم الجيش، وقد أثار تصرُّفه هذا الشَّكَّ في إخلاصه للرّوم. ويبدو أنَّ الحارث بن جبلة أَنِفَ من الاشتراك في حملة يقودها قائد بيزنطيّ، وأنَّه كان يعمل على الانفراد بالقيادة، ولعلَّه انسحب لمجرد حدوث خلاف بينه وبين قائد الحملة. والأرجح أنَّ انسحابه يرجع إلى أَنَفَتِهِ من أن يكون تابعاً لبليزارْيوس، بدليل أنَّه لم يكد يمضي على حملة بليزاريوس ثلاث سنوات حتّى اشتبك الحارث بن جبلة في قتال عنيف مع «المنذر بن النُّعمان» المعروف بـ«ابن ماء السّماء» في سنة ٥٤٤م، وانتهى القتال بهزيمة الحارث بن جبلة[2].

محاربة الحارث بن جبلة ملوكَ الحيرة

طال حكم الحارث الثّاني بن جبلة واحداً وأربعين عاماً (٥٢٨ ـ ٥٦٩م)، عاصر فيها الإمبراطور البيزنطيّ «يوسْتِنْيانوس»، و«المنذر الثّالث بن النّعمان (المنذر بن ماء السّماء)» مِلك الحيرة، وكان كُفْأً لهذا الأخير وطموحاً مثله، وبدأ حروبه معه منذ العام الأوّل من حُكمه (٥٢٨م)، ليس فقط كمُمَثِّلَيْنِ للدّولتيْن الكبيرَتين المتنافستيْن، دولة الرّوم ودولة الفرس، ولكن للتّنافس بينهما كذلك على السّيطرة على المناطق التي أطلقت المصادر البيزنطيّة عليها اسم «سْتْراتا Strata»[3]. ويحدّد «بروكوبْيوس» هذه الأرض بقوله: إنَّها البادية الواقعة جنوبيّ تَدْمُر، ولكنَّها بالأحرى تلك الأراضي الممتدّة على جانِبَي الطّريق الحربيَّة من دمشق إلى ما بعد تدمر حتّى مدينة «سِرجيوس

(١) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٥٩.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠١.
(٣) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٥٩.

(سِرجيوبوليس، الرُّصافة)»[1]، وتمثّل هذه الأراضي الحدَّ الفاصل بين الإمارتَين. وقد تنازع الجانبان على «الإتاوة»[2] التي كانت تُجبى من قبائل العرب التي تنزل في هذه الأراضي[3]. فقد ادَّعى كلٌّ منهما أنَّ قبائل العرب الضّاربة في هذه الأراضي تخضع لسلطانه، وأنَّها تدفع له «الجزية»، وعلى هذا النَّحو قامت الحرب بينهما[4].

وحدَّث «مَلالاس (٢/١٦٦)» أنَّ الحارث بن جبلة حارب المنذر أمير الحيرة وانتصر عليه في شهر نيسان من سنة ٥٢٨م[5]. ، وغنم غنائم كثيرة. وقد أدّى ذلك إلى قيام الفرس بغزو شمال سورية، واستولوا على مدن كثيرة مثل «الرُّها» و«مَنْبِج» و«قِنَّسْرينَ» و«أنطاكِيَة»[6].

وتعاقبت الانتصارات والهزائم بين الجانبَيْن، وكانت الحروب بينهما ضارية عنيفة[7].

وفي سنة ٥٤٤م، وقعت معركة بين أتباع الحارث بن جبلة والمنذر الثّالث، لحقت الهزيمة فيها بالحارث بن جبلة وأُسِرَ أحد أبنائه. وقام المنذر الثّالث، الذي كان لا يزال على دينه «الوَثَنِيّ»، بتقديم ابن الحارث الأسير قرباناً للإلهة «العُزّى»[8]، التي تُقابل «أفروديت»[9] عند «اليونان». و«العُزّى» هي إحدى أهمِّ الأصنام التي كانت في «مكّة المكرَّمة» وكانت قبيلة «قُرَيْشٍ (أهل مكّة المكرّمة)» يُقْسِمونَ بها وبالصَّنم الآخَر «اللاّت».

ولم يسكت «الحارث» على تلك الهزيمة، فجمع جموعه واشتبك من جديد

(١) ثيودور نولدكة، م. س، ص١٨.
(٢) الإتاوة: الجزية. وفي الإسلام: خَراج الأرض، وما يُؤخذ من أهل الذِّمَّة (أهل الكتاب، اليهود والنّصارى، المقيمين في الدّولة الإسلاميّة). المعجم الوجيز، م. س، ص٥ و١٠٥.
(٣) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٧.
(٤) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠١.
(٥) ثيودور نولدكة، م. س، ص١٠.
(٦) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٠.
(٧) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٥٩.
(٨) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٧.
(٩) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٢١.

مع المنذر في موقعة[1] في العام نفسه[2]، وانتهت الموقعة هذه المرة بهزيمة المنذر وفراره من المعركة تاركاً ولدَيْن من أولاده أسيرَيْن في أيدي الغساسنة.

واستمرَّ التَّوتُّر بين المعسكرَيْن الغسّانيّ واللَّخْمِيّ على أشدِّه حتّى بعد أن عُقِدَتِ الهدنة بين الرّوم والفرس في سنة ٥٤٦م. ولم ينته هذا الصّراع بينهما إلّا بعد أن قُتِلَ المنذر ملك الحيرة نفسه في موقعة دارت بينه وبين خصمه الحارث بالقرب من «قِنَّسْرينَ» في شهر حزيران سنة ٥٥٤م، وفيها سقط أحد أبناء الحارث ويدعى جبلة قتيلاً، فدفنه أبوه في قلعة «عين عوداجة» بالقرب من قِنَّسْرين، وكانت تابعة لإقليم تدمر، ولعلَّها الموضع المعروف بـ«عَذْبَة» في الوقت الحاضر، القريب من الطَّريق «الرّومانيّ» على رأي «موسل»[3].

وذكر نولدكة أنَّ هذه الموقعة حدثت بالقرب من «الحيار»؛ لأنَّ هناك رواية عربيَّة تُعيِّنُ موقع المعركة التي قُتِلَ فيها المنذر في هذا المكان نفسه الذي يقع على وجه التقريب في منطقة قنّسرين، ولا يُفرِّق نولدكة بين الموضع المسمّى بـ«الحيار» وبين «ذات الحيار» التي ذكرها «ابن الأثير»، ويوم «الحيارين» الذي ذكره «الحارث ابن حِلِّزَة» في مُعَلَّقَتِه. ويَعتقد نولدكة أنَّ «ذات الحيار» و«يوم حليمة» موقعة واحدة، وهي الموقعة نفسها التي قُتِلَ فيها المنذر بن النّعمان ملك الحيرة، ويَستبعد أن تكون هذه الموقعة موقعة «عين أباغ» نفسها، التي وقعت قرب الحيرة، ويوافق أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم نولدكة على رأيه استناداً إلى قول النّابغة:

يَوْما حَليمَةَ كانا مِنْ قَديمِهِمْ   وعَيْنُ باغٍ، فَكانَ الأَمْرُ ما أْتَمَرا
يا قَوْمِ إنَّ ابْنَ هِنْدٍ غَيْرِ تارِكِكُمْ   فَلا تَكونوا لأدْنى وَقْعَةٍ جَزْرا[4]

(١) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠١.
(٢) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٥٩.
(٣) موسل: «ألويس موسل» «alois musil»، رحّالة جيكوسلوفاكي الأصل، زار «العربية الحجرية» وكتب عدة كتب في وصف شمال الحجاز وبادية الشام ومنطقة الفرات الأوسط وتدمر ونجد، ووضع في نهاية كل كتاب من كتبه فصولاً علمية قيّمة فيها تحقيق تأريخي جليل. د. جواد علي، م. س، ج١، ص١٣٢.
(٤) رزق الله يوسف شيخو، شعراء النّصرانيّة، مطبعة الآباء المُرسَلين اليسوعيّين، بيروت ـ لبنان، ١٨٩٠م، ج٥، ص٧٢٢.

ويؤكِّد نولدكة أنَّ «حليمة» اسم «مكان» لا اسم «امرأة» كما يزعم الأخباريّون، إذ يُعلِّلون تسمية الموقعة بذلك بأنَّ «حليمةَ بنت الحارث» كانت تُطَيِّبُ عسكر أبيها، وتُلبِسهم الأكفان والدُّروع، وقيل: إنَّه سُمِّيَ بذلك الاسم نسبة إلى «مرج حليمة» المنسوب إلى «حليمة بنت الملك الحارث».

ويعتقد أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم أنَّ نولدكة يتَّفق في رأيه مع ما ذكره ابن قُتَيْبَةَ الذي يجعل موقعة «الحيار» هي الموقعة التي قُتل فيها المنذر بن النُّعمان، وموقعة «عين أباغ» هي الموقعة التي قُتل فيها ابن المنذر ملك الحيرة من بعده. كذلك أشار ابن قتيبة عند تعرُّضِه لملوك الشّام إلى أنَّ المنذر ملك الحيرة لقي مصرعه في «يوم حليمة»، أي أنَّه يجعل موقعة «الحيار» و«يوم حليمة» موقعة واحدة[1].

وقد انتقم المناذرة لمقتل ملكهم المنذر الثّالث، وقد ذكر ذلك «الحارث بن حِلِّزَة (المُعَلَّقَة: البيت ٦١)» حينما كان يُعَدِّدُ أمام الملك عَمْرو الحَيْرِيّ (٥٥٤ ـ حوالي ٥٦٨م)، ابن المنذر ووريثه، مَفاخِرَ قبيلته «يَشْكُر (أحدُ بطونِ بَكْرِ بن وائِل)»، ومنها أنَّهم انتقموا للمنذر القتيل بدم «رَبّ غسّان»[2]. فإن صَحَّ القولُ وَجَبَ تأويله بأنَّ هذه القبيلة قتلَت أحد أنسباء الأمير الغسّانيّ الأقربين، أو رجلاً من آل جفنة، أو شخصاً آخَرَ من كبار بني غسّان[3].

وبعد وفاة الحارث، لم يكد المنذر ابنه يستلم زمام الحكم حتّى هبَّ لمحاربة عرب الحيرة عُمّال الفرس، الذين كانوا قد أغاروا بعد وفاة أبيه المرهوب على سورية، فقاتَلهم وانتصر على ملكهم الجديد «قابوس» في «يوم الصّعود (٢٠ أيّار)»[4] سنة ٥٧٠م، ثمَّ انتصر عليهم أيضاً في موقعة أخرى كما ذكر يوحَنّا الأفَسُسِيّ»[5].

(١) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠١ ـ ٢٠٣.
(٢) رَبُّ غسّان: سَيِّدُ غسّان وزعيمها، كما يُقال: ربُّ البيت، ربُّ العائلة. المعجم الوجيز، م. س، ص٢٥٠.
(٣) ثيودور نولدكة، م. س، ص٢٠.
(٤) يوم الصُّعود: يوم صعود السَّيِّد المسيح ﷺ إلى السَّماء أمام التّلاميذ بعد أربعين يوماً من قيامته حسب اعتقاد النّصارى.
(٥) ثيودور نولدكة، م. س، ص٢٤ ـ ٢٥.

ومع ما كان في هذا التّنافس من دمار مؤسف للقوَّتَين العربيَّتَين، فقد ازداد سلطان الحارث مؤقَّتاً في أرضه، وامتدَّ نفوذه من جنوب الأردن حتّى «الرُّصافة» في شمال بادية الشّام، واشتَهرت من مدن دولته «البَلْقاءُ» و«الصَّفا» و«حَرّان»[1].

زيارة الحارث بن جبلة القسْطَنْطينِيَّة

كان الحارث بن جبلة ذا شخصيَّة قويّة ومَهابة عظيمة، وزار في تشرين الثّاني من سنة ٥٦٣م، بلاط الإمبراطور يوسْتِنْيانوس في «القُسْطَنْطينِيَّة»، ليتداول معه في شؤون «الإمارَة»، ومنها قضيَّة مَن سيَخلفه من أولاده، وما يجب اتِّخاذه من تدابير وخطط عسكرية لمواجهة خصمه القوي «عَمْرِو بن هِنْد (عَمْرِو بن المنذر) (٥٥٤ ـ ٥٦٨م)» ملك الحيرة الجديد.

وبَهرت الحارث بن جبلة مظاهر الحضارة في عاصمة البيزَنْطِيِّين[2]، فقد كان لما شاهده في العاصمة من مظاهر التَّرف وسَعَةِ العيش وَقْعٌ عظيمٌ في نفسه[3].

وكان ظهوره في «البلاط البيزَنطيّ» مَثار اهتمام كبير من «الحاشية» و«رجال القصر»، وترك أثراً عميقاً في نفوسهم بوصفه «شيخاً بدويّاً مَهيباً»[4]، وإن لم يُقابَل بما يجب أن يُقابَل به الأبطال من مظاهر الحفاوة والتَّكريم، بسبب «الخلافات المذهبيَّة»[5]. فقد كان الحارث بن جبلة يَدين بـ«النَّصرانيَّة» على «المذهب المونوفيزي»؛ أي: «مذهب الطَّبيعة الواحدة للمسيح ﷺ»، وكان البيزَنطيّون يَدينون بالمذهب القائل بـ«ثلاثة آلهة Tritheism»[6].

وكذلك فإنَّه أحدَث تأثيراً قويّاً على سكّان العاصمة، وبالأخصِّ على «يوستينوس» ابن أخِ القيصر، الذي كان لا يزال حينذاك «وليّاً للعهد» ثمَّ أصبح

(١) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٥٩.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٣.
(٣) ثيودور نولدكة، م. س، ص٢١.
(٤) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٣. وانظر أيضاً: توفيق بِرّو، م. س، ص١٤٣.
(٥) محمّد بيّومي مَهران، م. س، ص٥١٢.
(٦) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٣.

بعد وفاة عمِّه خليفَتَه على «العرش». فلمّا أُصيب يوستينوس بالخَرَف، غَبَّ تَسَنُّمِهِ العرش ببضع سنين، كان أهل «البلاط» يخيفونه بـ«الحارث العربيّ» كلّما بدا منه عصيانٌ أو عربدة، وينتَهِرونه بقولهم: «تَعَقَّلْ وإلّا دَعَوْنا إليك الحارث بن جبلة». فيَكُفُّ ويهدأ، (يوحَنّا الأَفَسُسِيّ ٣/ ٢)[١].

ألقاب الحارث بن جبلة

عُرف الحارث بن جبلة عند أهل الأخبار بـ«الحارث الأعرج» و«الحارث الأكبر»[٢] و«الحارث بن أبي شَمِر»[٣].

وعيّن الإمبراطور يوستينيانوس الحارث بن جبلة سيّداً على كلِّ القبائل العربيَّة في سورية، ومنحه لقب «فيلارْكوس» و«بِطْريق»[٤]، وذلك تقديراً لجهوده في ضبط الأمور ورعاية مصالح الرّوم في الشّام أثناء انشغال الإمبراطور يوستينيانوس في حروبه في «إسبانية» وفي «شمال إفريقية»، ولمحاربته أعداء الرّوم من الفرس وأتباعهم من عرب الحيرة بالعراق[٥].

وقيل: إنّه تَتَوَّجَ بـ«تاج» عِوَضاً عن «الإكليل» الذي سمح الرّوم به لأسلافه، حتّى لا تكون لخصومه المناذرة مَيْزَةٌ عليه[٦].

وذكر «بروكوبيوس» أنَّ الإمبراطور «يوستنيانوس» منح الحارث بن جبلة لقب «مَلِك Basileus»، وبَسَطَ سلطته على قبائل عربيَّة متعدِّدة، وكان الإمبراطور يوستينيانوس يهدف من وراء ذلك أن يجعل من الحارث بن جبلة خصماً قويّاً في وجه المنذر ملك عرب الفرس. وذكر بروكوبيوس أنَّ هذا «اللَّقب» لم يمنحه الرّوم لأحد من «عُمّال العرب» في سورية من قبل. وعلى الرُّغم من أنَّ بروكوبيوس لم يحدِّد السَّنة التي رُقِّيَ فيها الحارث بن جبلة إلى هذه الرُّتبة، فإنَّ نولدكة يستنتج من سياق النَّصِّ أنَّ ذلك تمَّ في سنة ٥٢٩م.

---

(١) ثيودور نولدكة، م. س، ص٢١.
(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص٩٣.
(٣) ثيودور نولدكة، م. س، ص٢٢.
(٤) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٢١.
(٥) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٦.
(٦) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٥٩.

وهذا التّاريخ يعني أنَّ الإمبراطور يوستنيانوس منح الحارث بن جبلة هذا «اللَّقب» بعد انتصاره على المنذر الثّالث سنة ٥٢٨م..

ويشكُّ نولدكة أيضاً في أنَّ الحارث بن جبلة قد مُنِحَ لقب «ملك» باعتبار أنَّ هذا «اللَّقب» كان قاصراً على «القيصر» وحده، ويَعتقد أنَّ ما لُقِّبَ به الحارث بن جبلة، وغيره من «آل جفنة»، لا يَعدو لقب «البِطريق Patricius» أو لقب «فيلاركوس»، استناداً إلى «اللَّقب» الكامل الوارد في «نَقْشٍ» يرجع إلى «ابن الحارث»، وهو خليفته، ونصُّه: «فْلابْيوسُ المنذر البِطريق الفائق المديح ورئيس القبيلة»، وعلى «اللقب الرَّسميّ» الذي أطلقه المؤرخ «ثيوفانيس» على الحارث بن جبلة على النَّحو التالي: «الحارث البِطريق ورئيس القبيلة»، وعلى «اللَّقب الرَّسميّ» للحارث بن جبلة الذي ورد في قرارات «المجامِع الكَنَسِيَّة» وحفِظَته «التَّرجمة السُّريانيَّة»، ونصُّه: «البِطريق الفائق المديح الحارث»، وما ذكره «يوحنا الأَفَسُسِيّ» ونصُّه: «المنذر البِطريق الأمجد». ولقب «البِطريق» كان من أسمى «الألقاب» عند الرّوم، حتّى أنَّ ملوك «البرابرة» المستقلّين كانوا يغتبطون بالحصول عليه، ذلك لأنَّ طبقة «البَطارِقَةِ» كانت تُعَدُّ عند البيزنطيّين أعلى الطَّبقات الاجتماعيَّة على الإطلاق، وكانت رتبتهم أرقى من رتبة «القناصل». أمّا لقب «فْلافْيوسَ» الذي تَلَقَّبَ به «المنذر بن الحارث بن جبلة» فكان من الألقاب التي يُنْعِمُ بها أحياناً قياصرة الرّوم على بعض رعيَّتهم، وقد دُعِيَ به أيضاً الإمبراطور يوستنيانوس ومَن سبقه من الأباطرة[١].

كما ذكر «د. أسد رُستم» بأنَّ يوستنيانوس أراد أن يستعين بالعرب الضّاربين في جوار حدوده على العرب عند حدود خصمه الفارسيّ، فجعل من الحارث بن جبلة الغسّانيّ في سنة ٥٣١م «فيلَرْخوساً»، وأَمَدَّهُ بالمال له ولشيوخ العرب في بادية الشّام. ثمَّ رَقّاهُ في مراتب «الدَّولة فجعله «بِطريقاً» من «البَطارقة» هو و«أحفاده» من بعده»[٢].

ويوضح «توفيق بِرّو» أنَّ لقب «بِطريق» يعني «قائد عشرة آلاف» في الجيش

---

(١) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٩ - ٢٠٠.
(٢) د. أسد رستم، الرّوم (في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم وصِلاتهم بالعرب)، دار المكشوف، بيروت - لبنان، ١٩٥٥م، ج١، ص٢٠٢ - ٢٠٣.

البيزنطيّ، وأنَّ لقب «فيلارك» يعني «رئيس قبيلة»، وأنَّ العرب قد ترجموا هذه «الألقاب» بمعنى «ملِك». وحاول بعض المؤرِّخين تفسير سبب هذه التَّرجمة فرأَوْا بأنَّ ملوك الغساسنة ربَّما اعتبروا أنفسهم خلفاءً لـ«ملوك الأنْباط»[1].

حدود إمارة الحارث بن جبلة

بلغت الإمارة الغسّانيَّة في عهد الحارث بن جبلة ذُروة اتِّساعها، فقد امتدَّت من قرب «البَتْراءِ» جنوب الأردن إلى «الرُّصافَةِ» شمال تَدْمُرَ في بادية الشّام، واشتَمَلَت على «البَلْقاءِ» و«الصَّفا» و«حَوران»، وأصبحت «بُصْرى» التي بُنيت «كاتدرائيَّتُها» سنة ٥١٢م. «العاصمة الدِّينيَّة» في المنطقة، كما اشتَهَرت بكونها «مركزاً تجاريّاً نشطاً»[2].

مُدَّةُ حُكم الحارث بن جبلة

قال حمزة الأصفهانيّ بأنَّ الحارث بن جبلة هو من أشهر ملوك الغساسنة، ولم يَطُلْ حُكمه أكثر من عشر سنين، ويقول مؤرِّخو الرّوم بأنَّه حَكم نحو أربعين سنة (٥٢٩ ـ ٥٦٩م)، وهو المُحَقَّق[3].

عقيدة الحارث بن جبلة الدّينيَّة

اعتنق الغساسنة «النَّصرانيَّة» منذ القرن الرّابع الميلاديّ[4]، وكان الحارث بن جبلة يدين بالنَّصرانيَّة على «المذهب المونوفيزي»؛ أي: «مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح ﵇»، وكان يتولّى الدِّفاع عن «المونوفيزيين» لتحريرهم من اضطهاد البيزنطيّين، الذين كانوا يَدينون بالمذهب القائل بـ«ثلاثة أقانيم»، لهم. ويُقال بأنَّه سعى لدى الإمبراطورة «ثيودورَة»، زوجة الإمبراطور يوستنيانوس، في سنة (٥٤٢ ـ ٥٤٣م)، لتعيين «يعقوب البَرادِعِيّ»، مؤسِّس «الكنيسة السّوريَّة اليَعقوبيَّة»، ورفيقه «ثيودور» «أُسْقُفَيْنِ» في المقاطعات العربيَّة في سورية، ونَشَرَ بذلك «المذهب المونوفيزي» في بلاده[5].

(١) توفيق برّو، م. س. (٢) المصدر نفسه، ص١٤٣.
(٣) محمّد كُرْد عَليّ، م. س، ج١، ص٦٦.
(٤) أحمد شوقي، تاريخ الأدب العربيّ العصر الجاهليّ، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، د. ت.، ص٤١.
(٥) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٣.

ودامت سيادة «البِطريق (البَطْرِيَرْك) يعقوب البَرادِعِيِّ» مدَّة طويلة حتّى وفاة الحارث بن جبلة في سنة ٥٦٩م[1].

وظلَّ الحارث بن جبلة طوال سِني حُكمه حامياً لـ«الكنيسة المونوفيزية»، ونجح في تحويل عرب الشّام إلى «مُتَنَصِّرَةٍ» على «المذهب المونوفيزي».

ويبدو أنَّ انتصار الحارث بن جبلة لـ«الكنيسة اليعقوبيَّة» كان سبباً في نظرة الشَّكِّ التي كان ينظر إليه بها الإمبراطور البيزنطيّ، واستغلَّ «بَطارقة القُسْطَنْطينيَّةِ» هذه الفرصة لإثارة المشاعر ضدّه[2]، وصولاً إلى التَّشكيك في ولائه للرّوم. وقد اتَّهموه بالخيانة خلال اشتراكه مع جيش بليزاريوس في حرب الفرس في عام ٥٤١م، بعد أن ترك الحملة بعد عبوره معها نهر دجلة، إمّا عن أَنَفَةٍ من التَّبعيَّة لبليزاريوس في الجيش، أو نتيجة لخصومة شخصيَّة بين القائدَيْن[3].

وقد ظهر موقف الإمبراطور والبَطارقة واضحاً خلال زيارة الحارث بن جبلة القسطنطينيّة في سنة ٥٦٣م، حيث لم يُقابَل هناك بما يجب أن يُقابَل به الأبطال المنتصِرون من مظاهر الحفاوة والتَّكريم[4].

الحارث بن جبلة عند العرب

احتل الحارث بن جبلة مكانة عظيمة في نفوس العرب ومُخَيَّلَتِهِمْ، فهو الحارث الذي يُشيد بذِكره الشّاعر «عَمْرو بن كُلثوم»، وهو أيضاً الحارث الذي قهر المنذر ملك الحيرة. ووصلَت هذه المكانة إلى حدِّ أنَّ كُتّابَ العرب القدماء كانوا يطلقون على كلّ «أميرٍ غسّانيٍّ» حقيقيّ، أو من خَيالِهم، لا يَعرِفون اسْمَهُ اسْمَ «الحارث بن أبي شَمِر»[5].

وفاة الحارث بن جبلة

توفِّي الحارث بن جبلة، الذي يُقال له أيضاً الحارث بن أبي شَمِر، في آخر

(١) د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٣.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤.
(٣) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٥٩.
(٤) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٤.
(٥) د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٣. وانظر أيضاً: أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٤.

سنة ٥٦٩م، أو في عام ٥٧٠م، بعد أن قضى في إمارته أطول مدّة في عهود أمراء الغساسنة، وهي أربعون عاماً[1].

(١) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٤.

الفصل الرابع

خلفاء الحارث بن جبلة

انتقال الإمارة إلى المنذر بن الحارث

توفّي الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩م، أو ٥٧٠م. على رأي نولدكة، الذي استنتج ذلك من ورود اسمه في «الوثائق الكَنَسِيَّةِ» التي يعود تأريخها إلى سنتي (٥٦٨ و٥٦٩م)، وإلى ربيع سنة ٥٧٠م. حيث حلَّ اسم ابنه «المنذر بن الحارث» في محلّه، فاستدلَّ من هذا التَّغيير على أنّه توفّي في هذا الزّمن. وقد حكم المنذر بن الحارث من سنة (٥٦٩ ـ ٥٧٠م)، حتّى سنة ٥٨١م، على تقدير بعض الباحثين[1]. فيما قال آخرون أنّه حكم من سنة ٥٧٠م. حتّى سنة ٥٨٢م[2]. وقال فريق ثالث بأنّه حكم من سنة ٥٦٩م. حتّى سنة ٥٨٢م[3]..

ألقاب المنذر بن الحارث

يذكر حمزة الأصفهانيّ أنَّ المنذر بن الحارث كان يُلَقَّبُ بـ«المنذر الأكبر» تمييزاً له عن أخيه «المنذر الأصغر». وكان المنذر بن الحارث معروفاً في المصادر اليونانيَّة واللّاتينيَّة والسُّريانيَّة باسم Alamundaros[4].

الخلاف المذهبيّ بين الغساسنة والبيزنطيّين

لم يكن الإمبراطور البيزنطي «يوستينوس الثّاني» راضياً عن المنذر بن الحارث، وساءت العلاقة بينهما حتّى انتهت إلى جفوة، والسَّبب في ذلك يرجع إلى سَيْرِ المنذر بن الحارث على نهج أبيه في تأييد «المذهب

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٠٢.

(٢) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٨.

(٣) د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٣.

(٤) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٤.

المونوفيزي»، المعارِض لـ«المذهب الملكانيّ»[1]، مذهب «الإمبراطوريّة»[2].

كما اهتمَّ المنذر بن الحارث لمشاكل النَّصرانيَّة آنئِذ، فعقد «مَجْمَعاً مَحَلِّيّاً» تحت رعايته للنَّظر في بعض «البِدَعِ المَحَلِّيَّة»[3].

ويبدو أنَّ العلاقة بين المنذر بن الحارث وبين الإمبراطور يوستينوس الثّاني تدهورت إلى حدٍّ أنّ يوستينوس قطع المال السَّنويَّ عن المنذر، وأوعَز إلى «البطريق مارْكيانوس» بأن يتحايل على قتل المنذر. ولم يكن المنذر غافلاً عمّا يُدَبَّرُ له في بلاط الإمبراطور، ففَرَّ إلى البادية، وشَقَّ عصا الطّاعة على الإمبراطور مدّة ثلاث سنوات. وانتهز اللَّخْمِيّونَ (حكّام الحيرة) هذه الفرصة وأغاروا على «سورية الشَّماليَّة» وأفسدوا فيها، وهدَّدوا تخوم الإمبراطوريَّة وأوقَعوا الرُّعب في نفوس سكّان القرى المجاورة لها. فاضطرَّ الرّوم إلى استرضاء المنذر بن الحارث ليمنع أذى اللَّخْميينَ، وبعد مفاوضات طويلة، بين المنذر و«البطريق يوستنيانوس» مبعوث القسطنطينيَّة في بلدة الرُّصافَة عند ضَريح «القدّيس سِرجيوس»، تمَّ الاتّفاق أخيراً وعُقد الصُّلح بينهما في أواخر أيّام الإمبراطور يوستينوس الثّاني[4]، في صيف سنة ٥٧٨م، وعاد المنذر إلى أرضه، ليقوم بالدفاع عن حدود الشّأم (الشّام)[5].

(١) الملكانية: أحد المذاهب الكنيسة المسيحية القديمة. وهم أصحاب ملكا الذي ظهر في أرض الروم، ومعظم الروم ملكانية. وقد كانوا من أوائل من قالوا بالتثليث وبالأقنومية. وقالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح عليه السلام. والكلمة هي أقنوم العلم. والروح القدس أقنوم الحياة. والأقنوم طريقة في الظهور أو الانبثاق وهو غير الجوهر.
وكان حكام الإمبراطورية البيزنطية ملكانيين، بدءاً من الإمبراطور قسطنطين الثاني، وفي عهده كان دستور الإيمان النيقاوي الذي أخذ بموقف الملكانيين القائل بأن اللاهوت والناسوت اتحدا في المسيح كاتحاد الماء باللبن، وأن المسيح عليه السلام إله حق من إله حق. كتبه لموسوعة الأديان (الميسرة)، م. س، أ. د. أسعد السحمراني، ص٤٦٠.

(٢) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣١ ـ ١٣٢.

(٣) د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٣.

(٤) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٥ ـ ٢٠٦. وانظر أيضاً: د. أسد رستم، المصدر نفسه. وانظر كذلك: د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٢.

(٥) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٠٣.

وهناك ما يشير إلى أن مِلك غسّان قام بعدَّة إصلاحات في الرُّصافَة، كما بَنى، أو جَدَّد، كنيستها[1].

زيارة المنذر بن الحارث إلى القسطنطينيَّة

دعا الإمبراطور البيزنطيّ «تيبيريوس الثّاني (٥٧٨ ـ ٥٨٢م)» المنذر بن الحارث في ٨ شباط سنة ٥٨٠م. لزيارة القسطنطينيَّة[2]، لتكريمه بعد انتصاره على عرب الحيرة ومنعِهم من الغزو والإغارة على حدود الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة. فلمّا وصل عاصمة الإمبراطوريَّة استُقبِل استقبالاً حافلاً، وأنعَم عليه الإمبراطور بهدايا عديدة، إلّا أنَّ أعظم المِنَح التي منحه إيّاها إنّما كان استبدال «الإكليل البطريقي» بـ«التّاج الملِكيّ»، الأمر الّذي لم يسبق له مثيل مع ملوك الغساسنة، فلَقَّبَهُ مؤرِّخو العرب بلقب «المنذر ملِك العرب». كما منح الإمبراطور وَلَدَي المنذر بن الحارث، اللَّذان رافقاه في هذه الرِّحلة، رُتَباً عسكريّة[3].

وكان من أسباب دعوة المنذر بن الحارث لزيارة «القسطنطينيَّة» أيضاً، أنَّ الإمبراطور تيبيريوس الثّاني، الذي تولّى الحكم بعد وفاة الإمبراطور يوستينوس في السّادس من تشرين الأول سنة ٥٧٨م، أراد أن يسعى لتوحيد «الكنيسة»، فرأى أن يُوَحِّدَ كلمة أصحاب «الطّبيعة الواحدة للمسيح عليه السلام»، أولاً، ليَسْهُلَ عليه التّوفيق بينهم وبين «الكنيسة الأرْثوذُكسِيَّةِ الأُمّ» بعد ذلك.

وطلب الإمبراطور تيبيريوس الثّاني من المنذر بن الحارث خلال الزّيارة أن يُوَفِّقَ بين صفوف أصحاب الطّبيعة الواحدة، وأوقف الإمبراطور الاضطهاد الذي كان قد حلّ بهؤلاء منذ عشر سنوات أو أكثر تسهيلاً لعمل «الملك الجديد»؛ أي: المنذر. وعندما عاد المنذر بن الحارث إلى سورية عقد «مَجْمَعاً» برعايته في الثّامن من آذار سنة ٥٨٠م، واتّصل بـ«غريغوريوس» بطريرك أنطاكية الأرْثوذُكسِيّ وفاوضه في المَهمَّة الموكولة إليه. وأصبح «المنذر الغسّانيّ» «مِلكاً مَحَلِّيّاً» و«حَكَماً» في أعْوَصِ مشاكل ذلك العصر وأشدِّها تعقيداً.

(١) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥١٤.

(٢) د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٣) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٢. وانظر أيضاً: أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٦. وانظر كذلك: محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥١٤.

ولم يرضَ «البَطْرِيَرْكُ أفتيخْيوس»[١] عن هذا التَّسامح والتَّساهل مع أصحاب «الطَّبيعة الواحدة»، وشاركه في رأيه هذا عدد من المتعصِّبين لـ«المذهب الدّينيّ الرَّسميّ للإمبراطوريَّة»، من كبار رجال الجيش والسّياسة وبينهم «موريقْيوس القائد»[٢]. كما كانت في القسطنطينيّة وقتئذٍ جماعة كبيرة من «الرّوحيّين» و«العَلمانيّين» من أصحاب المراتب العالية وأرباب النّفوذ في الدَّولة، الذين كانوا يتوقون إلى تجريد «الكنائس اليعقوبيَّة» من حُماتِها، حتّى ولو كان ذلك مُناقِضاً لـ«الحَقّ» و«الإيمان الحقيقيّ»، إذ إنَّه لم يكن لهذَين أهميَّة كبيرة عندهم حينذاك، خصوصاً في محاربة «الهَراطِقَة[٣]»[٤].

فشل غزوة الحيرة

لم يمض على زيارة المنذر بن الحارث للقسطنطينيّة زمن طويل حتّى ساءت العلاقات من جديد بين الغساسنة و«الرّوم»، بسبب ما أحاط بـ«المنذر بن الحارث» من شبهات «الخيانة» و«عدم الولاء»[٥].

فقد عزم القائد البيزنطيّ «البطريق موريقيوس» «قومس[٦] الشّرق» أن يغزو إحدى ولايات الفرس، في النّصف الثّاني من سنة ٥٨٠م، بالاشتراك مع المنذر بن الحارث. وعندما سارت قوّاتهما حتّى الجسر الكبير المُقام على نهر الفُرات، وجدا الجسر الكبير مهدوماً، فاضطرَّ موريقيوس أن يرتدَّ خائباً، وعزا هدم الجسر إلى خيانة من جانب المنذر واتَّهَمَهُ بالتَّواطُؤِ مع الفرس. وتنازع موريقيوس والمنذر هذا الأمر بشدَّة، ولكنَّ موريقيوس تشبَّث برأيه وأصرَّ عليه، وسافر بنفسه إلى القسطنطينيَّة ليُثبت رأيه أمام الإمبراطور تيبيريوس الثّاني،

---

(١) البطريك أفتيخْيوس: أوتخيوس، أو أفتيخيوس المصريّ، ويسمّى أيضاً سعد بن البطريق، توفّي سنة ٩٣٩م، وكان بطريك الملكيّين بالإسكندرية. إدوارد كرنيليوس فانْدَيْك، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، صحَّحه وزاد عليه السَّيِّد محمّد عليّ البِبْلاويّ، مطبعة التّأليف (الهلال)، القاهرة ـ مصر، ١٣١٣هـ/١٨٩٦م، ص٧٧.

(٢) د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤.

(٣) الهَرْطَقَة: تعني عند النّصارى «البِدْعَةَ في الدين».

(٤) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٠.

(٥) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٢.

(٦) قومس: أمير.

وسعى لدى الإمبراطور للإيقاع بالمنذر بدلاً من الاعتراف بفشل حملته[١].

ولكنَّ المنذر بن الحارث، وإثباتاً لبراءته من هذه التُّهمة الملفَّقة، خرج وحده على رأس جيش كبير من العرب، وأغار على بلاد اللَّخْمِيّين، وأحرَق مدينة الحيرة، وعاد من غزوته بغنائم كثيرة. ولعلَّ هذه الغزوة كانت سبباً في أن يُطلق مؤرِّخو العرب على المنذر بن الحارث لقب «المُحَرِّق»، وإن كانوا قد أطلقوه خطأً على ابنه «جفنة الأصغر»، وبه سُمِّيَ خلفاؤه بـ«آلِ المُحَرِّق»[٢].

وذكر هذه الحادثة أحد مُعاصِريها، وهو الشّاعر الحيْرِيُّ «عَدِيُّ بن زَيْد»، وذكرها أيضاً بعض «كَتَبَةِ العرب» ولكن من دون أن يُعيِّنوا اسم الأمير الغسّانيّ الذي كانوا يجهلونه على ما يظهر.

ويُستنتج من قول «عَدِيِّ بن زيدٍ» أنَّ المنذر بن الحارث إنَّما نجح في هذه الغزوة لأنَّ ملك الحيرة كان وقتئذٍ غائباً عن عاصمته.

ولكنَّ هذا النَّصر السّاحق الذي حقَّقه المنذر بن الحارث على اللَّخميّين زاد في عداوة الرّوم له[٣]؛ لأنَّهم اعتبروه تحدّياً سافراً لجيشهم بعد فشله في غزو الحيرة، ورغبةً من المنذر في الخروج على طاعة الرّوم[٤]، فعزموا على الانتقام منه[٥].

وإذا تمَّ أخذ هذه الاتِّهامات في الاعتبار، وأُضيف إليها تأثير «الاختلافات المذهبيَّة» بين الطَّرفين، والتي أدَّت إلى ارتياب الرّوم بالجَفنيّين عموماً، يمكن إدراك أسباب حقد الرّوم آنئِذٍ على المنذر بن الحارث[٦].

ويرى «الأب غوبير اليَسوعيُّ» أنَّ موريقيوس كان مُحِقّاً في شكواه، وأنَّ هنالك ما يدعو إلى الشَّكِّ في أمانة المنذر بن الحارث، وإلى الظَّنِّ بأنَّه كان

---

(١) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٢ ـ ١٣٣. وانظر أيضاً: ثيودور نولدكة، م. س، ص٢٩. وانظر كذلك: أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٦. ود. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٤.

(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، المصدر نفسه.

(٣) ثيودور نولدكة، م. س، ص٢٩ ـ ٣٠.

(٤) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥١٤.

(٥) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٧.

(٦) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٠.

يتوخّى «الاستقلال» بدافع الطُّموح الشَّخصيّ والسَّعْيِ لرفع الضَّيم عن إخوانه أصحاب «الطَّبيعة الواحدة»[1].

ونتيجة لهذه الاتّهامات، فقد صدرت الأوامر، من الإمبراطور تيبيريوس الثّاني في ربيع سنة ٥٨١م. إلى «ماكنوس (ماجنوس، ماغنوس) Magnus» حاكم سورية الرّومانيّ، بالقبض على المنذر بن الحارث، وإرساله إلى العاصمة الإمبراطوريَّة، على الرُّغم من أنَّ هذا الحاكم كان صديقاً للمنذر ووَلِيَّه[2].

القبض على المنذر بن الحارث

لم يجد ماكنوس بُدّاً من تنفيذ أمر الإمبراطور بالقبض على المنذر بن الحارث، فأرسل إليه يدعوه إلى حضور حفل افتتاح «كنيسة» شيَّدها في بلدة «حُوّارين»[3] بين تدمر ودمشق، والتي كانت قد ارتفعت حديثاً إلى مرتبة «المدن»، وكان مَدْعُوّاً لهذه الحفلة أيضاً «بطريرك أنطاكية» نفسه. فانخدع المنذر بن الحارث بهذه الدَّعوة، ووقع في الكمين، فما كاد يبلغ «البلدة» حتّى تمَّ القبض عليه وإرساله مخفوراً إلى القسطنطينيَّة مع ابنين وبنت له وإحدى نسائه، حيث أقاموا في حالة الأسر ولكن مع شيء من الحُرِّيَّة[4].

وحدث هذا الأمر أوائل سنة ٥٨٢م، فلما توفي تيبيريوس الثّاني في ١٤ آب سنة ٥٨٢م. خلفه موريقيوس (٥٨٢ ـ ٦٠٢م)، عدوّ المنذر بن الحارث الألَدّ، الذي قام بنفيه مع رجل آخر من كبار الحاشية يدعى «سِرجِيوس» إلى «صقليَّة» (يوحنّا الأفَسُسِيِّ ص١٤٧)، حيث توفّي هناك في العام نفسه[5].

---

(١) د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٥.

(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٧. وانظر أيضاً: د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٣. وانظر كذلك: د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٥.

(٣) حُوّارين: قرية من قرى حلب.

(٤) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٠ ـ ٣١. وانظر أيضاً: أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٧.

(٥) ثيودور نولدكة، المصدر نفسه، ص٣١. وانظر أيضاً: د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٣. وانظر كذلك: د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٩.

كما أمر موريقيوس بقطع المعونة السَّنويَّة التي اعتادت الدَّولة البيزنطيَّة أن تقدِّمها إلى أسرة الغساسنة الحاكمة[1].

مدَّة حُكم المنذر بن الحارث

دام حُكم المنذر بن الحارث نحواً من ثلاث عشرة سنة[2].

تمرّد أولاد المنذر بن الحارث

أثار اعتقال المنذر بن الحارث وقطع المعونة السَّنويَّة عن دولة الغساسنة غضب أولاد المنذر الأربعة، فشقّوا عصا الطّاعة على الرُّوم، وتركوا ديارهم وتحصَّنوا بالبادية بقيادة أخيهم الأكبر «النُّعمان بن المنذر».

ثمَّ جعلوا البادية مركزاً لشنِّ الغارات على حدود سورية، وأخذوا ينهبون ويخرِّبون كلَّ ما صادفهم، ويقول يوحنّا الأفَسُسِيّ: إنَّهم لم يلجأوا إلى القتل أو الحرق.

وتعرَّضَت مدينة «بُصرى» لغاراتهم، حيث ألقوا الرعب في قلوب حاميتها واضطرّوها أن تتخلّى لهم عن «الذَّخائر الحربيَّة» وغيرها من أموال «أبيهم» التي صادَرَتْها الدَّولة البيزنطيَّة منهم والمحفوظة فيها، وبينها «تاج المنذر». وقد دامت هذه الحالة على ما هي عليه مدَّة طويلة.

ولم يَسَعِ الإمبراطور موريقيوس إلّا أن يُعِدَّ حملة تأديب لأبناء المنذر بن الحارث لإيقاف تلك الغارات، وجعل على قيادة تلك الحملة الحاكم ماكنوس، وسَيَّرَ معه ابناً آخر للمنذر ليخلِف المنذر على إمارة الغساسنة، ولكنَّ هذا «الأمير الغسّانيّ» توفّي بعد أيام. ويقول نولدكة بأنَّ ذلك الأمير كان «أخاً» للمنذر بن الحارث وليس «ابناً» له، وذلك بقوله: والأرجح أن هذا الأمير هو أحد «إخوة المنذر» الذين وصفهم الكاتب «اليعقوبيّ» بقوله: «إنَّهم غير مؤمنين».

وفشلت الحملة على الرُّغم من أنَّ ماكنوس تمكّن بطريق الخدعة والدَّهاء من القبض على النُّعمان بن المنذر، وإرساله أسيراً إلى القسطنطينيَّة في سنة ٥٨٣م[3]،

---

(١) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٩.

(٢) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣١.

(٣) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٧. وانظر أيضاً: د. أسد رستم، م. س، =

وقال بعضهم إنَّ الأسْرَ حدث عام ٥٨٤م[١].

القبض على النُّعمان بن المنذر

لمّا كان من الصُّعوبة بمكان مهاجمة أبناء المنذر بن الحارث في البادية، عمدت الحكومة البيزنطيَّة إلى المكيدة، فعهدت إلى ماكنوس بتدبير الأمر. فأرسل ماكنوس إلى النُّعمان بن المنذر يطلب منه اللّقاء من أجل الاتّفاق على «عقد الصُّلح». فلمّا تلقَّى النُّعمان بن المنذر رسالة القائد البيزنطيّ لم يفطِن إلى تلك المكيدة وسار إلى ماكنوس الذي خدع أباه من قبل. وما إن وصل إلى مقرِّ الحاكم البيزنطيّ لبلاد الشّام حتّى تمَّ القبض عليه وإرساله أسيراً إلى عاصمة الإمبراطورية سنة ٥٨٤م[٢]. فلمّا بلغها أَمَرَ الإمبراطورُ بأن يُعامَلَ معاملة «أسيرٍ حُرٍّ» رغماً عن أنَّ جميع كبار الدَّولة أشاروا بقتله[٣].

وعندما طالت الحرب مع الفرس وحَمِيَ وطيسُها، وشعر موريقيوس بالحاجة إلى مَن يُوَحِّدُ كلمة «القبائل العربيَّة» في سورية ويقودها إلى الحرب ضدَّ الفرس، اسْتَحْضَرَ النُّعمان بن المنذر سنة ٥٨٤م. ووعده بإرجاع والده من المنفى، ثمَّ طلب إليه أن يحارب الفرس معه وأن يعتنق «الأُرْثوذُكْسِيَّة». فأجابه النُّعمان بأنَّ جميع قبائل «طيّ» «يعاقبة»، وأنَّهم يذبحونه ذبحاً إن هو تَقَبَّلَ قرار «المجامِع». فغضب «موريقيوس» وأمر بسجنه ثمَّ أَلْحَقَهُ بوالده[٤].

مدة حُكم النُّعمان بن المنذر

ذكر حمزة الأصفهانيّ أنَّ النُّعمان بن المنذر حَكم سنة واحدة[٥].

تصدُّع إمارة الغساسنة

أعقب أسْرَ النُّعمان بن المنذر تَصَدُّعٌ في مُلْكِ الغساسنة، وانقسام أمرائهم على أنفسهم، وتفكَّكت وحدة «عرب سورية»، وسادت الفوضى أرجاء بادية

= ج١، ص٢٠٥. وانظر كذلك: ثيودور نولدكة، المصدر نفسه، ص٣١ ـ ٣٢.

(١) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٣ ـ ١٣٤.

(٣) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٣.

(٤) د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٥) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٣.

الشّام إلى حدٍّ أنَّ كلَّ قبيلة اختارت لها أميراً. ويذكر نولدكة أنَّ «عرب غسّان» بعد القبض على النُّعمان بن المنذر تفرّقوا وانقسموا إلى ١٥ فرقة لكلٍّ منها رئيس[١]. ولا ريب، عند نولدكة، في أنَّ هؤلاء «الأمراء الجدد» كانوا من أولئك «الرؤساء الأقدَمين» الذين تقلَّص قسم كبير من سلطتهم ونفوذهم في أيام الحارث والمنذر[٢].

ودخلَت بعض هذه «الفِرَقِ» في سلطان الفرس[٣]، ومعنى ذلك، في نظر نولدكة، أنّه إمّا أن تكون هذه الفِرق قد أمعنت في الصَّحراء حيث لا حدود معيَّنة، أو انتقلت بكاملها إلى «المقاطعات الفارسيَّة»[٤].

ورحلت بعض الفرق إلى بلاد الرّوم، واعتنقت هناك «مذهب الطَّبيعتَيْن». ورحل بعضها الآخر إلى «قباذق Cappadocia»[٥].

وتبع ذلك أن بدأت القبائل تتطاحن فيما بينها بعد أن فقدت زعيمها وملكها، وبدأت تُغير على المناطق المتحضِّرة من سورية، وتعيث فساداً في المناطق المعمورة، وتسطو بلا خوف ولا وجل على أموال الفلّاحين المتحضِّرين فتنهب مواشيهم وتحصد دون أن تزرع[٦]، الأمر الذي حمل الرّوم على التَّفكير في وجوب إقامة «عامِلٍ أكبرَ» جديداً مكان المنذر بن الحارث، وقد رأوا أن يكون هذا العامل من «آل جفنة» أيضاً لِما كان لهؤلاء الأمراء في الماضي من الهيبة في قلوب جميع «القبائل البدويَّة»[٧].

ويختلف «الأخباريّون العرب» في ذِكر أسماء «أمراء غسّان» بعد المنذر بن

(١) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٢) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٤ ـ ٣٥.

(٣) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٧.

(٤) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٥.

(٥) قباذق: ولاية واسعة في بلاد الروم حدّها جبال طرسوس وأذنة والمُصَيْصَةَ وفيها حصون، منها: قرّة وخضرة وأنطيغوس، ومن مدنها المعروفة قونية وملقونية. ياقوت الحَمَوِيّ، م. س، ج٤، ص٣٠٣.

(٦) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٧) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٥. وانظر أيضاً: أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، المصدر نفسه، ص٢٠٨.

الحارث اختلافاً كبيراً، في الوقت الذي ينقطع «الأخباريّون اليونان» عن الحديث عنهم.

وقد برز من بين هؤلاء «الحارث الأصغر بن أبي شَمِرٍ الغسّانيّ»، الذي استعاد «مُلْكَ الغساسنة»، فقام بغزو قبيلة «عوف بن مُرَّة» في أعالي «الحجاز»، كما حارب قبيلتَي «أسَدٍ»[1] و«فزارة» وأسَرَ كثيراً من رجالهم، وعاد إلى عاصمة المملكة بعد أن دانت له بالطّاعة والولاء[2].

ولمّا توفّي الحارث الأصغر خلفه ابنه «النُّعمان»، الذي سار على نهج أبيه في العمل على استعادة نفوذ الغسّانيّين[3]، فتمكّن مع أخيه «عَمْرٍو» من توطيد سلطان الغساسنة على القبائل العربية في «نجد» والنَّواحي الشَّماليَّة من «بلاد الحِجاز»[4].

كما قام النّعمان بن الحارث الأصغر بغزو «بكرٍ» و«تميم» وألحق بهم خسائر كبيرة، وغزا مملكة الحيرة حوالي سنة ٦٠٠م، وأحرز انتصارات عظيمة، فمدحه النّابغة الذُّبيانيُّ بقوله:

إنْ يَرْجِعِ النُّعْمانُ نَفْرَحْ ونَبْتَهِجْ   وَيَأْتِ مَعْداً مَلِكُها ورَبِيعُها
وَيَرْجِعُ إلى غَسّانَ مُلْكٌ وَسُؤْدَدٌ   وَتِلْكَ التي لَوْ أنَّنا نَسْتَطيعُها[5]

ولكن على الرَّغم من محاولة بعض الأمراء الغساسنة استعادة مُلكهم، فإنَّ قِصَرَ مُدَدِ حُكمهم، وضَعفهم نتيجة افتقادهم للزَّعامة والوحدة السّياسيَّة، أدّى إلى قيام ملك الفرس «كسرى أبرويز» بمهاجمة «بلاد الشّام» واستيلائه على

(١) قبيلة أسد: تعد قبيلة أسد من القبائل الحربية، التي سجل لها التاريخ كثيراً من الحروب والغزوات في الجاهلية والإسلام، فقد حاربوا في الجاهلية القبائل الآتية: طيء، عامر بن صعصعة، جشم بن معاوية، عبس، وغسّان. ومن أيامهم يوم النسار، ويوم حجر. وأما تاريخهم في الإسلام، فيبدأ بقدوم وفدهم إلى النبي ﷺ سنة (٩هـ/ ٦٣٠م)، وهو مؤلف من عشرة رهط، فقال متكلمهم: يا رسول الله إنا نشهد أن الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله، وجئناك ولم تبعث إلينا بعثاً، وقد ارتدت عامة بني أسد عن الإسلام. ومن أشهر أيامهم في حروب الردة يوم بزاخة. عمر رضا كحالة، م. س، ص٢٣.

(٢) جواد عليّ، م. س، ج٤، ص١٥٢.

(٣) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٤.

(٤) جواد عليّ، م. س، ج٤، ص١٥٢.

(٥) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٥.

«بيت المقدس» ودمشق (٦١٣ ـ ٦١٤م)، من دون أن يجد من يقف في وجهه، أو يعترض طريق تَقَدُّمِه، من جرّاء الفوضى السّائدة في بلاد الشّام[1].

وممّا لا شكَّ فيه، أن دخول الفرس إلى بلاد الشّام، في سنة ٦١٣م. وما يليها، قضى على «مُلْكِ بني جفنة»، فتفرَّقوا في الصَّحراء أو في بلاد الرّوم. وممّا لا شكَّ فيه أيضاً، أنَّه في الفترة من دخول الفرس الشّام في تلك السَّنة وخروجهم منها على أيّام «هرقل» في سنة ٦٢٩م، لم يَتَوَلَّ «أمير غسّانيّ» «بلاد الشّام الجنوبيَّة». ويَذكُر الشّاعر حسّان بن ثابت أنَّ «كسرى الثّاني أبرويز» قتل أحد أمرائهم[2].

ولكن فيما يبدو، فإنَّ «هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م)»، قيصر القسطنطينيَّة، استعمل الغساسنة مرَّة أخرى حين نجح في استعادة سورية سنة ٦٢٩م، بدليل أنَّهم قد حاربوا «المسلمين» مِراراً في جانب الرّوم، وأنَّ «خالد بن الوليد رضي الله عنه» قد أوْقَعَ بهم في «مَرْجِ الصَّفَرِ» جنوب دمشق سنة ٦٣٤م[3].

وقد اختلَفَت واختلَطَت وتضارَبَت المعلومات عن أمراء الغساسنة بعد هذه المرحلة، وكان مصدر هذه المعلومات بالدَّرجة الأولى هو «قصائد الشُّعراء». ولكنَّ هذه القصائد حملت تشابهاً في الأسماء بين الأمراء بحيث لا يمكن بسهولة تحديد مَن المقصود بـ«أبيات الشِّعر»، خاصَّة مع تكرار أسماءٍ مثل: الحارث والمنذر والنُّعمان، إضافة إلى وجود حقبات تاريخيَّة مجهولة بين ورود اسم وآخر. ولهذا فقد تمَّ تجاوز هذه الاختلافات في هذا البحث، مع إيراد الأهمّ من القليل الذي اتَّفق عليه المؤرِّخون.

وكان «جبلة بن الأيْهَم» آخر ملوك البيت الغسّانيّ الذي استعان به الرّوم بعد استردادهم السَّيطرة على بلاد الشّام. وقد اشترك جبلة بن الأيْهَم مع الرّوم في موقعة «اليرموك» سنة (١٣هـ/ ٦٣٦م)، والتي أحرز فيها المسلمون نصراً مؤزّراً[4].

(١) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢٠٨. وانظر أيضاً: د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٥.

(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، المصدر نفسه.

(٣) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥١٥.

(٤) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٣٥.

على أنّ روايةً أخرى تذهب إلى أنّه قد انحاز إلى جانب «الأنصار»، قائلاً: «أنتم إخوَتُنا، وبنو أبينا»، وأظهَر «الإسلام». إلّا أنّه قد ارتدَّ بعد ذلك عنه بسبب إهانةٍ لَحِقَتْهُ حين وَطِئَ أعرابيٌّ من «فَزارَة» فَضْلَ إزاره وهو يسحبه في الأرض في «مكّة المكرّمة»، فلطمه جبلة بن الأيْهَم. فنابَذه الأعرابيّ إلى «الخليفة الرّاشد عمر بن الخطّاب» ﷺ وأرضاه، فحَكم له بالقَصاص، واعتبر جبلة ذلك إهانةً له، ففَرَّ إلى بلاد الرّوم وارتدّ عن الإسلام، وبقي هناك حتى وافَتْهُ مَنِيَّتُه[1].

المناذرة ملوك الحيرة

كان «النُّعمان الأوّل» أوّل ملِك من ملوك الحيرة استطاع «المؤرِّخون المُحْدَثون» أن يتتبَّعوا سيرته بشيء، ولو قليل، من التّأكيد. ويُعتبر «النُّعمان الأول» من أشهر ملوك الحيرة، وقد حَكم بين سَنَتَيْ (٤٠٠ ـ ٤١٨م)، وكان يُلَقَّب بـ«الأعور»، وهو باني «الخَوَرْنَق» و«السَّدير»، وله في بناء قصر «الخَوَرْنَق» قصّة طالما ردَّدها الأخباريّون، وملخَّصُها أنَّ «النُّعمان» قد أمر ببانيه «المهندس البيزنطيّ سِنِمّار»، فأُلْقِيَ من أعلى ذروةٍ فيه فقضى نَحْبَه، فذهب ذلك مَثَلاً بين النّاس: «جَزاءُ سِنِمّار». ومردُّ ذلك لأن المهندس كان يعلم مكان «حَجَرٍ» لو أُزيل من مكانه لانْهَدَمَ «القصر» بأكمله، فأمَرَ «النُّعمان» بطَرحِه من أعلى القصر خوفاً من معرفة أعدائه بمكان «الحجر».

وكانت تحت إمْرَةِ النُّعمان كتيبتان عسكريّتان، الأولى «فارسيّة»، وهي «الشَّهباء»، وقد ساعده الفرس في تشكيلها بـ«ألف جنديّ» أقاموا لديه، والثّانية «عربيّة»، وهي «الدَّوْسَر»، وقد اشتهرت بقوّة بأسِها وشدّة بطشِها، حتّى ضُرِبَ بها المَثَل: «أبْطَشُ مِنْ دَوْسَر»، وكان يغزو الشّام بهما. كما كان يوجد إلى جانبهما ثلاث كتائب أخرى «غير نظاميّة»، وهي: الرَّهائن، والصَّنائع، والوضائع. وقد وصف الأخباريّون «النُّعمان بكونه رجلاً حازماً قويّاً، ومحارِباً من أشدِّ النّاس نكايةً بعدوِّه»، وقد غزا عرب الشّام من الغساسنة فسَبى منهم وغَنِمَ غنائمَ عظيمة[2].

---

(١) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥١٥.

(٢) توفيق بِرّو، م. س، ص١٢٩.

واشتهر من ملوك الحيرة أيضاً «عَمْرو بن هِنْد (٥٥٤ ـ ٥٧٤م)»، ولقبه «مُضَرِّطُ الحجارة»[1]، وأُمُّهُ «هندٌ» التي يَنتسب إليها، هي «ابنة الحارث الكِنْدِيّ»، وعَمَّةُ «الشّاعر امْرِئِ القَيْس»، فهو «كِنْدِيٌّ (من قبيلة «كِنْدَة»)» من جهة أُمِّه.

وكان «عَمْروٌ» شديد البأس، قويَّ الشَّكيمة، مع زُهُوٍّ وكبرياءٍ وغطرسة، فهابَتْه العرب. وقد استغلَّ ضَعف «كِنْدَة» ليُوَسِّعَ نفوذه فيما يلي الحيرة من «شبه الجزيرة العربيَّة»، وحارب قبائل «تَميم» و«طَيْءٍ» و«تَغْلِب»، فكسرها وأخضعها. وكان سبب غزوه لتَغْلِبَ أنَّه طلبَ من وجوهها مساعدته للأخذ بثأر أبيه من الغساسنة، فامتنعوا، فغزاهُم وفتك بهم، وأمّا غَزوه لتَميمٍ في «يوم أوارَةَ الثّاني» فكان سببه رغبتِه في الانتقام لأخيه[2].

وقيل: إنَّ عمرَو بن هند، ملك الحيرة، قال يوماً لجلسائه: هل تعلمون أحداً من العرب تأنَف أمُّه من خدمة أمّي؟ قالوا: نعم، أمّ عمرِو بن كلثوم. قال: ولم؟ قالوا: لأنَّ أباها مُهَلْهِلُ بن ربيعة، وعمَّها كُلَيْبُ وائلٍ أعَزِّ العرب، وبَعْلُها كُلْثوم بن مالك أفرَس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم وهو سيِّد قومه ولَيْثُ كتيبته. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرِو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن تزور أمُّه أمَّه. فأقبل ابن كلثوم من الجزيرة في جماعة من بني تَغلِب، وأقبلت «ليلى» أمُّه في ظَعْنٍ[3] منهم. وأمر عمرو بن هند برُواقِهِ[4] فضُرِبَ (نُصِبَ) في ما بين الحيرة والفرات، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا، ودخل ابن كلثوم إلى جانب الرّواق، وكان بين الاثنين صلة نسب، قالوا: وقد كان

---

(١) مُضْرِطُ الحجارة: كانت العرب تسمّيه «مُضرِطَ الحجارة» لهيبته، وتسمّيه «مُحَرِّقاً» أيضاً. أبو البقاء هِبة الله محمّد بن نما الحِلّيّ، المناقب المَزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة، تحقيق محمّد عبد القادر خريسات، صالح موسى درادكة، مكتبة الرّسالة الحديثة، عمّان ـ الأردنّ، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج١، ص١٢٩.

(٢) توفيق بِرّو، م. س، ص١٣٣.

(٣) الظَّعْن: الارتحال من مكان إلى آخر. **والظَّعينَة**: الدّابَّة يُرْتَحَلُ عليها. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٠٠. **والمقصود هنا**: إنّ ليلى أُمّ عمرِو بن كلثوم قدِمَت في قافلة من بني تَغلِب.

(٤) الرُّواق: بيت كالفُسْطاط (بيت يُتَّخَذُ من شَعر) يُحمل على عمود واحد طويل. المصدر نفسه، ص٢٨٢ و٤٧١.

عمرو بن هند أوصى أمَّه أن تُنَحّي الخدم إذا دعا بالطُّرف[1]، وتستخدم «ليلى». فلمّا فعل، قالت هند لزائرتها بعد أن اطمأنَّ بها المجلس: ناوليني يا «ليلى» ذلك الطَّبق. فقالت «ليلى» في نفور وأَنَفَة: لِتَقُمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت هند عليها وألحّت. وإذ ذاك صاحت «ليلى»: واذُلّاه، يا لتَغلِب. فسمعها ابنها فثار الدَّم في وجهه، وانتفض انتفاضة المحموم وقال: لا ذُلَّ لتَغلِب بعد اليوم. ثمَّ نظر حوله فإذا سيف معلّق بالرّواق ليس هناك سيف غيره، فوثب إليه مهتاجاً وأطاح به رأس ابن هند. وأنشد يومئذٍ معلَّقته مرتجلاً:

أَبَا هِـنْـدٍ فَـلَا تَـعْـجَـلْ عَـلَـيْـنَـا ... وَأَنْـظِـرْنَـا نُـخَـبِّـرْكَ الـيَـقِـيـنَـا
بِـأَنَّـا نُـوْرِدُ الـرَّايَـاتِ بِـيـضَـاً ... وَنُـصْـدِرُهُـنَّ حُـمْـرَاً قَـدْ رَوِيـنَـا

* * *

أَلَا لَا يَـجْـهَـلَـنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا ... فَنَجْـهَـلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا
بِـأَيِّ مَـشِـيـئَـةٍ عَـمْـرَو بْـنَ هِـنـد ... تُـطِـيْـعُ بِـنَـا الـوُشَـاةَ وَتَـزْدَرِيـنَـا
تَـهَـدَّدْنَـا وَأَوْعِـدْنَـا رُوَيْـدَاً ... مَـتَـى كُـنَّـا لأُمِّـكَ مَـقْـتَـوِيـنَـا

* * *

عَـلَـى آثَـارِنَـا بِـيـضٌ حِـسَـانٌ ... نُـحَـاذِرُ أَنْ تُـقَـسَّـمَ أَوْ تَـهُـونَـا

* * *

إذا لَـمْ نَـحْـمِـهِـنَّ فَـلا بَـقِـيـنـا ... لِـشَـيْءٍ بَـعْـدَهُـنَّ ولا حَـيِـيـنـا[2]

كُره المناذرة الغساسنة

كان من نتائج العداء بين الغساسنة وعرب الحيرة أن اشتدَّ كُره عرب الحيرة لكلِّ مَن اعتنق مذهب «الطَّبيعة الواحدة للمسيح عليه السلام»، ولهذا تقرَّبوا من «الكنيسة الأرثوذكسيّة الأُمّ». وعندما انتهت الحرب بين فارس والرّوم في مصلحة الرّوم، طلب النُّعمان ملك الحيرة أن يتلقّى «المَعْمودِيَّة»[3] على يد

(١) الطُّرْفَة: كلّ شيءٍ مُسْتَحْدَثٍ عجيب، وهي المستفاد من المال حديثاً، والجمع: طُرُف. المعجم الوجيز، م. س، ص٣٩٠. **والمقصود هنا**: الهدايا التي تُقَدَّم للضّيوف.

(٢) مجلّة البحوث الإسلاميّة، الرّئاسة العامّة لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدّعوة والإرشاد، الرّياض ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ج٢، ص٢٤٤.

(٣) المَعْمودِيَّة: تعني «غطس، غسل». فالعماد تغطيس أو غسل. ورمزية الماء كعلامة تطهير أو حياة. والمعمودية كثيرة الشيوع في تاريخ الأديان. =

«كاهن أرثوذكسيّ» في «الرُّصافة» وتلقّاها معه رجاله. وكان خالص النِّيَّةِ فيما فعل، فعندما عاد إلى الحيرة رمى بتمثال «الزُّهَرَةِ» الذَّهبيّ في النّار، وجمع ذَهَبَه بعد انصهاره ووزَّعه على الفقراء. ولعلَّ «الكاهن الأرثوذكسيّ» الذي عَمَّدَ النُّعمان ورجاله هو البطريرك الأنطاكيّ «غريغوريوس»، فهو الذي كرَّس تَقْدِماتِ «أبرويز» وزوجته النَّصرانيَّة «سيرين» على اسم «القديس سِرجيوس» في «الرُّصافَة (سيرجيوبوليس)». وانطلق البطريرك بعد ذلك من الرُّصافة إلى البادية يَرُدُّ «الضّالين» في «القرى» و«الأدْيِرَة» إلى «الدّين المستقيم»، وعاد إلى أحضان «الكنيسة الأُمّ» بعد هذا «النّصر» كثيرون في سورية والعربيَّة[1] وأرمينية و«بلاد الكرج (جورجية)» ممَّن سبق لهم أن قالوا بـ«الطَّبيعة الواحدة». وتعدَّدَت «البنايات» و«الإنشاءات الدّينيّة الأرثوذكسيَّة» في الأردن و«البَثَنِيَّة»[2] و«حَوران» في «مأدبا» و«مَعان» و«جرش» و«الجَولان» و«الجيزة» بين «بُصرى» و«درعة (درعا)» وفي «الطَّيبة» و«غاريا الغربيَّة» وفي «قَسَم» وفي «حياة» بالقرب من «الشَّهباء»[3].

الفرس والمناذرة والغساسنة

أصبح «الأكاسِرَةُ (ملوك الفرس)» في الأيّام الأخيرة لمملكة الحيرة قليلي الثِّقة بملوك المناذرة. والواقع أنَّ أمْرَ المناذرة قد تضعضع أثناء الفتنة التي حدثت قُبيل اغتصاب «الحارث بن عَمْرو الكِنْدِيّ» لعرش الحيرة، فاغتنم الفرس هذه الفرصة لكي يُحكموا قبضتهم في عنقهم، ومالوا إلى فرض

= ومعمودية الماء والروح هذه بدأت في عماد يسوع المسيح عليه السلام، الذي يمهد لعماد أتباعه. ويرى بولس العماد المسيحي وقد أنبئ به في عبور البحر الأحمر، الذي خلص بني إسرائيل من العبودية (زمن موسى عليه السلام). معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٩٩١م، لمزيد من التفصيل انظر ص٧٥٤ ـ ٧٥٥ وما بعدها.

(١) العربيّة: الولاية العربيّة التي أحدَثها «تراجان» بُعيد احتلال البتراء، وجعل عاصمتها «بُصرى». د. نقولا زيادة، المسيحيّة والعرب، الأعمال الكاملة، الدار الأهليّة، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٢م، ص١٠٩.

(٢) البَثَنِيّة: اسم ناحية من نواحي دمشق، وقيل: هي قرية بين دمشق وأذرعات. ياقوت الحَمَوِيّ، م. س، ج١، ص٣٣٨.

(٣) د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.

حكمهم المباشر عليهم إلى أن اعتلى «النُّعمان الثّالث أبو قابوس»[١] (حوالي ٥٨٠ ـ ٦٠٢م)[٢]»، العرش. كما شعروا بأنَّ الحاجة إليهم لم تَعُدْ كما كانت بعد أن سُوِّيَتِ الأمور بين الفرس والرّوم إثر الهدنة التي عُقِدَتْ بين الطّرفين في منتصف القرن السّادس الميلاديّ، وهو الزّمن الذي قُتل فيه «المنذر الثّالث ابن ماء السّماء اللَّخْمِيّ» على يد «الحارث بن أبي شَمِرٍ الغسّانيّ». ولم تبقَ الحروب بين الغساسنة والمناذرة على الحِدَّةِ نفسِها التي كانت عليها من قبل، الأمر الذي كان من شأنه أن يُدخل القلق إلى نفوس الفرس، فيجعلهم يتحسَّبون لِما قد يلفِت اهتمام المناذرة إلى تقوية دولتهم وتهديد «السَّيطرة الفارسيَّة»، لا سيَّما وأنَّ سياسة كلٍّ من الفرس والرّوم في ضرب «الإمارتين» إحداها بالأخرى، كانت ترمي إلى هدفين معاً: إضعافَهما من جهة، وجعلهما مِجَنّاً تحتميان وراءه من جهة أخرى، وقد خفَّف قلقَ الفرس من ناحية الغساسنة كَوْنُ العلاقات قد ساءت بين هؤلاء وبين حلفائهم الرّوم، وضَعُفَ شأنهم ولم يَعُدْ ثمّة خطرٍ يُهدّد الفرس من جانبهم. وخوف الفرس من المناذرة جعلهم يتَّخذون ضدَّهم تدابير شديدة، منها ألّا يُقِرّوا على «إمارة الحِيْرة» إلّا مَن يَثِقون به.

وفي هذه الحقبة من الزّمن، التي امتدَّت ما بين النّصف الأول من القرن السّادس الميلاديّ وأواخره، ارتفع شأن أسرة من «تميم بن مُرّ»، قَدِمَ جدُّها الأكبر «أيّوب بن محروف» من محلّ إقامته في «اليَمامَة»[٣] إلى الحيرة، وكان على «النّصرانيَّة»، فتقرَّب من الأكاسرة ومن ملوك الحيرة أيضاً، وأصبح عددٌ من أولاده وأحفاده، واحداً بعد الآخر، كُتّاباً في «ديوان كسرى»، لِتَضَلُّعِهم بـ«الفارسيَّة» و«العربيَّة»، وتولّى أحدهم، «زيد بن حمّاد»، «مصلحة البريد» لدى

(١) توفيق بِرّو، م. س، ص١٣٧. (٢) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٩.

(٣) اليَمامَة: مدينة متصلة بأرض عُمان من جهة الغرب مع الشّمال، كان اسمها جوّا، وسمِّيت اليمامة باسم امرأة، وهي الزّرقاء، زرقاء اليمامة، وهي المشهورة في الجاهليّة بجودة النّظر وصحّة إدراك البصر. وفُتِحَتِ اليمامة صلحاً في سنة اثنتي عشرة في خلافة الصِّدّيق رضي الله عنه، على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه، بعد أن قَتل مسيلمة الكذّاب دجّال بني حنيفة. الحِمْيَرِيّ، الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبّاس، مؤسّسة ناصر للثّقافة، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٩٨٠م، ج١، ص٦٢٠.

كسرى، والتي كانت عند الفرس بمثابة «دائرة استخبارات» تستطلع له أخبار رعيَّته. وقد خدَمت هذه العائلة الفرس وأخلَصت لهم، وكانت «العين الرَّقيبة» لهم على أمراء الحيرة[١]، واشتهر من أفرادها «الزِّبْرِقانِ» الذي كان يُعَدُّ حوالي سنة ٦٣٢م. من أشهر رجال «بني تميم»[٢].

وكان في تاريخ الغساسنة في هذه الفترة شيء من الغموض والاضطراب[٣]. ولكن بعد الفوضى التي عمَّت بلاد الشّام وما جاورها بعد اعتقال المنذر بن الحارث وابنه النُّعمان، وما تَبِعَ ذلك من غزو الفرس لتلك البلاد ولمناطق أخرى من الإمبراطورية البيزنطيَّة ثمَّ ردِّهم عنها، أدرك «ساسة الرّوم» أنَّه لا أمان لـ«الأطراف الصّحراويَّة» ولـ«قوافل التّجارة البرّيَّة» إلّا إذا عادت «الزّعامة» إلى أهلها من الغساسنة.

ومن هنا ظهرت أسماء «أمراءِ جُدُدٍ» عاصروا ظهور «الإسلام»، ومنهم «الحارث بن أبي شَمِرٍ الغسّانيّ» أمير «مُؤْتَة» الذي أرسل إليه «الرّسول» عليه الصّلاة والسّلام مع «شجاع بن وهب» في العام السّادس للهجرة بكتابٍ يقول فيه: «بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم. من محمَّد رسول الله إلى الحارث بن أبي شَمِر. سلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهدى وآمَن به وصدَّق. وإنّي أدعوك أن تُؤمِن بالله وحده لا شريك له. يبقى لك مُلكك». وأبَىٰ الحارث الإسلام، فَسَيَّرَ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام حملة ضدَّه بقيادة «زيد بن حارثة الكَلْبيّ».

وكان منهم أيضاً «جبلة بن الأيْهَم» آخر الأمراء الكبار من الغساسنة، وقد عاصر «الفتح الإسلاميّ» لبلاد الشّام. وقيل: إنَّه أسلم في عهد «عمر بن الخطّاب رضي الله عنه» ثمَّ ارتدَّ عن الإسلام لأسباب اختلفت روايات المؤرِّخين بشأنها[٤].

(١) توفيق بِرّو، م. س، ص١٣٧.

(٢) ثيودور نولدكة، م. س، ص٣٩.

(٣) توفيق بِرّو، م. س، ص١٤٦.

(٤) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٦٠ ـ ١٦١.

الفَصْلُ الخَامِسُ

الغساسنة والنّصرانيّة

وصول الدَّعوة النَّصرانيَّة إلى العرب

وصلت «النَّصرانيَّة» إلى المنطقة العربيَّة بُعيد انتقال[1] «المسيح ﷺ»، ببضع سنوات، وكان ذلك على يد «بولس»[2]. وبعد أن استولى الرّومان على «البتراء (عاصمة الأنباط)» وجدت النَّصرانيَّة سبيلها إلى بلاد «الأنباط». وبُعيد احتلال البتراء أحدَث «تراجان»[3] «الولاية العربية» سنة ١٠٥م، أو ١٠٦م. وجعل «بُصرى» عاصمتها.

وانتشرت النَّصرانيَّة بشيء من السُّرعة في تلك المنطقة، التي كان يُدعى قسم منها «بلاد أدوم» من قبل، وظلَّ هذا الاسم متداولاً لفترة طويلة. والطَّريف أنَّ انتشار النَّصرانيَّة كان في «الضَّواحي» المحليَّة للمدن «الهيلينيَّة» و«الهلينِسْتيَّة»، التي كانت تتكوّن في طبيعتها من السُّكّان «الآرامِيين»، أقوى وأسرع منه في «المدن» نفسها[4].

---

(١) انتقال المسيح ﷺ: هذا تعبير «النّصارى» عن وفاة «المسيح» ﷺ. بينما التّعبير عن ذلك في القرآن الكريم هو: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النّساء/ ١٥٧ ـ ١٥٨].

(٢) بولس: بولص في الكتابات القديمة، واسمه الأصلي شاوول، وكان يهوديّاً من فرقة الفريسيين، وكان عدوّاً للنصرانية، وخرج في سنة ٣١م إلى نواحي دمشق ليطارد كل من اعتنق النصرانية، وقال: إنه هناك، وهو في الطريق، سمع صوتاً يقول: لم تضطهدني؟ وبعدها تنصر وتحول إلى داعية ومبشر، وكتب رسائل عديدة وجهها إلى أقوام ومناطق، واشتهر باسم بولس الرسول. كتبه لموسوعة الأديان (الميسرة) م. س، أ. د. أسعد السحمراني، ص١٥٠.

(٣) تراجان: إمبراطور روماني حكم بين سنتي (٩٨ ـ ١١٧م)، وفي عهده تمكن اليهود من تدبير مذابح عديدة للنصارى ذهب ضحيتها حوالي نصف مليون نصراني في همجية لا نظير لها. مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، ج١٨٧، ص١١٠.

(٤) د. نقولا زيادة، م. س، ص١٠٩.

وقد وجدت النَّصرانيَّة لها سبيلاً بين «عرب بلاد الشّام» و«عرب بادية الشّام والعراق»، فدخلت بين سَليح، والغساسنة، وتَغْلِب، وتَنوخ، ولَخْم، وإيّاد[1].

وكانت «النَّصرانيَّة» أكثر انتشاراً من «اليهوديَّة» في «نجد»، واعتنقها «بنو تَغْلِبٍ» وجماعة من «بني أسد»، وقد انتقلت إليهم عن طريق الغساسنة و«عُبّادِ الحيرة» و«أحباش اليمن»[2].

وأوّل بعثة دينيَّة نصرانيَّة إلى «العربيَّة الجنوبيَّة» ورد ذِكرها هي البعثة التي أرسلها الإمبراطور البيزنطيّ «قسطنطين الثاني»[3] في سنة ٣٥٦م، تحت قيادة «ثيوفيلوس إندوس Theophilus Indus»، وذلك لأسباب سياسيَّة تتعلَّق بمحاولة مدّ النفوذ البيزنطيّ إلى اليمن، في فترة اشتدَّ فيها الصراع البيزنطيّ الفارسيّ حول السيطرة على منطقة بلاد الشّام وتُخومها[4].

العرب والنّصرانيّة

كانت تقوم بين الرّوم من جهة وخصومهم السّاسانيّين (الفُرس) في الشّرق من جهة أخرى، منطقة «عربيَّة» كان سكّانها، في أغلب الأحوال، مستقلّين، كما كانوا أيّام الحروب بين «السَّلوقيّين» و«الفرثيّين»؛ لأنّهم قومٌ عُنوا بالتّجارة، وكان في مصلحتهم ومصلحة الجيران المتخاصِمين أن يدَعوهم وشأنهم ليقوموا بدور التّاجر.

وكانت هذه المنطقة واسعة، وليس لها في الواقع حدود معيَّنة، وقضيَّتها هي مَن يمنح سكّانها البدو امتيازات ويقبل بعملهم، أكثر ممّا كانت قضيَّة حروب وفتح وسيطرة مباشرة. وانتظمت في هذه المنطقة، التي كانت ألْصَقَ بنهر الفرات تجاريّاً منها بنهر دجلة، شؤون «مُدُنٍ مَمالِكَ» هي: البتراء وتدمر والحيرة، فضلاً عن قبائل ظلّت لها صفة التَّنقُّل في منطقة أوسع، ومن هؤلاء «الصَّفَويّونَ» الذين أقاموا في منحدرات حوران الشَّرقيَّة حتّى «دورا» وتدمر.

وأُطلق على زعماء هذه القبائل لقب فيلاركوس، وكان هؤلاء الزعماء

---

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج١٢، ص١٦٧.

(٢) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٢٩.

(٣) قسطنطين الثاني: حكم بين سنتي ٣٣٧ ـ ٣٦١م. د. جواد علي، م. س، ج٣، ص٦٣.

(٤) لطفي عبد الوهاب، م. س، ص٣٩١.

يرتّبون أمورهم مع «الرّومان» ثمّ مع «الرّومان البيزنطيّين»[1] في الجهة الواحدة، أو مع الفرس، «فرثيين» أو «ساسانيّين»، في الجهة الأخرى. وكانت الحيرة هي النُّقطة الرَّئيسة في هذه الجهة، وكان زعماؤها، أو ملوكها، المناذِرَة أحلافاً لـ«كتيسيفون (المدائن فيما بعد)».

أمّا الجهة الغربيّة فقد تقلّب على التّحالف فيها مع «الرّومان» و«البيزنطيّين» قبيلة «سَليح» التي أقامت شرقيّ «بُصرى». وفي الوقت الذي كان فيه بنو سَليح المتزعّمين في المنطقة التي وصلها بنو غسّان في القرن الثّالث الميلاديّ، كان للضّجاعمة صِلاتٌ بالبيزنطيّين. ونَمَتْ قوّة بني غسّان مع الزّمن حتّى أصبحوا منذ سنة ٥٢٩م. حلفاء البيزنطيّين الرّسميّين. وكانت «تَنوخ» تقيم، أو تظعن[2]، في منطقة تقع بين نهر الفرات وخطّ من المدن يمتدُّ من «قِنَّسْرِينَ» إلى «حمص» عبر «حماة». وفضلاً عن ذلك، فقد كانت تقوم، بين الحين والآخر، «تجمُّعاتٌ بدويّةٌ» أفرادها «نصارى»، وكان لهؤلاء «أساقِفَةٌ» خاصّون بهم، ففي سنة ٤٢٧م. رُسِمَ «جوفنال»، «أُسْقُفُ القدّيس بطرس»، وهو زعيم بدويّ مُتحضّر، «أُسقفاً» على «المضارِب (التّجمُّعاتِ البدويّة)». وكانت القدس حتّى ذلك الوقت «أُسقفيّة»، وفي سنة ٤٥١م، في «مجمع خَلْقِدونيَة»، بدّل «جوفنال» أسقف القدس موقفه، فانضمّ إلى الحزب المؤيّد لـ«الخلقدونيّة» أي القائل بـ«الطَّبيعَتَيْن» للسَّيِّد «المسيح ﷺ»، فكوفئ على ذلك بأن جُعِلَت «القدس» «بَطْرِيَرْكِيَّةً» واختيرَ هو أوّل «بَطْرِيَرْك»[3].

دعم الغساسنة للنّصرانيّة

عندما وصل «الغساسنة» إلى مشارف الشّام في القرن الثّالث الميلاديّ، لم يُلتفت إليهم لا في «رومة (روما)» ولا في «القسطنطينيَّة» في البدء، ثمَّ تنبَّه الإمبراطور يوستنيانوس إلى

(١) انفصلت الإمبراطورية الرّومانية الشّرقيّة (الإمبراطوريّة البيزنطيّة) عن الإمبراطوريّة الرّومانيّة رسميّاً سنة ٣٩٥م، وكان انتهاؤها بغلبة العثمانييّن على القسطنطينيّة (عاصمة الإمبراطوريّة البيزنطيّة) سنة ١٤٥٣م. وقد حكمت، في القرن السّادس الميلاديّ، دول اليونان، والبلقان، وآسيا الصّغرى، وسورية، وفلسطين، وحوض البحر الأبيض المتوسّط بأسره، ومصر، وكلّ أفريقية الشّماليّة. أبو الحسن النّدويّ، السّيرة النّبويّة، دار ابن كثير، دمشق ـ سورية، ط١٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٦٩.

(٢) تظعن: ترتحل.

(٣) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٠.

الأمر، فضمَّهم إلى جماعات كان يقيم معها أحلافاً سياسيَّة، ومع الزّمن أصبحوا الأهمّ في هذه الجماعات بدءاً من أيام الإمبراطور يوستنيانوس وخلفائه.

وكان الغساسنة، مثل غيرهم، قد قبلوا «النَّصرانيَّة»، لكن الذي يجب ذِكره هنا هو أنَّ انتشار النَّصرانيَّة كان حتّى القرن الرّابع الميلادي بطيئاً، ولعلَّ أحد أسباب ذلك هو أنَّ «الخلافات اللّاهوتيّة»، التي تعرَّضت لها النَّصرانيَّة بدءاً من القرن الثّاني ومطلع الثّالث الميلاديّين، عَقَّدَتِ الأمور بالنّسبة إلى السّكّان، وللبدو خاصّة. لكن منذ القرن الخامس الميلاديّ اشتدَّت الرَّغبة في قَبولها، ويقول الدكتور أسد رستم حول هذه القضيَّة بالذَّات: «ويتبارى المؤمنون، منذ منتصف القرن الخامس حتّى الفتح الإسلاميّ، في ميدان الإنشاء، فيُحوِّلون معابد «جَرَش» و«القَنَواتِ» و«شقّا» و«بُصرى الحرير» و«أذرح» إلى كنائس. ويبني «يوليانوس» متروبوليت بُصرى في السنة ٥١٢م. «كاتدرائيَّة» فخمة جليلة، ويندفع «سِرجيوس» أسقف «مأدبا» في سبيل الإنشاء، فيَتِمُّ إنشاء «كنيسة الرُّسُل» سنة ٥٧٨م، ويؤسس «القسّ لاونديوس» في ٦٠٣م. كنيسة جديدة في «مأدبا»، ويُكمل ما أنشأه «سِرجيوس» في «إليانه». ثمَّ يلتفت إلى «صياغة (الدّير في الآراميَّة)»، فيُوَفَّقُ إلى إكمال كنيستها الكبيرة. ثمَّ تُنشأ «الكنائس» و«الأديار» في كلّ مكان آخر في طول هذه «الأبرشيَّة العربيَّة» وعرضها»[1].

ولا بدَّ هنا من الإشارة إلى أنَّ من أهمّ الأسباب التي ساعدت على إنشاء الكنائس والأديرة هو سبب «الثَّروة» التي تدفَّقت على مساكن الغساسنة ومضاربهم والمدن التي كانت تحت نفوذهم بسبب التّجارة «اليمنيَّة ـ المكّيَّة (القُرَشِيَّة)»[2]، فقد حَموا الطُّرق والقوافل، فأثْروا واستطاعوا أن يقيموا هذه الكنائس[3].

سبب انتشار النَّصرانيَّة بين العرب

انتشرت «النَّصرانيَّة» بين «عرب بلاد الشّام» بنسبة تزيد على نسبة انتشارها بين «عرب بلاد العراق»، وهذا شيء طبيعيّ، فقد كانت بلاد الشّام تحت حكم

(١) د. نقولا زيادة، م. س، ص١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) ذكر الله ﷻ هذه التّجارة في الآية الثّانية من سورة قريش: ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [قريش/ ٢]. وكانت رحلة «الشّتاء» إلى «اليمن»، أمّا رحلة «الصّيف» فكانت إلى «بلاد الشّام».

(٣) د. نقولا زيادة، م. س، ص١٢١.

البيزنطيّين، الذين كانت ديانتهم الرّسمية هي «الدّيانة النّصرانيّة»، ولهذا كانوا يعملون على نشرها وترويجها بين شعوب إمبراطوريّتهم وبين الشُّعوب الأخرى، لا سيّما الشُّعوب التي لهم مصالح اقتصاديّة معها. ففي نشر النّصرانيّة بينهم وإدخالهم فيها تقريب لتلك الشُّعوب منهم، وتوسيع لنفوذهم السّياسيّ بينهم، وتقوية لمعسكرهم المناهض لخصومهم الفرس، أقوى دولة مُعادية لهم في ذلك الوقت. ولهذا سعت «القسطنطينيّة» لإدخال «عَرَبِها» في «النّصرانيّة»، وعملت كلَّ ما أمكنها عمله للتّأثير على سادات القبائل لإدخالهم في دينها، ومن ذلك دعوتهم لزيارة كنائسها، وإرسال «المُبَشِّرينَ» اللَّبِقين إليهم لإقناعهم بالدّخول فيه، وإرسال «الأطبّاء» الحاذقين إليهم لمعالجتهم وللتّأثير عليهم بذلك أملاً في اعتناقهم النّصرانيّة. كما دعَوْهم لزيارة «العاصمة» لمشاهدة معالمها، ولإبهار عقولهم بمشاهدة كنائسها، والاتصال بكبار «رجال الدّين» فيها لتعليمهم أصول النّصرانية، وأظهروا لهم مختلف وسائل المعونة والمساعدة إن دخلوا في ديانتهم، وبذلك أدخلوهم في النّصرانيّة، فصاروا إخواناً للرّوم في «الدّين»[١].

كما انتشرت «النّصرانيّة» بين «البدو» بسبب ما اعتبروه عجائب تمّت على أيدي بعض «الأساقفة»، مثل ما حدث مع «الزّعيم» الذي اعتنق النّصرانيّة لأنّه اعتقد أنّ الله رزقه ابناً ذَكَراً بدعوات «الرّاهب المؤمن». واعتنق النّصرانيّة أفراد «العائلة والقبيلة» التي يتزعّمها «الشّيخ زَقّوم» معه، وكانوا مخلِصين للمذهب. ومثل حكاية شيخ «الصُّبَيْبَةِ»[٢] الذي حمل «ابنه المُقْعَدَ» سنة ٤٢٠م إلى «دير» في منطقة قريبة من «أريحا (في غَوْرِ الأردنّ)» وطلب من «رئيس الدّير» أن يتوسّط له فيشفع لله، فصلّى «الرّئيس» وتمّت «الأعجوبة» وتَنَصّرَ «الشّيخ»، ثمّ أصبح الشيخ يُبَشِّرُ بالنّصرانيّة، ثمّ سيمَ «أسقفاً» على «المضارِب (التّجَمُّعاتُ البدوية أو البرامبولات)، واتّخذ اسم «بولس»[٣].

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج١٢، ص١٦٧.
(٢) الصُّبَيْبَة: قلعة بانياس.
(٣) د. نقولا زيادة، م. س، ص١٢٠.

المذاهب النّصرانيّة

ظهرت وجهات نظر مختلفة حول تفسير «العقيدة» بعد انتشار النّصرانيّة، وهو ما أسماه «أصحاب السّلطان» يومَها «البِدَعَ» أو «الهَرْطَقات». فـ«المرقونيّة»، التي أسّسها «مرْقيون ٩٠ ـ ١٦٥م»، كانت معروفة في «سورية الدّاخليّة» و«فلسطين» و«الولاية العربيّة الجنوبية»، وظلّت على ذلك حتّى القرن الرّابع الميلاديّ، لكنّها كانت تجتاز فترة انزواء في «غرب سورية».

على أنه لا انتشار «النّصرانيّة» ولا «حركات الانقسام» التي رافقت ذلك، كانت مُتّسِقَة. فقد ظلّ «الفلّاحون» في «أدوم» «وثنيّين» حتّى القرن الرّابع الميلاديّ الذي تَنَصَّروا فيه على أيدي «الرُّهبان». ومع ذلك فإنّ سكّان «غزّة» نفسها، وهي قريبة من المكان الذي بدأ فيه «هيلاريون» حركته التَّنَسُّكِيَّة، ظلّت على «وثنيّتها» حتّى في القرن الخامس الميلاديّ.

وما يجب ذِكره هنا هو أنّ «سورية»، بسبب تمكُّن «الهيلينِسْتيَّةِ» من بعض «مدنها»، كانت أقرب إلى «التّفسير اليونانيّ» للعقيدة منها إلى «التّفسير الآراميّ». وقد عملت «الإسْكَنْدَرِيَّة» على ضرب الاتّجاه «غير اليونانيّ»؛ لأنّه كان يدلُّ على محاولة للتّحَرُّرِ من «النّيْرِ اليونانيّ».

وكانت الجماعات المستقرّة في «الولاية العربيّة» وفي منطقة دمشق وفي أواسط فلسطين[١] وجنوبها «عربيّة» العنصر مع أنّها كانت تتكلّم «الآراميّة»، ولعلّها كانت تستعملها لغة ثانية لأهمّيّتها بالنّسبة إلى المنطقة بأجمعها. ومن الطّريف أنّ «الطّقْسَ[٢] الكَنَسِيّ» و«الخدمة الإلهيّة» كانا يُقامان بـ«اللّغة اليونانيّة» على يد الأسقف أو مساعِدِه، لكنّ «الإنجيل» و«العِظَةَ» كانا يُترجَمان شفويّاً إلى «اللّغة الآراميّة» على يد «شيخ» من «شيوخ الكنيسة»، كما كانت بعض «التّرانيم» تُرَنَّمُ بـ«العربيّة»[٣]. وقد أدّى انقسام النّصارى في تفسير عقيدتهم إلى احتدام «المناقشات اللّاهوتيّة» فيما بينهم، وسَرعان ما اشتدّ أوار

(١) د. نقولا زيادة، م. س، ص١٠٩.
(٢) الطّقْس: نظام «الخدمة الدّينيّة» أو «شعائرُها واحتفالاتُها» عند «غير المسلمين». المعجم الوجيز، م. س، ص٣٩٢.
(٣) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٠.

«الصّراع الدّينيّ» حول «طبيعة المسيح ﷺ»، فقامت «المذاهب». ومن ذلك أنَّ «المذهب الملكانيّ»، نسبة إلى «مرْقيون الملِك»، يقول: بـ«الطّبيعة المزدوجة»، «الطّبيعة الإلهيَّة» و«الطّبيعة البشريّة» في «الشّخص الواحد لـ«المسيح ﷺ».

أمّا «المذهب اليَعقوبيّ»، نسبة إلى «يعقوب البَرادِعِيّ»، «أُسقف أديسا (الرُّها)»، «مُنَظِّم الكنيسة السّوريَّة»، فقد رفض مبدأ «الطّبيعتَيْن» وقال: بـ«الطّبيعة الواحدة» من «طبيعَتَين»[1].

وذكر أهل الأخبار أنَّ من بين «فِرَقِ النَّصرانيَّة»، أو «الفِرَق» التي هي «بَيْنَ بَيْن»، بين «النَّصرانيَّة» و«الصّابئة»، «دينٌ» يُقال له: «الرُّكوسِيَّة»[2].

وكانت «أرض الرّافِدَيْنِ»، وخاصّة الأجزاء الشّماليَّة منها، هي المنطقة التي تميَّزت بأنَّ الصِّدام بين «تفسيرَي العقيدة النَّصرانيّة» قد تطوَّر فيها. وكان معنى هذا الصِّدام تصميم عالم «الآراميَّة» على التَّحرُّر من «النَّصرانيَّة اليونانيَّة»، فـ«الهيلينيَّة» مسَّت السَّطح في الحياة «الآراميَّة» لكنَّها لم تتغلغل في الصَّميم، وقد كانت أكثر المدن السّوريّة، مثل أنطاكيَة، «جُزُراً هيلينستيَّة» في «جوٍّ ثقافيٍّ آراميٍّ طبيعيّ». ويدلُّ على هذا أنّ ضواحي مثل هذه «المدن اليونانيّة»، التي كان يُقيم فيها «العمّال»، كانت «آراميّة» الأسماء والصّفات الاجتماعيّة. ومع الزّمن، ولمّا استقر «الرّهبان» في المنطقة، واتّخذوا على عاتِقِهِمْ «تفسير النّصرانيّة» لـ«المؤمنين» ونشرها بين «الوثنيّين»، استطاعوا أن يُحوِّلوا «الشّعب» عموماً من «النّصرانيّة» التي تُناصِرُها «الدّولة» إلى «المونوفيزية»[3].

وفيما يلي لمحة سريعة عن أهمّ «المذاهب النّصرانيّة» المعاصرة للغساسنة:

١ ـ النّسطوريّة:

كان الصّراع بين المذاهب النّصرانيّة عند ظهور الإسلام قد تركّز بين مذهَبَيْن أساسيَّيْن، وهما «المذهب النّسطوريُّ» و«المذهب اليَعْقوبِيّ».

---

(١) د. عمر شرف الدّين، م. س، ص١٣٢، هامش ١.
(٢) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٢٣٥.
(٣) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١١.

و«النَّساطِرَةُ» هم أتباع «نِسْطور» الذي حُرِمَ كنسيّاً سنة ٤٣١م، ونُفي ونُقل من مكان إلى مكان حتّى لقي حتفه في «ليبيا» سنة ٤٥٢م.

وفي سنة ٤٣٥م صدر «قانون إمبراطوري» قضى بتحريم تعاليم نِسطور وحَرْقِ كُتبه. واضطَهد الحُكّام أتباعَه، ونُزِعت عن «أصدقائه الخُلَّصِ» «الألقاب» و«الرُّتَب»، ونُفي بعضهم إلى البتراء حيث كان هو قد نفي. وانتهى الأمر بأن أُخرج جميع أتباع نِسطور من الإمبراطوريّة البيزنطيّة، فوجدوا «ملجأً» عند السّاسانِيِّين.

ورغبة منهم في إبعاد تهمة العمل لبيزنطة التي كانت تُلصق بهم، أعلنوا سنة ٤٨٠م، بقيادة «بَرْصوما (برصوما، برسوم)» الذي كان «أُسقفاً» في السنوات (٤٥٧ ـ ٤٨٤م)، استقلالهم بعقيدتهم، وقطعوا علاقتهم بالنّصرانيّة اليونانيّة، على أساس أنّ «الإيمان القويم» الذي يمثِّلونه، والذي هو «مذهب مدرسة بطريركيّة أنطاكية»، قد خُنقت آثاره واضطُهد أصحابه. وسُمِّيَ النّصارى المقيمون في الإمبراطوريّة السّاسانيّة بـ«النّساطِرَة».

وأصبحت «نَصيبينَ» مع الزّمن «مركز التّعليم اللّاهوتيّ» للجماعة التي استقلّت حديثاً، وظلت هذه المدينة لمدّة طويلة تحوي المدرسة التي دُرِّبَ فيها «لاهوتيّو النّساطِرَة». وقد قامت «كنيسة النّساطِرَة» بأعمال تبشيريّة نشيطة في القرن السّادس الميلاديّ، فأنشأت «أسقفيّاتٍ» في «مَرْوَ» و«هَراةَ» و«سَمَرْقَنْد»، وما وراء ذلك من المناطق. كما وجدَت «الفئات (الفِرَق) النّصرانيّة» طريقها إلى أواسط «آسية» و«أفغانستان»، وانتشرت النّصرانيّة أيضاً في «ساحل المالابار» في «الهند».

أمّا في «السّاحة الفارسيّة» فقد انتشرَت «النِّسطوريّة» بين سكّان «أرض الرّافدَين الشّماليّة» و«بابِل»، ولمّا تضايقت «المونوفيزية» في الإمبراطوريّة البيزنطيّة وخرجت شرقاً، دخلت أراضي الفرس وأخذَت تَزحَم «النِّسطوريّة» هناك. ولمّا ازداد عدد «المونوفيزيين» في فارس تقدّم منهم «الكاثوليكوس النِّسطوريّ شيلا (٥٠٣ ـ ٥٢٧م)»، طالباً إمّا «اتِّباع الدّعوة النِّسطوريّة» أو «الخروج من المنطقة»، فاضطرّوا، بدافع عقيدتهم، إلى الخروج من المنطقة، فخرج أكثرهم إلى «نَجرانَ» الواقعة إلى الجنوب الغربي من الحيرة، وانتشروا

بين البدو من العرب. ومن هنا فإنّ «المونوفيزية» تأخّرت في الوصول إلى العرب المقيمين في البادية السّوريّة.

وقد استقرّ عدد كبير من «النّساطرة» في الحيرة، وبدءاً من حوالي سنة ٤٠٠م أخذ النّساطرة، بعد أن اطمأنوا إلى وضعِهم، يقومون بالتّبشير بمذهبهم، ويُعَدُّ «إبراهيم الكبير (٤٩١ ـ ٥٨٦م)»، أحد أبرز مَن عملوا في حقل التّبشير، تعليماً وتنظيماً وتأليفاً.

وكان انتشار النّصرانيّة في الأجزاء الشّرقيّة من «شبه الجزيرة العربيّة» يعتمد على «الدّفع» الذي كان يأتي من الحيرة، ومن هنا انتشر «المذهب النّسطوريّ» في تلك الجهات مع «طرق الأودية» ومن «الدّيارات (الأدْيِرَة)» التي بُنيت هناك، بينما اختلفت سُبل انتشاره في المناطق الأخرى من «شبه الجزيرة العربيّة»[1].

٢ ـ القِبْطِيَّة:

عندما انفصلَت «الكنيسة المصريّة» عن «الكنيسة الرّسميّة» أُطلق عليها اسم «الكنيسة القِبْطِيّة». وكلمة «قِبْطِ» محرَّفة عن الكلمة المصريّة القديمة التي تعني «مِصْر»، والتي كانت تُدَوَّنُ بـ«الكتابة الهيروغْليفيّة»، وقد استمرّ استعمالها بهذا المعنى حتّى زمن متأخِّر.

وقد ظلّ رئيس هذه الكنيسة يُسمّى «بطريرك الإسكندريّة»، وأصبح «رئيس الكنيسة الوطنيّة» يُسمّى «بابا الإسكندريّة»، إذ إنّ هذه الكنيسة كان لها أتباعٌ في «إثيوبية» وسواها من مناطق «القرن الأفريقيّ»، ولا يزال هذا هو اللّقب الرّسميّ لـ«رأس الكنيسة القِبْطِيّةِ الأُرْثوذُكْسِيّة».

كما توجد في مصرَ أيضاً فئات من «الأقباط» الْتَحقَتْ بـ«البابَويّةِ الرّومِيّةِ»[2] وهم «الأقباط الكاثوليك»، وفئات الْتَحَقَتْ بـ«الكنيسة الإنجيليَّةِ البْروتِسْتانْتِيَّةِ»[3]

(١) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٩ ـ ١٢١.

(٢) البابَويَّةِ الرّومِيَّةِ: بابا رومة (روما) هو رأس الهرم في الكنيسة الكاثوليكيّة، ومقرّه اليوم دولة الفاتيكان التي تقع في قلب العاصمة الإيطاليّة روما، وهي دولة مستقلّة.

(٣) البروتِسْتانْتِية: هي الكنائس النّصرانيّة الغربيّة التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكيّة تحت تأثير لوثر وكَلْفين (كالْفين). وانتشرت في ألمانية والبلدان السّكنديناڤيّة (السُّوَيْد والنَّروج والدّانِمَرْك =

وهم «الأقباط الإنجيليّون»[1].

ويجب هنا ملاحظة أنّ المنازَعات بين المذاهب النّصرانيّة لم تقف حائلاً من دون نشر النّصرانيّة، بل إنّها أدّت إلى قيام منافسة وتسابق بين الكنائس المختلفة، في محاولة لكي تتفوّق كلّ كنيسة على زميلتها في نشر النّصرانيّة على أساس مذهبها في بلاد جديدة، وبذلك يتحقّق تفوّق سياسيّ واقتصاديّ يمكّن الدّولة البيزنطيّة من مجابهة الدّولة الفارسيّة والانتصار عليها.

وتُعتبر النّصرانيّة بعد «المسيح ﷺ»، ديناً تَوَسُّعِياً، ولذلك نشط مُعتَنِقوها قبل الإسلام في توسيع دائرتها في البلاد الخارجيّة، فظهر لها أتباعٌ من الغساسنة في الولايات التّابعة للفرس، وامتدّت إلى «الحبشة» في القرن الرّابع الميلاديّ، ووصلَت إلى «اليمن» قريباً من هذا التّاريخ[2].

٣ ـ المارونيَّة:

قَبِلَ عدد من «رجال الدّين» في الجزء الغربيّ من سورية، ومنهم «المَوارِنَة»[3]، بـ«مذهب الطَّبيعَتَيْن»، ولذلك ظلّ أساقفتهم يقومون بواجباتهم الدّينيّة نحو الأتباع من دون أن يُتعرَّض لهم بشيء[4].

٤ ـ النّصرانيَّة التَّغْلِبِيَّة:

كانت قبيلة «تَغْلِب»، في النّصف الثّاني من القرن الخامس الميلاديّ، قد استقرّت في منطقة بين «الخابور» ونهرَي دجلة والفرات، وكانت حدودها في

= وفِنْلَنْدَة وإيسلَنْدَة) وسويسرة وأميركة الشّماليّة. وأهمّ فروعها: اللّوثَرِيَّةِ والكَلْفينِيَّةِ والإنْجيلِيَّة. المُنجِد في اللُّغة والأعلام، م. س، المُنجِد في الأعلام، ص١٢٤.

(١) د. نقولا زيادة، م. س، ص١٢١.

(٢) أحمد أحمد غَلْوَش، السّيرة النّبويّة والدّعوة في العهد المَكّيّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٦٨.

(٣) المَوارِنَة: طائفة من طوائف النّصارى الكاثوليك الشّرقيّين، قالوا بأنّ للمسيح ﷺ طبيعتين ومشيئة واحدة، وينتسبون إلى القدّيس مارون (عاش في أواخر القرن الرّابع الميلاديّ، فيما كان موته حوالي سنة ٤١٠م بين أنطاكية وقورس) ويُعرفون باسم الموارنة متَّخِذين من لبنان مركزاً لهم. الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة د. مانع بن حماد الجُهَنِيّ، دار النّدوة العالميّة، المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص٦٢٦.

(٤) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٧.

الشمال «قَرْقيسِيَّة» و«المَوْصِل»، وفي الجنوب «تِكْريت» و«عانَة»[١]، ونهر دجلة شرقاً، ونهر الفرات غرباً. وقد وقعت هذه القبيلة تحت تأثير «الدّعوة المونوفيزية»، وكانوا نصارى متمسّكين بالنّصرانيّة على هذا المذهب. لكن يبدو أن فئات من تَغْلِب، بحُكم قُربها من المناطق النِّسطوريّة، تأثَّرت بـ«المذهب النِّسطوريّ»، وقد عثر الباحثون على ما يشير إلى أنّ بعضهم قَبِلَ بـ«الأرثوذكسيّة»، أي «الخلقيدونيّة»[٢].

٥ ـ اليعاقبة (المونوفيزية):

دُعِيَ «اليعاقبة» بـ«المونوفيزيين»؛ أي: القائلين بالطّبيعة الواحدة، لقولهم إنّ للمسيح ﷺ طبيعة واحدة، وأقنوماً واحداً، فقيل لهم من أجل ذلك «أصحاب الطّبيعة الواحدة»، وهم مذهب من مذاهب الكنيسة الشّرقيّة، وقد نُسبوا إلى «يعقوب البرادعيّ»[٣].

ويجوز القول إنّ «المونوفيزية (مذهب الطّبيعة الواحدة)» «عربيّة النّشأة»، فقد نشأت في بلاد غسّان، ومنها انتشرت في «بلاد المشرق». والبرهان على ذلك أنّ الأُسقف «ثيودور (ثئودور)» زميل «الأسقف يعقوب البرادعيّ»، «رأس المِلَّةِ المونوفيزية» و«نَصيرُ معتقَدها»، كان «عربيّاً قَحّاً[٤]»[٥]. ومع هذا، فمن اللّافت بشكل واضح هو أنّ أساقفة العرب لم يكتبوا للنّصارى العرب «كُتباً لاهوتيّة نصرانيّة» باللّغة العربيّة، رغم أنّ الكثير من هؤلاء الأساقفة كانوا عرباً أصلاً، ورغم أنّ التّبشير والوعظ كانا يتمّانِ بالعربيّة. وكان السّبب الرّئيس في ذلك هو أنّ الأساقفة كانوا يُدرَّبون في مدارس تستعمل «اللّغة السُّريانيّة» في الغالب، أو «اللّغة اليونانيّة» في الأقسام الغربيّة من سورية، فضلاً عن القسطنطينيّة وغيرها،

---

(١) عانة: بلد مشهور بين الرَّقَّةِ وهيت، يُعَدُّ في أعمال الجزيرة، وهي مشرِفة على الفرات قرب حديثة النّورة، وبها قلعة حصينة. ياقوت الحَمَوِيّ، م. س، ج٤، ص٧٢.

(٢) د. نقولا زيادة، م. س، ص١٢٠.

(٣) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٢٣٣.

(٤) القَحّ: الخالي من الشّوائب الغريبة. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٩٠. **والمقصود هنا**: إنّ الأسقف ثيودور هو عربيّ خالِصٌ لم يختلط نَسبه بنَسب شعوب أخرى.

(٥) الفيكُنت فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٩.

ومن ثَمَّ فقد ظلّت «المجادَلات» و«المناقشات اللّاهوتيّة» تَتِمُّ بهاتَين «اللّغتَين»[١].

أهمّ أساقفة المونوفيزيين:

أ ـ يعقوب البرادعيّ

ولد «يعقوب البَرادِعِيّ»، المسمّى أيضاً بـ«جَيْمْس (جايْمْس)»، في حوالي سنة ٥٠٠م. في مدينة «الأجمة» من أعمال «نَصيبينَ» في شرقيّ «الرُّها» وتوفي سنة ٥٧٨م.. ووُلِدَ في أسرة كهنوتيّة، وتتلمذ لـ«ساويرس»[٢] الذي صار «رئيساً» على «بطريركيّة أنطاكية» في عام ٥١٤م، ثمّ اضطرّ إلى مغادرة أنطاكية إلى مصر بعد اختلافه مع «رجال الدّين» في هذه المدينة في «طبيعة المسيح ﷺ»، إذ كان يقول بوجود «طبيعة واحدة» فيه، وأخذ «يعقوب البرادعيّ» رأيه هذا في «المسيح ﷺ».

وذهب «يعقوب البرادعيّ» في حوالي سنة ٥٢٨م. إلى القسطنطينيّة لحَمْلِ «القيصرة ثيودورة» على التّأثير في الكنيسة، وحملِها على الكفّ عن اضطهاد القائلين برأيه في «طبيعة المسيح ﷺ»[٣].

وقد مكث في القسطنطينيّة خمسة عشر عاماً، وسعى حثيثاً في نشر مذهبه والتّبشير به، وهذا ما أوقعه في نزاع مع بقية رجال الدّين هناك، لخروجه على «تعاليم المَجْمَعِ الخَلْقيدونِيّ»[٤] الذي عيّن «التّعاليم الثّابتة» في «طبيعة

---

(١) د. نقولا زيادة، م. س، ص١٢١.

(٢) ساويرَوس: سفيروس، كان من أهل البِدع (عند النّصارى القائلين بالطّبيعَتَين)؛ لأنّه لم يعتقد في المسيح ﷺ بعد التَّجسُّد (حسب اعتقاد النّصارى) إلّا طبيعة واحدة، خلافاً لِما قرَّره المَجمع الخلقيدونيّ. ابن العِبْرِيّ، تاريخ مختصر الدّول، تحقيق أنطون صالحانيّ اليّسوعِيّ، دار الشّرق، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٩٩٢م، ص٨٦.

(٣) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٤) المَجْمَعُ الخَلْقيدونِيّ: انعقد سنة ٤٥١م بناء على دعوة من الإمبراطور البيزنطي مرقيانوس، وبموافقة البابا لاوون الكبير، في مدينة خلقيدونية من مدن بتينية في آسية الصغرى. وفيه أعلنت عقيدة الطبيعتين في الأقنوم الواحد؛ أي: أن المسيح ﷺ كلمة الله المتجسد هو شخص في طبيعتين: إلهية وإنسانية بلا اختلاط وتغيير، وبلا انقسام وانفصال. كتبه لموسوعة الأديان (الميسرة)، م. س، جان بول أبو غزالة، ص٢٣١.

المسيح عليه السلام»، وكان يعقوب البرادعيّ أُسقفاً على «الرُّها» في حوالي سنة ٥٤١م[١].

وكانت القضيّة التي واجَهَتِ «المونوفيزيين» في المناطق البيزنطيّة أنّه لم يكن هناك مَن يستطيع أن «يَرْسُمَ كاهِناً» أو «يَسومَ أسقفاً» في تلك الفترة، وكان «ساويرس» قبل وفاته بسنتين، أي سنة ٥٣٦م، سمح لـ«يوحنّا التّلاوِيّ» وغيره من الأساقفة أن «يسوموا أساقفةً» وغيرهم.

وهنا دخلت مسألتان، **الأولى**: إنّ «الإمبراطورة ثيودورة»، زوجة «الإمبراطور يوستنيانوس»، كانت تميل إلى «المونوفيزية»، إن لم تكن من «أتباعها». **والثّانية**: إنّ «الحارث بن جبلة الغسّانيّ»، الذي كان حليفاً لبيزنطة، كان في زيارة للعاصمة لأعمال تتعلّق بأمور زعامته المرتبطة بالإمبراطور. وإضافة إلى ذلك كان «ثيودوسيوس»، «بطريرك الإسكندريّة» السّجين في بيزنطة، مُقيماً في القصر أو قريباً منه، وهو «مونوفيزي».

فطلب الحارث بن جبلة من الإمبراطورة ثيودورة أن يُسامَ «أُسقفٌ» من «أتباع الطّبيعة الواحدة» كي يُعنى بنصارى العرب من أهل القبائل. فقَبِلَتِ الإمبراطورة وطلبت من «البَطْرِيَرْكِ ثيودوسيوس» أن يُرْسُمَ اثنين من رهبان ديرٍ قريب من العاصمة. فرَسَمَ البطريرك ثيودوسيوس اثنين مِنَ الرّهبان أساقفة، وكان أحدهما «يعقوب بُرْدَعايا»، المعروف باسم «يعقوب البَرادِعِيّ»، الذي رُسِمَ «أُسقفاً» لـ«الولايات السّوريّة» و«ولايات أرض الرّافِدَيْنِ» التّابعة لبيزنطة. أمّا الثّاني فهو «ثيودور»، الذي كان «عربيّاً»، الذي رُسِمَ «أُسقفاً» لِما كان تحت نفوذ «بني غسّان» من «عرب»، وهم سكّان «الولايات الفلسطينيّة» و«الولاية العربيّة».

إلّا أنّه في واقع الأمر كان الاثنان «بَدَوِيَّيْن»، وكانت مَهَمَّةُ كُلٍّ منهما تحملُه إلى حيث يُقيم «المونوفيزيون» من «السّوريّين العرب»، وتمّ رَسْمُهُما «أساقفةً» سنة ٥٤٢م[٢].

وقال «يوحَنّا أُسقف آسية» عن الأمر ما خُلاصته: «نقص عدد «الأساقفة»

(١) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٢٣٤.

(٢) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٧.

و«الكهنة» في «بلاد السُّريان»، شرقيّها وغربيّها، فدفعت «الغَيْرَةُ» «الحارث المجيد بن جبلة الأكبر ملك العرب» وغيره والتَمسوا من «ثيودورة الملكة مُحِبَّةِ المسيح عليه السلام» أن تأمر بسيامة «أُسقفين» أو ثلاثة «أساقفة» لـ«السُّرْيانِ المونوفيزيين». فأصدرت الأمر بانتخاب «يعقوب البرادعيّ» و«ثيودور العربيّ»، فنُصِّبَ الأوّل «مطراناً» لـ«كرسيّ الرُّها»، وتولّى الثّاني رعاية النّصارى في بلاد «التّيمن[١]» و«المغرب» والأقطار العربيّة كلّها وفلسطين حتّى «أورشليم»»[٢].

وكان الحارث بن جبلة من المُقدِّرين والمُحبّينَ لـ«يعقوب البرادعيّ»، لذلك كان ممّن تَوَسَّطوا لدى بَلاطِ القسطنطينيّة للسّماح له بالخروج منها، وللتّوفيق بين آرائه وآراء الكنيسة البيزنطيّة، كما تَوَسَّطَ المنذر بن الحارث لدى البيزنطيّين للغرض نفسه[٣].

وعلى إثر تنصيب «يعقوب البرادعيّ» «مُطراناً» لـ«الرُّها» وتعيينه «أُسقفاً مَسكونيّاً[٤]»، كتب إليه الحارث بن جبلة رسالة بـ«اللّغة السُّريانيّة» وذيَّلَها بإمضائه، ووقّعها معه خمسة وأربعون «رئيساً» من «رؤساء الأديار السُّريانيّة» ببلاد غسّان وجوارها، وصرّح الحارث بن جبلة وأولئك الرؤساء في الرِّسالة المذكورة بأنّهم حُرّاصٌ كلّ الحرص على «مبدئهم المونوفيزي» وأنّهم لن يحيدوا عنه مهما كلّفهم الأمر[٥].

ولمّا نُكِبَتْ بلاد غسّان بوباء شديد، قصد ملِكها الحارث بن جبَلة مع بعض رجاله يعقوب البرادعيّ في محل إقامته في «تلّ موزل» حاملاً إليه تُحفاً وهدايا ذهبيّة. فخرج يعقوب البرادعيّ إلى لقائهم عند نهر الفرات، وقال للحارث بن جبلة: «ارجع أيها الملِك إلى بيتك وأرضك، أنت وعظماء دولتك، فقد أزال الله سبحانه عنكم الضّيق والوباء»[٦].

(١) بلاد التَّيْمَنِ: أرضُ بَيْتِ المَقْدِس، وما والاها. ابن كثير، البداية والنّهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المُحسِن التّركيّ، دار هَجَر، القاهرة - مصر، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١، ص٣٤٨.

(٢) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٩ - ١٠.

(٣) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٢٣٤.

(٤) مسكونيّ: عالميّ. وِلْ ديورانْت، م. س، ج٢٧، ص٢٤٥.

(٥) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص١٨ - ١٩.

(٦) المرجع نفسه، ص٨.

ومع أن يعقوب البرادعيّ كان «أسقف الرُّها» فإنّه لم يُقِمْ هناك، بل ظلّ ما يزيد على الثّلاثين سنة، حتّى وفاته في سنة ٥٧٨م، يتنقّل من مكان إلى مكان، متخفّياً أحياناً بثياب «شحّاذ»، وسوى ذلك من وسائل «التّخفية»، باحثاً عن أحوال «الرَّعِيَّة»، وهو يُنَظِّمُ «الكنائس» و«الجماعات»، ويَرْسُمُ «الكَهَنَةَ» و«الشَّمامِسَة»، ويَسومُ «الأساقفة». وقد تلقّى عوناً كبيراً من «أساقفة أرْمينْيَةَ» الذين كانوا «مونوفيزيّين»، لكنّ أهمّ ما في الأمر أنّ أتباعه حافظوا على سِرِّيَّةِ أعماله، فلم يَشِ به أحد. وقيل: إنّ يعقوب البرادعيّ سامَ في رحلاته العديدة «بَطْرِيَرْكَيْنِ» وسبعة وعشرين «أُسقفاً» وبضعة آلاف «شمّاسٍ» و«كاهِن»[١].

أمّا المناطق التي زارها فشملت «آسية الصّغرى» وسورية وأرض الرّافِدَيْنِ وفارس ومصر وقبرص. وقد كانت نتيجة هذا العمل الدّؤوب أنه نظّم للمونوفيزيين «مِلاكاً إداريّاً إكليريكيّاً»[٢] سمح لهم أن يقفوا على أرجلهم.

ووصف «البطريرك إغناطيوس برصوم» «الأسقف يعقوب البرادعيّ» بقوله: هو «أشهر «الأحْبارِ» وَرَعاً وطُهْراً، وأكبر المجاهدين الرّسوليّين في نصرة المعتقد القويم، ونُخبة النُّسّاكِ الصّوّامينَ القَوّامينَ ذوي الصّلاح والدّين المتين». ولهذا لم يكن غريباً أن يُطلق فيما بعد على القائلين بالطّبيعة الواحدة (المونوفيزيين) اسم «اليَعاقِبَة»[٣].

وكانت في أيّام «الأسقف يعقوب البرادعيّ» أسقفيّتان على العرب: أسقفيّة عُرفت بـ«أسقفيّة العرب» وكرسيُّها في الحيرة، و«أسقفيّة التّغْلِبيّين» وكرسيّها بـ«عاقولا»[٤]، و«عاقولا» هي موضع بـ«الكوفة»[٥].

ب ـ ثيودور

نُصِّبَ «ثيودور»، بأمر الملكة ثيودورة السُّريانيّة وتحريض الحارث بن جَبَلة، «مطراناً» على «بصرى حوران» وعلى البلاد العربيّة معاً، وكان يُشار إلى ثيودور

---

(١) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٧ ـ ١١٨.

(٢) الإكْلِيرُس (الإكليروس): **المقصود هنا**: نظاماً إداريّاً كاملاً شاملاً كلّ الرُّتَبِ الكَهَنوتيَّة.

(٣) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٨.

(٤) عاقولا: موضع بالكوفة. محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٢٣٤.

(٥) المصدر نفسه.

باسم «أسقف بصرى»، لكنّه لم يُقم في المدينة، بل ظلّ يتنقّل مع بني جفنة[١].

ـ الأسقفان يعقوب البرادعيّ وثيودور

كان عمل الأسقفان «يعقوب البرادعيّ» و«ثيودور» متشابهاً، ولكن تنقُّل الأسقف ثيودور في ديار بني غسّان كان في منطقة أصغر من المنطقة التي كان يتنقّل فيها الأسقف يعقوب البرادعيّ. ورغم هذا فإنّ نتيجة عملهما كانت واحدة، من حيث إحياء الكنيسة المونوفيزية ورَسْمِ رجال الدّين اللّازمين لها.

وعمل الأسقفان في حقلين مختلفين، وكلّ منَ الحقلين كان واسعاً، لكنّهما اجتمعا مرّة لبحث قضية أسقفَين خرجا عن القطيع (خرجا عن رأي المنوفيزية)، وزار الاثنان معاً العاصمة القسطنطينيّة بدعوة من يوستينوس الثّاني. وتوفّي ثيودور قبل يعقوب البرادعيّ[٢].

ـ استنكار الغساسنة أكل الخبز واللّحم مع الخلقيدونيّين

دفع تعصّب الغساسنة لمعتقدهم المونوفيزي تعصّباً شديداً إلى النّفور من مشاركة الخلقيدونيّين في القضايا الدّينيّة وفي أمور أخرى. كاستنكار أكل الخبز، وأكل اللحم معهم لأنهم مخالِفين لهم في الرأي[٣].

جـ ـ بطرس بطريك الإسكندريّة

ظهر رجل ثالث من المونوفيزيين في مصر، وهو «الرّاهب بُطرس» الذي رُسِمَ أسقفاً سنة ٥٧٥م، وأسّس كنيسة مستقلة في مصر باتّخاذه لقب «بطريرك الإسكندريّة»، ولم يظلّ خارج هذه الكنيسة سوى «موظّفي الدّولة» و«الأقليّة اليونانيّة (البيزنطيّة)»[٤].

خلاف المطران يعقوب البرادعيّ والبطريرك فولا:

وقع خلافٌ واستحكَم بين المطران يعقوب البرادعيّ وبين «البطريرك فولا (٥٤١ ـ ٥٧١م)»، فترافَعا إلى المنذر بن الحارث، فاستدرك المنذر بن

---

(١) الفيكُنْت فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٩.

(٢) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٧ ـ ١١٨.

(٣) الفيكُنْت فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص١٩.

(٤) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٨.

الحارث الأمر وعقد مَجْمَعاً في «دير حنينا» بغسّان، وجعل يُلِحُّ على الفريقين بوجوب التّفاهم والمُسالَمَة. ثمّ انطلق المنذر بن الحارث بنفسه إلى القسطنطينيّة، فاستقبله تيبيريوس قيصر في الثامن من شباط سنة ٥٨٠م. بحفاوة عظيمة وزيَّن هامَتَهُ بـ«تاج المُلك». وبعد هذا استأنف المنذر بن الحارث وساطته بين الحَبْرَيْنِ المتخاصمَين، فعقد في الثاني من آذار، وقيل في الثامن من آذار سنة ٥٨٠م، «مَجْمَعاً» برعايته فور عودته من القسطنطينية وألقى الصُّلح بينهما، ثمّ وَفَّقَ بينهما وبين خصومهما في «البطريركيَّة الإسكندريَّة» أيضاً[١].

مراكز المونوفيزيين:

كانت «تكريت» على نهر دجلة، و«دير مار متّى» الواقع في جهات «المَوْصِل»، أهمّ الأماكن والمراكز التي تُعَلَّمُ فيها حقائق المونوفيزية، وكان «بيت أرشام (على مقربة من سلوقية على نهر دجلة)» محور نشاط «شمعون»[٢] الذي كان أسقف المكان بالذّات[٣].

---

(١) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص١٩.

(٢) شمعون: أسقف بيت أرشام، ورد ذكر نشاطه في مدونة «يوحنا الأفسي» john of Ephesus المتوفى في حوالي سنة ٥٨٥م، في تأريخه الكنسي وثيقة مهمة جدّاً عن حادث تعذيب نصارى نجران، هي رسالة وجهها «مار شمعون» أسقف «بيت أرشام» simon of beth arsham المعاصر لهذا الحادث إلى «رئيس دير جبلة» abt von gabula يصف فيها ما سمعه وما قصَّه عليه شهود عيان من أهل اليمن عن تعذيب نصارى نجران وما لاقوه هناك من أصناف العذاب.
وقد ذكر «شمعون» في رسالته أنه كان قد رافق «إبراهيم» «إبراهام» Abraham والد «نونوسوس» nonnosus الشهير في رسالة خاصة أمر بها القيصر «يوسطينوس» justinus الأول إلى ملك الحيرة «المنذر الثالث». وكان ذلك في العشرين من كانون الثاني من سنة ٥٢٤م. فلما بلغا قصر الملك، سمعا بأخبار استشهاد نصارى نجران. وعلم به «شمعون» من كتاب وجهه ملك حمير إلى ملك الحيرة، يطلب منه أن يفعل بنصارى مملكته ما فعله هو بنصارى نجران. وقد قرئ الكتاب أمامه، فوقف على ما جاء فيه، وعلم به أيضاً من رسول أرسله في الحال إلى نجران ليأتيه بالخبر اليقين عن هذه الأعمال المحزنة التي حلت بالمؤمنين.
وقد وجه شمعون في نهاية الرسالة نداء إلى الأساقفة، خاصة أساقفة الروم ليُعلمهم بهذه الفاجعة التي نزلت بإخوانهم في الدين، وإلى بطريق الإسكندرية ليتوسط لدى نجاشي الحبشة (ملك الحبشة) في مساعدة نصارى اليمن، كما وجه نداءه إلى أخبار «طبرية» للتأثير على ملك حمير، والتوسط لديه بالكف عن الاضطهاد والتعذيب. د. جواد علي، م. س، ج٦، ص١٥٣ ـ ١٥٥. وردت قصة اضطهاد نصارى نجران في القرآن الكريم في سورة البروج.

(٣) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٨.

أمكنة المونوفيزيين المقدّسة:

كان للمونوفيزيين مشهدٌ مقدَّسٌ يَحِجّونَ إليه للتَّبرُّك به والنَّذر له، وهو «مشهدُ القدّيس سِرجِيوس (سِرجيس)» في مدينة «سِرجِيوبوليس Sergigapalis»، وهي «الرُّصافة»، وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه والاحتفاء به ويقصِدونه للتَّبرُّك به. أمّا نصارى الحيرة فقد امْتَهَنوا (ابْتَذَلوا) القبر في حروبهم مع الغساسنة واعتدوا على المدينة؛ لأنَّ غالبيَّتهم كانوا على مذهب «نِسطور»، كما كان بعض أهل الحيرة من «الوثنيّين»، ولذلك لم تكن لسِرجِيوس في نفوسهم منزلة ومكانة[١].

و«سِرجِيوس» هو «أوّل بطاركة السُّريان المونوفيزيين (٥٣٨ ـ ٥٤١م)»، وتلقّى العلوم في دير «حالي» (في الشّام)، وكان موقع هذا الدَّير في بلاد غسّان[٢].

انقراض المونوفيزيين:

يقول المطران اللّبناني المعاصر «جورج خضر»: إنَّ المونوفيزية المطلَقة، كما ناقشها أربابها وخصومها يومها، وبما أثارت من خلافات وجدل ومصادمات واضطهاد، ليست موجودة اليوم، فقد أصبحت في ذمَّة التّاريخ. فالسُّريان والأقباط والأرمن والإثيوبيّون (الأحباش) ليسوا مونوفيزيين بالمعنى المطلَق الذي كان شائعاً يومها؛ لأنَّ هذه المونوفيزية انتهت بشكل كُلِّيٍّ وليس لها مُمَثِّل[٣].

ولا بدَّ، بعد هذه اللَّمحة السَّريعة عن أهمِّ «المذاهب النَّصرانيَّة» المعاصرة للغساسنة، من عرض معلوماتٍ عن مذهبٍ مهم، سبق هذه المذاهب، كان له بعض الأتباع في عهد الغساسنة، وهذا المذهب هو «المذهب الآرْيوسيّ».

٦ ـ الآرْيوسِيَّة:

كان «آريوس» (٢٥٦ ـ ٣٣٦م)[٤]، قَسّيساً في الإسكندريَّة، وكان يقول

---

(١) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٨.

(٣) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٨.

(٤) وِل ديورَانت، م. س، ج١١، ص٣٩٠.

بـ«التَّوحيد المجرَّد»، وبأنَّ «عيسى» عليه السلام عبدٌ مخلوق، وأنَّه كلمة الله عزّ وجلّ التي بها خلق السَّماوات والأرض. وعاش آريوس في زمن «قسطنطين الأوَّل» باني القسطنطينيَّة، والذي كان أوَّل مَن تنصَّر من ملوك الرّوم، واتَّبَعَ مذهب آريوس[1].

وكانت النَّصرانيَّة هي دين الدَّولة الرّومانية بقسميها الشَّرقيّ والغربيّ، ودين الولايات التّابعة لها، كمصر والحبشة وغيرهما، وكانت الأحداث الدّينيَّة تتردد سريعاً في كلِّ أرجاء الدَّولة من أقصاها إلى أقصاها.

وقد وضعت الكنيسة لنفسها نظاماً معيَّناً تسير عليه، فأقامت رئاساتها في العواصم الثّلاث الكبرى لعالَم البحر الأبيض المتوسِّط، حيث توجد كنائس رومة والإسكندريَّة وأنطاكية، على أن يكون لبقيَّة المدن أساقفة ورؤساء تابعون لإحدى الكنائس الرَّئيسيَّة الثّلاث. وظلّ الأمر على هذا الوضع حتّى تأسَّست القسطنطينيَّة وأصبحت عاصمة الدَّولة الرّومانيَّة الشَّرقيَّة، فتحوَّلت كنيستها إلى المرتبة الثّانية بعد كنيسة رومة، تليها في المرتبة الثّالثة كنيسة الإسكندريَّة وأنطاكية.

ولم يكن هذا الوضع الجديد بمحلِّ رضىً من رؤساء الكنائس الأخرى، فحَلَّ التَّنافس بينهم، وقد ظهرت أفكار جديدة في الفكر النَّصرانيّ شغلت بال العالم النَّصرانيّ، وقسَّمته إلى فِرق متنازعة.

ومن ذلك أنّ أفكار آريوس الدّاعية إلى إنكار ألوهية المسيح عليه السلام، وتأسيس فكرة دينيَّة تعتمد على التّوحيد، لاقت خلال القرن الرّابع الميلاديّ نجاحاً في عديد من الأماكن، حيث كانت الكنيسة في «أسيوط» على رأيه، وكَثُرَ أنصاره في الإسكندريّة وفلسطين و«مقدونية»، وكانت الكنائس الجرمانيّة التي نشأت في الدّولة الرّومانيّة الغربيَّة على رأيه كذلك.

وقد عُرِفَ أتباع مذهب آريوس بـ«الموحِّدين»، وقد نشط هؤلاء الموحِّدون في نشر عقيدتهم، حتّى إنّهم وثبوا في الإسكندريّة على «أثناسْيوس»، بطريك الإسكندريّة ورأْس معارضي آريوس والمنادي بألوهية المسيح عليه السلام، ليقتلوه،

(١) ابن حزم، الفَصْلُ في المِلَلِ والأهواء والنِّحَل، مكتبة الخانجيّ، القاهرة ـ مصر، د. ت.، ج١، ص٤٧.

فهرب منهم واختفى، وكذلك فعلوا في بيت المقدس مع بطريركها.

وفي قرطاجنة تعرّض «الأثناسْيوسِيّون» للاضطهاد، ولقي كثير منهم حتفهم، وتحوّل بعضهم إلى عبيد، وصارت كنائسهم أماكن عبادة للموحِّدين، وفي بلاد الغال وإسبانية لجأ الموحِّدون إلى القسوة في تبشيرهم، معتمدين على سلطان القوط.

ورغم سيادة أفكار التّوحيد فقد استطاع قسطنطين الأول بقوّته أن يقضي عليها. فقد جمع القَسَسَ من جميع الكنائس، وعقد مجمعاً في «نيقية» سنة ٣٢٥م، ضمّ ألفين وثمانية وأربعين من الأساقفة المختلفين في آرائهم وعقائدهم، وكان من بينهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً يقولون بألوهية المسيح عليه السلام، فأخذ الإمبراطور برأيهم، وجعله عقيدة عامّة قرّرها على النّاس بقوّة الدّولة، وجعل مخالفته زَنْدَقَةً مُوَجَّهَةً ضدّ الدّين يُعاقَب عليها باعتبارها هرطقة.

وهكذا انتصرت «الأثناسْيوسِيّة» على «الآريوسِيّة» ممّا آذَنَ بعُلُوِّ شأن «كنيسة الإسكندريّة» واختفاء «مذهب التّوحيد»، ولم يظهر في عالم النّصرانيّة بعد ذلك إلّا ألوهية المسيح عليه السلام[1].

وممّا دفع الإمبراطور قسطنطين الأول إلى الأخذ برأي الأقليّة هو أنّه كان يرغب في توحيد شعوب إمبراطوريّته، الذين كان يَدين غالبيّتهم بعقائد وثنيّة تؤمن بتعدُّد الآلهة، على دين واحد.

محاولة توحيد المذاهب (فكرة كنيسة واحدة في دولة بيزنطيّة واحدة):

نبعت فكرة إخضاع شعوب الإمبراطوريّة البيزنطيّة لمذهب نصرانيّ واحد من أصلٍ عامٍّ كان يَدين به الإمبراطور يوستنيانوس، وهو يتلخّص في: دولة واحدة، وقانون واحد، وكنيسة واحدة.

فقد كان يوستنيانوس يرى أنّ الدّولة المنظّمة هي الدّولة التي يخضع فيها كلّ أحد لأوامر القيصر، وأنّ الكنيسة إنّما هي سلاح ماضٍ يُعين الحكومة في

(١) أحمد أحمد غَلْوَش، م. س، ص٦٥ ـ ٦٦.

تحقيق أهدافها، لذلك سعى لجعلها تحت نفوذ الحكومة وفي خدمة أغراضها. فقام بالتّقرُّب إلى رجال الدّين، وساعد على إنشاء كنائس جديدة، واستدعى إلى عاصمته رؤساء الكنيسة المونوفيزية القائلين بالطّبيعة الواحدة، وأتباع آريوس، وغيرهم من المعارضين لمباحثتهم، ولعقد مناظرات بينهم وبين الكنيسة الرّسميّة للتّقريب فيما بينهم، وإيجاد نوع من الاتّفاق يخدم أهدافه. ولكنّ هذه المحاولة لم تنجح، ومحاولات التّوفيق لم تُثمر[1]، ولتحقيق نظريّته في الكنيسة الواحدة اضطهد أصحاب المذاهب المعارضة، وكذلك اليهود[2].

هِرَقْلُ والمذاهب النّصرانيّة

حكم «هِرَقْلُ» الإمبراطوريّة البيزنطيّة ما بين (٦١٠ ـ ٦٤١م)، وبعد انتهائه من الحروب الفارسيّة، حاول أن يضع حدّاً للخلاف بين المذاهب النّصرانيّة، فألّف مذهباً جديداً تخيّل أنّه يرضي الأطراف المتنازعة[3]، غير أنَّ هذا المذهب جاء بنتيجة مُضادّة؛ لأنَّ هرقل استعمل القوّة في فرضه، وأملى على أمراء الولايات أن يفعلوا ذلك، فأخذ «المُقَوْقَسُ» في مصر يستعمل العنف والتّعذيب في فرض هذا المذهب[4]، واتّهم هرقل وولاته بمحاولة إضلال الشَّعب النّصرانيّ، وقاموا بحركة مقاومة سِرِّيَّة، وقاد «بنيامين» كبير أساقفة

(١) فشلت كلّ محاولات التّوفيق بين الطَّرفين المتنازعَين، كما اعترف بذلك يوستنيانوس في مجمع القسطنطينيّة الخامس سنة ٥٥٣م. أحمد أحمد غَلْوَش، م. س، ص٦٧.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص١٦٧.

(٣) يرى بعض الباحثين أن البطريرك سرجيوس صديق هرقل بدأ منذ سنة ٦١٦م يعرض على بعض الأساقفة القول بطبيعتين في السَّيِّد المسيح عليه السلام مع فعل واحد، وأنّ هرقل رأى في هذا القول مخرجاً من الأزمة اللاهوتيّة المستحكِمة، ووسيلة لتوحيد الصفوف. د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٣١.

(٤) حاول هرقل أن يتقرب من المصريّين المؤمنين بالمسيح عليه السلام، وكلّف «كيروس» أحد أساقفة الرّومان، وهو أسقف «فاسيس» في بلاد «الأكراد»، بأن يقرِّب بين مذهب الكنيسة الرومانيّة ومذهب الكنيسة المصريّة. ولكن كيروس أساء إلى المصريّين وفشل في مَهمَّته، فهرب كثير من الأقباط من الإسكندريّة بعد أن عاد الاضطهاد لرجال الكنيسة القبطيّة وعلى رأسهم «بنيامين» كبير أساقفة مصر. ولذلك انضمّ المُقَوْقِس، الذي كان يميل للأقباط، في النّهاية إلى قضيّة المصريّين والكنيسة القبطيّة، وأصبح لديه استعداد للتّفاهم مع أيّة قوّة يمكن أن يُخلِّص بها الأقباط من اضطهاد البيزنطيّين. لمزيد من التفصيل انظر: المصدر نفسه، ص٢٣١ - ٢٣٣.

مصر هذه الحركة، ثم ما لبث أن لاقى حتفه[1]، وأصبح المصريّون يتمنّون زوال الإمبراطوريّة، واستمرّت هذه المقاومة في مصر حتّى الفتح الإسلاميّ.

ومع الأيّام انتشر هذا النّزاع في كل الدّولة الرّومانيّة بأجزائها وولاياتها، فانتشر مذهب «الطّبيعة الواحدة» في مصر والحبشة، واعتنقه بعض الغساسنة وتعصّبوا له، فيما انتشر مذهب «الطّبيعتَين» في القسطنطينيّة ورومة (روما) وبلاد الحيرة، وعن طريق الحيرة امتدّ إلى بعض أطراف شبه الجزيرة العربيّة الجنوبيّة[2].

الغساسنة والنّصرانيّة

كان الغساسنة يدينون بالنّصرانيَّة التي انتشرت في الشّام ومصر، وهي النّصرانيَّة التي كان البيزنطيّون يدينون بها، وقد عُرف الغساسنة باسم «العرب المُتَنَصِّرَة». كما انتشرت اليهوديّة أيضاً بين الغساسنة، لمجاورتهم ليهود فلسطين. وكان الغساسنة حلفاء دائمين للبيزنطيّين، وكانت الدّولة البيزنطيّة تعتمد عليهم في صدّ غارات البدو على بادية الشّام، وكانوا يُعرفون بـ«روم العرب» نسبة إلى حلفائهم «الرّوم البيزنطيّين»[3].

وقد اعتنق سادات القبائل والحكّام العرب التّابعون للرّوم «النّصرانيّة»، ولكنّهم لم يعتنقوا «نصرانيّة الرّوم»، بل اعتنقوا نصرانيّة شرقيّة مخالِفة لكنيسة القسطنطينيّة، وهي نصرانيّة عُدَّتْ «هرطقة» وخروجاً على النّصرانيَّة الصّحيحة في نظر الرّوم وهي «الأرثوذكسيّة».

وكان من جملة مميّزات هذه النّصرانيّة عكوفها على دراسة «العهد القديم»، أكثر من عكوفها على دراسة «العهد الجديد».

(١) كثيراً ما كانت الكنسية تلجأ إلى الإعدام البطيء مبالغة في التّعذيب، إذ كانت تسلِّط الشّموع على جسم الضّحيّة، وتخلع أسنانه كما فُعِلَ ببنيامين كبير أساقفة مصر؛ لأنّه رفض الخضوع لقرارات مجمع (خلقيدونية) الذي يرى أنّ للمسيح عليه السلام طبيعتين، إلهيّة وإنسانيّة. د. محمّد جميل غازي وآخرون، مناظرة بين الإسلام والنّصرانيّة، الرّئاسة العامة لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدّعوة والإرشاد، الرّياض ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٣٥٧.

(٢) أحمد أحمد غَلْوَش، م. س، ص٦٨.

(٣) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٦٥.

والنّصرانيَّة التي شاعت بين عرب بلاد الشّام، هي «النّصرانيَّة اليعقوبيَّة»، أو «المذهب اليعقوبيّ» بتعبير أصحّ، وهي مذهب اعتنقه أمراء الغساسنة وتعصّبوا له ودافعوا عنه، وجادلوا رجال الدّين في القسطنطينيَّة وفي بلاد الشّام في الذَّبِّ عنه.

وكان بعض الضّجاعمة، الذين كانوا يتولّون حُكم عرب الشّام قبل الغساسنة، على دين النّصرانيَّة، غير أنّه لا يمكن الجزم على أيّ مذهب من مذاهب النّصرانيَّة كانوا. وقد ذكر المؤرِّخون أنّ «زوركوموس»، وهو «ضجعم» جدّ الضّجاعمة، تَنَصَّرَ على يد أحد الرّهبان، وذلك أنّ هذا الرئيس كان متلهّفاً إلى مولود ذَكر، فجاءه هذا الرّاهب وتضرّع إلى الله أن يهبه ولداً ذكراً، فلمّا وهب الله ضجعم ولداً ذكراً اعتبر ذلك استجابة من الله ﷻ لدعاء الرّاهب، فتَنَصَّرَ وتَعَمَّدَ وتبِعته قبيلته في ذلك[1].

وحَرِيٌّ بالذّكر أنّه لم يكن «الأعراب البدو» يقبلون مذهباً نصرانيّاً مُعيَّناً واحداً بصورة دائمة، ذلك بأنّ تَوَزُّعَهُمُ القَبَلِي، حتّى ولو كانوا من أرومة واحدة، جعل تأثير فئة من «المُبَشِّرين» أكبر عند فريق منهم منه عند الفريق الآخر. ويمكن الإشارة إلى عرب أرض الرّافدين وعرب الشّمال للدّلالة على ذلك، فقد اضطرّ بعضهم بحُكم موقع إقامتهم القريب من الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ولعلّهم كانوا مرّات تحت نفوذها المباشر، إلى القبول، ولو على غير رغبة منهم أو إيمان، بالمذهب الخلقيدونيّ، فيما كان الذين سكنوا في حدود الدّولة الفارسيّة إمّا نساطرة أو مونوفيزيين، ومن هذه الفئة الجماعة التي استقرّت إلى الشّمال من «الأنبار (غرب العراق)»، وكانت مراكزها، التي تعود إليها للحصول على المعرفة الدّينيَّة، هي: تِكريت و«سِنجارا» ونَصيبين و«بَلَد»[2].

حماية الغساسنة للمونوفيزيين

كانت الفترة التي تدور حول سنة ٤٥٠م، فترة مهمة بالنّسبة إلى «الكنائس الآراميّة»، فقد انفصلت الكنيسة المصريَّة (القبطيَّة) عن الكنيسة الرسميَّة، وظلّ

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج١٢، ص١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٩ ـ ١٢٠.

بطريرك الإسكندريَّة سجيناً في القسطنطينيَّة. وكان أتباع بطريرك أنطاكية سفيروس، الذي لم يقبل بالخلقيدونيَّة وهرب إلى مصر، يُضطَهدون ويُطارَدون رسميّاً.

ومع الزّمن أصبحت المونوفيزية هي الحركة المقاومة للخلقيدونيّة، ومع ذلك فإنّ المونوفيزيين لم يُطرحوا خارج حدود الدّولة البيزنطيَّة على نحو ما فعلته هذه الدّولة مع النّساطرة. لكن موقف الإمبراطور يوستينوس الأوّل (٥١٨ ـ ٥٢٧م)، من الكنائس العربيّة في سورية كاد أن يقضي عليها، فقد اضطَهد الرّهبان في المناطق العربيَّة في شمال سورية في الولايات الفراتيَّة والرُّها وأرض الرّافدين وفي أرجاء أنطاكية، وخَيَّرَ هؤلاء بين القبول بالخلقيدونيَّة أو الخروج إلى الصّحراء. فاختارت الأكثريَّة الصّحراء، وتنقَّلَت بين البدو، واختلَفَت إلى قرى الرّيف أحياناً، داعيةً لكنيستها. وقد نجح بعض المونوفيزيين في إقامة جماعات جديدة في الأماكن التي بدت قاصية في نظر الإمبراطور[1].

وفي الفترة التي مرّت بين سنة ٥٠٨م، وسنوات (٦٣٣ ـ ٦٤١م)، وهي سنوات الفتح الإسلاميّ لفلسطين وسورية ومصر، كان رعايا الإمبراطوريَّة الرّومانيَّة الشّرقيَّة (البيزنطيَّة) من أتباع مذهب الطّبيعة الواحدة في ضيق، إلّا أنّهم حَظوا بثلاثة مؤازرين أشدّاء هم: سفيروس البيسيدونيّ الذي كان بطريرك القسطنطينيّة (٥١٢ ـ ٥١٨م)، وزوجة الإمبراطور يوستنيانوس الإمبراطورة ثيودورة التي كان يوستنيانوس قد تزوّجها قبل اعتلائه العرش في سنة ٥٢٧م، وتوفِّيت في سنة ٥٤٨م، وكان لها من العمر خمسون سنة، ويعقوب البرادعيّ الذي كان أحد المقرّبين من الإمبراطورة ثيودورة من أتباع مذهب الطّبيعة الواحدة. وقد عُيِّنَ يعقوب البرادعيّ أسقفاً للرُّها سنة ٥٤٣م، بناء على رغبة مُلِحَّةٍ من الحارث بن جبلة الأمير الغسّانيّ الذي كان المشرف على المناطق الشّرقيّة للإمبراطوريَّة الرّوميَّة، وقضى ما تبقى من حياته وهو يتنقّل من مكان إلى آخر، وحفظ كنيسة الطّبيعة الواحدة حيّة بأن سامَ رجال دين من جميع

(١) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٦ ـ ١١٧.

والنّصرانيّة التي شاعت بين عرب بلاد الشّام، هي «النّصرانيّة اليعقوبيّة»، أو «المذهب اليعقوبيّ» بتعبير أصحّ، وهي مذهب اعتنقه أمراء الغساسنة وتعصّبوا له ودافعوا عنه، وجادلوا رجال الدّين في القسطنطينيّة وفي بلاد الشّام في الذّبّ عنه.

وكان بعض الضّجاعمة، الذين كانوا يتولّون حُكم عرب الشّام قبل الغساسنة، على دين النّصرانيّة، غير أنّه لا يمكن الجزم على أيّ مذهب من مذاهب النّصرانيّة كانوا. وقد ذَكر المؤرِّخون أنّ «زوركوموس»، وهو «ضجعم» جدّ الضّجاعمة، تَنَصَّرَ على يد أحد الرّهبان، وذلك أنّ هذا الرئيس كان متلهّفاً إلى مولود ذَكر، فجاءه هذا الرّاهب وتضرّع إلى الله أن يهبه ولداً ذكراً، فلمّا وهب الله ضجعم ولداً ذكراً اعتبر ذلك استجابة من الله ﷻ لدعاء الرّاهب، فتَنَصَّرَ وتَعَمَّدَ وتبِعته قبيلته في ذلك[1].

وحَريٌّ بالذّكر أنّه لم يكن «الأعراب البدو» يقبلون مذهباً نصرانيّاً مُعيَّناً واحداً بصورة دائمة، ذلك بأنّ تَوَزُّعَهُمُ القَبَلِيَ، حتّى ولو كانوا من أرومة واحدة، جعل تأثير فئة من «المُبَشِّرين» أكبر عند فريق منهم منه عند الفريق الآخر. ويمكن الإشارة إلى عرب أرض الرّافدين وعرب الشّمال للدّلالة على ذلك، فقد اضطرّ بعضهم بحُكم موقع إقامتهم القريب من الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ولعلّهم كانوا مرّات تحت نفوذها المباشر، إلى القبول، ولو على غير رغبة منهم أو إيمان، بالمذهب الخلقيدونيّ، فيما كان الذين سكنوا في حدود الدّولة الفارسيّة إمّا نساطرة أو مونوفيزيين، ومن هذه الفئة الجماعة التي استقرّت إلى الشّمال من «الأنبار (غرب العراق)»، وكانت مراكزها، التي تعود إليها للحصول على المعرفة الدّينيّة، هي: تِكريت و«سِنجارا» ونَصيبين و«بَلَد»[2].

حماية الغساسنة للمونوفيزيين

كانت الفترة التي تدور حول سنة ٤٥٠م، فترة مهمة بالنّسبة إلى «الكنائس الآراميّة»، فقد انفصلت الكنيسة المصريّة (القبطيّة) عن الكنيسة الرسميّة، وظلّ

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج١٢، ص١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٩ ـ ١٢٠.

بطريرك الإسكندريّة سجيناً في القسطنطينيّة. وكان أتباع بطريرك أنطاكية سفيروس، الذي لم يقبل بالخلقيدونيّة وهرب إلى مصر، يُضطَهدون ويُطارَدون رسميّاً.

ومع الزّمن أصبحت المونوفيزية هي الحركة المقاومة للخلقيدونيّة، ومع ذلك فإنّ المونوفيزيين لم يُطرحوا خارج حدود الدّولة البيزنطيّة على نحو ما فعلته هذه الدّولة مع النّساطرة. لكن موقف الإمبراطور يوستينوس الأوّل (٥١٨ ـ ٥٢٧م)، من الكنائس العربيّة في سورية كاد أن يقضي عليها، فقد اضطَهد الرّهبان في المناطق العربيّة في شمال سورية في الولايات الفراتيّة والرُّها وأرض الرّافدين وفي أرجاء أنطاكية، وخَيَّرَ هؤلاء بين القبول بالخلقيدونيّة أو الخروج إلى الصّحراء. فاختارت الأكثريّة الصّحراء، وتنقّلت بين البدو، واختلَفت إلى قرى الرّيف أحياناً، داعيةً لكنيستها. وقد نجح بعض المونوفيزيين في إقامة جماعات جديدة في الأماكن التي بدت قاصية في نظر الإمبراطور[1].

وفي الفترة التي مرّت بين سنة ٥٠٨م، وسنوات (٦٣٣ ـ ٦٤١م)، وهي سنوات الفتح الإسلاميّ لفلسطين وسورية ومصر، كان رعايا الإمبراطوريّة الرّومانيّة الشّرقيّة (البيزنطيّة) من أتباع مذهب الطّبيعة الواحدة في ضيق، إلّا أنّهم حَظوا بثلاثة مؤازرين أشدّاء هم: سفيروس البيسيدونيّ الذي كان بطريرك القسطنطينيّة (٥١٢ ـ ٥١٨م)، وزوجة الإمبراطور يوستنيانوس الإمبراطورة ثيودورة التي كان يوستنيانوس قد تزوّجها قبل اعتلائه العرش في سنة ٥٢٧م، وتوفِّيت في سنة ٥٤٨م، وكان لها من العمر خمسون سنة، ويعقوب البرادعيّ الذي كان أحد المقرّبين من الإمبراطورة ثيودورة من أتباع مذهب الطّبيعة الواحدة. وقد عُيِّنَ يعقوب البرادعيّ أسقفاً للرُّها سنة ٥٤٣م، بناء على رغبة مُلِحَّةٍ من الحارث بن جبلة الأمير الغسّانيّ الذي كان المشرف على المناطق الشّرقيّة للإمبراطوريّة الرّوميّة، وقضى ما تبقى من حياته وهو يتنقّل من مكان إلى آخر، وحفظ كنيسة الطّبيعة الواحدة حيّة بأن سامَ رجال دين من جميع

(١) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٦ ـ ١١٧.

الدّرجات من أتباع هذا المذهب[١].

وفي سنة ٥٧١م، وقع اضطهاد عظيم على الكنيسة المونوفيزية ورجالها، فسُجنوا وقُيِّدوا، ولم ينج من هذه المصيبة إلّا المناطق الواقعة تحت نفوذ بني غسّان[٢].

محاولة تحويل الحارث عن مذهبه

كتب يوستنيانوس قيصر (٥٢٧ ـ ٥٦٥م)، إلى «أفرام الأوّل بطريرك أنطاكية (٥٢٦ ـ ٥٤٥م)»، الذي كان على «المذهب الملكاني»، ليقصد بلاد غسّان ويفاتح الحارث الخامس بن جبلة (٥٢٩ ـ ٥٦٥م)، في قضيّة المعتقد، لعلّه يقنعه بالعدول عن المونوفيزية والمجاهرة بعقيدة المجمع الخلقيدونيّ، غير أنّ الحارث بن جبلة أصرّ على التّشبّث بمعتقده المونوفيزي وتغلّب على البطريرك أفرام الأوّل في مناظرة جرت بينهما وأفحمه في جوابه، فعاد البطريرك أفرام الأوّل إلى أنطاكية خائباً[٣].

وكذلك دافع المنذر بن الحارث دفاعاً شديداً عن المونوفيزية، حتّى أنّه أنّب «البطريرك دوميان» وهو في القسطنطينيَّة على تهجُّمه على المونوفيزيين. وعمل كذلك جَهده على التّقريب بين مذهبه ومذهب القيصر، واتّصل بالقيصر تيبيريوس (٥٧٨ ـ ٥٨٢م)، ليعمل على بثّ روح التّسامح بين المذاهب النّصرانيّة، وتَرْكِ الحرّيّة للأفراد في دخول المذهب الذي يريدونه، والصّلاة في أيّة كنيسة يريدها النّصرانيّ.

وقال «أبو الفرج ابن العِبْرِيّ»: «وَجَّهَ يوستنيانوس وفداً إلى المنذر ملك العرب (الغساسنة) ليُصالحه؛ لأنّه كان غزا الرّوم وخرّب وسبى. وكان سبب الفتنة بين العرب والرّوم اضطهاد الملك يوستنيانوس الآباء القائلين بالطّبيعة الواحدة؛ لأنّ النّصارى العرب يومئذ إنّما كانوا يعتقدون اعتقاد اليعقوبيّة لا غير»[٤].

(١) أرنولد توينْبي، تاريخ البشريّة، نقله إلى العربيّة د. نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، الدّار الأهليّة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٨م، ج٢، ص٦٢ ـ ٦٣.

(٢) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١٨.

(٣) الفيكُنْت فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٨ ـ ٩ و٢١. وانظر أيضاً: د. جواد عليّ، م. س، ج١٢، ص١٦٨.

(٤) الفيكُنْتَ فيليب دي طَرّازي، المرجع نفسه، ص٩.

القَسّ المنذر بن الحارث الغسّاني

لم يكتفِ ملوك غسّان بالمدافعة عن المعتقد المونوفيزي، بل انقطع أحدهم، وهو المنذر بن الحارث، إلى الزّهد في الدّنيا والانضواء في السّلك الكهنوتيّ. وقال المستشرق نولدكة عنه: إنّ الحارث أمير غسان، الذي أطلق عليه السُّريان نَعْتَ «الحارث المجيد المؤمن»، كان له ولد اسمه «منذر»، صار كاهناً وسُمِّيَ «المُحِبُّ للمسيح البطريق المنذر بن الحارث». وذكر مخطوط لندن (رقم ١٢٥٤)، أنّ «أوسطاث»، نائب سِرجيس (سِرجِيوس) رئيس دير العقبة (عوقبثا)، كان متولياً خدمة كنيسة «المجيد مُحِبُّ المسيح البطريق منذر». ويعتقد الفيكُنت فيليب دي طَرّازي أنّ البطريق منذر هو نفسه القَسّ منذر بن الحارث[١].

خلاف الغسّانيّين والبيزنطيّين

لم يثبُت ملوك غسّان مثل نظرائهم ملوك الحيرة على الولاء الأجنبيّ، فقد كان الانشقاق طابع العلاقة الغالب بينهم وبين الأباطرة البيزنطيّين، وذلك لأسباب عدّة، كان أشدّها خطراً الخلافات المذهبيّة التي وَسَّعَتْ هُوَّةَ الانشقاق فيما بين الطّرفين، فقد كان ملوك غسّان يدينون بالمذهب اليعقوبيّ، ويرفضون الاتّحاد مع الأباطرة البيزنطيّين المتمسّكين بالمذهب الملكاني. ولهذا أصبح ملوك غسّان مناهضين للكنيسة الرّسميّة، وتلك خطوة حاسمة منهم بلا ريب في الاتّجاه المعاكس لبيزنطة[٢].

كما أنّ الشّعور الوطنيّ القائل بوجوب التّميُّز عن البيزنطيّين الأغراب، كان وراء التّمسّك بهذه النّزعة وعدم الانسياق إلى عقيدة بيزنطة[٣].

وقد أدّى انقطاع الحوار بين ملوك غسّان والأباطرة البيزنطيّين إلى انعدام الثّقة بينهما وانهيار المصالح، بل وصل الأمر إلى حدّ الحرب بينهما، وكانت النّتيجة اهتزاز المملكة الغسّانيّة ثمّ سقوطها في النّهاية.

(١) الفيكُنت فيليب دي طرّازي، م. س، ص٢٠.

(٢) د. عمر شرف الدّين، م. س، ص١٣٢.

(٣) د. فيليب حتّي وآخرون، تاريخ العرب، بيت الحكمة للتّأليف والطّباعة، بيروت ـ لبنان، ط٥، ١٩٧٤م، ج١، ص٢٠٦.

وهنا يبرز جانب حيويّ من جوانب الشّخصيَّة الغسّانيَّة، وهو جانب القوّة في تلك الشّخصيَّة، بما تملك من رأي، وما تتسلّح به من عقيدة. فهي شخصيَّة رافضة للوصاية والتّوجيه الخارجيّ، ومتمسِّكة بالاستقلال الذّاتيّ، وأحاديّة الوجه بعكس ثنائيّته لدى ملوك الحيرة[1].

المؤامرة على المنذر بن الحارث

زحف الفرس في السّنة الرّابعة لحكم يوستينوس الثّاني (٥٦٥ ـ ٥٧٨م)، إلى نصيبين و«دارا» ووصلوا إلى «أفامية»[2] واحتلّوها. فسخط القيصر وكتب إلى مركيانوس (مرقيانوس، مرقيانا) قائد جيشه يقول: «كتبتُ إلى مرقيانا أن لا يُقدم على شيء ممّا يتعلّق بوظيفته دونك. فاذهب إليه حال وصول كتابي هذا إليك». غير أنّ الكاتب بعدما ختم الرّسالتَيْن كتب سهواً اسم المنذر الثّالث بن الحارث (٥٦٥ ـ ٥٨٠م)، على رسالة مركيانوس وكتب اسم مركيانوس على رسالة المنذر. وبوصول الرّسالتين اتَّضحَتِ الدّسيسة وافْتُضِحَتِ الخديعة ونجا المنذر.

وفي سنة ٥٧٦م، اجتمع المنذر بن الحارث بيوستينوس بن جرمانوس في كنيسة مار سِرجيوس (سِرجيس) الكبرى بالرُّصافة على ساحل الفرات. ثمّ حشد جيوشه العربيّة وأغار على عرب الحيرة فأوقع بهم واسترجع ما سلبوه. وجاد المنذر بن الحارث بكثير من الغنائم على البِيَعِ (الكنائس) والأديار، فاهتزّ البلاط البيزنطيّ طرباً لهذا الخبر.

ولما ملك تيبيريوس قيصر (٥٧٨ ـ ٥٨٢م)، انطلق المنذر الثّالث بن الحارث إلى زيارته في بيزنطة (بيزنطية)، فأخذ القيصر يعاتبه لتخلّفه عن الذّهاب إلى محاربة الفرس، فما كان من المنذر بن الحارث إلّا أن أخرج من ثيابه رسالة الملك يوستينوس إلى مركيانوس القائد ودفعها إليه. فامتقع لون تيبيريوس وأخذ يجامل المنذر ويبالغ في تكريمه، ثمّ أتحفه بهدايا وافرة في جملتها تاج من ذهب. والمنذر الثالث هو أوّل ملك غسّانيّ لبس التّاج؛ لأنّ أسلافه لم يكونوا يستعملون إلّا إكليلاً فقط.

(١) د. عمر شرف الدّين، م. س، ص١٣٢ ـ ١٣٣.
(٢) أفامية: أفاميا، مدينة قديمة في سورية على نهر العاصي.

وعندما أفضت المملكة إلى موريقيوس قيصر (٥٨٢ ـ ٦٠٢م)، ختَلَ[1] موريقيوس المنذر الثالث بن الحارث وغدر به، وجزاه عن بيض أياديه بالنّفي إلى جزيرة صِقِلّيَة (جنوب إيطالية). فما كان من ابنه النّعمان السّادس إلّا أن انطلق إلى بيزنطة (بيزنطية) ليهنّئ القيصر بجلوسه على العرش. ورحّب به القيصر ووعده بإطلاق سراح أبيه المنذر، ثمّ عرض عليه أن يحضر «القُدّاسَ» ويتناول «القُرْبانَ الأقْدسَ» في الكنيسة. فاعتذر النّعمان بن المنذر وقال للقيصر: «إنّ قبائل العرب برُمَّتِهِمْ هم يعاقبة، فإذا شعروا بأنّي خالَفتهم في عقيدتهم قتلوني». فغضّ القيصر الطَّرْفَ عنه ولم يضطرّه إلى تناول القُربان في كنيسته[2].

انتهاء الصّراع بين الرّوم والفرس (وساطة النّعمان السّادس بين موريقيوس قيصر وكسرى أبرويز):

خلع الفرس في سنة ٥٩٠م، ملِكَهم «هرمزد (هرمز) الرّابع»، ونادوا بابنه «كسرى الثاني» المعروف بكسرى أبرويز مَلِكاً (٥٨٩ ـ ٦٢٧م)، غير أنّ «بَهْرام»، القائد الفارسيّ، ناهض كسرى وحاول أن يفتك به، فانهزم كسرى وكتب إلى النّعمان السّادس بن المنذر الثالث ملك غسّان، وكان يومئذ في الرُّصافة، يستقدِمُه إليه، فتوجّه النّعمان إلى كسرى، فحمَّلَه كسرى رسالة إلى موريقيوس مُصَرِّحاً باستعداده للذّهاب إليه إن رَخَّصَ له[3].

فلبّى القيصر طلب كسرى، وكتب إليه رسالة حمَّلَها النّعمان وقال له فيها أن يواصل سيره إلى «مَنْبِجَ» الواقعة ضمن حدود مملكة الرّوم البيزنطيّين. ولمّا وصل كسرى إلى منبج كتب رسالة شكر إلى موريقيوس، ثمّ انطلق بنفسه إلى بيزنطة (بيزنطية). فرحّب به القيصر وزوّجه ابنته «مارِيَة»، وابتنى لزوجته بِيْعَتَيْن، إحداهما باسم والدة الله[4]، والثّانية باسم سِرجِيوس (سِرجيس)

(١) ختَل: خدع وغافل.
(٢) الفيكُنْت فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٢١ ـ ٢٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٣.
(٤) والدة الله: حسب عقيدة النّصارى، والمقصود بها السَّيِّدَةُ مريم والدة رسول الله السَّيِّدِ المسيح عليه السلام.

الشّهيد. وهكذا عُقد الاتّفاق بين دَوْلَتِي الرّوم والفرس على يد النّعمان أبي جفنة ملك غسّان[1].

الأسقفيّات العربيّة

دخل الغساسنة في النّصرانيّة نتيجة تفاعل بين مؤثرات خارجيّة ومعطيات محليّة، فقد كانت إمارة الغساسنة إمارة تابعة للدّولة البيزنطيّة في فترة كانت هذه الدّولة خلالها تعتبر نفسها مسؤولة عن النّصرانيّة وانتشارها، وعن النّصارى في العالم الشّرقيّ. ومن هنا انتشرت العقيدة النّصرانيّة بين الغساسنة، ولكنّ الطّابع المحلّيّ السّوريّ الذي يتناسب مع اتّجاهات المنطقة المحيطة على أكثر من صعيد أعطاها المذهب المونوفيزي، مذهب أصحاب الطّبيعة الواحدة[2].

وقد دخل أكثر الغساسنة في المذهب اليعقوبيّ وتعصّبوا له، وطالما توسّطوا لدى الرّوم في سبيل حملهم على الكفّ عن اضطهادهم والتّنكيل بهم لاعتناقهم هذا المذهب الذي ظلّوا مخلصين له حتّى ظهور الإسلام[3].

هذا، وقد حضر «مَجْمَعَ خَلْقيدونيَةَ» أساقفة عرب، هم «يوحَنّا» أسقف العرب في الرُّها، و«يوشاسيوس» أحد خلفاء «الأسقف موسى».

والأسقف موسى هذا هو الذي اختارته «مارِيَةُ التَّنوخِيَّة»، التي خلَفَت زوجها أمير تَنوخ المعاصر لفالنس الإمبراطور (٣٦٤ ـ ٣٧٨م)، والتي هاجمت الدّولة البيزنطيّة ونجحت في المعارك ضدّها على نحو ما فعلت «زنّوبية». والغريب أنّ زَنّوبية عَيَّنَتْ أسقفاً على أنطاكية هو «بولس السُّمَيْساطِيّ»، ومارِيَةُ اختارت أسقفاً على شعبها.

كما كان بين الأساقفة العرب في مجمع خلقيدونية «يوحَنّا» أسقف المضارب (التَّجَمُّعات القائمة بين القدس والبحر الميت)، و«يوحَنّا» أسقف العرب البدو ومركزه في «حُوّارين (بين دمشق وتدمر)»، وقد كان هذا من القائلين بالطّبيعة الواحدة (المونوفيزية)[4].

---

(١) الفيكُنْت فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٢٣.
(٢) لطفي عبد الوهّاب، م. س، ص٣٩١.
(٣) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٢٣٤.
(٤) د. نقولا زيادة، م. س، ص١١١.

الأساقفة والمطارنة الغسّانيّين

دان الغسّانيّون بدين السُّريان المونوفيزيين ودافعوا عن عقيدتهم سِرّاً وجهراً، وكان لهم في مختلف الأزمنة أساقفة وكهنة يسوسونهم ويخدمونهم في شؤونهم البِيْعِيَّة (الكنسيّة). ويمكن القول، إذا تمّ التّجاوز عن أساقفة غسّان قبل عهد المجمع الخلقيدونيّ، إنَ أوّل أسقف مونوفيزي تولّى إدارة الشّؤون الدّينيّة للغسّانيّين كان «ثيودور» أسقف بُصرى، في حوران، وسائر البلاد العربيّة.

وكان من مشاهير أساقفة غسّان في فجر العهد المونوفيزي: بطرس أسقف العرب، وفالغ أسقف قبيلة المنذر، وتوما أسقف يبرود، ويوحَنّا أسقف تدمر، ويوحَنّا أسقف حُوّارين وغيرهم. وقد خالف هؤلاء الأساقفة تعاليم المجمع الخلقيدونيّ المَسْكونِيّ المعقود عام ٤٥١م، وأصرّوا مع أربعين أسقفاً على القول بطبيعة واحدة في السَّيِّدِ المسيح ﷺ، ولهذا أصبح اسم الغسّانيّين مُرادِفاً لاسم المونوفيزيين.

كما اشتهر في أواسط القرن السّابع الميلاديّ «يوحَنّا» أسقف بُصرى، في حوران، الذي أنشأ نافوراً معروفاً باسمه.

وبعد ذلك واصل بطاركة السُّريان إقامة الأساقفة في بلاد غسّان حتّى القرن الثّاني عشر الميلاديّ، مع عدم وجود ذِكر لهم جميعاً. ولهذا سيتمّ فيما يلي إيراد أسماء بعض الأساقفة الذين ورد ذِكرهم في بعض المصادر والمراجع، ومن هؤلاء أساقفة وردت أسماؤهم في لائحة «البطريرك ميخائيل الكبير»، وهم:

١ ـ جورجي أسقف درعا، وكان مترهِّباً في دير العرب الغسّانيّين، وهو الثّالث والأربعون من أساقفة البطريرك كرياكوس (قرياقس) (٧٩٣ ـ ٨١٧م).

٢ ـ أوغريس الغريب أسقف درعا، وقد تولى هذا الكرسيّ خلفاً لجورجي المذكور آنفاً، وهو الحادي والسّبعون من أساقفة البطريرك كرياكوس (قرياقس).

٣ ـ توما أسقف درعا، قام بعد أوغريس، وهو أوّل الأساقفة الذين وضع اليد عليهم البطريرك ديونيسيوس التَّلْمَحْرِيّ (٨١٨ ـ ٨٤٥م).

٤ ـ قسطنطين أسقف بيثونية في حوران، الذي نصّبه يوليان الثّالث (٦٨٨ ـ

٧٠٩م)، ثم قُلّد كرسيّ حمص، وأخيراً نُقل إلى أبرشية الرُّها.

٥ ـ باسيل الرُّهاوِيّ، الذي نصّبه البطريرك ديونيسيوس الثّاني (٨٩٦ ـ ٩٠٩م)، أسقفاً على بيثونية، وهو الثّامن والأربعون من أساقفة هذا البطريرك.

٦ ـ كرياكوس (قرياقس) رئيس دير مار شلمون، الذي رقّاه البطريرك يوحَنّا السّادس (٩١٠ ـ ٩٢٢م)، إلى أسقفيّة بيثونية، وهو الأربعون من أساقفته.

٧ ـ يوحَنّا رئيس بِيْعَةِ السُّريان في صور، الذي استدعاه البطريرك يوحَنّا الثّالث عشر ابن عبدون (١٠٧٥ ـ ١٠٩٥م)، ونصّبه أسقفاً لبيثونية، وهو سابع أساقفته.

٨ ـ متّى رئيس دير بيثونية، الذي اختاره البطريرك يوحَنّا الخامس عشر (١١٢٩ ـ ١١٣٧م)، ورقّاه إلى الرُّتبة الأسقفيّة.

وكان لكنيسة مار سِرجِيوس (سرجيس) الكبرى في الرُّصافة، الواقعة على الفرات في آخر حدود المملكة الغسّانيّة، منزلة خطيرة عند عرب البادية، فكانوا إذا تنصّروا يطلبون المعموديّة فيها. وقد تتابع مطارنة السُّريان في كرسيّ أبرشيّة الرُّصافة حتّى أواخر القرن العاشر الميلاديّ، وفيما يلي أسماؤهم:

١ ـ شمعون مطران الرُّصافة، الذي تَرَهَّبَ في دير آبهن، وهو الثّامن والخمسون من أساقفة البطريرك كرياكوس (قرياقس) (٧٩٣ ـ ٨١٧م).

٢ ـ إيرنيس مطران الرُّصافة، الذي تَرَهَّبَ في دير قرتمين بطور عبدين، وهو الخامس والعشرون من أساقفة البطريرك ديونيسيوس التَّلْمَحْرِيّ (٨١٨ ـ ٨٤٥م).

٣ ـ جبرائيل مطران الرُّصافة، رئيس دير مار زكّي، الذي ابْتَنَتْهُ الملكة ثيودورة، ووضع عليه اليد البطريرك يوحَنّا الخامس (٨٤٧ ـ ٨٧٤).

٤ ـ ديونيسيوس مطران الرُّصافة، وكان من رهبان دير النّفوس بالرُّها، وسامه البطريرك يوحَنّا الخامس.

٥ ـ المطران فيلكسينوس، وكان من رهبان دير مار زكّي، ونصّبه البطريرك يوحَنّا الخامس مطراناً للرّصافة.

٦ ـ المطران حبيب الأوّل، وكان من رهبان دير النّفوس، ونصّبه ثيودوسيوس البطريرك (٨٨٧ ـ ٨٩٥م).

٧ ـ المطران بطرس الرُّهاوِيّ، الذي سامه البطريرك ديونيسيوس الثّاني (٨٩٦ ـ ٩٠٩م).

٨ ـ المطران سِرجِيوس (سِرجيس)، وكان أيضاً من رهبان دير مار زكّي، ووضع اليد عليه يوحَنّا السّادس (٩١٠ ـ ٩٢٢م).

٩ ـ المطران حبيب الثّاني، وكان من رهبان دير مار زكّي، وسامه البطريرك يوحَنّا السّابع (٩٣٦ ـ ٩٥٣م).

١٠ ـ المطران كزما (قزما)، الذي تَرَهَّبَ في دير سروج، ونصّبه البطريرك يوحَنّا التّاسع (٩٦٥ ـ ٩٨٦م)، مطراناً للرّصافة، وهو التّاسع والعشرون من أساقفته.

كما كان للسِّريان في الرَّقَّةِ أيضاً، الواقعة في شمال شرق سورية على شاطئ نهر الفرات وكانت تحت حكم العرب الغسّانيّين، كنائس عديدة من جملتها كنيسة كبرى تضاهي كنائس أنطاكية والرُّها وغيرها. ولهذا ميَّزها البطاركة على غيرها من الكراسي وجعلوها كرسيّاً متروبوليتيّاً، وفيها احتفل الأساقفة بسيامة بعض البطاركة الذين كان منهم ديونيسيوس التَّلْمَحرِيّ (٨١٨ ـ ٨٤٥م).

ومن مطارنتها الأوّلين «بولس» العلّامة الكبير في القرن السّادس الميلاديّ، وكان مُتَضَلِّعاً من كِلتا اللّغتَين السُّريانيّة واليونانيّة. فنقل إلى السُّريانيّة كتباً شتى ذات شأن، أخصُّها تآليف البطريرك سويرا الأنطاكيّ (٥١٢ ـ ٥١٨م)، وخُطَبه. وفيما يلي سلسلة مطارنة الرَّقَّةِ الذين أثبت ميخائيل الكبير أسماءهم في ذيل تاريخه، وهم:

١ ـ ثيودوسيوس مطران الرَّقَّة، وهو التّاسع عشر من المطارنة الذين وضع اليد عليهم البطريرك كرياكوس (قرياقس) (٧٩٣ ـ ٨١٧م).

٢ ـ زَكَرِيّا (زَخْريا) مطران الرَّقَّة، وهو السّادس والتّسعون من أساقفة البطريرك ديونيسيوس التَّلْمَحَرِيّ.

٣ ـ كرياكوس (قرياقس) مطران الرَّقَّة، وهو الخامس والثّلاثون من مطارنة يوحَنّا الخامس (٨٤٧ ـ ٨٧٤م).

٤ ـ سويرا الأوّل مطران الرَّقَّة، وهو الثّاني والعشرون من مطارنة أغناطيوس الثّاني (٨٧٨ ـ ٨٨٣م).

٥ ـ غريغوريوس الأوّل مطران الرَّقّة، وهو الخامس والعشرون من مطارنة ديونيسيوس الثّاني (٨٩٦ ـ ٩٠٩م).

٦ ـ سويرا الثّاني مطران الرَّقّة، الذي كان من رهبان دير مار حنانيا المشهور بدير الزّعفران، ووضع اليد عليه يوحَنّا السّادس (٩١٠ ـ ٩٢٢م)، وهو السّادس والثّلاثون من مطارنته.

٧ ـ يعقوب مطران الرَّقّة، الذي كان من رهبان دير الرُّها، ونصّبه البطريرك يوحَنّا السّادس.

٨ ـ يوحَنّا الأوّل مطران الرَّقّة، رئيس دير ترعيل (باب الله)، وهو باكورة الأساقفة الذين وضع اليد عليهم البطريرك إبراهيم (٩٦٢ ـ ٩٦٣م).

٩ ـ موسى مطران الرَّقّة، وهو الخامس عشر من مطارنة البطريرك أثناسيوس الخامس (٩٨٧ ـ ١٠٠٣م).

١٠ ـ أثناسيوس مطران الرَّقّة، وهو السّادس من مطارنة البطريرك يوحَنّا العاشر (١٠٠٤ ـ ١٠٣٠م).

١١ ـ بطرس مطران الرَّقّة، وهو الحادي عشر من مطارنة البطريرك يوحَنّا العاشر.

١٢ ـ غريغوريوس الثّاني مطران الرَّقّة، وهو السّابع والعشرون من مطارنة البطريرك ديونيسيوس الرّابع (١٠٣٢ ـ ١٠٤٢م).

١٣ ـ أغناطيوس مطران الرَّقّة، وهو المشهور بيوحَنّا برشوشن، وهو الثّالث عشر من مطارنة البطريرك يوحَنّا الثّاني عشر (١٠٦٣ ـ ١٠٧٣م).

١٤ ـ أيونيس الأوّل مطران الرَّقّة، وضع اليد عليه أثناسيوس السّابع (١٠٩١ ـ ١١٢٩م)، وهو الثّاني والأربعون من مطارنته.

١٥ ـ أيونيس الثّاني مطران الرَّقّة، ووضع اليد عليه في بِيعة آمد البطريرك أثناسيوس الثّامن (١١٣٩ ـ ١١٦٦م)، وهو الثّالث عشر من مطارنته.

١٦ ـ يوحَنّا الثّاني مطران الرَّقّة، الذي كان رئيس دير في الكورة ماردين، ووضع اليد عليه ميخائيل الكبير (١١٦٧ ـ ١٢٠٠م)، وهو الثّامن عشر من مطارنته.

١٧ ـ باسيل مطران الرَّقّة، الذي ولد في كورة بأنطاكية، وكان اسمه بنيامين

(بنيمين)، وهو الثّامن والثّلاثون من مطارنة البطريرك ميخائيل الكبير[1].

أساقفة السُّريان الرُّحَّلِ في بلاد غسّان وبلاد تَغْلِبَ وغيرها

ذكر ميخائيل الكبير في لائحته أساقفة آخرين واحداً فواحداً، بعنوان «أسقف العرب»، كانوا يرعون القبائل العربيّة، ولا سيّما في بلاد غسّان وتَغْلِبَ وغيرها، وكان دَيْدَنُهُمْ التَّنَقُّلُ مع العرب الرُّحَّلُ من فلاة إلى فلاة، ومن بادية إلى بادية. ومن هؤلاء شمعون رئيس دير مار زكّي، وهو الثّاني والخمسون بين أساقفة البطريرك كرياكوس (قرياقس)، ثمّ يوحَنّا وخَلَفُهُ إبراهيم اللّذَيْنِ نصّبهما ديونيسيوس التَّلْمَحْرِيّ للعرب الرُّحَّل، إلخ[2].

(١) الفيكُنْت فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص١٠ ـ ١٥.

(٢) المرجع نفسه، ص١٥.

الفصل السّادس

نهاية حكم الغساسنة في ظلّ الإسلام

الغساسنة قبل الإسلام

كانت الممالك العربيّة، بما فيها مملكة الغساسنة، في نهاية القرن السّادس الميلاديّ، قد تدهورت قوّتها وضَعُفَ نفوذها ووقعت تحت الاحتلال أو النّفوذ الأجنبيّ[1]. وما ذلك إلّا لأنّ العرب كانوا قد أصبحوا أُمّةً فرّقتها الحروب، وأنهكت قواها الأحقاد والغارات، فلا غَرْوَ أن تسقط ممالكها الشّهيرة تحت أيدي المحتلّ الغاصب[2]. فاليمن فقدت استقلالها منذ نهاية الرّبع الأوّل من القرن السّادس الميلاديّ وسقطت تحت حُكم الأحباش ثمّ حُكم الفرس، وعمّها الاضطراب الدّاخليّ، وبذلك فقدت منزلتها، كما فقدَت قُدرتَها على التّحكُّم في التّجارة بين الشّرق والغرب التي كانت في أيديها منذ آماد بعيدة. وكذلك كانت مملكة الحيرة قد فقدت استقلالها بعد أن غيّرت فارس سياستها نحوها بعد أن استنفدت كلَّ طاقتها الحيويّة، وجعلت منها إمارة فارسيّة يحكمها أمير فارسيّ. ومملكة الغساسنة فقدَت قوّتها كذلك بعد أن غَيَّرَ الرّوم سياستهم نحوها، فاضطربت أحوالها وأصبحت في شبه فوضى[3].

ويمكن إيجاز بعض حال العرب وقتها بما يلي:

١ ـ النّاحية الاجتماعيَّة: كانت حياة العرب مليئة بالمآسي والظّلم

(١) أحمد إبراهيم الشّريف، مكّة والمدينة في الجاهليّة وعهد الرّسول ﷺ، دار الفكر العربيّ، القاهرة ـ مصر، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٩٩.

(٢) د. حمّود بن أحمد بن فرج الرُّحَيْلِيّ، منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنوّرة ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص٢٨٦.

(٣) أحمد إبراهيم الشّريف، م. س، ص١٩٩.

والفواحش، فقد كانوا يقتلون الأولاد خشية الفقر أو العار، ويأكلون الرِّبا، ولا حقّ عندهم للضّعيف؛ كاليتيمات والنّساء والرّقيق.

٢ ـ النّاحية الاقتصاديَّة: كان الفقر سمة عامّة لكلِّ عرب شبه الجزيرة العربيَّة، إلّا بقاعاً محدودة مثل مكّة المكرّمة، بفضل ما سخَّر الله ﷻ لأهلها من موسم الحجّ ورحلتَي الشّتاء والصّيف. وكان المصدر الرّئيس للرّزق عند العرب هو الرّعي، وغزو بعضِهم بعضاً للنّهب والسّلب.

٣ ـ النّاحية الدّاخليَّة: كانت الحروب الدّاخليّة تستنفد جهود العرب وطاقاتهم بسبب التّعصُّب للقبيلة، فقد كانت الحروب تُثار أيّاماً وسنين لسبب يسير؛ كنزاع على أماكن المياه والمراعي، أو لكلمة طائشة، وشعارهم في ذلك قول الشّاعر «زهير بن أبي سُلْمى»:

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ ... يُهْدَم، وَمَنْ لا يَظْلِمِ النّاسَ يُظْلَمِ

وقول الشّاعر لبيد بن ربيعة:

وَهَلْ أنا إلّا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ ... غَوَيْتُ وإنْ تَرْشَدْ غَزِيَّةُ أَرْشَدُ

٤ ـ النّاحية الخارجيَّة: كان العرب في الجاهليَّة لا يُحسب حسابهم في ميزان القوى، فقد كان عرب المناذرة تحت حكم الفرس، وعرب الغساسنة تحت حكم الرّوم، وعرب اليمن تحت حكم الحبشة.

وأما حالة شعوب الأرض يومئذ فلم تكن بأحسن حالاً في معظم النّواحي من حالة العرب، فقد كانت اليهوديّة والنّصرانيَّة تعيشان في قلب شبه الجزيرة العربيَّة وخارجها، وقد خيَّم الشّرك والوثنيَّة عليهما وعلى مَن دان بهما لِما حكاه الله ﷻ عن أتباع المِلَّتَيْن: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة/ ٣٠][1].

وقد وافق هذا الوقت بدء ظهور محاولات تمرّد على النّفوذ الأجنبيّ في أوقات عدّة من نهاية القرن السّادس الميلاديّ، وتجلّت هذه الملامح في اشتباك العرب مع الفرس في معركة «ذي قار» وانتصارهم عليهم، وفي تمرّد

(١) محمّد أحمد محمّد ملكاويّ، عقيدة التّوحيد في القرآن الكريم، مكتبة دار الزّمان، المدينة المنوّرة ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٣٦١.

الغساسنة على طغيان الرّوم، وفي ثورة اليمنيّين على سلطان الأحباش.

وكان العرب، خلال محاولاتهم التّمرُّد على السّيادة الأجنبيّة، يتطلّعون إلى منطقة عربيّة مستقلّة تتولى زعامتهم وقيادتهم، ولم تكن هذه المنطقة سوى مكّة المكرّمة التي كانت تتمتّع باستقلالها، والتي فشل الغزو الأجنبيّ أمام أبوابها حين وجّهت الحبشة إليها حملتها في سنة ٥٧٠م. (غزوة أبرهة الحبشيّ).

فمكّة المكرّمة كانت تتمتّع في نهاية القرن السّادس الميلاديّ بمركز رياسيّ لا شكّ فيه في شبه جزيرة العرب؛ لأنّها كانت البلدة العربيّة الوحيدة التي كانت تتمتّع باستقلالها فلم تخضع لحاكم أجنبيّ قطّ[1]، وذلك لبُعدها عن مجال التّصارع الدّوليّ في ذلك الوقت، وتمتُّع أهلها بنوع من الاستقرار والتّنظيم الاجتماعيّ.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الأمن الذي حظيت به مكّة المكرّمة بقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت/ ٦٧]. وقال ﷻ أيضاً: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش/ ٣، ٤][2].

وقد أدّت مكانة مكّة المكرّمة ومَقام بيت الله الحرام إلى غيرة بعض حكّام البلاد البعيدة عنها، فأقاموا في بلادهم معابد لعلّها تصرف النّاس عن الحجّ إلى مكّة المكرّمة وزيارة بيت الله الحرام، وتدفعهم لزيارة هذه المعابد. فأقام الغساسنة بيتاً بالحيرة، وأقام «أبْرَهَةُ الأشْرَمُ»[3] عامل «النّجاشِيّ» ملك الحبشة على اليمن بيتاً باليمن. فلم يُغن ذلك العربَ عن بيت الله الحرام في مكّة

---

(١) أحمد إبراهيم الشّريف، م. س، ص١٩٩.

(٢) د. حمّود بن أحمد بن فرج الرُّحَيْلِيّ، م. س، ج١، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٣) أبْرَهَةُ الأشْرَم: حاكم اليمن الحبشيّ، بنى كنيسة ضخمة مزخرفة في صنعاء وأسماها (القُلَّيْس) ودعا النّاس للحجّ إليها بدلاً من الكعبة، لأسباب دينيّة وسياسيّة واقتصاديّة، ففشل فشلاً ذريعاً ولم يحجّ إليها أحد، فغضب وقرّر هدم الكعبة، فسار إليها على رأس جيش ضخم تتقدَّمه الأفيال. ولم يتصدّى له أحد، وعندما دخل مكّة وهمّ بهدم الكعبة أهلَكَه الله وجيشه. والقصّة مذكورة في سورة الفيل. أحمد معمور العَسيريّ، موجز التّاريخ الإسلاميّ منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧م، د. ن.، الرّياض ـ السّعوديّة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٤٧.

المكرّمة، ولا هو صرَفهم عن البلد الحرام[1].

رسائل الرّسول ﷺ إلى الملوك والأمراء

قام رسول الله ﷺ، بعد هجرته من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة وترتيب أمور المسلمين فيها، بإرسال كتب إلى الملوك والأمراء، العرب والأجانب، يدعوهم فيها، ويدعو شعوبهم عبرهم، إلى الإسلام.

وقد ختم رسول الله ﷺ تلك الرّسائل بخاتم من وَرِقٍ (فضّة) نقش عليه: «محمّد رسول الله»[2].

وكان ممّن كتب إليهم: هرقل ملك بيزنطة، وكسرى ملك فارس، والنّجاشيّ ملك الحبشة، والمُقَوْقِسُ حاكم مصر، وملك البحرين، والحارث الحِمْيَرِيُّ ملك اليمن، والحارث الغسّانيّ أمير الغساسنة، وحاكم اليمامة[3].

ومن الأمثلة على تلك الرّسائل رسالته ﷺ إلى هرقل ملك بيزنطة، وهي التّالية: (بسم الله الرّحمن الرّحيم. من محمّد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الرّوم. سلامٌ على مَنِ اتَّبع الهدى. أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام. أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجركَ مرَّتَيْن. فإن تَوَلَّيْتَ فإنّما عليكَ إثْمُ الأريسِيّين[4])[5].

---

(١) محمّد حسين هيكل، حياة محمّد ﷺ، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ط١٩، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٧٤.

(٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لمّا أراد النّبيّ ﷺ أن يكتب إلى الرّوم، وفي رواية: إلى العجَم، قالوا: إنّهم لا يقرؤون كتاباً إلّا مختوماً. فاتَّخَذ رسول الله ﷺ خاتَماً من فضّة، كأني أنظر إلى بياضه في يد رسول الله ﷺ، نَقْشُهُ «محمّد رسول الله». إبراهيم بن عمر البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَرِ في تَناسب الآيات والسُّوَر، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة ـ مصر، د. ت.، ج٧، ص٥٨.

(٣) توفيق بن عبد العزيز السُّدَيْرِيّ، الإسلام والدّستور، وكالة المطبوعات والبحث العلميّ وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، الرّياض ـ السّعوديّة، ط١، ١٤٢٥هـ، ص.١٣٢ وانظر أيضاً: د. أسد رستم، م. س، ج١، ص٢٣٥.

(٤) الأريسِيّون: مَن يحرثون الأرض، الفلّاحون. المعجم الوجيز، م. س، ص١٢. **والمقصود هنا بمفهوم اليوم:** عامّة الشَّعب.

(٥) عليّ بن إبراهيم بن أحمد الحلبيّ، السّيرة الحلبيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج٣، ص٣٤٢.

وقد اختلَفت أجوبة الملوك والأمراء على رسائل الرّسول ﷺ، فمنهم مَنْ أَسْلَمَ كالنَّجاشِيِّ ﷺ، ومنهم مَنِ اعترف بالدّولة الإسلاميّة كهرقل، ومنهم مَنْ مَزَّقَ الكتاب ككسرى، ومنهم من قتل حامِلَ الكتاب كحاكم بُصرى الغسّانيّ.

و«المُكاتَبَةُ» بين رئيسَي دولتَين من الأمور الدّستوريّة، واعتراف الدّول الأخرى بدولة ما يعطي هذه الدّولة مكانة دستوريّة أكبر[١].

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى جماعة من «طيء»، ومنهم «بَنو معاوية بن جرول»[٢]، و«عامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطّائيّ»[٣]، وجماعة من «بني جوين»[٤]، ولـ«بَني مَعْنٍ»[٥] الطّائيّين[٦].

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً إلى «خالد بن ضماد الأزْدِيّ» «أنّ له ما أسْلَمَ عليه من أرضه، على أن يؤمن بالله لا يشرك به شيئاً. ويشهد أن محمداً عبده ورسوله. وعلى أن يقيم الصلاة. ويؤتي الزكاة. ويصوم شهر رمضان. ويحج

(١) توفيق بن عبد العزيز السُّدَيْرِيّ، م. س، ص١٣٢.

(٢) كتب رسول الله ﷺ لبني معاوية بن جرول الطائيين: لمن أسلم منهم، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأطاع الله ورسوله، وأعطى من المغانم خمس الله وسهم النبي ﷺ، وفارق المشركين، وأشهد على إسلامه، فإنه آمن بأمان الله ورسوله. وإن لهم ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم. وغدوة الغنم من وراء بلادهم. وإن بلادهم التي أسلموا عليها مثبتة. وكان كاتب كتابه الزبير بن العوام. محمّد حميد الله الحيدر آباديّ الهنديّ، م. س، ص٢٩٨.

(٣) كتب رسول الله ﷺ لعامر بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي أن له ولقومه طيء ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وفارقوا المشركين، وكان كاتب كتابه المغيرة بن شعبة. ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٦٨م، ج١، ص٢٠٦.

(٤) كتب رسول الله ﷺ لبني جوين الطائيين لمن آمن منهم بالله. وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وفارق المشركين، وأطاع الله ورسوله، وأعطى من المغانم خمس الله وسهم النبي. وأشهد على إسلامه، فإن له أمان الله ومحمد بن عبد الله، وأن لهم أرضهم ومياههم، وما أسلموا عليه، وغدوة الغنم من ورائها مبيتة، وكان كاتب كتابه المغيرة بن شعبة. قال: يعني بغدوة الغنم، قال: تغدو الغنم بالغداة فتمشي إلى الليل، فما خلفت من الأرض وراءها فهو لهم. وقوله مبيتة يقول: حيث باتت. المرجع نفسه.

(٥) كتب رسول الله ﷺ لبني معن الطائيين أن لهم ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم، وغدوة الغنم من ورائها مبيتة، ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله، وفارقوا المشركين، وأشهدوا على إسلامهم، وأمنوا السبيل. المرجع نفسه.

(٦) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

البيت. ولا يأوي محدثاً. ولا يرتاب. وعلى أن ينصح لله ولرسوله. وعلى أن يحب أحباء الله. ويبغض أعداء الله. وعلى محمد النبي أن يمنعه مما يمنع منه نفسه وماله وأهله. وأن لخالد الأزدي ذمة الله وذمة النبي إن وفى بهذا». وكان كاتِبُ كِتابِهِ «أُبَيّ بن كعب»[١].

وكتب لـ«جنادة الأزْدِيّ» وقومه، ومن تبعه. ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا من المغانم خمس الله وسهم النبي ﷺ وفارقوا المشركين، فإن لهم ذمة الله وذمة محمد بن عبد الله. وكان كاتِب هذا الكتاب «أُبَيّ بن كعب» كذلك[٢].

وكتب أيضاً إلى «أبي ظبيان الأزْدِيّ»[٣] من «غامِدٍ»[٤] يدعوه ويدعو قومه إلى الإسلام، فأجابه في نفر من قومه بمكّة المكرّمة، وكانت لأبي ظبيان صُحبة، وأدرك عمر بن الخطّاب ﷺ[٥].

وورد في أخبار الرُّسُلِ الذين أرسلهم الرّسول ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، أنّ الرّسول ﷺ أرسل «شجاع بن وهب»[٦] إلى «الحارث بن أبي شمر الغسّانيّ» من غسّان، وكان يقيم إذ ذاك بغوطة دمشق في قصر مُنيف،

(١) ابن سعد، م. س، ج١، ص٢٠٤.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٠٧.

(٣) كتب رسول الله ﷺ إلى أبي ظبيان الأزدي من غامد يدعوه ويدعو قومه إلى الإسلام. فأجابه في نفر من قومه بمكة. منهم: مخنف، وعبد الله، وزهير بنو سليم، وعبد شمس بن عفيف بن زهير. هؤلاء بمكة. وقدم عليه بالمدينة الجحن بن المرقع، وجندب بن زهير، وجندب بن كعب، ثم قدم بعد مع الأربعين الحكم من مغفل، فأتاه بمكة أربعون رجلاً. المرجع نفسه، ص٢١٤. أبو ظبيان الأزْدِيّ: روى عن عمر بن الخطّاب ﷺ، وروى عنه موسى بن عبد الله بن يزيد. ابن حِبّان، الثّقات، دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد، الدّكن ـ الهند، ط١، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ج٥، ص٥٧٥.

(٤) غامِد: من القبائل العربيّة، وهم بطن من الأزد. ابن عبد البَرّ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق محمّد البجاويّ، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج١، ص٢٨٤.

(٥) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص١٨٤ ـ ١٨٥.

(٦) شجاع بن وهب: ذكره ابن إسحاق في السّابقين الأوّلين، وفيمن هاجر إلى الحبشة، وفيمن شَهِدَ بَدْراً. ابن حجر العسقلانيّ، الإصابة في تمييز الصّحابة، تحقيق مركز هَجَر للبحوث، دار هَجَر، د. ت.، ج٥، ص٧٤.

ليدعوه إلى الإسلام، فلمّا دفع «شجاع» كتاب رسول الله ﷺ إلى «الحارث» رمى به، ولم يدخل في الإسلام، وبقي على النّصرانيّة حتّى توفّي عام الفتح[1].

وفود قدِمَت على رسول الله ﷺ لتَدخل في الإسلام

قدِمَت وفود عدّة من قبائل مختلفة على رسول الله ﷺ لتَسأله عن الإسلام وتُعلن إسلامها أمامه، ومن هذه الوفود:

١ ـ وفد غسّان:

يظهر من رواية يرجع سندها إلى «محمّد بن بكير الغسّانيّ» عن قومه «غسّان» أنّ الغساسنة لم يُقبلوا على الإسلام إقبال غيرهم من العرب، وأنّهم لم يُسلموا إلّا بعد فتوح الشّام. ولمّا ذهب ثلاثة نفر منهم إلى المدينة وأسلموا

(١) ذكَر الواقِديُّ «أنَّ رسول اللهِ ﷺ بعث شُجاعاً إلى الحارِثِ بْنِ أبي شِمْر، وهو بغوطَةِ دمشق فكتب إليه مَرْجِعَهُ من الحُدَيْبِيَة: (بسم الله الرّحمٰن الرّحيم، من محمّدٍ رسول الله إلى الحارث بن أبي شِمْرٍ، سلامٌ على مَن اتَّبَعَ الهُدى، وآمَنَ به وصَدَّق، وإنّي أدْعوكِ إلى أن تُؤْمِنَ باللهِ وحدَه، لا شريكَ لَه، يَبْقى لك مُلْكُك)، وختم الكتاب، ودَفَعَهُ إلى شُجاعِ بن وَهْب. قال: فلمّا قَدِمْتُ عليه انْتَهَيْتُ إلى حاجِبِه، فقلتُ له: إنّي رسولُ رسولِ اللهِ إليه. فقال لي: إنّك لا تَصِلُ إليه إلى يوم كذا. فأقَمْتُ على بابه يومين، أو ثلاثة، وجعل حاجِبُه، وكان روميّاً اسمه مُرَيّ، يسألني عن رسول الله ﷺ، وما يدعو إليه، فكنتُ أُحَدِّثُه، فَيَرِقُّ قَلْبُهُ حتّى يَغْلِبَهُ البكاء، وقال: إنّي قرأتُ في الإنجيل صِفَةَ هذا النّبيّ، وكنتُ أرى أنّه يخرج بالشّام، وأنا أُؤْمِنُ به وأُصَدِّقُه. وكان يُكْرِمُني ويُحْسِنُ ضيافتي، ويخبرني عن الحارث باليأس منه، ويقول: هو يخاف قيصر. قال: فلمّا خرج الحارث يوم جلوسه أذِنَ لِي عليه، فدفعت إليه الكتاب، فقرأه ثمّ رمى به، وقال: مَنْ ينتزع منّي مُلْكِي، أنا سائِرٌ إليه، ولو كان باليمن جئتُه، عَلَيَّ بالنّاس. فلم يَزَلْ يستعرض حتّى اللّيل، وأمر بالخيل أن تُنَعَّل، ثمّ قال: أخبِر صاحبك بما ترى. وكتب إلى قيصر يخبِره خبري، فصادف قيصر بإيلِياء (القدس الشريف)، وعنده دِحْيَةُ الكَلْبِيّ، وقد بعثه إليه رسول الله ﷺ، فلمّا قرأ قيصر كتاب الحارث، كتب أن لا تَسِرْ إليه، والْهُ عنه، ووافِني بإيلِياء. قال: ورجع الكتاب وأنا مُقيم، فدعاني وقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ قلت: غداً، فأمر لي بمائة مِثْقالِ ذَهَب، ووَصلَني الحاجِبُ بِنَفَقَةٍ وَكِسْوَة، وقال لي: اقْرَأْ على رسول الله ﷺ منّي السّلام، وأخبِره أنّي مُتَّبِعٌ دينَه. قال شجاع: فقَدِمْتُ على النّبيّ ﷺ، فأخبَرته، فقال: (**بادَ مُلْكُه**). وأقرَأتُه السّلام، وأخبَرته بما قال، فقال ﷺ: (**صَدَق**). الزّيلعيّ، نَصْبُ الرّاية لأحاديث الهداية مع حاشيته بُغية الألمعيّ في تخريج الزّيلعيّ، تحقيق محمّد عوّامة، مؤسّسة الرّيّان، بيروت ـ لبنان، دار القِبلة للثّقافة الإسلاميّة، جدّة ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٤، ص٤٢٤.

وبايعوا الرّسول ﷺ، لم يستجب قومهم لهم في دعوتهم إلى الإسلام، فكتموا أمرهم عنهم، خوفاً من بطش قومهم بهم[1].

وتفاصيل ذلك فيما ورد عن محمد بن بكير الغساني، عن قومه غسان قالوا: قدمنا على رسول الله ﷺ في شهر رمضان سنة عشر هجريّة/ديسمبر (كانون الأوّل) ٦٣١م، ونحن ثلاثة نفر، فنزلنا دار رملة بنت الحارث، فإذا وفود العرب كلهم مصدِّقون بمحمد ﷺ، فقلنا فيما بيننا: أيُرانا شر مَن يرى من العرب؟ ثم أتينا رسول الله ﷺ فأسلمنا وصدقنا وشهدنا أن ما جاء به حق، ولا ندري أيتبعنا قومنا أم لا. فأجاز لهم رسول الله ﷺ بجوائز وانصرفوا راجعين، فقدموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم، فكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان مسلمين، وأدرك واحد منهم عمر بن الخطاب ﷺ عام اليرموك، فلقي أبا عبيدة ﷺ فأخبره بإسلامه، فكان يُكرِمه[2].

٢ ـ وفد الأزْد:

كانت الأزْد من القبائل المعروفة في اليمن، وقد جاء وفد منهم إلى الرّسول ﷺ على رأسه «صرد بن عبد الله» في بضعة عشر نفراً، فأسلم، وأمره رسول الله ﷺ أن يجاهد بمَن أسلَم من أهل بيته المشركين من قبائل اليمن. وكان أوّل ما فعله صرد بن عبد الله أنّه حاصر «جرش»، وكانت قد تحصّنت وضَوَت[3] إليها «خَثْعَم»، فلمّا وجد أنّ من العسير عليه فتحها بالقوّة آوى إلى جبل «كشر»[4]، فظنّ أهل جرش أنّه إنّما ولّى عنهم منهزماً، فخرجوا في طلبه حتّى إذا أدركوه عطف عليهم فقتلهم قتلاً.

ثمّ أسلم مَن نجا منهم، وحمى الرّسولُ ﷺ لهم حِمىً[5] حول قريتهم على أعلامٍ معلومةٍ للفَرس (الخيول)، وللرّاحلة (الإبل)، وللمُثيرة (البقر) تُثير

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٤١.

(٢) ابن سعد، م. س، ج١، ص٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٣) ضوت: ضمّت. المعجم الوجيز، م. س، ص٣٨٤.

(٤) جبل كشر: جبل في منطقة جرش. الطَّبَرِيّ، تاريخ الطّبريّ، دار التّراث، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٣٨٧هـ/١٩٥٣م، ج٣، ص١٣١.

(٥) الحِمى: الموضع فيه كَلأٌ يُحمى من النّاس أن يَرْعوا فيه دوابَّهم. المعجم الوجيز، م. س، ص١٧٤.

الحَرث، فمَن رعاها من النّاس سوى ذلك فمالُه «سُحت[1]»[2].

٣ ـ وفد طَيِّئ:

كانت منازل «طَيِّءٍ» عند ظهور الإسلام جبلا طيء: «أجأ» و«سلمى»[3]. غير أنّ هناك بطوناً من طيء كانت قد انتشرت في أماكن أخرى، فنزلت في العراق وفي بلاد الشأم (الشّام) وفي أماكن أخرى في جزيرة العرب.

وطيءٌ من القبائل التي كان لها شأن كبير قبل الإسلام، ولعلّها كانت من أشهَرها وأعرَقِها قُبيل الميلاد وفي القرون الأولى للميلاد، بدليل إطلاق السُّريان كلمة «طيايا» على كلّ العرب، من أيّ قبيلة كانوا. أي أنّها استُعمِلت عندهم بمعنى «عرب»، وأصلُها من اسم قبيلة «طيء».

ولم تكن طيء متصافية ومتحابّة فيما بينها، فوقعت بين عشائرها حروب، حتّى تدخّل الحارث بن جبلة الغسّانيّ فيما بينها، فأصلح حالها. فلمّا هلك عادت إلى حربها، فالتقت «جديلة» و«غوث» بموضع تَحارَبت فيه، وقُتل فيه قائد بني جديلة، وهو «أسبع بن عمرو بن لأم»، وأخذ رجل من «سُنْبُسٍ»[4] أذنيه فخصَف بهما نَعْلَيْه. فعَظُم ما صنعت الغوث على «أوس بن خالد بن لأم»، وعزم على لقاء الغوث بنفسه، وحلف ألّا يرجع عن طيء حتّى يَنزل معها جبلَيها[5] أجأ وسلمى، وتُجبى له أهلها. وكان لم يشهد الحروب المتقدِّمة، لا هو ولا أحد من رؤساء طيء؛ كحاتم، وزيد الخيل، وغيرهم من

(١) السُّحت: ما خَبُثَ وقَبُحَ من المكاسب، فلزم عنه العار، كالرِّشوة. وهو المال الحرام. المعجم الوجيز، م. س، ص٣٠٤.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص١٨٤.

(٣) جبلا أجأ وسلمى: جبلان بأرض الحجاز، وبها مسكن طيء وقراهم. مَوْضِعٌ نَزِهٌ كثير المياه والشّجر. قيل: أجأ اسم رجل، وسلمى اسم امرأة، كانا يألفان عند امرأة اسمها معروجا، فعرف زوج سلمى بحالهما فهربا منه، فذهب خلفهما وقتل سلمى على جبل سلمى، وأجأ على جبل أجأ، ومعروجا على معروجا، فسُمِّيَت المواضع بهم. القزوينيّ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ـ لبنان، د. ت.، ص٧٤.

(٤) سُنْبُس: بطون الغوث بن طيء. ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق لجنة من العلماء، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٤٧٦.

(٥) ينزل معها جبلَيها: يدخل عُقر دارها، يغلبُها ويحتلّ ديارها.

الرّؤساء. فلما أقبلَت جديلة، وبلغ الغوث جمعُ أوسٍ لها، أوقدت ناراً على ذروة أجأ، وذلك في أوّل يوم توقّد فيه النّار، فأقبلَت قبائل الغوث، كلّ قبيلة وعليها رئيسها، ومنهم زيد الخيل، وحاتم، وتلاحمت بجديلة في يوم «اليحاميم»[1]، ويُعرف أيضاً بـ«قارات حوق»، الذي انتهى بهزيمة منكرة حلّت بجديلة، فلم تبقَ لها بقيّة للحرب، فدخلت بلاد «كلب»، وحالفتهم وأقامت معهم.

وكان سيِّد طيء في أيّام الرّسول ﷺ «زيد الخيل بن مهلهل الطّائيّ»، وهو ممّن قدِم على الرّسول ﷺ في وفد طيء. وقد قطع له الرّسول ﷺ فيداً وأرَضين معه، وكتب له بذلك، ولكنّه توفِّي في موضع يُقال له: «فردة» من بلاد نجد من حُمّى علِقت به أثناء إقامته بيثرب، فلمّا يبلغ مكانه، وقد مدحه الرّسول ﷺ وأثنى عليه. و«زيد الخيل» الذي سمّاه الرّسول ﷺ «زيد الخير»، هو من «بني نَبْهانَ» من طيء. وكان في الوفد رجال آخرون منهم: «وزر بن جابر بن سدوس» من بني نبهان، و«قبيصة بن الأسود بن عامر» من «جرم طيء»، و«مالك بن عبد الله بن خيبريّ» من «بني مَعْن»، و«قُعين بن خليف بن جديلة».

ومن طَيِّءٍ الرّجل الذي ضُرِبَ بجودِه المَثل، والذي لا زال النّاس يذكرون اسمه على أنّه المثل الأعلى في الكرم، وهو «حاتم الطّائيّ»، مُقري الضّيوف ومُغيث الفقراء. فمدَحه لجودِه الشُّعراء: عَبيد بن الأبرص والنّابغة الذُّبيانيّ وبِشْرُ بن أبي حازم وغيرهم. وكان مِضْرَبُهُ ملجأً للمحتاجين ولمَن يسلك الطّريق يريد الحيرة. ونظراً لجودِه وكرَمِه هابَتْهُ العرب، وصارت له دالّة ومكانة عند ملوك الحيرة وعند آل غسّان. وذُكر أنّه «إذا أَسَرَ أَطْلَقَ». ومرَّ في سفره على «عَنَزَة»[2] وفيهم أسير، فاستغاث به الأسير، ولم يَحضُره فِكاكُهُ[3]،

(١) اليحاميم: جبال أسفل المجزرة بأسفل مكة. ابن إسحاق، أخبار مكّة في قديم الدّهر وحديثه، تحقيق د. عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج٤، ص١٧٦.

(٢) عَنَزَة: عَنَزَةُ بن أسد: أكبر قبائل العرب في وقتنا الحاضر. تنتسب إلى عَنَزَةَ بن أسد بن ربيعة بن نزار بن مَعَدّ. وتمتدّ منازلها من نجد إلى الحجاز، فوادي السِّرحان، فالحماد، فبادية الشّام، حتّى حمص، وحماة، وحلب. عمر كحّالة، م. س، ج٢، ص٨٤٦.

(٣) لم يَحضُره فِكاكُه: لم يكن معه مالٌ يكفي لافتدائه.

فاشتراه من العنزيّين[١]، وأقام مكانه في القيد حتّى أُدّيَ فِداؤه.

وقد توفّي حاتم الطّائيّ قبل الإسلام، وانتقلت رئاسة طيء منه إلى ابنه «عَدِيّ بن حاتم طيء»، وكان نصرانيّاً يسير في قومه بالمِرْباع[٢]، وكان بمَثابة الملِك فيهم، فلما جاءت خيل الرّسول ﷺ سنة تسع بلاد طيء، قرّر اللّحوق بأهل دينه من النّصارى بالشّام، ثمّ ترك الشّام ولَحِقَ بالمدينة المنوّرة فأسلم، وأكرَمه الرّسول ﷺ، وعيّنه على صدقة طيء وأسد.

وذُكر أنّ «عمرو بن المسبح بن كعب»، من بني ثُعَل، من طيء: فارس، معمِّر، شاعر. كان من أرمى العرب في الجاهلية. أدرك الإسلام ووفد على النبي ﷺ ومات في خلافة عثمان (٢٤هـ/ ٦٤٥م)، ويقال: إنه هو الّذي عناه امرؤ القيس بقوله:

رُبَّ رامٍ مِن بَني ثُعَلٍ ... مُتلِجٍ كَفَّيهِ في قُتَرِه[٣]

مواجهة الإسلام

بدأت مواجهة الإسلام منذ اللّحظة الأولى لنزوله، عبر المشركين واليهود، وازدادت الحملة عليه بعد هجرة الرّسول ﷺ إلى المدينة المنوّرة حيث انضمّ إليها المنافقون، ثمّ بدأت أنظار الفرس والروم، وخاصّة الرّوم، تلتفت إلى الدّولة الإسلاميّة النّاشئة، تُتابع أخبارها وتعمل مع الزّمن على محاولة إثارة الفتنة داخلها والتّحريض عليها وصولاً إلى جمع الجيوش لمحاربتها.

وسيتم فيما يلي الحديث عن بعض الغزوات التي شارك فيها الرّسول ﷺ شخصيّاً، وبعض السّرايا التي أرسلها لمواجهة الرّوم وأتباعهم من نصارى العرب، ومعركة اليرموك التي كانت القاضية على مُلْك الغساسنة.

• مؤتة:

لم يُحسِنِ الرّوم الرّدَّ على دعوة رسول الله ﷺ، وفَعل صنائعهم الغساسنة

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٢) المِرْباع: رُبْع الغنيمة الذي كان يأخذه الرّئيس في الجاهليّة. المعجم الوجيز، م. س، ص٢٥٣.
(٣) الزركلي، م. س، ج٥، ص٨٦.

مثل صنيعهم وأنكى، فقتل أميرهم[١] «شُرَحْبيلُ بن عَمْرٍو الغسّانيّ» رسولَ رسولِ الله ﷺ «الحارث بن عُمَيْرٍ الأزْدِيّ»، الذي كان الرّسول ﷺ قد بعثه إلى ملِك «بُصرى»، فلما نزل «مُؤْتَة» قتله شرحبيل[٢]. وفي ذلك ورد عن عمر بن الحَكَم قال: بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عُمَيْرٍ الأزْدِيَّ إلى ملك بُصرى بكتابه، فلمّا نزل مُؤْتَةَ عرض له شُرَحْبيلُ بن عَمْرٍو الغسّانيّ، فقال: أين تريد؟ قال: الشّام. قال: لعلّك من رُسل محمّد؟ قال: نعم، أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ. فأمر به، فأوثِقَ رباطاً، ثمّ قدَّمَه، فضرب عنقه صَبْراً[٣]. ولم يُقتل لرسول الله ﷺ رسولٌ غيره. وبلغ رسولَ الله ﷺ الخبر، فاشتدّ عليه، وندب النّاس، وأخبرهم بمقتل الحارث بن عُمَيْرٍ ومن قتله، فأسرعوا، فكان ذلك سبب خروجهم إلى غزوة مُؤْتَة[٤].

وبعث النّبيّ ﷺ الجيش الإسلاميّ إلى الشّام في شهر جمادى الأولى ٨هـ/ سبتمبر (أيلول) ٦٢٩م، واشتبك هذا الجيش مع الرّوم في مؤتة من أرض البلقاء بالشّام، وهو موقع متقدّم كثيراً إلى الشّمال، ويقع قريباً من البحر الميت إلى الشّرق من قسمه الجنوبيّ، على اثني عشر ميلاً من أذرُح. وكان جيش المسلمين ثلاثة آلاف يقوده «زيد بن حارثة»[٥] بأمر من رسول الله ﷺ.

وفي ذلك ورد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: «أمَّرَ رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: **(إن قُتِلَ زَيْدٌ فجعفر، وإن قُتِلَ جعفر فعبد الله بن رواحة)**. قال عبد الله: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بِضعاً وتسعين، من طعنة ورَمية»[٦].

(١) د. النّعمان عبد المُتَعال القاضي، شِعر الفتوح الإسلاميّة في صدر الإسلام، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٧١.
(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٤٢.
(٣) ضرب عنقه صَبْراً: قتله بعد أن حبسه بانتظار موعد قتله.
(٤) ابن سعد، م. س، ج٤، ص٣٤٣.
(٥) أحمد عادل كمال، الطّريق إلى دمشق (فتح بلاد الشّام)، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص١٤٦.
(٦) البخاريّ، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، دار طوق النّجاة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٠م، ج٥، ص١٤٣، حديث رقم ٤٢٦١.

وحينما نزل الجيش الإسلامي مَعان من أطراف الشّام، بلغهم أنّ هرقل قد نزل «مآب» أمامهم من أرض البلقاء في مائة ألف من الرّوم، وقد انضمّت إليه العناصر العربيّة التي تداهِنه، من قبائل لخم و«جُذام» و«القَين» وبهراء وبَلِيّ من قضاعة، في مائة ألف أخرى يقودهم مالك بن رافلة أحد بني إراشة من بَلِيّ. وأقام المسلمون في معان ليلتين يتداولون أمرهم، ثمّ اختاروا أن يمضوا إلى المعركة ولو كانت غير متكافئة، فإنّ الرّجوع دون معركة كان من شأنه الإبقاء على مسالك الشّمال مغلقة أمام المسلمين، أمّا خوض المعركة فمن شأنه أن يغيِّر الموقف حين تعلم هذه القبائل أنّ المسلمين لن يسكتوا على قتل دُعاتهم ومبعوثيهم، وأنّهم على استعداد أن يقاتلوا من أجل ذلك، وأن يبعثوا إليهم جيوشهم، فإنّ الأمر يختلف، ولن يكون هرقل معهم بجيشه في كلّ مرّة. لقد كان المسلمون ينشدون الشّهادة فمضوا إليها.

فلمّا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الرّوم ومَن والاهم من العرب في مشارف من قرى البلقاء. ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، وبها كانت المعركة، واستُشهد القادة الثّلاثة الذين عيّنهم رسول الله ﷺ حتّى آلَتِ القيادة إلى خالد بن الوليد، فانسحب بالجيش انسحاباً ناجحاً موفّقاً[1]. وقُتل في المعركة «مالك بن رافلة (زافلة)»[2].

تحليل حول مؤتة وفرح المسلمين في مطلع سورة الرّوم:

حين انهزم الرّوم أمام الفرس شَمِت كفار مكّة المكرّمة بالمسلمين، فنزل مطلع سورة الرّوم يتنبأ بانتصار الرّوم في بضع سنين ويتحدّى المشركين بذلك، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۞ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم/ ١ ـ ٧].

وروى ابن جُبَيْر عن ابن عبّاس قال: كان المسلمون يُحبّون أن يظهر الرّوم على فارس لأنّهم أهل كتاب، وكان المشركون يُحبّون أن تظهر فارس على

(١) أحمد عادل كمال، م. س، ص١٤٦ ـ ١٤٧.

(٢) ابن هشام، السّيرة النّبويّة، تحقيق مصطفى السَّقّا وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، ج٢، ص٣٨١.

الرّوم لأنّهم أهل أوثان. قال ابن شهاب: فغلَبَت فارس الرّوم فسُرَّ بذلك المشركون وقالوا للمسلمين: إنّكم تزعمون أنّكم ستغلبوننا لأنّكم أهل كتاب، وقد غلَبَت فارس الرّوم، والرّوم أهل كتاب. وقيل: إنّه كان آخر فتوح كسرى أبرويز، فتح فيه القسطنطينيّة حتّى بنى فيها بيت النّار. فأُخبِر رسول الله ﷺ بذلك فساءه. فأنزل الله هاتَين الآيَتين، فلمّا قال: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۞ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ سُرَّ بذلك المسلمون[1].

بعد ذلك توالت الأحداث، حتّى بعث المسلمون جيشهم ليلتحم بجيش الرّوم المنتصر في أوج قوّته يحتفل بمجده وانتصاره. كيف ولماذا؟!

يبدو أن جيش المسلمين لم يخرج من المدينة إلى وُجهته ليقاتل الرّوم، وإنّما كان هدفهم الدّعوة أيضاً وإبلاغ الرّسالة. ولسائِل أن يسأل: «أيكون تبليغ الرّسالة بجيش قوامه ثلاثة آلاف؟». ولكنّ جواب السّؤال يكمُن فيما وقع لكعب بن عُمَيْر الغِفاريّ وصَحبه، وللحارث بن عُمَيْر الأزْديّ، ولعلّ في أوامر الرّسول ﷺ ما يُلقي هذا الضّوء، ويزيل شبهة الغموض في أن يدعو القوم إلى الإسلام، فإن أجابوا فبها، وإلّا فالقتال.

وفَتْحُ الطّريق المغلق كان هو الهدف، وكان الذين أغلقوه قوم من قضاعة ومن غسّان.

وكان على هرقل، والرّوم معه، أن يعتبروا تَعرُّض شرحبيل بن عَمْرو الغسّانيّ لحامل رسالة النّبيّ ﷺ إلى هرقل عدواناً على سلطانهم هم، ولكن مرّة أخرى يُغمض هرقل عينيه عن الحقّ ويُؤْثِرُ المجاملة[2]. وما دام عرب الشّام يداهنونه على حساب الحقّ الذي يراه، فليجاملهم أيضاً على حساب الحقّ الذي تبيّن له، وليَكْسَبْهُمْ إلى جانبه من الآن للمعارك اللّاحقة التي لا شكّ كان يتوقّعها، ويتنبأ بها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى إنَّ المسلمين كانوا يؤمنون بالنّصرانيّة، وبنُبوَّة عيسى بن

(١) الماورديّ، تفسير الماورديّ، تحقيق السَّيِّد بن عبد المقصود بن عبد الرّحيم، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت، ج٤، ص٢٩٦.

(٢) المجاملة الأولى كانت عندما وصله كتاب النّبيّ ﷺ وجمَع الرّوم وأمرَهم بالإسلام فأبوا، فخافهم فقال: «إنّما أردت أن أُجرِّبَكم». إبراهيم بن عمر البقاعيّ، م. س، ج٧، ص٥٨.

مريم ﷺ، فإذا ما انهزم النّصارى أمام المجوس، فلا شكّ أنّ ذلك كان يسوء إخوانهم المسلمين، وحين يرفضون رسالة النّبيّ ﷺ التي بعثها إليهم مع دِحْيَةَ[1] ومع شجاع بن وهب فهذا شأنهم، ولا إكراه في الدّين قد تبيّن الرُّشْدُ من الغَيّ.

وأمّا حين لا يقفون عند الرّفض بل يتعدّون ذلك إلى التّهديد بغزو المدينة، ثمّ لا يقفون عند حدود التّهديد فيعتدون على وفد النّبيّ بذات أطلاح[2]، ويقتلون مبعوثه إلى هرقل، ويكون الرّوم في ذلك وعملاؤهم من عرب الشّام بعضهم لبعض ظهيراً في صدِّهم عن سبيل الله، هنا، وطبقاً لشريعة الإسلام، يجب الجهاد في سبيل الله وتَطيبُ الشّهادة.

إنّ الإسلام دين الدّعوة إلى الله، وقد قوبِلَ الدُّعاة بالقتل، وفي منطق الإسلام، خلافاً لمنطق النّصرانيّة (المسيحيّة)، أنّ السّيف يقابله السّيف، ولهذا كان بَعْثُ مؤتة[3].

الغساسنة في مكّة المكرّمة

كان «بنو أسد» من نصارى الغساسنة، وكانوا يقيمون بوسط مكّة المكرّمة، أي بالقرب من الكعبة المشرّفة، ولكن أكثرهم كانوا يقيمون بالضّواحي.

ويوحي إيراد قصّة ولادة النَّبِيَّيْنِ «يحيى» و«عيسى» ﷺ، وإنكار أُلوهِيَّةِ

(١) بعث رسول الله ﷺ دِحية بن خليفة الكلبيّ ﷺ إلى قيصر ملك الرّوم، وأمرَه أن يوصل الكتاب إلى عظيم بصرى ليوصله إليه. فعظّم كتاب النّبيّ ﷺ، وقبّله، وقرأه، ووضعه على وسادة، وعَلِمَ صِدقَه ﷺ، وأنّه سيغلِب على مُلكه. فجمع الرّوم وأمرهم بالإسلام فأبوا، فخافهم فقال: إنّما أردتُ أن أُجرِّبَكم. ثمّ لم يُقَدِّرِ الله له الإسلام، فأزال الله حكمه عن الشّام. إبراهيم بن عمر البقاعيّ، م. س، ج٧، ص٥٨.

(٢) بعث رسول الله ﷺ كَعْبَ بْنَ عُمَيْرٍ الغِفارِيَّ في خمسة عشر رجلاً حتّى انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشّام، فوجدُوا جَمْعاً من جَمْعِهِمْ كثيراً، فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنَّبْل. فلمّا رأى ذلك أصحاب النّبيّ ﷺ قاتلوهم أشدّ القتال حتّى قُتِلوا، فأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلمّا بَرَدَ عليه اللّيل تحامل حتّى أتى رسول الله ﷺ فأخبَره الخبر. فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ وهَمَّ بالبعث إليهم، فبلغه أنّهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم. الواقديّ، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، دار الأعلميّ، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج٢، ص٧٥٣.

(٣) أحمد عادل كمال، م. س، ص١٤٨ ـ ١٤٩.

«عيسى» ﷺ، في القرآن الكريم، بأنّ أكثر المخاطَبين من أهل الكتاب كانوا نصارى، ثمّ إنّ خبر انهزام الرّوم والبُشرى بفوزهم في القرآن الكريم يدلّ على ذلك أيضاً، وتُلْهِمُ الآيات القرآنيّة أنّ النّبيّ ﷺ قد اتّصل بهؤلاء النّصارى ودعاهم إلى التّصديق برسالته[1].

ومن النصارى المهمّين في السّيرة النّبويّة «ورقة بن نوفل بن أسد القُرَشِيّ الأَسَدِيّ»، ابن عمّ السَّيِّدة «خديجة» أمّ المؤمنين ﷺ، اعتزل الأوثان، وتنصَّر، وقرأ الكتب السّابقة، وقصّته مشهورة في حديث ابتداء نزول الوحي على النّبيّ ﷺ في «غار حِراء»[2].

• غزوة تبوك

لم يقبل الرّوم انتصار المسلمين، وتَوَحُّدَ الجزيرة تحت راية الإسلام، وكَبُرَ عليهم أن تظهر قوّة كبرى مجاورة لهم، فجهّزوا جموعاً كثيرة بالشّام عند حلفائهم الغساسنة، وأرادوا غزو المسلمين في ديارهم، والقضاء على دولتهم النّاشئة، فكان أن جاءهم النّبيّ ﷺ غازياً في تبوك.

وغزوة تبوك تسمّى «غزوة العُسْرَة»، وكانت في غرّة رجب من السّنة التّاسعة للهجرة/ ١٥ أكتوبر (تشرين الأوّل) ٦٣٠م، في حَرٍّ شديدٍ بعد أربعة عشر شهراً من عمليّة مؤتة[3]، وعقب فتح مكّة المكرّمة، وهي آخر غزوة قام بها النّبيّ ﷺ.

وكان انتشار الإسلام بين نصارى العرب قد أقضّ مضاجع الرّوم، وجعلهم يفكّرون في القضاء على الدّين الجديد قبل أن يستفحل أمره، وكان ممّن أسلَم فروة بن عَمْرٍو الجُذاميّ قائد إحدى فرق الرّوم العسكريّة التي قاتلت المسلمين في غزوة (مؤتة)، ثمّ تمكّن الرّوم من إلقاء القبض عليه وقتله.

(١) عماد الدّين خليل، دراسة في السّيرة، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٣١.

(٢) صالح بن الحسين الجعفريّ أبو البقاء الهاشميّ، تخجيل مَن حرَّف التّوراة والإنجيل، تحقيق محمود عبد الرّحمٰن قدح، مكتبة العبيكان، الرّياض ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج٢، ص٨٥٤.

(٣) أحمد عادل كمال، م. س، ص١٥١.

وتفصيل ذلك: بعث فروة بن عَمْرِو الجذاميّ إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه[١]، وأهدى له بغلة بيضاء. وكان فروة عاملاً للرّوم على مَن يليهم من العرب، وكان منزله مَعانٌ وما حولها من أرض الشّام، فلمّا بلغ الرّوم إسلامه، طلبوه حتّى أخذوه، فحبسوه عندهم، فلمّا اجتمعتِ الرّوم لصَلبه على ماءٍ لهم يُقال له: عفراء بفلسطين، قال:

ألا هَلْ أتى سَلْمى بِأنَّ حَليلَها ... على ماءِ عَفْرا فَوْقَ إحْدى الرَّواحِلِ

عَلى ناقةٍ لَمْ يَضْرِبِ الفَحْلُ أُمَّها ... مُشَذَّبَةً أطْرافُها بِالمَناجِلِ

ولما قدّموه ليقتلوه قال:

بَلِّغْ سُراةَ المُسْلِمينَ بأنّني ... سَلْمٌ لِرَبّي أعْظُمي ومُقامي

ثمّ ضربوا عنقه وصلبوه على ذلك الماء[٢].

وقام الرّوم بحشد قوّاتهم على حدود الشّام الجنوبيّة استعداداً لمهاجمة المسلمين، واستخدموا الأنباط، الذين كانوا يتاجرون مع المدينة المنوّرة، لنقل المعلومات إليهم عن المسلمين[٣]، وقد أكّدت تلك المعلومات تزايد قوّة المسلمين مادّياً ومعنويّاً، بحيث أصبحت تلك القوّة خطراً داهماً يهدّد الرّوم في بلاد الشّام خاصّة[٤].

---

(١) أجاز (قدّم جائزة، هديّة) النّبيّ ﷺ فروة بن عمرو الجُذاميّ، عامل قيصر على عمّان باثنتي عشرة أوقيّة ونَشّ (ونِصف). كما أجاز النّبيّ ﷺ أيضاً وفود عبد القيس، وبهرام، وغسّان، وقضاعة، وغيرهم بمبالغ نقديّة مساوية لذلك.

ولقد كانت الضّيافة وحسن الاستقبال عامّةً للوفود والسّفراء، حتّى في السّفر، ويتّضح هذا من رواية الإمام أحمد أنّ رسول هرقل قَدِمَ على النّبيّ ﷺ وهو في تبوك (سنة ٩هـ/ ٦٣٠م)، فقال له رسول الله ﷺ معتذراً له من عدم وجود جائزة يُجيزه بها: «إنّ لك حقّاً، وإنّك لرَسول، فلو وجدتَ عندنا جائزة لجوّزناك بها، ولكن جئتنا ونحن مُرْمِلون (مسافرون). فقال عثمان: أنا أكسوه حُلَّةً صَفّوريّة. وقال رجل من الأنصار: عليّ ضيافته». أحمد عجّاج كرمى، الإدارة في عصر الرّسول ﷺ، دار السّلام، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٣٣.

(٢) ابن قيّم الجوزيّة، زاد المَعاد في هَدْيِ خير العباد، مؤسّسة الرّسالة، بيروت ـ لبنان، مكتبة المنار الإسلاميّة، الكويت ـ الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ج٣، ص٥٦٤ ـ ٥٦٥.

(٣) المَقريزيّ، إمتاع الأسماع بما للنّبيّ من الأحوال والأموال والحَفَدَةِ والمتاع، تحقيق محمّد عبد الحميد النّميسيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج٢، ص٤٧.

(٤) محمود شيت خطّاب، الرّسول القائد، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط٦، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٣٩٦.

وكان لغزوة تبوك أسباب مباشرة وأسباب غير مباشرة.

فأمّا الأسباب المباشرة فكانت حينما بلغ رسول الله ﷺ أنّ الرّوم قد جمعَت جموعاً كثيرة بالشّام، وأنّ هرقل قد رَزَقَ أصحابه لسنة، وأجلَبَت معه لخم وجُذام وعامِلَة وغسّان، وقدّموا مُقدِّماتهم إلى البلقاء، فندب رسول الله ﷺ النّاس إلى الخروج، وأعلَمَهم المكان الذي يريد ليتأهّبوا لذلك، وبعث إلى مكّة المكرّمة، وإلى قبائل العرب، يستنفرهم[١]، وذلك في حَرٍّ شديد، وأمرهم بالصّدقة، فحمَلوا صدقات كثيرة، وقَووا في سبيل الله[٢].

وأما الأسباب غير المباشرة، فكان منها:

١ ـ حماية حرّيّة نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربيّة بعد انتشاره داخلها، والدّفاع عن الإسلام داخل الجزيرة العربيّة.

٢ ـ تقوية معنويّات القبائل العربيّة الخاضعة لسلطان الرّوم، تلك القبائل التي أخذَت تُقبل على اعتناق الإسلام، على الرّغم من مكافحة الرّوم لهذا الاتّجاه.

٣ ـ محو آثار انسحاب المسلمين من (مؤتة) من النّفوس.

٤ ـ استطلاع قوّة الرّوم وحلفائهم في أرض الشّام استعداداً للفتح القريب.

وكان هدف المسلمين في هذه المعركة هو حماية حرّيّة نشر الإسلام في بلاد الشّام، إذ هي المَنفَذ المهمّ لنشره خارج شبه الجزيرة العربيّة، كما أنّها المتنفَّس الحيويّ للتّجارة العربيّة. بينما كان هدف الرّوم هو القضاء على منافسة المسلمين لهم في سلطانهم على العرب الخاضعين للرّوم، وتحديد انتشار الدّعوة الإسلاميّة في بلاد الشّام، وضَرْبَ الدّين الجديد في عُقر داره.

وكان جيش الرّوم عبارة عن قوّات نظاميّة كبيرة من الرّوم يساندها العرب من لخم وجُذام وعامِلَة وغسّان[٣].

---

(١) بعث رسول الله ﷺ بريدة بن الحصيب وأمره أن يبلغ الفرع، وبعث أبا رهم الغِفاريّ إلى قومه، وأبا واقد اللّيثيّ إلى قومه، وأبا جَعدة الضّمريّ إلى قومه بالسّاحل، ورافع بن مكيث بن جُندب بن جُنادة إلى جُهينة، ونُعَيْمُ بن مسعود إلى أشجع، وبديل بن ورقاء وعَمْرُو بن سالم وبسر بن سفيان إلى بني كعب بن عمرو، والعبّاس بن مرداس إلى بني سليم. وحضّ على الجهاد ورغّب فيه. المقريزيّ، م. س، ج٢، ص٤٧.

(٢) ابن سعد، م. س، ج٢، ص١٦٥.

(٣) محمود شيت خطّاب، الرّسول القائد، م. س، ص٣٩٧ ـ ٣٩٨.

الاستعدادات للمعركة لدى كلٍّ من المسلمين والرّوم:

١ ـ المسلمون: أمر النّبيّ ﷺ بإنجاز استعدادات الحركة لقتال الرّوم، ولم يكتم نيّاته في هذه الغزوة كما كان يفعل في الغزوات السّابقة ليباغت بهذا الكتمان عدوّه قبل أن يستطيع التّهيُّؤ للقتال. فقد كان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة إلّا ورّى[١] بغيرها، حتّى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ واستقبل سفراً بعيداً وغزوَ عدوٍّ كثير، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهْبَةَ عدوّهم، وأخبرهم بوجهه الذي يريده ليتأهّبوا لذلك. ولم يكتم نيّاته في غزوة تبوك؛ لأنّ المسافة طويلة يجب قطعها صيفاً، فلا بدَّ من إكمال المؤونة والنّقليّة للمجاهدين قبل الحركة، حتّى لا يؤدّي نقص القضايا الإداريّة إلى إخفاق المسلمين في تحقيق هدفهم المنشود.

وليس من السّهل تجهيز قوّات المسلمين الكبيرة بما تحتاجه من مؤونة ونقليّة وأسلحة، ما لم يشارك أغنياء المسلمين في تجهيز هذا الجيش مشاركة فعّالة، فأقبل هؤلاء الأغنياء على بذل أموالهم بسخاء وعن طيب خاطر، كما أقبل المسلمون من كلّ فَجٍّ تلبية لداعي الجهاد[٢].

(١) ورّى: أراد شيئاً، فأخفاه وأظهر غيره. المعجم الوجيز، م. س، ص٦٦٦.

(٢) محمود شيت خطّاب، الرّسول القائد، م. س، ص٣٩٨. أوّل مَن حَمل صدقته أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه، جاء بماله كلّه أربعة آلاف درهم، فقال له رسول الله ﷺ: **(هل أبقيتَ شيئاً؟)**. قال: اللهُ ورسوله. وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، فقال له رسول الله ﷺ: **(هل أبقيتَ شيئاً؟)**. قال: نعم، نصف مالي ما جئت به. وبلغ عمر ما جاء به أبو بكر رضي الله عنه فقال: ما اسْتَبَقْنا إلى خيرٍ إلّا سبقَني إليه. وحمل العبّاس ابن عبد المطّلِب رضي الله عنه مالاً يُقال: إنّه تسعون ألفاً. وحمل طلحة بن عُبَيْدِ الله مالاً. وحمل عبد الرّحمٰن بن عوف مائتي أوقيّة. وحمل سعد بن عُبادة ومحمّد بن مَسلمة مالاً. وتَصدَّق عاصم بن عُدَيٍّ بتسعين وِسْقاً تمراً. وجهّز عثمان بن عفّان رضي الله عنه ثُلث ذلك الجيش، فكان من أكثرهم نفقة، حتّى كُفِيَ ثلث ذلك الجيش مؤنتهم، حتّى إن كان ليُقال: ما بَقِيَتْ له حاجة. فجاء بألف دينار ففرَّغَها في حِجر النّبيّ ﷺ، فجعل يُقَلِّبُها ويقول ﷺ: **(ما ضَرَّ عثمان ما فعل بعد هذا اليوم)**، قالها مراراً. ورَغَّبَ عليه السلام أهل الغنى في الخير والمعروف، فتبادر المسلمون في ذلك، حتّى إنّ الرّجل ليأتي بالبعير إلى الرّجل والرّجلَين ويقول: هذا البعير بينكما تَعْتقِبانِه، ويأتي الرّجل بالنّفقة فيعطيها بعض مَن يَخرج. وأتت النِّساء بكلّ ما قَدِرْنَ عليه، فكُنَّ يُلقينَ، في ثوب مبسوط بين يدي النّبيّ ﷺ، المسك، والمعاضِد، والخلاخل، والأقرطة، والخواتيم، والخَدَمات (الأساور). وكان النّاس في حَرٍّ شديد، وحين طابت الثِّمار، وأحبّت الظّلال، والنّاس يُحبّون المُقام ويكرهون الشّخوص عنها. وأخذ ﷺ النّاس بالجِدِّ وعسكر بثَنِيَّةِ الوداع، والنّاس كثير لا يجمعهم =

وانتهز المنافقون فرصة شدّة الحَرّ، ونضوج الثِّمار، وطول المسافة، وقوّة العدوّ، فأخذوا يُثبِّطون العزائم، وينشرون الرّوح الانهزاميّة بين المسلمين، ولكنّهم أخفقوا في محاولاتهم، إذ لم يتخلّف من المسلمين أحد عن الجهاد غير ثلاثة رجال[١]، ونزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة/٣٨، ٣٩].

ولم يقبل النّبيّ ﷺ أن يستعين بالقوّات التي جمّعها عبد الله بن أُبَيّ؛ لأنّه لم يكن يثق بإخلاص تلك القوّات، فبقي ابن أُبَيّ وأصحابه من المنافقين في المدينة. وكان عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول قد عسكر على ثَنِيَّةِ الوداع في حلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يُقال: ليس عسكره بأقلِّ العسكرَيْن[٢].

وأنجز جيش العسرة استعداداته، وتَحشَّد خارج المدينة، وأصبح مستعدّاً للحركة من كلّ الوجوه[٣].

وكان رسول الله ﷺ قد أمَرَ كلّ بطنٍ من الأنصار والقبائل من العرب أن يتَّخِذوا لواءً أو راية، ومضى لوجهه يسير بأصحابه حتّى قَدِمَ تبوك في ثلاثين

= كتاب. المقريزيّ، م. س، ج٢، ص٤٧ ـ ٤٨.

(١) هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الرّبيع، وهلال بن أُميَّة، لم يسارعوا إلى التّوبة والاعتذار، وكانوا من أصحاب بدر، فنهى النّبيّ ﷺ عن كلامِهم والسّلام عليهم. فصاروا مُرجَئين لأمرِه تعالى إلى أن يتجاوز عن سيّئاتهم، فهو تعالى وحده الذي يقبَل التّوبة ويتوب على العبد دون غيره ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ﴾ [التّوبة/١٠٦]؛ أي: إمّا أن يعذِّبهم إن لم يتوبوا، وإما أن يوفِّقْهم للتّوبة ويغفر لهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التّوبة/١٠٦]؛ أي: عليمٌ بأحوالهم فيما يفعله بهم، وهؤلاء الثّلاثة هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التّوبة/١١٨]. وقد وُقِفَ أمرهم خمسين ليلة، وهجرَهم النّاس حتّى نزَلَت توبتهم. محمّد علي الصّابوني، صفوة التّفاسير، دار الصّابوني، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٥٢١ ـ ٥٢٢. وقد قبل الله عز وجل توبتهم بقوله في الآية ١١٨ من سورة التّوبة: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(٢) ابن سعد، م. س، ج٢، ص١٦٥ ـ ١٦٦.

(٣) محمود شيت خطّاب، م. س، ص٣٩٩.

ألفاً من النّاس، والخيل عشرة آلاف فرس، فأقام بها عشرين ليلة[1].

٢ ـ **الرّوم**: وزّع هرقل مرتّبات سنة كاملة على قوّاته النّظاميّة، كما وزّع كثيراً من المال على القبائل العربيّة الخاضعة لسيطرته، تشجيعاً لهم على معاونة جيشه في الصّراع الوشيك.

وبعد إنجاز استعدادات قوّاته، أرسل طلائعها إلى (البلقاء) لستر التّحشُّد الذي تمّ بعد ذلك في منطقة تبوك[2].

الحركة:

١ ـ **المسلمون**: ترك جيش المسلمين المدينة في رجب من السّنة التّاسعة للهجرة/ ١٥ أكتوبر (تشرين الأوّل) ٦٣٠م، وعانى المسلمون في سفرهم هذا الشّيء الكثير، حتّى كان الرّجلان والثّلاثة على بعير، وخرجوا في حَرٍّ شديد، فأصابهم يوماً عطش شديد حتّى جعلوا ينحِرون إبلَهم فيعصِرون أكراشها ويشربون ماءها، فكان ذلك عُسرة من الماء، وعُسرة من الظَّهر (الدّوابّ)، وعُسرة من النّفقة[3]. وقال ابن إسحق: فلمّا أصبح النّاس ولا ماء معهم، شَكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ، فأرسل الله سحابةً فأمطَرَت حتّى ارتوى النّاس، واحتملوا حاجتهم من الماء[4].

واستمرّ الجيش على المسير حتى وصل تبوك، وكانت المراحل تُقطع ليلاً للتّخلُّص من الحَرِّ الشّديد[5]، ونزل الجيش الإسلاميّ بتبوك، فعسكر هناك، وهو مستعدٌّ للقاء العدو، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيباً، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامِع الكَلِم، وحضّ على خير الدّنيا والآخرة، وحَذَّر وأنْذَر، وبَشَّر وأبْشَر، حتّى رَفَعَ معنويّاتهم، وجَبَرَ بها ما كان فيهم من النّقص والخلل، من حيث قلّة الزّاد والمادّة والمؤنة. وأمّا الرّوم وحلفاؤهم، فلمّا سمعوا

(١) ابن سعد، م. س، ج٢، ص١٦٦.
(٢) محمود شيت خطّاب، الرّسول القائد، م. س، ص٣٩٩.
(٣) ابن سعد، م. س، ج٢، ص١٦٧.
(٤) محمّد بن محمّد بن محمّد بن أحمد، عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسِّير، تعليق إبراهيم محمّد رمضان، دار القلم، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، ج٢، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠.
(٥) محمود شيت خطّاب، الرّسول القائد، م. س، ص٤٠٢.

بزحف رسول الله ﷺ أخذَهُم الرُّعب، فلم يجترئوا على التّقدُّم واللّقاء، بل تفرّقوا في البلاد في داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنّسبة إلى سمعة المسلمين العسكريّة، في داخل الجزيرة وأرجائها النّائية. وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسيّة كبيرة خطيرة، بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين[1].

٢ ـ **الرّوم**: تَمَّ حشد قوّات الرّوم، المؤلَّفة من جنودها النِّظاميّين ومن القبائل العربيّة الموالية لها، في تبوك قبل وصول المسلمين إليها، ولكنّ المعلومات التي وصلتهم عن ضخامة جيش المسلمين، وارتفاع معنويّاتهم، اضطرّت الرّوم إلى الانسحاب من تبوك شمالاً[2].

النّتيجة:

كانت نتيجة غزوة تبوك السّيطرة على المنطقة لصالح المسلمين، وانسحاب الرّوم منها، ومصالحة أهل المنطقة مع صاحب أيلة، وأهل الجرباء[3]، وأذرح[4]، ومقنا[5].

وظهر ذلك عندما وجّه النّبيّ ﷺ إلى يوحنّا بن رؤبة، صاحب أيلة، رسالة يطلب فيها منه أن يذعن للمسلمين أو يغزوه، فأقبل يوحنّا بنفسه إلى النّبيّ ﷺ وقدّم له الهدايا والطّاعة، وكان نصّ وثيقة الصّلح بين المسلمين ويوحنّا ما يلي: (بسم الله الرّحمن الرّحيم، هذه أَمَنَةٌ من الله ومحمّد النّبيّ رسول الله ليوحنّا بن رؤبة، وأهل أيلة، سفنهم، وسيّاراتهم (قوافلهم)، في البرّ والبحر، لهم ذمّة الله ومحمّد النّبيّ، ومن كان معهم من أهل الشّام، وأهل اليمن،

(١) صفيّ الرّحمٰن المباركفوريّ، الرّحيق المختوم، دار العصماء، دمشق ـ سورية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٣٧٠.
(٢) محمود شيت خطّاب، الرّسول القائد، م. س، ص٤٠٢.
(٣) الجرباء: قرية في منطقة عمّان بالبلقاء من أرض الشّام. ياقوت الحموي، م. س، ج٢، ص١١٨.
(٤) أذرح: بلدة قريبة من الجرباء وتلقاء الشّراة من أداني الشام. عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ج١، ص١٣٠.
(٥) مقنا: قرية قرب أيلة. ياقوت الحموي، م. س، ج٥، ص١٧٨.

وأهل البحر. فمَن أحدَث منهم حَدَثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنّه طَيِّبٌ لمحمّد أخْذُه من النّاس. وإنّه لا يحلُّ أن يُمنعوا ماءً يَرِدونَهُ، ولا طريقاً يَرِدونَهُ من برٍّ أو بحر). واتّفق الطّرفان على أن تدفع أيلة جزيةً قدرُها ثلاثمائة دينار في كلِّ عامٍ للمسلمين[١].

كما تمّ الصّلح بين المسلمين وأهل «الجرباء»، وبين المسلمين وأهل «أذرح» ومقنا على الجزية[٢].

ونصّ كتاب الصّلح لأهل الجرباء هو: (بسم الله الرّحمن الرّحيم، هذا كتاب من محمّد النّبيّ رسول الله لأهل جرباء، إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد. وإنّ عليهم مائة دينار في كلّ رجبٍ وافية طيّبة. والله كفيل).

ونص كتاب الصّلح لأهل أذرح هو: (بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد النّبيّ رسول الله لأهل أذرح، إنّهم آمنون بأمان الله وأمان محمّد. وإنَّ عليهم مائة دينار في كلّ رجبٍ وافية طيّبة. والله كفيل عليهم بالنّصح والإحسان للمسلمين. ومن لجأ إليهم من المسلمين من المخافة والتّعزير، إذا خَشوا على المسلمين، وهم آمنون حتّى يُحدِث إليهم محمّد قبل خروجه)[٣][٤].

ونصّ كتاب الصّلح لأهل مقنا هو: (بسم الله الرّحمن الرّحيم، من محمّد رسول الله إلى بني جنبة[٥]، وإلى أهل مقنا، أمّا بعد، فقد نزل عليّ آيتكم راجعين إلى قريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنّكم آمِنون، لكم ذمّة الله وذمّة

---

(١) محمود شيت خطّاب، الرّسول القائد، م. س، ص٤٠١ ـ ٤٠٢.

(٢) صالح النّبيّ ﷺ طوائف عديدة على الجزية بدون حرب حينما طلبوا ذلك، ومنهم: نصارى نجران، والمعافر، وأُكَيْدِرُ دومة، ويهود فَدَك، وتيماء، والجرباء، ويوحنّا بن رؤبة ملك أيلة، ويهود بني جنبة، والغريض، وبني عاديا، ومقنا، وأذرح. محمد عزّت دروزة، التّفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ج٩، ص٤٢٥.

(٣) أمر الله ﷻ المسلمين إذا أرادوا أن يحاربوا قوماً بينهم وبينهم هدنة، أو معاهدة، أن ينذروا هؤلاء القوم بانتهاء الهدنة، أو المعاهدة، قبل بدء حربهم، وإلّا يكونون غادِرين. وقد جاء هذا الأمر بقول الله ﷻ في الآية ٥٨ من سورة الأنفال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾.

(٤) محمّد حميد الله الحيدر آباديّ الهنديّ، مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبويّ والخلافة الرّاشدة، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط٦، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص١١٩.

(٥) بني جنبة: هم يهود بمقنا. محمّد حميد الله الحيدر آباديّ الهنديّ، م. س، ج٢، ص٦٦.

رسوله. وإنّ رسوله غافرٌ لكم سيّئاتكم وكلّ ذنوبكم. وإنّ لكم ذمّة الله وذمّة رسوله، لا ظُلم عليكم ولا عِدى (اعتداء). وإنّ رسول الله جارٌ لكم (حاميكم) ممّا منع (حَمى) منه نفسه. فإنّ لرسول الله بَزَّكُمْ (سلاحكم)، وكلّ رَقيقٍ (عبيد) فيكم، والكُراع (الأرض)، والحَلْقَة (الدّروع)، إلّا ما عفا عنه رسول الله، أو رسول رسول الله. وإنّ عليكم بعد ذلك ربع ما أخرَجَت نخلكم، وربع ما صادَت عروككم[١]، وربع ما اغتزل نساؤكم. وإنّكم برئتم بعد من كلّ جزية أو سُخرة. فإن سمعتم وأطعتم، فإنّ على رسول الله أن يكرِم كريمكم، ويعفو عن مسيئكم.

أمّا بعد، فإلى المؤمنين والمسلمين: مَن أطلَع (عامَل) أهل مقنا بخير فهو خير له، ومن أطلَعهم بشَرٍّ فهو شَرٌّ له. وأن ليس عليكم أمير إلّا من أنفسكم، أو من أهل رسول الله. والسّلام)[٢].

وعاد المسلمون إلى المدينة المنوّرة بعد أن قضوا في تبوك عشرين يوماً، وكان من نتائج تبوك أن أمَّنوا خلالها الحدود الشّماليَّة من بلاد العرب بعقد المعاهدات مع سكّانها، ودعماً لهيبة المسلمين في نفوس القبائل، والعمل لحماية حرِّيَّة نشر الدّعوة في تلك الأرجاء[٣]. فلمّا تمَّ إنجاز ذلك انصرف رسول الله ﷺ من تبوك ولم يَلْقَ كيداً، وقَدِمَ المدينة في شهر رمضان سنة تسع للهجرة/ ديسمبر (كانون الأوّل) ٦٣٠م، فقال: **(الحمد لله على ما رزقنا في سفرنا هذا من أجْرٍ وحِسْبَة)**. وجاءه من كان تَخَلَّفَ عنه، فحلفوا له، فعَذَرَهم واستغفر لهم، وأرجأ أمر كعب بن مالك وصاحِبَيْه حتّى نزلت توبتهم فيما بعد. وجعل المسلمون يبيعون أسلحتهم ويقولون: قد انقطع الجهاد. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنهاهم وقال: **(لا تزال عصابة من أُمّتي يجاهدون على الحقّ حتّى يخرج الدّجال[٤])**[٥].

---

(١) العروك: خشب تُلقى في البحر يركبون عليها فيُلقون شباكهم يصيدون السّمك. ابن سعد، م. س، ج١، ص٢٦٤.

(٢) محمد حميد الله الحيدر آباديّ الهنديّ، م. س، ص١٢٠.

(٣) محمود شيت خطّاب، الرّسول القائد، م. س، ص٤٠٣.

(٤) ابن سعد، م. س، ج٢، ص١٢٦.

(٥) المرجع نفسه، ص١٦٧.

• **دَوْمَةُ الجَنْدَل:**

كانت «دَوْمَةُ الجَنْدَلِ» عند ظهور الإسلام في مُلْكِ «أُكَيْدَرَ بن عبد الملِك الكِنْدِيّ»، وكان يتنقّل في البادية فيَصل إلى الحيرة وإلى أرض الغساسنة، ويُقال: إنّه مَلَكَ «دومة الحيرة» ونزل بها قبل جلائه عن «دومة الجندل» أو بعدَه على رأي أهل الأخبار. وكان مثل أكثر رؤساء القبائل في العراق، وفي البادية، وبلاد الشّام، على النّصرانيّة[1]، وله عقود ومعاهدات مع القبائل العربيّة الشّماليّة الضّاربة في البادية، تأتي إلى مقرّه في الموسم أيّام افتتاح السّوق لشراء حاجيّاتها، ولبَيع ما تحمِله من تجارات.

وكان لأُكيدر بن عبد الملِك أخ اسمه «بِشر بن عبد الملِك» يذكُر أهل الأخبار أنّه ذهب إلى الحيرة وتعلّم بها الخطّ، ثمّ رجع إلى مكّة المكرّمة فتزوّج «الصّهباء بنت حربٍ» أختَ «أبي سُفيان».

وكان رسول الله ﷺ في تبوك حينما بعث خالد بن الوليد ﵁ في أربعمائة وعشرين فارساً في رجب سنة تسع هجرية/أكتوبر (تشرين الأوّل) ٦٣٠م، في سريّة إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة. فانتهى إليه خالد ﵁ وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسّان، فشدّت عليه خيل خالد بن الوليد ﵁ فاستأسر أكيدر، وامتنع أخوه حسّان وقاتل حتّى قُتل، وهرب مَن كان معهما فدخل الحصن. وأجار خالد ﵁ أكيدر من القتل حتّى يأتي به رسول الله ﷺ، على أن يفتح له دومة الجندل ففعل، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة رأس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح[2].

وكان رسول الله ﷺ قد دعا خالد بن الوليد ﵁، فبَعَثَهُ إلى أُكَيْدِرِ دَوْمَة، وقال رسول الله ﷺ لخالد ﵁: **(إنّك ستجده يصيد البقر)**. فخرج خالد ﵁، حتّى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فباتت البقر تحكّ بقرونها باب القصر. فقالت له امرأته: هل رأيتَ مثل هذا قطّ؟ قال: لا والله. قالت: فمَن يترك

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٣٣.
(٢) ابن سعد، م. س، ج٢، ص١٦٦.

هذه؟ قال: لا أحد. فنزل فأمر بفرسه، فأُسرِج له، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخٌ يُقال له: حسّان. فركب، وخرجوا معه بمُطاردهم. فلمّا خرجوا تَلَقَّتهم خيل رسول الله ﷺ، فأخَذَته، وقتلوا أخاه. وقد كان عليه قَباءٌ[1] من ديباج[2] مُخَوَّصٌ بالذَّهَب، فاسْتَلَبَهُ خالِد ﵁، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه.

وورد عن أنس بن مالك ﵁، قال: رأيت قَباءَ أُكَيْدِرٍ حين قُدِمَ به على رسول الله ﷺ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم، ويتعجّبون منه، فقال رسول الله ﷺ: **(أتَعْجَبونَ من هذا؟ فوالّذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذٍ في الجنّة أحسَن من هذا)**. قال ابن إسحاق: ثمّ إنّ خالداً ﵁ قَدِمَ بأُكَيْدِرٍ على رسول الله ﷺ، فحقن له دمه، وصالَحَهُ على الجزية، ثمّ خلّى سبيله، فرجع إلى قريته[3].

ويذكُر الرّواة أنّ الرّسول ﷺ استقبَل خالداً ﵁ ومعه أسيرَه أكيدر في المدينة المنوّرة، فعرض الرّسول ﷺ الإسلام على أكيدر، فقَبِلَهُ وحَقن الرّسول ﷺ دمه وكتب له كتاباً، وعاد إلى دومة الجندل[4].

ونصّ الكتاب: (من محمّد رسول الله لأُكيدرِ دومةَ حين أجاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها[5]: إنّ لنا الضّاحية من الضّحل، والبور[6]، والمعامي[7]،

(١) القَباء: ثوب يُلبس فوق الثّياب أو القميص، ويُتَمَنْطَقُ عليه. والتَّمَنْطُق هو شدّ الوسط بالنِّطاق (الحِزام). المعجم الوجيز، م. س، ص٤٨٩.
(٢) الدِّيباج: ثوبٌ سَداه (خيوط نسيجه الطّوليّة) ولُحمَته (خيوط نسيجه العَرْضِيَّة) حرير. المرجع نفسه، ص٢١٩.
(٣) ابن هشام، السّيرة النّبويّة، طبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده بمصر، م. س، ج٢، ص٥٢٦.
(٤) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٣٤.
(٥) الأكناف: بالنّون، جمع: كَنَف، بالتّحريك، وهو الجانب والنّاحية. القَلْقَشَنْديّ، م. س، ج٦، ص٣٥٦.
(٦) البور: الأرض التي لم تزرع. ابن منظور، م. س، ج٤، ص٨٦.
(٧) المعامي: المجهولة من الأرض التي ليس فيها أثر عمارة. القلقشنديّ، م. س، ج٦، ص٣٥٦.

وأغفال الأرض[١]، والحلقة[٢]، والسّلاح، والحافر، والحصن.

ولكم الضّامنة[٣] من النّخل، والمَعين[٤] من المعمور، لا تُعْدَلُ سارِحَتكم[٥]، ولا تُعَدُّ فارِدَتكم[٦]، ولا يُحظر عليكم النّبات[٧]، تقيمون الصّلاة لوقتها، وتؤتون الزّكاة بحقّها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق[٨].

فلمّا قُبِضَ النّبيّ ﷺ منع الصّدقة وارتدّ إلى النّصرانيّة، ديانته الأولى. وخرج من دومة الجندل فلَحِقَ بالحيرة، وابْتَنى بها بناءً على مقربة من «عين التّمر» سمّاه «دومة» أو «دومة الجندل» على اسم موضعه، وسكن هناك. ثم عاد إلى «دومة الجندل» وتحصّن بها، فأمر «أبو بكر الصّدّيق ﵁» خالد بن الوليد ﵁ بالتّوَجُّهِ إليها، فسار إليه وقتله. أمّا أخوه «حُرَيْثُ بن عبد الملِك» فقد أسلم وحَقن دمه. وقد تزوّج «يزيد بن معاوية» ابنةً له.

وتذكُر رواية أخرى أنّ أكيدر بعد أن نقض الصُّلح وعاد إلى نصرانيّته، أجلاه عمر بن الخطّاب ﵁ من دومة الجندل فيمَن أجلى من مخالفي الإسلام إلى الحيرة، فأقام في موضع قرب «عين التّمر»، ابْتَناه فسمّاه «دَوْمَة»، وقيل: «دَوْماء»، باسم حِصنه. وهي رواية لا تتفق مع المشهور بين أهل الأخْبار من أنّ خالداً ﵁ قتل أكيدر في السّنة الثّانية عشرة، أو الثّالثة عشرة، من الهجرة/ ٦٣٣ أو ٦٣٤م، وذلك في أيّام الخليفة أبي بكر الصّدّيق ﵁، بعد

(١) أغفال الأرض: الأرض التي ليس فيها أثر يُعرف، كأنّها مغفول عنها. القلقشندي، م. س، ج٦، ص٣٥٦.

(٢) الحلقة: السّلاح عامّاً، وقيل: الدّروع خاصّاً. المرجع نفسه.

(٣) الضّامنة من النّخل: ما كان داخلاً في العمارة من النّخيل، وتضمَّنَته أمصارهم وقراهم. وقيل: سُمِّيَت ضامنة؛ لأنّ أربابها ضمِنوا عمارتها وحِفظها، فهي ذات ضمان، كعيشة راضية بمعنى ذات رضا. المرجع نفسه

(٤) المَعين من المعمور: الماء الذي ينبع من العين في العامر من الأرض. المرجع نفسه.

(٥) لا تُعْدَلُ سارِحَتكم: أي لا تُصرَف ماشيتكم وتُمال عن الرّعي، ولا تُمنع. المرجع نفسه

(٦) ولا تُعَدُّ فارِدَتكم: أي لا تُضَمُّ إلى غيرها وتُحشر إلى الصّدقة، حتّى تُعَدَّ مع غيرها وتُحْسَب. والفارِدَة: (الغنم المنفردة في البيت، أو النّاقة المنفردة في المرعى) الزّائدة على الفريضة (في الزّكاة). المرجع نفسه.

(٧) ولا يُحظر عليكم النّبات: أي لا تُمنعون من الزّرع والمرعى حيث شئتم، والحَظر: المنع. المرجع نفسه.

(٨) المرجع نفسه، ص٣٥٦ - ٣٥٧.

أن أمَرَهُ الخليفة ﵁ بالتّوَجُّهِ إليه. وهي رواية أقوى من الرّواية المتقدِّمة في نظر المؤرِّخين.

ويظهر أنّ أهل «دومة الجندل» كانوا قد سمعوا بخبر مسير خالد ﵁ إليهم، فأرسلوا إلى حلفائهم وأحزابهم من «بهراء»[١] وكلب وغسّان، وقبائل تَنوخ والضّجاعم، ليساعدوهم في الوقوف أمامه. فأتاهم «وديعة» في كلب وبهراء، وسانده «رومانوس بن وبرة بن رومانوس الكلبيّ»، وجاءهم «ابن الحدرجان» في الضّجاعم، و«جبلة بن الأيهم» في طوائف من غسّان وتَنوخ. وكذلك «الجوديّ بن ربيعة الغسّانيّ»[٢]، وكان من المتزعّمين في دومة الجندل، وقد احتمى أهل دومة الجندل بِحِصنهم وخلف أسوار المدينة، والتفّت حول السّور من الخارج نصارى العرب الذين جاؤوا لمساعدة أهلها. وقد تمكّن خالد ﵁ يساعده «عِياضُ»[٣] من التَّغَلُّبِ على أهل المدينة وحلفائهم، وقتل رؤسائهم، ودخل المدينة منتصراً، فغنم جيشه غنائم كثيرة، وقُتل من أهلها خَلْقٌ كثير، وسبى «ابنة الجوديّ»، وكان أكيدر في جملة القتلى.

وكان الرّسول ﷺ قد غزا دومة الجندل بنفسه، وذلك في شهر ربيع الأوّل من السّنة الخامسة من الهجرة/ أبريل (نيسان) ٦٣٦م، وبلغها ولم يَلْقَ كَيْداً[٤]. وكان سبب غزوه لها، أنّه أراد أن يدنو إلى أراضي الشّام؛ لأنّ ذلك ممّا يُفزع الرّوم، ثمّ إنّ أهل دومة الجندل كانوا يظلمون مَن يَمُرُّ بهم وينزل عندهم، ومَن يَحِلُّ بسوقِهم للبيع والشّراء. فلمّا وصل الرّسول ﷺ إليها كان أهلها قد فرّوا وتركوا قريتهم، فنزل بها ولم يجد أحداً، فرجع عنها، وذلك قبل غزو خالد ﵁ لها.

(١) بهراء: بطن من القحطانيّة. عمر رضا كحّالة، م. س، ج١، ص٤٨.

(٢) الجوديّ بن ربيعة الغسّانيّ: اسمه عَديّ بن عَمْرو بن أبي عَمْرو الغسّانيّ، من أكابر الغساسنة وحكم في دومة الجندل. د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٣٨.

(٣) عِياض: هو عياض بن غنم، له صحبة، شهد بدراً مع النّبيّ ﷺ، وهاجر الهجرتَين، وشهد فتوح الشّام، واستخلَفه أبو عبيدة بن الجرّاح عند وفاته، وله بالجزيرة فتوح أيضاً، وكان أميراً باليرموك على بعض الكراديس، وشهد فتح دمشق، وروى عن النّبيّ ﷺ، وروى عنه سويد بن جبلة. ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمرويّ، دار الفكر، د. ط.، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج٤٧، ص٢٦٧.

(٤) د. جواد علي، م. س، ج٧، ص٢٣٥.

وورد في سبب غزو الرّسول ﷺ لها، أنّ جَمعاً من قُضاعة ومن غسّان تجمّعوا وهمّوا بغزو الحجاز، فسار في ألفٍ انتخَبهم، فلمّا انتهى إلى موضِعهم ألفاهُم قد تفرَّقوا أو هربوا، ولم يَلْقَ كَيْداً. وفي هذه الغزوة وادَعَ رسول الله ﷺ «عُيَيْنَةَ بن حِصْنٍ»[١] على أن يرعى بـ«تغلمين» وما والاه إلى «المراض»[٢].

وكانت هناك حملة ثانية إلى دومة الجندل في حياة النّبيّ ﷺ، حيث كان قوم من قضاعة ينزلون فيها وهم على النّصرانيّة، فوجّه رسول الله ﷺ عبد الرّحمٰن بن عوف رضي الله عنه على رأس سريّة من سبعمائة مقاتل في شعبان من السّنة السّادسة للهجرة/ ١٥ ديسمبر (كانون الأوّل) ٦٢٧م، لقتال قبيلة كلب، «فلما حلّ بها دعاهم إلى الإسلام، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام. وقد كانوا أبَوا، أوّل ما قَدِم، يُعطونه إلّا السّيف، فلما كان اليوم الثّالث أسلم أصبغ بن عمرو الكلبيّ، وكان نصرانيّاً، وكان رأسهم (مِلكَهم) فكتب عبد الرّحمٰن رضي الله عنه إلى النّبيّ ﷺ يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جُهَيْنَةَ يقال له: رافع بن مَكيث، وكتب يُخبر النّبيّ ﷺ أنّه أراد أن يتزوّج فيهم، فكتب إليه النّبيّ ﷺ أن يتزوّج بنت الأصبغ «تُماضر». فتزوّجها وبَنى بهَا، ثمّ أقبل بها، وهي أمُّ أبي سَلَمة بن عبد الرّحمٰن بن عوف»[٣].

ويوضح أمر الزّواج أهميّة علّقها النّبيّ ﷺ على كَسب قبيلة كلب إلى جانبه، فقد كانت هذه القبيلة أهمّ مجموعة عربيّة في بلاد الشّام حين ظهر الإسلام؛ كقوّة سياسيّة[٤].

ومن هذه الأحداث في دومة الجندل يظهر أنّ أصبغ كان يلقّب نفسه بلقب «مِلك»، كما كان يحكمها في أيام الرّسول ﷺ أكيدر ويلقّب نفسه بلقب «ملك»[٥].

---

(١) عُيَيْنَةُ بن حِصْن: رئيس بني فزارة. البَلاذُرِيّ، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكّار ورياض الزِّرْكِلِيّ، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج١٣، ص٢١٨.

(٢) المراض: موضع على طريق الحجاز من ناحية الكوفة. ياقوت الحَمَوِيّ، م. س، ج٥، ص٩٣.

(٣) الواقديّ، م. س، ج٢، ص٥٦١.

(٤) أ. د. محمّد سهيل طقّوش، السّيرة النّبويّة الشّريفة، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، ص٣٧١.

(٥) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٣٤ ـ ٢٣٧.

ويظهر من أهل الأخبار أنّ أكيدر السّكونيّ لم يتمكّن من تثبيت مُلكه على دومة الجندل بصورة دائمة، إذ كان ينافسه زعماء «كلب» الأقوياء. فقد ذَكر محمّد بن حبيب أنّ مُلكها كان بين أكيدر العبّادِيّ ثمّ السّكونيّ وبين «قُنافَةَ الكلبيّ». فكان العبّاديّون[١] إذا غلَبوا عليها وَلِيَها أكيدر، وإذا غلَب الغسّانيّون وَلّوها قُنافة. وكانت غلَبتهم أنّ المِلكين كانا يتحاجَيان[٢]، فأيّما مِلك غلَب صاحبه بإخراج ما يُلقى عليه، تركه والسّوق فصنع فيها ما شاء. ولم يبع بها أحد شيئاً إلّا بإذنه حتّى يبيع المِلك كلّ ما أراد بيعَه مع ما يصل إليه من عشورها. ويؤيّد هذا الخبر ما مرّ من وجود مِلك آخر على دومة الجندل هو أصبغ الكلبيّ.

وهناك خبر آخر يُفيد أنّ الجوديّ بن ربيعة كان، مثل الأكيدر، رئيساً على دومة الجندل، وأنّ الاثنين كانا رئيسَين عليها. وورد أنّ الجوديّ بن ربيعة كان من غسّان، وأنّ اسمه «عَدِيٍّ بن عَمْرِو بن أبي عَمْرٍو الغسّانيّ»، وأنّ «عبد الرّحمٰن بن أبي بكر الصّدّيق» رضي الله عنهما كان يختلف إلى الشّام في تجارة قريش في الجاهليّة، فرأى هناك امرأة يُقال لها: «ابنة الجوديّ» من غسّان، فكان يهذي بها، ويذكُرها كثيراً في شِعره، وأُصيبَتْ[٣]، حين غزا المسلمون الرّوم، «ليلى ابنة الجوديّ»، فبعثوا بها إلى عبد الرّحمٰن بن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنهما لذِكره إيّاها[٤].

إسلام «جبلة بن الأيهم» ملك الغساسنة وارتداده عن الإسلام

قال الواقديّ: إنّ الكِتاب الذي أرسله رسول الله ﷺ إلى ملك الغساسنة مع شجاع بن وهب كان إلى الحارث بن أبي شمر، وقال بذلك ابن إسحاق. وأمّا

---

(١) العبّاديّون: ذكر بعض الأخباريّين أنّ أهل دومة الجندل كانوا من «عُبّادِ الكوفة». ويقصِدون بذلك أنّهم كانوا نصارى، فقد كانت عادتهم إطلاق لفظة «عُبّادَ» على النّصارى العرب، وعرب الحيرة بصورة خاصّة. وقصدوا بـ «الكوفة» الحيرة؛ لأنّ الكوفة لم تكن موجودة في الجاهليّة، إذ بُنيت في أيّام الخليفة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه. د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٣٨.

(٢) التّحاجي: التَّجادُل. المعجم الوجيز، م. س، ص١٣٥.

(٣) أُصيبَت: أُسِرَت.

(٤) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٣٨.

ابن هشام فقال: إنّما اتَّجَهَ إلى جبلة بن الأيهم، وقد قال ذلك غيره، والله أعلم.

وكان السُّهَيْلِيُّ ممّن وافق ابن هشام على أنّ الرّسالة كانت إلى جبلة[1]، وفي ذلك قال: قَدِمَ شجاع بن وهب على جبلة بن الأَيْهَم بن الحارث بن أبي شمر، وَكَانَ طوله اثْني عشر شبْراً، وَكَانَ يمسح برجَليه الأَرْض وهو راكب، فقال له: «يا جبلة، إنّ قومك نقلوا هذا النّبيّ الأُمّيّ من داره إلى دارهم، يعني الأنصار، فآووه ومنعوه، وأن هذا الدّين الذي أنت عليه ليس بدين آبائك، ولكنّك مَلكت الشّام وجاورتَ بها الرّوم، ولو جاورتَ كسرى دِنْتَ بدين الفرس لملك العراق. وقد أقرَّ بهذا النّبيّ من أهل دينك، مَنْ إن فضّلناه عليك لم يُغضبك، وإن فضّلناك عليه لم يُرضك، فإن أسلمتَ أطاعَتك الشّام، وهابَتك الرّوم، وإن لم يفعلوا كانت لهم الدّنيا، ولك الآخرة، وكنتَ قد استبدَلت المساجد بالبِيَع، والأذان بالنّاقوس، والجُمَعَ بالشّعانين، والقِبلة بالصّليب، وكان ما عند الله خيرٌ وأبقى». فقال له جبلة: «إنّي والله لَوَدِدْتُ أَنّ النّاس اجتمعوا على هذا النّبيّ اجتماعهم على خلق السّماوات والأرض، ولقد سرَّني اجتماع قومي له، وأعجبني قَتْلُهُ أهل الأوثان، واليهود، واستبقاءه النّصارى، ولقد دعاني قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة، فأبَيْتُ عليه، فانتدب مالك بن رافلة من سعد العشيرة فقتلَه الله، ولكنّي لست أرى حقّاً ينفعه، ولا باطلاً يضرّه، والذي يَمُدُّني إليه أقوى من الذي يختلجني عنه، وسأنظر».

قَالَ صَاحب «زُبدة الفكرة»[2]: ولمّا أسلَم في أيّام عمر رضي الله عنه، كتب إليه يُخبِرهُ بإسلامه، ويستأذنه في القدوم عليه، فسُرَّ عمر رضي الله عنه بذلك، وأذِن له.

(١) سليمان بن موسى الكلاعيّ الحِمْيَرِيّ، الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج٢، ص٢٤.

(٢) صاحب زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة: هو ركن الدّين بيبرس المنصوريّ النّاصري الخطّائيّ الدّوادار المصريّ، توفي في مصر سنة (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) وعاش نحو ٨٠ عاماً. مؤرخ من الأمراء بمصر. وكان من مماليك المنصور قلاوون، واستنابه بالكرك، ثم صار (دوادار) السلطان وناظر الأحباس، فنائباً للسلطنة في الديار المصرية، ولاه ذلك الناصر محمد بن قلاوون، وكان يجله، ثم غضب عليه فحبسه إلى أن مات. وقيل: أطلقه بعد حبسه بمدة. له تصانيف، منها (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة)، و(التحفة الملوكية في الدولة التركية) في تاريخ السلاطين المماليك من سنة ٦٤٧ إلى ٧٢١هـ. الزركلي، م. س، ج٢، ص٨٠.

فَخرج في خمسين ومائَتَين من أهل بيته، حتّى إذا قارَب المدينة عمد إلى أصحابه فحمَلَهم على الخيل، وقلَّدَها قلائد الفضّة والذّهب، وألَبسها الدّيباج الحرير، ووضع على رأسه تاجه، وكان فيه قِرطا مَارِيَةَ جدّته، فلم يَبْقَ بِكْرٌ، ولا عانِسٌ، إلّا خرجت تنظر إليه، وإلى زِيِّه، فلمّا دخل على عمر رضي الله عنه رحَّب به، وأدنى مجلِسَه، وأقام بالمدينة المنوّرة مُكَرَّماً.

فجاء أوان الحجّ، فخرج عمر رضي الله عنه حاجّاً، وخرج معه، فبينما هو يطوف بالبيت وهو مُحْرِم، وَطِئَ إزارَه رجل من بني فَزارَة فانْحَلّ، فَرفع جبلة يده فلطم الفَزارِيَّ فهشَّم أنفه، فاستعدى عليه عمر رضي الله عنه، فبعث إلى جبلة فأتاه، فقال: لِمَ هشَّمتَ أنفه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّه تَعَمَّدَ حَلَّ إزاري، ولولا حرمة الكعبة لضربتُ وجهه بالسّيف. فقال له: أمّا أنتَ فقد أقْرَرْت، إمّا أن تُرضيه، وإلّا أقَدْتُهُ منك. قال جبلة: فيَصنع بي ماذا؟ قال: يُهَشِّمُ أنفك كما فعلتَ به. قال: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين، وهو سوقَةٌ وأنا ملك؟ قال: إنّ الإسلام جمَعَك وإيّاه، فلستَ تَفْضُلُهُ إلّا بالتُّقى والعافية. قال جبلة: قد ظننتُ يا أمير المؤمنينَ أنّي أكون في الإسلام أعزّ منّي في الجاهليّة. قال عمر رضي الله عنه: دع عنك هذا، فإنّك إن لم تُرْضِ الرّجل أَقَدْتُهُ مِنْك. قال: إذاً أتَنَصَّر. قال: إن تَنَصَّرْتَ ضربتُ عُنُقَكَ لأنّك قد أسلمت، فإن ارتَدَدْتَ قتلتُك. فلمّا رأى جبلة الصِّدق من عمر رضي الله عنه، قال: أمْهِلْني اللّيلة حتّى أنظُر، فلمّا أمْسوا أذِن له عمر في الانصراف. فلمّا كان من اللّيل، تَحَمَّلَ هو وأصحابُه بخيله ورجاله إلى الشّام، فأصبحَت مكّة المكرّمة منهم بَلاقِع[1]. وسار على طريق السّاحل، فلمّا انتهى إلى الشّام تَحَمَّلَ فِي خمسمائة من قومه حتّى أتَوْا القُسْطَنْطينِيَّة، فدخل على هِرقل فتنصّر[2] هو وقومه، فسُرَّ بذلك هرقل، وظنّ أنه فَتْحٌ من الفُتوح عَظِيم، وأقطَعَه ما شاء، وزوَّجَه ابنته، وقاسَمَه مُلكَه، وجعله من

(١) بلاقِع: جمع بَلْقَع، البَلْقَعُ والبَلْقَعَة: الأرض القَفر التي لا شيء بها. الرّازي، مختار الصِّحاح، تحقيق يوسف الشّيخ محمّد، المكتبة العصريّة، الدّار النّموذجيّة، بيروت، صيدا ـ لبنان، ط٥، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٣٩.

(٢) يُذكر أيضاً في سببَ تَنَصُّرِ جبلة بن الأيهم «أنّه مرّ في سوق دمشق، فأوطأ رجلاً فرسه، فوثب الرّجل فلطمه، فأخذه الغسّانيّون فأدخلوه على أبي عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه، فقالوا: هذا لطم سيّدنا. فقال أبو عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنه: البيّنة أنّ هذا لطمك. قال: وما تصنع بالبيِّنة؟ قال: =

سُمّاره، وأقام مدينة جبلة، مدينة فِي ساحل الشّام بين طرابلس واللّاذقيّة، يُذكر أنّ فيها قبر إبراهيم بن أدهم[1].

ورُوِيَ أيضاً أنّ جبلة أتى عمر بن الخطّاب ﵁ وهو على نصرانيّته، فعرض عمر ﵁ عليه الإسلام وأداء الصّدقة، فأبى ذلك وقال: أُقيمُ على ديني، وأؤدّي الصّدقة. فقال عمر ﵁: إن أقمتَ على دينك، فأدِّ الجزية. فأنِفَ منها. فقال عمر ﵁: ما عندنا لك إلّا واحدة من ثلاث: إمّا الإسلام، وإمّا أداء الجزية، وإمّا الذّهاب إلى حيث شئت. فدخل بلاد الرّوم في ثلاثين ألفاً، فلما بلغ ذلك عمر ﵁ ندم، وعاتَبه عُبادة بن الصّامت ﵁ فقال: لو قَبِلْتَ منه الصّدقة، ثمّ تَألَّفتَهُ لأسلَم. وأنّ عمر ﵁ وجّه في سنة (٢١هـ/ ٦٤٢م)، عُمَيْرَ بن سعدٍ الأنصاريّ إلى بلاد الرّوم في جيش عظيم وولّاه الصّائفة[2]، وهي أوّل صائفة كانت، وأمرّه أن يتلطّف لجبلة بن الأيهم، ويستعطِفَه بالقرابة بينهما، ويدعوه إلى الرّجوع إلى بلاد الإسلام على أن يؤدّي ما كانٍ بَذَلَ من الصّدقة، ويُقيم على دينه، فسار عُمَيْرٌ حتّى دخل بلاد الرّوم، وعرض على جبلة ما أمرَه عمر ﵁ بعرضِه عليه، فأبى إلّا المُقامَ في بلاد الرّوم[3].

= إن كان لطمك لطمتَه بلطمتك. قال: أوَلا يُقتل؟ قال: لا. قال: تُقطع يده؟ قال: لا، إنّما أمَرَ الله بالقَصاص، فهي بلطمة. فخرج جبلة ولحق بأرض الرّوم وتنصّر، ولم يزل هناك إلى أن هلك». الدينوري، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ مصر، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٦٤٤.

(١) ابن حديدة، المصباح المضيء في كُتّابِ النّبيّ الأُمِّيّ ورُسُلِهِ إلى ملوك الأرض من عربيّ وعجميّ، تحقيق محمّد عظيم الدّين، عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت.، ج٢، ص٢٤٣ ـ ٢٤٥.

(٢) الصّائفة: الغزوة في الصّيف، وكانت تُطلق على غزوة المسلمين السّنويّة للرّوم، حيث كانوا يغزونهم صيفاً اتقاءً للبرد والثّلج. المعجم الوجيز، م. س، ص٣٧٥.

(٣) البَلاذُرِيّ، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص١٣٨. وتفيد الأخبار التاريخية أن جبلة لما أراد العودة إلى مسيحيته «هرب» إلى القسطنطينية... لكنه هناك ندم وعاد إلى الإسلام والدليل أن حرباً دارت بين الروم الأرثوذكس والعرب المسلمين بعد ذلك فكانت «بنت ملك الروم إذا رجحت كفة قومها في المعارك الدائرة بين المسلمين والروم «تقيم الزينة على قصرها في العاصمة. وكانت بنت جبلة الغساني تقيم الزينة على قصرها إذا رجحت كفة العرب. وهذا ما رغّب يزيد بن أبي سفيان =

● **اليرموك:**

ينقسم الرّواة في تأريخ معركة اليرموك إلى فريقين: فريق يرى أنّها حدثت في سنة (١٣هـ/ ٦٣٤م)، في عهد أبي بكر الصّدّيق ﵁، ويمثِّل الطّبريّ هذا الفريق اعتماداً على رواية سيف بن عمر[1]. ويقول فريق آخر: إنّها حدثت في سنة (١٥هـ/ ٦٣٦م)، في عهد عمر بن الخطّاب ﵁، ويمثّله جمهور المؤرّخين مثل ابن إسحاق، والواقديّ، وخليفة بن خيّاط، والبلاذريّ، وابن عساكر. وقد اشتهرت رواية سيف التي اعتمدها الطّبريّ تبعاً لشيوع تاريخه.

ويتضّح من خلال روايات الفريق الثّاني أنّ الجيش الإسلاميّ كان يسير وَفق خطّة منتظمة تتّفق وواقع الأحداث التّاريخيّة، فكانت أجنادين[2]، وفحل، في البداية في سنة (١٣هـ/ ٦٣٤م)[3]، ثمّ دمشق وحمص في سنة (١٤هـ/

= في فتح المدينة للحصول على بنت جبلة». د. أسد رستم، الروم (في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب)، دار المكشوف، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٥٥م، ج١، ص٢٦١.

(١) سيف بن عمر الأسدي التميمي: (ت٢٠٠هـ/ ٨١٥م) من أصحاب السير. كوفي الأصل، اشتهر وتوفي ببغداد. من كتبه (الجَمَل) و(الفتوح الكبير) و(الردة). الزركلي، م. س، ج٣، ص١٥٠.

(٢) كانت وقعة أجنادين بين المسلمين والرّوم ليلة سِتٍّ خلَت من جمادى الأوّل سنة ثلاث عشرة من الهجرة النّبويّة، وذلك قبل وفاة أبي بكر الصِّدّيق ﵁.
قال الواقديّ: وكان الرّوم بأجنادين تسعين ألفاً، فقُتل منهم في ذلك اليوم خمسون ألفاً، وتفرَّق مَن بقي منهم، فمنهم مَن انهزم إلى دمشق، ومنهم مَن انهزم إلى قيسارية. وغنم المسلمون غنيمة لم يُغنم مثلها، وأخذوا منهم صلبان الذّهب والفضّة، فجمع خالد ذلك كلّه مع تاج وردان قائد الجيش الرّوميّ إلى وقت القسمة، وقال خالد: لستُ أقسِم عليكم شيئاً إلّا بعد فتح دمشق إن شاء الله تعالى. الواقديّ، فتوح الشّام، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت ـ لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج١، ص٦٠. وأجنادين: موضع من بلاد الأردنّ بالشام، وقيل: بل من أرض فلسطين، بين الرّملة وجيرون. عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، م. س، ج١، ص١١٤.

(٣) انسحبت فلول القوّات البيزنطيّة بعد معركة أجنادين إلى دمشق، وتحصَّنت فيها، وكان الإمبراطور يتابع تطوّرات الموقف العسكريّ، فأمر بتجميع القوّات البيزنطيّة المنتشرة في جنوبيّ بلاد الشّام، في فحل ـ بيسان الواقعة على الطّريق بين الأردنّ ودمشق.
وسار أبو عبيدة ﵁ بجموع المسلمين إلى فحل ـ بيسان لضرب القوّة البيزنطيّة المتمركزة هناك، وتقدَّم خالد بن الوليد ﵁ طليعة الجيش، وتوافد المسلمون إلى فحل ـ بيسان، وانحاز إليهم بعض العرب المتنصِّرة من لخم، وجذام، وغسّان، وعاملة، والقين، وقضاعة، =

٦٣٥م)[1]، ثمّ اليرموك في سنة (١٥هـ/ ٦٣٦م)، لتكون معركة فاصلة في محاولة يائسة من البيزنطيّين للدّفاع عن بلاد الشّام، واسترداد ما فتحه المسلمون، ولهذا حشدوا لها كلّ إمكاناتهم العسكريّة والبشريّة.

ولا يتحقّق ذلك إذا أُخِذَ برواية سيف من أنّها كانت في سنة (١٣هـ/ ٦٣٤م)؛ لأنّ المعركة لن تكون فاصلة، ولن يفكّر البيزنطيّون بحشد كلّ قوّاتهم لمواجهة الجيش الإسلاميّ قبل أن يشعروا بخطره الذي لا يتضّح إلّا بعد عدّة معارك بين الطّرفين، وهو ما حدث بالفعل، وممّا يحمل على تبنّي هذه الفكرة أنّ في روايات سيف ما يشير إلى توغّل الجيش الإسلاميّ حتّى حمص[2].

• اليرموك ومرج الصُّفَّر ومرج راهط:

وَجّهَ أبو بكر الصِّدّيق ﷺ، بعد خروج يزيد بن أبي سفيان موَجَّهاً إلى الشّام بأيّام، شُرَحْبيلَ بْنَ حَسَنَةَ، فسار في سبعة آلاف، ثمّ أبا عبيدة بن الجرّاح في سبعة آلاف، فنزل يزيد البلقاء، ونزل شُرَحْبيلُ الأُرْدُنّ، وقيل: بُصْرى، ونزل أبو عبيدة الجابية، ثمّ أمدّهم بعَمْرِو بن العاص، فنزل بغَمْرِ العَرَبات. ثمّ رَغَّبَ النّاس في الجهاد، فكانوا يأتون المدينة فيُوَجِّهُهُمْ أبو بكْر إلى الشّام، فمنهم مَنْ يصير مع أبي عبيدة، ومنهم مَنْ يَصِير مع يزيد، يصير كلّ قوم مع مَنْ أحبّوا.

= بعد أن أدركوا أنّ كفّة الصّراع بدأت تميل لصالح المسلمين، وتردَّد نصارى فحل.
والواقع أنّ القبائل المتنصِّرة كانت تغيِّر مواقفها من المسلمين كلّما جَمَعَ البيزنطيّون حشداً جديداً، وكانت أكثر القبائل التي كانت لها مصلحة بالارتباط بالبيزنطيّين هم الغساسنة، ويبدو أنّ انتصار المسلمين في معركة أجنادين قد جعل القبائل المتنصِّرة تفكِّر جدِّيّاً في الانحياز إلى أحد الجانبَين.
وأسفَرَت المعركة عن انتصار المسلمين وانسحاب القوات البيزنطية. د. محمّد سهيل طقّوش، تاريخ الخلفاء الرّاشدين الفتوحات والإنجازات السّياسيّة، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

(١) كان فتح دمشق بعد موت أبي بكر الصِّدّيق، وبعد ولاية عمر، بنحو أحد عشر شهراً. وذلك في سنة أربع عشرة من الهجرة. وكان فتح حمص بعد دمشق بأربعة أشهر، من سنة أربع عشرة من الهجرة أيضاً ٦٣٥م. ابن حزم، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، ج٢، ص١٢٧.

(٢) د. محمّد سهيل طقوش، تاريخ الخلفاء الرّاشدين الفتوحات والإنجازات السّياسيّة، م. س، ص٢٥٧.

وقيل: أوّل صُلْحٍ كان بالشّام صُلْحُ مَآب، وهي فسطاطٌ ليست بمدينة، مرّ أبو عبيدة بهم في طريقه، وهي قرية من البلقاء، فقاتلوه، ثمّ سألوه الصّلح فصالَحَهم. واجتمع الرّوم جَمْعاً بالعَرَبَةِ من أرض فلسطين، فَوَجَّهَ إليهم يزيدُ بن أبي سُفيان أبا أُمامَةَ الباهِلِيّ، ففضّ ذلك الجَمْع.

ثمّ كانت مَرْجُ الصُّفَّر[1]، التي استُشهد فيها خالد بن سعيد بن العاص، أتاهم أدرنجار القائد الرّوميّ في أربعة آلاف وهم غارّون (غافلون، غير مُنْتبِهين)، فاستُشهد خالد وعدد من المسلمين[2].

قال أبو جعفر: وقيل إنّ المقتول في هذه الغزوة كان ابناً لخالد بن سعيد، وإنّ خالداً انحاز[3] حين قُتل ابنه، فوَجّهَ أبو بكر خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشّام، ضمَّهم إليه. فشخص خالد من الحيرة في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة للهجرة/ يونيو ٦٣٤م، في ثمانمائة، وقيل: في خمسمائة، واسْتَخْلَفَ على عمله المُثَنّى بن حارثة، فلَقِيَهُ عدوٌّ بصَنْدوداء[4]، فظَفَرَ بهم، وخَلَّفَ بها ابن حَرَامٍ الأنصاريّ. ولقي جَمْعاً بالمُصَيَّخِ[5] والحَصيد، عليهم

(١) مرج الصُّفَّر: تقع في شمالي حوران. ياقوت الحموي، م. س، ج٢، ص٩١.

(٢) الطّبريّ، م. س، ج٣، ص٤٠٦.

(٣) الانحياز: لا يجوز في الإسلام الانسحاب من مواجهة العدوّ في المعركة إلّا في حالتين:
١ ـ التَّحَرُّف لقتال؛ أي: ضمن خُطَّةٍ عسكريّة.
٢ ـ الانحياز إلى فئة؛ أي: الانضمام إلى قوّة قتاليّة أخرى عند الشّعور بضَعف القوّة المقاتلة عن مواجهة قوّة العدوّ. وجاء عدم الجواز هذا في قول الله ﷻ في الآية ١٦ من سورة الأنفال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾، ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ﴾. قال الضحاك: أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها، أو مُتَحَيِّزاً إلى فِئَة أي: فر من ها هنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونوه، فيجوز له ذلك، حتى لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة. ابن كثير، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت ـ لبنان، ط٧، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م، ج٢، ص٩٢.

(٤) صَنْدوداء: قال ابن الكلبي: سميت صندوداء باسم امرأة، وهي صندوداء ابنة لخم بن عدي ابن الحارث ابن مرّة بن أدّ، قال: سار خالد بن الوليد من العراق يريد الشام فأتى صندوداء وبها قوم من كندة وإياد والعجم فقاتله أهلها فظفر بهم وخلّف بها سعد بن عمرو بن حرام الأنصاري. ياقوت الحموي، م. س، ج٣، ص٤٢٥.

(٥) المُصَيَّخ: بين حوران والقلت. المرجع نفسه، ج٥، ص١٤٤.

ربيعة بن بُجَيْرٍ التَّغْلِبِيّ، فهزمهم وسبى وغنم. وسار فَفَوَّزَ[1] من قُراقِرَ إلى سُوى، فأغار على أهل سُوى، واكتسح أموالهم، وقَتَلَ حُرْقوصَ بن النُّعمانِ البَهْرانِيّ. ثمّ أتى أُرُكَ فصالَحوه. وأتى تدمر فتحصّنوا، ثم صالَحوه. ثمّ أتى القريتَين[2]، فقاتلهم فظفر بهم وغنم. وأتى حُوّارين، فقاتلهم فهزمهم وقَتَلَ وسبى. وأتى قُصَمَ فصالَحه بنو مَشْجَعَةَ من قُضاعة. وأتى مَرْجَ راهِطٍ فأغار على غسّان في يوم فِصْحِهِمْ فقَتَلَ وسبى[3]. ووَجَّه خالدٌ بِسْرَ بْنَ أبي أرْطأة العامريّ من قريش، وحبيب بن مَسْلَمَةَ الفِهْرِيّ إلى غوطة دمشق، فأغارا على قرى من قراها، وصار خالد إلى الثَّنِيَّةِ التي تُعرَف بثَنِيَّةِ العُقاب بدمشق، فوقف عليها ساعةً ناشِراً رايته، وهي راية كانت لرسول الله ﷺ سوداء، فسُمِّيت «ثَنِيَّةُ العُقاب» يومئذ، والعرب تسمّي الرّاية عُقاباً[4].

وورد عن شعيب، عن سيف، عن عَمْرو بن محمّد قال: ولمّا بلغ غسّانَ خروج خالد على سُوى وانتِسافُها، وغارته على مُصَيَّخ بهراء[5] وانتِسافُها، فاجتمعوا بمرج راهط. وبلغ ذلك خالداً، وقد خَلَّفَ ثغور الرّوم وجنودها ممّا يلي العراق، فصار بينهم وبين اليرموك، صمد لهم فخرج من سُوى بعدما رجع إليها بسَبْيِ بهراء، فَنَزَلَ الرُّمّانتَيْن، عَلَمَيْنِ[6] على الطّريق، ثمّ نزل الكَثَب،

(١) فَوَّز: عَبَرَ المَفازَة، وهي الصّحراء. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٨٤.

(٢) القريتين: تبعد القريتين عن جرود ستة وثلاثين ميلاً، ومن جرود إلى دمشق ثلاثون ميلاً. ابن خِرْداذَبَّة، م. س، ص٢١٨.

(٣) الطّبريّ، تاريخ الطّبريّ، م. س، ج٣، ص٤٠٦ ـ ٤٠٧. ورد عن أبي الخزرج الغسّانيّ قال: كانت أمّي في ذلك السّبي، فلمّا رأت هدى المسلمين، وصَلاحهم، وصَلاتهم، وقع الإسلام فى قلبها فأسلَمت، فطلبها أبي في السّبي فعرفها، فجاء المسلمين فقال: يا أهل الإسلام، إنّي رجل مسلم، وهذه امرأتي قد أصبتموها، فإن رأيتم أن تَصِلوني، وتحفظوا حقّي، وتَرُدّوا عليّ أهلي فعلتم. فقال لها المسلمون: ما تقولين في زوجك، فقد جاء يطلبكِ وهو مسلم؟ قالت: إن كان مسلماً رجعتُ إليه، وإلّا فلا حاجة لي فيه، ولستُ براجعة إليه. حسين بن محمّد بن الحسن الدِّيار بَكْريّ، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النّفيس، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت.، ج٢، ص٢٢٣.

(٤) البَلاذُرِيّ، فتوح البلدان، م. س، ص١١٥.

(٥) مُصَيَّخِ بهراء: هو ماء آخر بالشام ورده خالد بن الوليد بعد سوى في مسيره إلى الشام وهو بالقصواني. ياقوت الحموي، م. س، ج٥، ص١٤٤.

(٦) العَلَم: العَلامَة، وهي ما يُنْصَبُ في الطّريق فيُهتَدى به. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٣٢.

حتّى صار إلى دمشق، ثمّ مرج الصُّفَّر، فلقي عليه غسّان وعليهم الحارث بن الأيهم، فانتسَف عسكرهم وعيالاتهم. ونزل بالمرج أيّاماً، وبعث إلى أبي بكر بالأخماس[1] مع بلال بن الحارث المُزَنِيّ[2]، ثمّ خرج من المرج حتّى ينزل قناة بُصْرَى، فكانت أوّل مدينة افْتُتِحَتْ بالشّام على يَدَيْ خالد[3].

وقيل عن مرج الصُّفَّر: إنّ الرّوم اجتمعت جَمْعاً عظيماً، وأمدَّهم هرقل بمَدد، فلَقِيهم المسلمون بمرج الصُّفَّر وهم متوجِّهون إلى دمشق، وذلك لهلال المحرّم سنة أربع عشرة للهجرة/ ٢٤ فبراير (شباط) ٦٣٥م، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتّى جرت الدّماء في الماء، وطحنت بها الطّاحونة، وجُرح من المسلمين زهاء أربعة آلاف، ثمّ وَلّى الكفرة منهزمين مفلولين لا يلوون على شيء حتّى أتوا دمشق وبيت المقدِس[4].

(١) الأخماس: جمع خُمْس، وهو هنا خُمُسُ غنائم المعركة التي فَرَضَ الله ﷻ على المحارِبين تحويله إلى بيت مال المسلمين (خزينة الدّولة) ليُنفَق في مصارف حدَّدها، فيما تُوَزَّعُ الأربعة أخماس الباقية على المحارِبين الذين شاركوا في المعركة بكافّة فئاتهم (محارِبين مباشرين، وإداريّين، وأطبّاء، ومُعِدّو الطّعام، إلخ). وقد فرض الله ﷻ الخُمُسَ وحدَّد مصارفه في قوله، عزَّ مِن قائل، في الآية ٤١ من سورة الأنفال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، وتفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية الرياحي قال: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة، تكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه، فيأخذ منه الذي قبض كفه، فيجعله للكعبة وهو سهم الله. ثم يقسم ما بقي على خمسة أسهم، فيكون سهم للرسول، وسهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ج٤، ص٥٩.

(٢) بعث خالد بأخماس ما غَنِمَ من غسّان مع بلال بن الحارث المُزَنِيّ إلى الصِّدّيق رضي الله عنه، ثمّ سار خالد وأبو عبيدة ويزيد وشرحبيل إلى عَمْرِو بن العاص، وقد قصده الرّوم بأرض العربات من الغور، فكانت واقعة أجنادين، وقد قال رجل من المسلمين في مسيرهم هذا مع خالد:

لِلَّهِ عَيْنا رافِعٍ أنّى اهْتَدى ... فَوَّزَ من قَراقِرَ إلى سُوى

خَمْساً إذا ما سارَها الجَيْشُ بَكى ... ما سارَها قَبْلَكَ إنْسِيٌّ أرى

ابن كثير، البداية والنّهاية، م. س، ج٧، ص٥ ـ ٦.

(٣) الطّبريّ، تاريخ الطّبريّ، م. س، ج٣، ص٤١٠.

(٤) البَلاذُرِيّ، فتوح البلدان، م. س، ص١٢١.

وفي سنة خمس عشرة للهجرة/ ٦٣٦م، كانت معركة اليرموك، وكان المسلمون ثلاثين ألفاً، والروم أزيد من مائة ألف، الخمسة والستة في سلسلة لئلا يفروا، فداستهم الخيل، وقيل: كان المسلمون خمسين ألفاً، والروم ألف ألف، والرماة فيهم مائة ألف، ومعهم جبلة بن الأيهم الغسّاني في ستين ألفاً من متنصّرة العرب، فقدمهم الروم، فانتقى لهم خالد ستين رجلاً من أشراف العرب فقاتلوهم يوماً كاملاً، ثم نصر الله المسلمين وهرب جبلة، ولم ينج منهم إلا القليل، ثم التقى المسلمون مع الروم مرة بعد أخرى حتى أبادوهم بالقتل وهربت بقيتهم تحت الليل[1].

وبعد اليرموك توجَّه المسلمون لفتح بيت المقدس وفُتِحَت، وخرج عمر بن الخطاب ﵁ إلى الجابية بالشّام في صَفَر سنة سِتَّ عشرة/ مارس (آذار) ٦٣٧م، وأقام بها عشرين ليلة يَقْصِرُ الصّلاة[2]، وحضر فتح بيت المقدس، وقَسَمَ الغنائم بالجابيةِ معقِل الغساسنة[3].

وفاة جبلة وكتاب له من معاوية

في سنة (٥٣هـ/ ٦٧٣م)، من أيّام معاوية بن أبي سفيان، بعث معاوية عبد الله بن مسعدة الفزاريّ رسولاً إلى ملك الرّوم، فاجتمع بجبلة بن الأيهم، فرأى ما هو فيه من السّعادة الدُّنيويَّة والأموال من الخدم والحشم والذَّهب والخيول، فقال له جبلة: لو أعلم أنّ معاوية يُقطِعني أرض البثنيّة، فإنّها منازلنا، وعشرين قرية من غوطة دمشق، ويفرِض[4] لجماعتنا، ويُحسِن جوائزنا، لرجعتُ إلى الشّام. فأخبر عبد الله بن مسعدة معاوية بقوله، فقال

(١) عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ـ سورية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص١٦١.

(٢) قَصْرُ الصّلاة: أجاز الله ﷻ للمسلمين أن يَقْصِروا صلوات الظّهر والعصر والعِشاء خلال السَّفَر من أربع ركعات إلى ركعتين اثنتين، تخفيفاً على أُمَّته في سفرهم. وقد اختلف الفقهاء في عدد الأيّام التي يحقّ للمسلم قَصْرُ الصَّلاة فيها، بحيث يُعتبَر بعدها مُقيماً حيث هو فيُؤَدّي الصَّلاة كاملة.

(٣) البَلاذُرِيّ، جمل من أنساب الأشراف، م. س، ج١٠، ص٣٢٣.

(٤) يفرِض: يدفع رواتب، وكان كلّ مسلِم، منذ عهد الخليفة عمر بن الخطّاب ﵁، يقبض راتباً من بيت مال المسلمين (خزينة الدّولة) بدءاً من لحظة ولادته، ضمن نظام مُعَيَّن.

معاوية: أنا أعطيه ذلك. وكتب إليه كتاباً مع البريد بذلك، فما أدركه البريد إلّا وقد مات[1].

نهاية الغساسنة

بعد فتوح الشّام لحق أكثر النّصارى بلاد الرّوم، فيمَن دخلها مع جبلة بن الأيهم من غسّان وقضاعة وغيرهم، وبقيت بقايا من بقاياهم، فتفرّقوا في أجناد الشّام ومدائنها[2].

(١) المقريزيّ، م. س، ج١٤، ص٢٤٩.

(٢) عمر كحّالة، م. س، ج١، ص٥٣.

الفصل السّابع

الغساسنة بعد انقراض دولتهم

تمهيد

أفَلَتْ شمس الغساسنة عقب معركة اليرموك في فتوح الشّام سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، وانتهت دولتهم التي كان أوج ازدهارها ونهضتها في القرنَين الخامس والسّادس الميلاديّين. وتفرّق الغساسنة في البلاد، فمنهم مَن اعتنق الإسلام ومنهم مَن بقي على نصرانيّته، ومنهم مَن بقي في الشّام ومنهم مَن نزح عنها.

الغساسنة في عهد الأُمَويّين

اندمج مَن لم يهاجر مِن الغساسنة، مَن أسلَم منهم ومَن بقي على نصْرانيّته، بعد اندثار دولتهم بعد معركة اليرموك وما تلاها من فتوحات إسلاميّة، في المجتمع الإسلامي، وأصبحوا جزءاً منه.

وقد اعتمد الخلفاء الأُمَويّونَ في إدارة الدولة على بعض مسلمي الغساسنة لخبرتهم في إدارة الدّواوين ودور المال، كما شارك بعضهم في فتح شمال «أفريقية» و«الأنْدَلُس» وانتشروا فيها وأسهموا في إعمارها.

ومن الإداريين البارزين من سلالة الغساسنة في إدارة الدولة في العهد الأموي «عبد الله بن أوس الغساني»، الذي أشرف على ديوان الرسائل وقام بمهمة الكتابة في هذا الديوان في عهد «معاوية بن أبي سفيان» مع «زمل بن عمرو العذري»، واستمر هذان الكاتبان في خلافة «يزيد الأول»[1].

ومن القادة البارزين من سلالة الغساسنة في الفتوح الإسلاميّة في شمال «أفريقية» القائد «حسّان بن النّعمان» الذي أرسله الخليفة الأُمَويُّ «عبد الملِك بن

(١) عَلي محمد محمد الصَّلَّابي، الدولَة الأمويَّة عَواملُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار، دار المعرفة، بيروت - لبنان، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ج١، ص٢٢١.

مروان». وقد لُقِّبَ هذا القائد بـ«الشّيخ الأمين»، وقد استطاع فتح معظم الشّمال الأفريقيّ في غضون نحو عشر سنوات (٧٤ - ٨٥هـ/ ٦٩٣ - ٧٠٤م)، وعمِل على تنظيم البلاد ووضع الأُسس الإداريّة لها، وأسّس مدينة جديدة هي مدينة «تونس»[1].

وأحسّ القائد حسّان بن النّعمان بحاجته إلى أسطول بحريٍّ مستقلٍّ يواجِه به هجمات الأساطيل البيزنطيَّة بدلاً من الاعتماد على الأساطيل المصريَّة المرابطة في قاعدتَي «بَرْقَة (ليبية)»[2] و«الإسكندريّة (مصر)» لطول المسافة.

ورأى أن يقوم بإنشاء قاعدة بحريّة خاصّة بشمال أفريقية، فأنشأ قاعدة «تونس» البحريَّة بعد أن دمَّر مدينة «قَرْطاجَنَّة» التي كانت عاصمة شمال أفريقية تحت الحكم البيزنطيّ، وطرَد البيزنطيّين نهائيّاً من كلّ الشّمال الأفريقيّ.

وعندما فكّر في إقامة صرح عسكريّ بحريّ إسلاميّ للجناح الغربيّ من الدّولة الإسلاميَّة، أرسل أربعين رجلاً من أشراف العرب إلى الخليفة الأُمَوِيِّ عبد الملِك بن مروان يشرحون له حقائق الموقف، وأهميَّة المشروع لصالح المسلمين، ومدى الحاجة إلى المهندسين والعمّال المصريّين لبدء العمل بهذا المشروع.

وبعد أن سمع الخليفة عبد الملِك بن مروان من وفد القائد حسّان بن النّعمان ما لديه من معلومات واقتراحات وشروح، أصدر تعليماته على الفور إلى أخيه عبد العزيز بن مروان أمير مصر بأن يوجِّه دون إبطاء ألف رجل من المهندسين والبحّارة والعمّال المَهَرَةِ المصريّين بأُسَرِهِمْ للعمل في دار الصّناعة في تونس، وتحت إدارة أميرها حسّان بن النّعمان، وكانت تعليمات الخليفة

(١) عبد الشّافي محمّد عبد اللّطيف، السّيرة النّبويّة والتّاريخ الإسلاميّ، دار السّلام، القاهرة - مصر، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) أصبحت «بَرْقَة»، منذ فتَحها عَمْرو بن العاصِ رضي الله عنه سنة (٢١هـ/ ٦٤١م)، القاعدة الحصينة التي تلجأ إليها القوّات الإسلاميّة العاملة في شمال أفريقية عند الضّرورة، وكانت عندئذ تحت إدارة والي مصر، وظلّت كذلك إلى قيام الدّولة الفاطميّة في «تونس» سنة (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م)، ولهذا كان من الطّبيعيّ أن تكون فيها قاعدة بحريّة تعتمد اعتماداً كليّاً على دور صناعة السّفن في مصر؛ لأنّ كثيراً من الغزوات التي انطلقت لغزو جزر البحر الأبيض المتوسّط كانت تنطلق منها. عبد الشّافي محمّد عبد اللّطيف، م. س، ص٢٤٨.

لأخيه الأمير أن يُوَفِّرَ لكلّ هؤلاء كلّ ما يحتاجون إليه في عملهم وفي معاشهم وأن يُحسن عونَهم.

وكتب الخليفة عبد الملِك بن مروان إلى القائد حسّان بن النّعمان بأن يُحسن استقبالهم ومعامَلتهم، وأن يُوَفِّرَ لهم الرّاحة الكافية، ليتفرّغوا تفرّغاً كاملاً لعملهم وإتقانه[1]. كما أمَرَهُ أن تكون «دار الصّناعة» المزمَع إقامتها قوّةً وعُدَّةً للمسلمين إلى آخر الدّهر، وأن يصنع بها المراكب للجهاد ضد الرّوم في البرّ والبحر، لإشغالهم عن مهاجمة «القَيْرَوانِ» وغيرها من شواطئ المسلمين[2].

ومن القادة البارزين أيضاً من سلالة الغساسنة في الفتوح الإسلاميّة في «الأندلس» القائد «مُغيثٌ الرّومِيُّ»[3] فاتح «قُرْطُبَة»، وهو «مُغيثُ بن الحارِثِ بن

(١) ما طلبه الخليفة عبد الملِك بن مروان من أخيه عبد العزيز أمير مصر، ومن القائد حسّان ابن النّعمان، تجاه العمّال، هو ما طلبه الرّسول ﷺ من المسلمين كافّة، وهو القاعدة الشّرعيّة في التّعامل مع العمّال، وذلك بقوله ﷺ: **(مَن وَلِيَ لنا عملاً ولم يكن له زوجة فليَتَّخِذْ زوجة، ومَن لم يكن له خادم فليَتَّخِذْ له خادماً، ومَن لم يكن له مسكن فليَتَّخِذْ له مسكناً، ومن لم يكن له دابّة فليَتَّخِذْ دابّة)**. قال أبو بكر رضي الله عنه: أكْثَرْتَ يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: **(مَن أصابَ سوى ذلك فهو غالّ)**؛ أي: مَن أخذ غير ذلك فهو سارق. الطّبرانيّ، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السَّلَفِيّ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ـ مصر، ط٢، د. ت.، ج٢٠، ص٣٠٤. وذلك حتّى يعطي العاملُ العملَ جَهده، ولا يكون أثناء العمل منهمكاً في التّفكير في أوضاعه المادِّيَّة والأُسَرِيَّة. وفي إقامة أُسرة العامل معه استقرارٌ لنفسه بدل التّفكير في أحوالها في بلده الأصليّ، وتأسيسٌ لمجتمع جديد يقيمه العمّال في البلد الجديد للاستفادة من خبراتهم الدّائمة فيه بدل عودتهم إلى بلدهم الأصليّ بعد انتهاء مَهمّتهم. وذلك عكس ما يحدث اليوم من عملِ كثيرٍ من أصحاب العمل على استغلال العمّال أقصى استغلال، مع إعطائهم أدنى الرّواتب وحِرمانهم من أبسط الحقوق الواجبة لهم.

(٢) عبد الشّافي محمّد عبد اللّطيف، م. س، ص٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٣) مُغيث الرّوميّ: اختلف المؤرِّخون في نسب مغيث الرّوميّ، هل هو عربيّ أم روميّ، ومن المرجَّح أنّه روميّ، فقد نُسب إلى الرّوم وهو على قيد الحياة، وكان مَوْلىً لبني أُمَيَّة، وكان بإمكانه أن يُظهر نَسبه إلى جَبَلَة بن الأيْهَم وإلى ملوك الغساسنة في حياته. فلمّا أصبح أولاده من ذوي السّلطة والثّراء في الأندلس، أرادوا أن يجمعوا بين الحَسَبِ المرموق والنَّسَبِ العريق، في عهدٍ كان للنَّسب فيه مكانة كبيرة جداً، وبخاصّة للنَّسب العربيّ الأصيل إلى إحدى القبائل الأصيلة في عهد بني أُمَيَّة، فانتسبوا إلى الغساسنة، فسَجَّلَ لهم انتسابَهم هذا أحد المؤرِّخين، ثمّ تناقَلَها المؤرِّخون عن بعضهم، الخَلَفُ عن السَّلَف. ووَضْعُ نَسَبِهِ واضح، ولا يبدو أنّه المسؤول عن وَضْعِه، بل هو مِن وَضْعِ عَقَبِه، فهُمُ المسؤولون عن هذا الوضع، الذي أرادوا به الفخر ومنافسة أصحاب النّسب في نَسَبِهِمُ العريق. محمود شيت خطّاب، قادة فتح =

الحُوَيْرِثِ بن جَبَلَةَ بن الأيْهَم الغَسّانيّ»، الذي سُبِيَ من الرّوم بالمَشرق وهو صغير، ونشأ في دمشق، فأدّبَه الخليفة عبد الملِك بن مروان مع ولده الوليد، فأفصَح في العربيّة، وصار يقول من الشِّعر والنَّثر ما يجوز تدوينه، وتدرّب على الرّكوب، وأخذ نفسه بالإقدام في مضايق الحروب، حتّى تخرَّج في ذلك تخرُّجاً أهَّلَهُ للتّقدُّم على الجيش[1] الذي فتح قُرْطبَة. وأنْجَبَ في الولادة، فصار «بنو مُغيثٍ» الذين نَجبوا في قرطبة، وسادوا وعَظُمَ بيتهم، وتفرَّعت دَوْحَتُهُم، وكان منهم «عبد الرّحمٰن بن مُغيثٍ» حاجب «عبد الرّحمٰن بن معاوية» صاحب الأندلس وغيره[2].

أساقفة غساسنة في عهد العباسيين

احتفظ الغساسنة في حوران والجولان بعقيدتهم السريانية الأرثوذكسية حتى الحروب الصليبية وكان يرسم لهم أسقف سرياني كلما مات لهم أسقف. وكان مقر أسقفيتهم جابيتا، أي (الجابية)، وتعني المختارة، وطوراً حرثاً؛ أي: جبل الحارث، وهو تل الحارّة حالياً.

وفيما يلي لائحة بأسماء أساقفة الغساسنة السريان الأرثوذوكس خلال العصر العباسي:

١ ـ سمعان أسقف الولاية العربية من دير ما زكى في الرقة، رسمه البطريرك قرياقوس من دير العمود في الرقة في عهد هارون الرشيد (١٨٢ ـ ٢٠١هـ/ ٧٩٨ ـ ٨١٦م).

٢ ـ يوحنا أسقف الولاية العربية من دير مار زكى في الرقة، رسمه البطريرك ديونيسيوس التلمحري. في عهد المأمون (٢٠٢ ـ ٢٣٠هـ/ ٨١٧ ـ ٨٤٤م).

٣ ـ إبراهيم أسقف العربية من دير تلعدا الكبير، رسمه البطريرك ديونيسيوس التلمحري في عهد الأمين.

= الأندلس، مؤسّسة علوم القرآن، بيروت ـ لبنان، منار للنّشر والتّوزيع، دمشق ـ سورية، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج١، ص٤٣٥.

(١) التَّقدُّم على الجيش: تولّي قيادته.

(٢) محمود شيت خطّاب، قادة فتح الأندلس، م. س، ج١، ص٤٣٥.

٤ ـ صبرا أسقف العربية من دير آطو. رسمه البطريرك ديونيسيوس التلمحري في عهد المعتصم.

٥ ـ طبري أسقف العربية من جبل الرها. رسمه البطريرك يوحنا من دير مار زكىٰ في الرقة، معاصر للخليفة المعتمد (٢٣٢ ـ ٢٦٠هـ/ ٨٤٦ ـ ٨٧٣م).

٦ ـ يوحنا أسقف العربية من دير مار زكىٰ، رسمه البطريرك يوحنا من دير مار زكىٰ في الرقة، معاصر للخليفة المهتدي.

٧ ـ يوحنا أسقف العرب من دير مار يعقوب ـ كيسوم، رسمه البطريرك ديونيسيوس من دير بيت باتين (٢٨٢ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٩٥ ـ ٩٠٨م).

٨ ـ اثناسيوس أسقف العرب من دير حرباز، رسمه البطريرك باسيليوس من دير سفولوس في بلدة مربية (٣١٠ ـ ٣٢١هـ/ ٩٢٢ ـ ٩٣٣م).

٩ ـ موسى مطران العربية، رسمه البطريرك إيوانيس من دير العمود في قورزحيل (٣٤٢ ـ ٣٤٤هـ/ ٩٥٣ ـ ٩٥٥م)[١].

«بَنو رَسولٍ» الغساسنة في اليمن

امتدّ حُكْمُ «بَني رَسولٍ» في «اليمن» من سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، إلى سنة (٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م).

و«بنو رسول» هم أولاد «محمّد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحي بن رستم»، من ذُرِّيَّة «جبلة بن الأيهم بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة بن عَمْرِو (مزّيقياء) ابن عامر (ماء السّماء) بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»، فهو القحطانيّ ثمّ الكهلانيّ ثمّ الغسّانيّ. ويُقال: إنّهم ليسوا عرباً البتّة، وإنّما هم «تُرْكُمانيّونَ» والله أعلم.

والمنسوب إليه هذه الدّولة «محمّد بن هارون» هو الذي لُقِّبَ بـ«رسول»؛ لأنّه كان يحمل الرّسائل من الخليفة «النّاصر العبّاسيّ» من بغداد إلى صاحب مصر وبالعكس، وولده عليّ هو الذي خرج مع السّلطان طوران شاه إلى اليمن ومعه أولاده الأربعة، بدر الدّين الحسن، ونور الدّين عمر، وفخر الدّين أبو بكر، وشرف الدّين موسى.

(١) ريليف اللاهوتي الكبير الحارث القيصري، م. س.

و«نور الدّين عمر بن عليّ بن رسول» هو الذي أسّس الدّولة وتَلَقَّبَ بـ«المنصور». وكان ذلك حينما ضَعُفَ حكم «الأيّوبيّين» في اليمن، وكان آخر ملوكهم هناك «المسعود بن العادل» الذي قبض على ثلاثة من أولاد «عليّ بن رسول» وبعث بهم إلى مصر خشية أن يتمرّدوا عليه ويغلِبوه على الحكم، وهم الحسن وأبو بكر وموسى، واستعان بالرّابع، وهو عمر، فكان يُوَلّيهِ ويُنيبُهُ عنه، حتّى أنّه استخلَفَه على اليمن حين ذهب راجعاً إلى مصر، ومات في الحجاز بداء الفالِج[١]. فقام عمر بن عليّ بن رسول بالأمر لنفسه واستولى على اليمن، وظلّ مع الأيّوبيّين في حرب مستمرّة، يدخل مكّة المكرّمة حيناً ويطرده عنها «المِلك الكامل»[٢] حيناً آخر، من سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨م)، إلى سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)، وفي سنة (٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، تمّ له المُلك في اليمن كلِّه، من «حَضْرَمَوْت» حتّى خارج حدود اليمن (مكّة المكرّمة)، وخرج عن مكّة المكرّمة بعد ذلك وعاد إليها سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م)، بجيشه فاتحاً، واستناب عليها وهو راجع إلى اليمن «ابن الوليد» و«ابن التّعِزيّ».

واستمرّ مُلكه إلى سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، وهي آخر حياته، وكان قد بعث بالهدايا إلى الخليفة العبّاسيّ وطلب منه النّيابة على اليمن، فجاءه التّشريف بذلك بحراً من طريق البصرة، فأصبح «المِلك المُطْلَق» الذي يُدعى له على المنابر[٣].

وطالت مدة حُكم بني رسول باليمن إلى أكثر من قرنين، واتّسع مُلكهم، فشمل أكثر بقاع اليمن الشّماليّة والجنوبيّة بما في ذلك حضرموت، ووصل نفوذهم إلى مكّة المكرّمة، واستطاعوا قهر «الأئِمَّةِ الزَّيْدِيَّةِ» في معظم الأحوال.

(١) الفالِج: شَلل يُصيب أحد شِقَّيِ االجسم طولاً. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٧٩.

(٢) الملِك الكامل: ابن الملك العادل، من ملوك الأيّوبيّين على مصر، وفي أيّامه استطاع الصّليبيّون احتلال «دمياط» سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٩م)، ثمّ الانطلاق منها لغزو القاهرة، وكان الملك الكامل ابن الملك العادل قد تولّى السّلطنة بعد وفاة أبيه، ونادى بالنّفير العام، واستنجد بأخوَيه، الملك عيسى صاحب «دمشق» والملك الأشرف صاحب «حلب»، فحضرا بجيوشهما لخدمته. ولمّا اجتمعوا ساروا إلى «دمياط» والتقوا مع الصّليبيّين في «المنصورة» سنة (٦١٨هـ/ ١٢٢١م) في معركة فاصلة كان النّصر فيها للمسلمين والهزيمة للكافرين. صالح بن الحسين الجعفريّ أبو البقاء الهاشميّ، م. س، ج١، ص١٨.

(٣) د. أحمد هجوان، م. س.

وتُعَدُّ الدّولة الرّسوليَّة أعظم دولة يمنيَّة عرفها التّاريخ منذ سقوط الدّولة الحِمْيَرِيَّة. وقد قامت الدّولة الرّسوليَّة بإنهاض البلاد وتعميرها ونشر العلوم بها، ونبغ من أفرادها علماء عباقرة في كلّ المجالات[1].

ومن أهمّ ملوك بني رسول في اليمن «الملك المظفّر (٦١٩ ـ ٦٩٤هـ/ ١٢٢٢ ـ ١٢٩٥م)»، وهو «يوسف (المظفّر) بن عمر (المنصور نور الدّين) بن عليّ بن رسول التُّرْكُمانِيّ اليمنيّ» ثاني ملوك الدّولة الرّسوليَّة، وتولّى الحكم بعد مقتل أبيه سنة (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، بصنعاء، وأحسن صيانة المُلك وسياسته، وقامت في أيّامه فتن وحروب، فخرج منها ظافراً. وكانوا يشبِّهونه بـ«معاوية»، في حزمه وتدبيره، وطالت مدّته، واستمر إلى أن توفِّي بقلعة «تَعِز».

وقال عنه ابن الفرات: «كان جواداً عفيفاً عن أموال الرّعايا، حَسن السِّيرة فيهم»، وهو أوّل مَن كسا الكعبة من داخلها وخارجها (سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م)، بعد انقطاع ورود «الكِسْوَةِ» من بغداد (سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م)، بسبب دخول المغول بغداد. وبقيت كِسوته الدّاخلية إلى سنة (٧٦١هـ/ ١٣٥٩م)، ولا يزال على أحد الألواح الرّخاميّة في داخل الكعبة إلى اليوم النّص الآتي: «أمَر بتجديد رُخام هذا البيت المعظّم، العبد الفقير إلى رحمة ربِّه وأنْعُمِه، يوسف بن عمر بن عليّ ابن رسول. اللّهُمَّ أيِّدْهُ بعزيز نصرك، واغفر له ذنوبه برحمتك»[2].

وكان الملك المظفّر يوسف بن عمر من أكثر الملوك اهتماماً بالتّعليم، وبناء المساجد والمستشفيات، وله مآثر حسنة طيّبة، بعضها ما يزال مُشاهداً، وبعضها أتى عليه الزّمن فذهبت ولم يذهب أجر العامِلين، فمِن مآثِره «الجامع التَّعْزِيُّ الكبير»، الذي ما يزال معروفاً باسمه، وقد تخرَّج فيه كثير من العلماء المشهورين، وللمظفّر جامع آخر ويُعرف كذلك باسمه في «المهجم»، وثالث في «واسط لمحالب». ولهذه المساجد أوقاف كثيرة، وقد رَتَّبَ في كلٍّ منها مؤذِّناً أو مؤذِّنَيْن، ومدرِّساً أو مدرِّسَيْن، ووقف على طلبة العِلم والمنقَطِعين للتَّعلّم والتَّعليم فيها ما يكفيهم. أمّا المدارس فله «المدرسة التَّعْزِيَّةُ (المظفَّريَّة)»، وجعل

(١) أحمد معمور العَسيريّ، م. س، ص٢٧٧.
(٢) الزِّرْكِليّ، م. س، ج٨، ص٢٤٣.

فيها مدرِّساً ومُعيداً وعشرة طلّاب، ومعلّماً للقرآن الكريم وعشرة أيتام، ولهم في المدرسة ما يكفيهم ويقوم بكفالتهم. وله مدرسة للحديث الشّريف، ومدرسة لأصحاب القرآن الكريم، ودار ضيافة، وابتنى «خانْقاه» وتُسَمّى «المظفّر خانقاه»، أي «مستشفى المظفّر»، في مدينة «حيس»[1]، وجعل للواردين، أي المرضى، من الأوقاف ما يكفيهم مدّة بقائهم هنالك. وبالجملة فمآثِرُه كثيرة، وكان عالِماً، فقيهاً، قارئاً، مُحَدِّثاً، لُغَوِيّاً، مَنْطِقِيّاً، طبيباً[2]. وله على الكتب التي كان يَقْرَؤها تعليقات كثيرة تدلّ على طول باعِه وغزارة عِلمه.

والعِلم والإصلاح كان سُنَّةً في الدّولة الرّسوليَّة، فقد كان لوالده «عمر (المنصور نور الدّين) بن عليّ» كثيراً من الصّدقات الجارية، وبناء المساجد والمدارس، وشقّ الطّرق، وإصلاح مجاري المياه، وبناء المدن، مثل مدينة «المنصوريَّة» التي سُمِّيَتْ باسمه. وبنى في «زَبيد» المدرسة الشّرقيَّة للشّوافع، وله المدرسة الغربيَّة خصّصها للأحناف، وله مدرسة يقال لها «الغُرابِيَّةُ» نسبة إلى مدرِّسِها «الغُرابِيّ» في مدينة «تَعْز»، وله أيضاً المدرسة الوزيريَّة، وله في مكّة المكرّمة مدرسة عظيمة، ومدرسة في وادي سهام ومسجد النُّوَيْرِيَّة بين «زَبيد» و«حيس» في اليمن، وأصلح مدينة «بِرَكِ الغِماد»[3]، وأنشأ حصوناً منيعة بين مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، ومصانع لتحلية المياه وتنقيتها.

وقد ألّف الملك المظفّر في مختلف الفنون؛ كالحديث والصُّنع والطِّبِّ والفَلك، فكان من أشهرها:

أوّلاً: في علوم الصّناعة: كتاب «المُخْتَرَع في فُنونٍ مِنَ الصُّنَع»، ومن تلك الصُّنَع: صناعة المنجنيق الذي رسمه بأربعة أمثلة، وصناعة تطييب النّفط، وصناعة القلم، وأنواع وأجناس المِداد، وتكوين الصِّباغات، وقلع الآثار، والصُّبوغات من الثّياب، وعمل الصّابون، واللّيف، والكتابة بالذّهب والفضّة وإلزاقهما، ووضع الأسرار في الكتب، وما يمحو الدفاتر والرُّقوق، وفي غِراء المجلّدين وتجليد الكتب وآلاتِها ومعرفة الألوان.

(١) حَيْس: بلد وكورة من نواحي زَبيد باليمن. ياقوت الحَمَويّ، م. س، ج٢، ص٣٣٢.
(٢) د. أحمد هجوان، م. س.
(٣) بِرَكُ الغِماد: في أقصى اليمن. أبو عُبَيْد البَكْريّ الأندلسيّ، م. س، ج١، ص٢٤٤.

ثانياً: في علوم الطّبّ: كتاب «المُعْتَمَدُ في الأدْوِيَةِ المُفْرَدَة»، واتَّبَعَ في الكتاب المنهج التّجريبيّ، حيث جمع نحو ستّمائة صفحة دوّن فيها ما اعتمَده من علوم الطِّبّ القديم والمُعاصِرِ له، لذلك سمّاه «المعْتَمَد»، واختصَرَها وحقّقَها وقدّمها للأطبّاء في ثوب قشيب، وقد أحسن الإفادة منها بعد عناء كبير في اختياره وانتخابه لأصحّ التّجارب والأقوال ممّا تَمَسُّ إليه حاجة الأطبّاء، مستوعِباً لأكثر ما فيها وأحسَنِه وأنفعِه وأجمَعِه لمَن يزاول مهنة الطّبّ. ثمّ رتَّب مادّة الطِّبّ كترتيب المعاجم اللُّغويّة الحديثة «أ، ب، ت»، ليكون أقرب متناولاً وأيسر على الباحث والطّبيب، ومن منهجه في هذا الكتاب أنّه لا يَنقل إلّا عن مَن عُرِفَ بالدِّقَّةِ في البحث من حُذّاقِ الأطبّاء، والأخذ عمّن يعتمد على نفسه بإعادة التّجارب، والتّحقُّق من صحّة المعلومات، وتصحيح واستدراك أخطاء الغير، وعدم التّسليم بأقوال السّابقين من الأطبّاء والمترجمين والصّيادلة حتّى يرى النّباتات التي تُصنع منها الأدوية في مواطنها، ويتحقّق من عِباراتها وصِفاتها وضُروبها وأنواعها، ومقادير ما يأخذ منها، وبدائلها إذا أُعدِمَت (فُقِدَت)، ثمّ يقوم بنفسه بإعادة التّجارب والتّحقُّق.

ثالثاً: في علوم الفلك: كتاب «تَيْسيرُ الطّالِبِ في تَيْسيرِ الكَواكِب»، وله أيضاً «المَطالِبُ في تَيْسيرِ النَّيِّرَيْنِ (الشّمس والقمر) وحَرَكَةِ الكَواكِب».

رابعاً: كتب أخرى منها: «أَرْبَعونَ حَديثاً»، و«العِقْدُ النَّفيسُ في مُفاكَهَةِ الجَليس»[(١)].

الرّسوليّون أحفاد الغساسنة في «ظُفار»[(٢)]

كانت «ظُفار» مركزاً تجاريّاً مزدهراً كثيف السُّكّان[(٣)]، وصار إليها حُكم الرّسوليّين أحفاد الغساسنة عندما أرسل إليها الملك المظفّر يوسف بن عمر بن

---

(١) د. أحمد هجوان، م. س.

(٢) ظُفار: هناك مدينتان تحملان اسم «ظُفار»، تُعرف إحداهما بـ «ظُفارِ الزَّيْدِ» قرب صنعاء، والأخرى بـ «ظُفارِ السّاحِل». وقد سقطت الأولى بنهاية الأسرة الحِمْيَرِيَّةِ في القرن السّادس الهجريّ ولم يكن عمرها يتعدّى أكثر من ستّة قرون، بينما «ظُفارُ السّاحِلِ» استمرّت في التّوسّع والازدهار وبقيت لآلاف السّنين ميناءً مزدهراً كثيف السُّكّان. د. محمّد حسن العَيْدَروس، دراسات في الخليج العربيّ، دار الكتاب الحديث، الكويت ـ الكويت، القاهرة ـ مصر، الجزائر ـ الجزائر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٣١٧.

(٣) أهم صادرات «ظُفارَ» هو «اللُّبان (نبات يُفرز صَمغاً)»، إضافة إلى تصديرها «الخيول العربيّة». =

عليّ ابن رسول حملة تأديبيّة. وكان من أسباب هذه الحملة أنّ الملك المظفّر كان قد بعث بهديّة إلى «ملوك الهُرْمُز» مع بعض التّجار، فرَسَتْ بهم الرّيح في ساحل ظُفار، فاستولى «ابن الحبوظيّ» على تلك الأموال والهدايا، فكتب إليه المظفّر يقول: «إنّه لم تَجْرِ بذلك عادة من أهلك، ونحن سنحاسبك على قطع السُّبُل، وأنت تعلم ما بيننا وبين والدك من الصّحبة والمكافأة بيننا، غير أنّنا نتأدّب بآداب القرآن، فإنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]».

وقيل: إنّ ابن الحبوظيّ ازداد غِلظة وردّ له بجوابٍ قال فيه: «هذا الرّسول، فأين العذاب؟»[(١)].

ووقعت بعد ذلك معركة يوم السّابع والعشرين من رجب سنة (٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م)، بين الجانبين، كان النّصر فيها حليف الملك المظفّر، وبانتصار الملك المظفّر تمّ الحكم للرّسوليّين أحفاد الغساسنة هناك.

وأقطع الملك المظفّر ظُفار لابنه «الواثق»، واسمه «إبراهيم»، الذي اتّجَهَ إليها بطريق البحر من «عَدَن»، وكان حَسن السّيرة وتوفّي بظُفار سنة (٧١١هـ/ ١٣١١م)، واستمرّ حُكم الرّسوليّين في ظُفار حوالي قرن ونصف قرنٍ تقريباً[(٢)].

أمراء من الغساسنة في العراق

إنّ المتتبِّع للغساسنة وأماكن تَوطُّنِهم والمَواطِن التي استقرّوا فيها، يجد أنّ عراق الخير كان في مقدّمتها، خاصّة مدينة «المَوْصِلِ (الحَدْباء)» الواقعة شماله، حيث تواجدوا هناك منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة، واستقرّوا فيها مع «الأوْس والخزرج (الأنصار)» وباقي أبناء عمّهم من قبائل «الأزْد»، واخْتَطّوا في المَوْصِلِ خِطَطَهُم[(٣)]، وكانت لهم بها مقبرة عُرِفَتْ باسمهم هي «تُرْبَةُ[(٤)] غسّان».

= المصدر نفسه، ص٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(١) لمزيد من التّفصيل انظر: د. محمد حسن العَيْدَروس، م. س، ص٣٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٢٤.

(٣) الخِطَّة: المكان المُخْتَطُّ للعمارة. المعجم الوجيز، م. س، ص٢٠٣. **والمقصود هنا:** تخطيط المدينة وتحديد أماكن الأبنية والشّوارع.

(٤) التُّرْبَة: المَقبرة.

ولم يكن الغساسنة بمعزل عن الحياة في الموصل حيث كان منهم تجّار وعلماء، . . . إلخ، مشاركين في مختلف مجالات الحياة. وكان منهم واليها «يحيى بن يحيى الغسّانيّ»[١] القاضي والعالِم والمُحَدِّثُ المعروف سيِّد أهل الشّام، تَوَلّاها للخليفة الرّاشِدِيِّ الخامس «عمر بن عبد العزيز»[٢] رَحِمَهُ اللهُ.

واستقرّ بها أمراء الغساسنة من نسل الملك جبلة بن الأيهم الجفنيّ الغسّانيّ الأَزْدِيّ الكهلانيّ القحطانيّ، والذي من نسله ذُرِّيَّةُ «الأمير هِمَّتْ آغا بن الأمير مصطفى آغا الغسّانيّ»، والذي كان له شهرة واسعة على عهد الدّولة العثمانيّة، وعقَبه من البنين أربعة ومن الإناث واحدة، وأولاده حسب التّرتيب من الأكبر إلى الأصغر: «رشيد آغا» و«مجيد آغا» و«حمّودي آغا» و«أحمد آغا». ونتيجة للامتيازات التي حصل عليها الأمير هِمَّتْ آغا بن الأمير مصطفى آغا الغسّانيّ زمن الحكم العثمانيّ فقد أُعْفِيَ أبناؤه وأحفاده من أداء الخدمة الإلزاميّة في الجيش العثمانيّ، إلّا أنّ هذا لم يمنع من قيام حمودي آغا وأحمد آغا بالتّطوّع للقتال تلبية لنداء الجهاد الذي أطلقه شيخ الإسلام.

ومواقف رشيد آغا ومجيد آغا بقيت عالقة في أذهان المُعَمِّرِينَ من أهل الموصل (الحدباء) عامّة، وأهل محلّتِهم «باب لكش» التي فيها «جامع خزام» خاصّة، إذ إنّ هذه الأيادي البيضاء لا يمكن أن تُنسى، حيث قام رشيد آغا بمهامّ توفير الطّعام لأفراد الجيش العثمانيّ المكوّن من أبناء المدينة ومن هم فيها من الجنود الآخرين أثناء الحرب العالميّة الأولى.

أمّا مجيد آغا فكان يقدِّم الطّعام للفقراء والمحتاجين أثناء فترة الغلاء والمجاعة التي تعرَّضَت لها المدينة، إلخ. . ونَسْلُهُمْ باقٍ إلى الآن، ومنهم المرحوم «غازي آغا بن الأمير أحمد آغا بن الأمير هِمَّتْ آغا بن الأمير مصطفى آغا الغسّانيّ» الذي أعقَب أربعة أولاد، وهم حسب التّرتيب من الأكبر

(١) يحيى بن يحيى الغسّانيّ: قاضي دمشق حدث عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهم، وروى عنه ابن هشام ومحمد بن إسحاق وسفيان بن عيينة ومحمد بن راشد الخزاعي. كان بدمشق عالم بالفتيا والقضاء (ت١٣٥هـ/ ٧٥٢م). الخطيب البغدادي، المتفق والمفترق، تحقيق د. محمد صادق آيدن الحامدي، دار القادري، دمشق ـ سورية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٣، ص٢٠٢٧.

(٢) الأمراء الغساسنة في العراق، م. س.

إلى الأصغر الأساتذة: «باسل» و«فيصل» و«رعد» و«سعد». والأستاذ «غانم بن المرحوم محمّد بن الأمير مجيد آغا بن الأمير هِمَّتْ آغا بن الأمير مصطفى آغا الغسّانيّ» صاحب مخطوطة في تاريخ الغساسنة وأنسابهم، أعقَب ولدان هما حسب التّرتيب من الأكبر إلى الأصغر: الأستاذان: «فراس» و«أحمد»، الأكبر أعقَب ابنة اسمها «زهراء» يعتبرها جدّها من «زَهر الغساسنة»، والأصغر أعقب ابنة اسمها «أُمْنِيَةُ» يعتبرها جدّها من «أماني الغساسنة»[١].

غساسنة اشتهروا في الأندلس

اشتهر كثيرون من الغساسنة في مجالات شتّى في الأندلس، ومن هؤلاء:

١ ـ سعيد بن محمّد الغسّانيّ: أبو عثمان، ويقال له: ابن الحدّاد، (٢١٩ ـ ٣٠٢هـ/ ٨٣٤ ـ ٩١٥م)، مُناظِرٌ قويّ الحُجَّةِ في علوم الدّين واللّغة. من أهل القيروان. كان كثير الرد على أهل البدع والمخالفين للسنة. وكان آنَسَ الفقهاء مجلساً، وأغزَرَهم خَبَراً، ومذهبه: النَّظَرُ والقياس والاجتهاد، ولا يُقَلِّدُ أحداً، وكان يقول: إنّما أدخل كثيراً من النّاس إلى التّقليد نَقْصُ العقول ودَناءةُ الهِمَم. وله نَظْمٌ أكثره في ابن أخ له أُسِر، وفي ولد له مات. ومن كتبه: توضيح المُشْكِلِ في القرآن، ومعاني الأخبار، والمجالس (مناظرات في فنون من العلم)، والأمالي، والمقالات، والاستواء، وعِصْمَةُ النَّبِيِّين[٢].

٢ ـ مُطْرِفُ بن عيسى الغسّانيّ: أبو عبد الرّحمٰن، (ت٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)، مؤرِّخ من أهل غرناطة، وكان من أهل العلم والرّواية للحديث. طلب العِلم بالأندلس، ثمّ رحل وحجّ واقتبس وجلب علماً كثيراً. وألّف للخليفة الحكم بن عبد الرّحمٰن كتاباً سمّاه «المعارف في أخبار كورة إلبيرة[٣] وأهلها وبواديها وأقاليمها». وتوفِّي بـ«إلبيرة Elvira»[٤].

٣ ـ الحسين بن محمّد الغسّانيّ الجيانيّ: أبو عليّ، عاش إحدى وتسعين

(١) الأمراء الغساسنة في العراق، م. س. (٢) الزركلي، م. س، ج٣، ص١٠٠.

(٣) إلبيرة: من كور الأندلس جليلة القدر نزلها جند دمشق من العرب وكثير من موالي الإمام عبد الرحمٰن بن معاوية، وهو الذي أسسها وأسكنها مواليه ثم خالطهم العرب بعد ذلك، وبين إلبيرة وغرناطة ستة أميال. محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميري، م. س، ص٢٨.

(٤) الزَّركليّ، م. س، ج٧، ص٢٥١.

سنة (ت ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م)، وكان إماماً حافظاً، سمع الكثير وحدَّث وكتب وصنَّف[١]. ومن كتبه: أسماء رجال سنن أبي داود، وتقييد المُهمَلِ وتمييز المُشْكِل[٢]، والمُؤْتَلِفُ والمُخْتَلِف[٣].

٤ ـ مُحَمَّد بن أَحْمد بن عَليّ الغساني: أبو بكر، (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، وهو من أهل مالقة[٤]، وكان إماماً جليلاً حافظاً لفروع الفقه، ويُدرِّس «مُخْتَصَر ابن الحَاجب» في الفروع طوال عُمُره، وَكَانَ قد عرَضَه كلَّه في مجلس واحد. وكان متواضعاً، وجميل الاعتقاد، ومثابراً على الخير، وقليل التَّصَنُّع[٥].

غساسنة اشتهروا في المغرب

١ ـ محمد بن يحيى الغساني البرجي: (٧١٠ ـ ٧٨٦هـ/ ١٣١٠ ـ ١٣٨٤م)، وأصله من مدينة برجة بشرقيّ الأندلس[٦]. ونشأ ودرس بغرناطة، ثم انتقل إلى فاس[٧]. وتولّى الكتابة للسّلطان أبي عنان أمير المسلمين في شمال إفريقية، وكان صاحب الإنشاء والسِّرّ في دولته. ثمّ ارتحل إلى الحجاز وجَاوَر بالمدينة

(١) يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة ـ مصر، ط١، د. ت.، ج٥، ص١٩٢.

(٢) د. محمد بن عبد الكريم بن عبيد، روايات ونسخ الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (دراسة وتحليل)، دار إمام الدعوة للنشر والتوزيع، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٦هـ، ص٦.

(٣) ابن ماكولا، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩٠م، ج١، ص٩.

(٤) مَالَقَةُ: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال ريّة، سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية، قال الحميدي: هي على ساحل بحر المجاز المعروف بالزقاق، والقولان متقاربان، وأصل وضعها قديم ثم عمرت بعد وكثر قصد المراكب والتجار إليها فتضاعفت عمارتها حتى صارت أرشذونة وغيرها من بلدان هذه الكورة كالبادية لها، أي الرستاق، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم، منهم: عزيز بن محمد اللّخمي المالقي وسليمان المعافري المالقي. ياقوت الحموي، م. س، ج٥، ص٤٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد ـ الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ج٥، ص٧٥.

(٦) الزركلي، م. س، ج٧، ص١٣٩.

(٧) فاس: مدينتان مفترقتان مسوّرتان: عدوة القرويّين وعدوة الأندلسيين، وبالمدينتين أكثر من ثلاثمائة رحى وبها نحو عشرين حماماً، وهي أكثر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها إلى جميع الآفاق. ياقوت الحموي، م. س، ج٤، ص٢٣٠.

المنوَّرة، ثمّ عاد إلى فاس حيث تولّى قضاء الجماعة. ثمّ تنقل بين بجايه[١] وتلمسان[٢]. واشتهر بالشّعر والخطّ والكتابة وصناعة الآلات العلميّة. وله عدّة مدائح نبويّة، ومنها قصيدة نظمها بمناسبة المولد النّبويّ الشّريف[٣].

٢ ـ محمّد بن يحيى بن محمّد بن جابر الغسّانيّ: (ت ٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م)، فاضل من أهل مكناسة[٤] بالمغرب. ومن كتبه: نزهة النّاظر، نَظْمُ رجال الحِلْيَة، ونَظْمٌ في علم التّعبير[٥].

٣ ـ قاسم بن محمد بن إبراهيم الغَسَّاني: اشتهر بلقب: الوزير، (٩٥٥ ـ ١٠١٩هـ/ ١٥٤٨ ـ ١٦١١م)، وهو من أهل فاس، وأندلسيّ الأصل. وكان طبيباً عشّاباً من العلماء، وتَفَرَّدَ بمشيخة الطّب في فاس ومرّاكش. ومن كتبه: مغني اللّبيب عن كتب أعداء الحبيب، والرّوض المكنون (شرَح به أرجوزة في «الحميات والأورام» منسوبة إلى أبي موسى هارون بن إسحاق بن عزرون[٦].

(١) بِجَايه: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كان أول من اختطّها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكّين، في حدود سنة (٤٥٧هـ/ ١١٦١م)، وكانت قديماً ميناء فقط ثم بنيت المدينة، وهي في لحف جبل شاهق وفي قبلتها جبال كانت قاعدة ملك بني حماد، وتسمّى الناصرية أيضاً باسم بانيها، وهي مفتقرة إلى جميع البلاد لا يخصّها من المنافع شيء، إنما هي دار مملكة، تركب منها السّفن وتسافر إلى جميع الجهات. ياقوت الحموي، م. س، ج١، ص٣٣٩.

(٢) تلمسان: قاعدة المغرب الأوسط، وهي مدينة عظيمة قديمة فيها آثار تدل على أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة، وبينها وبين وهران مرحلتان وهي في سفح جبل أكثره شجر الجوز. وكانت تلمسان دار مملكة زناتة في هذه العصور القريبة وحواليها قبائل كثيرة من زناتة وغيرهم من البربر. وهي كثيرة الخصب، ولها قرى كثيرة وعمائر متصلة ومدن كثيرة. وفيها بقية من النصارى ولهم بها كنيسة معمورة. ولها سور متقن الوثاقة. الحِمْيَرِيّ، م. س، ص١٣٥.

(٣) محمد أحمد درنيقة، م. س، ص٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٤) مكناسة: مدينة بالمغرب فى بلاد البربر على البر الأعظم، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة نحو المشرق؛ وهى مدينتان صغيرتان على ثنية بيضاء، بينهما حصن جواد إحداهما قديمة، والأخرى محدثة قريباً. وقيل: مكناسة حصن بالأندلس، من أعمال ماردة. وقيل: وبالمغرب بلدة أخرى مشهورة، يقال لها: مكناسة الزيتون، حصينة مكينة فى طريق المارّ من فاس إلى سلا، على شاطىء البحر فيه ميناء للمراكب. عبد المؤمن ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩١م، ج٣، ص١٣٠٣.

(٥) الزركلي، م. س، ج٧، ص١٣٩.

(٦) المرجع نفسه، ج٥، ص١٨١ ـ ١٨٢.

٤ ـ محمّد بن عبد الوهّاب الغسّانيّ الأندلسيّ الفاسيّ: أبو عبد الله (ت١١١٩هـ/١٧٠٧م)، وهو أندلسيّ الأصل، وفاسيّ الدّار. وكان وزيراً، ومؤرِّخاً، وفقيهاً، وأديباً كاتباً، ومشاركاً في بعض العلوم. وقد استوزره السّلطان المظفَّر المولى إسماعيل بفاس، وبعثه سفيراً إلى ملك إسبانية كارلوس الثّاني Charles II سنة (١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م)، لغايتين: تخليص الأسرى المسلمين الذين كانوا لدى الإسبان، وجلب ما بقي في الأندلس من الكتب العربيّة. وقام الغسّانيّ بهذه الرحلة، وأقام ثمانية أشهر وضع على إثرها كتابه: رحلة الوزير في افتكاك الأسير. وتوفّي في «زنقة الرّطل» من فاس القرويّين. وكان يدعى: حمو ابن عبد الوهّاب[1].

قبائل الغساسنة النّصارى

ظلّت قبائل الغساسنة النّصارى، بعد تفرُّقها في البلاد، متشبِّثة بعقيدتها المونوفيزية، ومتناسِلة متكاثِرة جيلاً بعد جيل، ومع توالي الزّمان تشعَّبت تلك القبائل إلى خمس عشرة شعبة. فالغسّانيّون القاطنون في مملكة الفرس انحاز أغلبهم إلى عقيدة النّساطِرة، وانضمّ قومٌ منهم إلى الخلقيدونيّين القائلين بالطّبيعتَين، أمّا بقيّتهم فإنّهم ألقوا السّلاح وآثَروا السُّكنى في المدن والقرى بأرض العراق وآثور[2] وسورية. وقال ابن العِبْرِيّ: «ظلّ الغساسنة من ذلك الحين حتّى اليوم، أي إلى القرن الثّالث عشر (الميلاديّ)، متمسِّكين بعقيدة الطّبيعة الواحدة، ولا سيّما في «الحديثة»[3] وفي بلاد «باعربايا (طورعَبدين)» وفي «القريتَين» و«النّبك»[4] وسائر أطرافها».

فهذه الشّهادة التي نقلها ابن العِبْرِيّ عن يوحنّا أسقف آسية، وعن غيره من المؤرِّخين، تؤيِّدها أبرشيّات السُّريان وأديارهم الوافرة في جميع الأصقاع الغسّانيّة. وهناك أبرشيّات أخرى ظلّت عامرة حتّى القرن الثّالث عشر الميلاديّ وما بعده. وعدّد البطريرك ميخائيل الكبير كثيراً من أساقفتها في

(١) الزركلي، م. س، ج٦، ص٢٥٦ ـ ٢٥٧. وج ١٠، ص٢١٧.
(٢) آثور: الموصل. أبو عُبَيْد البَكْرِيّ الأندلسيّ، م. س، ج١، ص١٠٨.
(٣) الحديثة: مركز قضاء في محافظة الأنبار في العراق.
(٤) النّبك: مدينة سوريّة ومركز قضاء بمحافظة دمشق.

اللّائحة التي ذَيَّلَ بها تاريخه الشّهير. ومنها أبرشيّات تَدْمُر وصَدَد[1] وبالِس، ولا سيّما أبرشيَّتَي الرُّصافَةِ والرَّقَّةِ على شاطئ الفرات آخر تخوم الدّولة الغسّانيّة[2].

عشائر وعائلات نصرانيّة من نسل الغساسنة

بعد أن انكسرت شوكة الغساسنة في اليرموك، بقي نسلهم في البلاد، وهناك العديد من القبائل والعوائل العربيَّة النّصرانيَّة المعاصرة في سورية والأردن ولبنان وفلسطين تنتسب إليهم.

ومن العشائر المنتسبة إليهم على سبيل المثال:

١ ـ القعاورة:

عشيرة نصرانيّة مذهبها روم أرثوذكس. ويُقال: إنّهم من بقايا الغساسنة، وإنّهم خرجوا من القَسْطَلِ إلى الدّير، ومنه جاء فرع إلى الفحيص، حيث يُعرفون بآل السّماويّ والسّماريّ، وهم فروع عديدة يقطنون اليوم في: النّاصرة وحَيْفا ونصف جبيل والسَّلْط وعمّان والفحيص[3].

٢ ـ زيدان:

عشيرة نصرانيّة مذهبها روم أرثوذكس ولاتين. وتقيم بناحية جبل عجلون، وتقطن قرية عنجرة[4]. ويقال: إنّها من بقايا الغساسنة[5].

٣ ـ أُسَرٌ لبنانيّة:

هناك أُسَرٌ لبنانيّة تعود بجذورها إلى الغساسنة، وقد قَدِمَتْ في أوقات مختلفة إلى لبنان واستقرّت فيه. وفي طليعتها: مشايخ آل الخازن وآل وهيبة وأسرة ضوّ وغيرها ممّن تفرّع منها[6].

(١) صَدَد: تبعد صدد عن النّبك خمسة وثلاثين ميلاً. ابن خِرْدَاذْبَة، م. س، ص٢١٨.
(٢) الفيكُنْت فيليب دي طَرَازي، م. س، م٢، ص٢٤.
(٣) عمر رضا كحّالة، م. س، ج٣، ص٩٦٢.
(٤) عنجرة: قرية من قرى جبل عجلون وغنية بالكبريت. محمد كرد علي، م. س، ج٤، ص١٦٢.
(٥) عمر رضا كحّالة، م. س، ج٢، ص٤٩٢.
(٦) الفيكُنْت فيليب دي طَرَازي، م. س، م٢، ص٥ ـ ٦.

أ ـ آل الخازِن

افتتح الشّيخ شيبان الخازِن مُؤَلَّفَهُ عن آل الخازن[1] بقوله: «هؤلاء، أعني الخَوازِنَة،[2] قيل: إنّهم من بني غسّان، وهم طائفة من عرب النّصارى».

وممّا يدلّ دلالة صريحة على تحدُّر الخوازنة من جدود غسانيّين ما أثبتَه القَسُّ «أغوسطين سالم» الرّاهب اللّبنانيّ بقوله: «وعائلة الشّيخ سركيس المُنَيْطِرِيِّ بن الأمير خازن الدّمشقيّ بن نوفل بن عبد الله بن خازن بن غسّان بن شعلان بن غسّان بن جفنة بن مازن الغسّانيّ... نزح الأمير خازن بن نوفل من دمشق إلى المُنَيْطِرَة». فورود أسماء غسّان وجفنة ومازن بين جدود الخوازنة لا يدع مجالاً للارتياب في تسلسلهم من أرومة غسّانيّة.

ويقول الفيكنت فيليب دي طَرّازي: «تتناقل ألسنة المشايخ الخوازنة أباً عن جدٍّ أنّ مَنشأهم بلاد غسّان، ومنها قدِموا إلى بلاد حوران، فلبنان. وهو تقليد متسلسل عندهم سمعناه مراراً من أفراد أسرتهم؛ كالشّيخ «نوفل بن قانصو الخازن» والشّيخ «فيليب بن قَعْدان الخازن» وغيرِهما. وكتب لنا الشّيخ «حرب بن نادر الخازن» بهذا الصّدد ما نصّه: «إنّ التّقاليد المتسلسلة في عائلتنا، والتي يتناقلها الأولاد والأحْفِداءُ عن الأجداد، تؤكّد أنّ آل الخازن أصلهم من بلاد غسّان. وبعدما سكنوا مدّة في حوران، وتولّوا الحكم في درعت (أدرع)، وفَدوا على قرية جاج[3] في جبل لبنان. ومن هناك تفرّقوا في بعض قرى كِسروان واستعمروها وسكنوا فيها»».

ومن بيّنات آل الخازن وغيرهم يتضّح أنّ الخوازنة، المتسلسلين من أصل غسّانيّ، كان لهم شأن في بلاد حوران، وتَوَلّوا عام ١٣١٠م، على درعت (أدرع) وتوابعها، وأقاموا هناك حتّى سنة ١٤٤٠م، وكانت أدرع في تلك الغضون حافلة بالسُّرْيان، ولهم فيها وفي غيرها من المملكة الغسّانيّة كراسي أسقفيّة.

(١) خَلَّفَ الشّيخ شيبان الخازن كتاباً عنوانه «تاريخ المشايخ الخوازِنَة»، لم يزل غير مطبوع، وضمَّنه أخبار أسرته منذ نشأتها حتّى أيّامنا (الوقت الذي كتب به الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي كتابه). الفيكنت فيليب دي طرّازي، م. س، م٢، ص٢٤ ـ ٢٥.

(٢) الخوازِنَة: يُدْعَوْنَ الآن في لبنان «الخازِنيّون».

(٣) جاج: قرية من قرى قضاء جبيل اللبناني.

وبعد سنة ١٤٤٠م، انتقل الخوازنة من بلاد حوران إلى ضواحي بعلبك ودير الأحمر[1] واليَمّونة، وأقاموا هناك زهاء خمس وثلاثين سنة ثمّ انتزَحوا عام ١٤٧٥م، إلى قرية جاج بجبل لبنان.

كما انتزح أولاد «جمعة» من عين حليا[2] وأولاد «شاهين المشروقي» من صَدَد، وغيرهم من النَّبَكِ والقريتَين، إلخ.. وبتوالي السّنين انضمّ هؤلاء وأولئك إلى الطَّقْسِ المارونيّ وثَبَتوا فيه حتّى الآن.

وفي سنة ١٥٤٥م، زايَل الخوازنة قرية جاج وشَخَصوا إلى كسروان، وأحرزوا جاهاً كبيراً في عالَمَي الدّنيا والدّين. وقام منهم حكّام وقناصل وقضاة ومحامون ومهندسون وصحافيّون وأطبّاء وأدباء يطول تِعداد أسمائهم وذِكر مآثِرهم، ولا سيّما ما شيّدوه من الكنائس والأديار[3].

واشتهر من الأسرة الخازنيّة في جبل لبنان ثلاثة بطاركة هم:

١ ـ البطريرك يوسف ضرغام الخازن (١٧٣٣ ـ ١٧٤٢م).

٢ ـ البطريرك طوبيّا الخازن (١٧٥٦ ـ ١٧٦٦م).

٣ ـ البطريرك يوسف الخازن (١٨٤٥ ـ ١٨٥٤م).

وسبعة مطارنة هم:

١ ـ السَّيِّد ميخائيل حرب الخازن، مطران قيصارية (قيساريّة) فلسطين (١٧٦٧ ـ ١٧٨٦م).

٢ ـ السَّيِّد أغناطيوس الخازن، مطران طَرابُلُس (١٧٨٧ ـ ١٨١٩م).

٣ ـ السَّيِّد جرمانوس الخازن، مطران دمشق (١٧٩٤ ـ ١٨٠٥م).

٤ ـ السَّيِّد أسطفان الخازن الأوّل، مطران دمشق (١٨٠٥ ـ ١٨٢٩م).

٥ ـ السَّيِّد أنطون الخازن، مطران بعلبك (١٨٠٥ ـ ١٨٥٨م).

٦ ـ السَّيِّد أسطفان الخازن الثّاني، مطران دمشق (١٨٤٨ ـ ١٨٦٨م).

٧ ـ السَّيِّد يوسف الخازن، مطران عَكّا (١٩١٩ ـ ١٩٣٣م).

وانتشر المشايخ الخوازنة في قضاء كسروان خصوصاً، فسكنوا البْوار وبلّونة

(١) دير الأحمر: من أعمال مدينة بعلبك اللبنانية.

(٢) عين حليا: قرية من قرى البقاع اللبناني.

(٣) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٢٥ ـ ٢٧.

وسْهَيْلَة والزّوق وغوسطا ودَرعون وعْجَلْتون ورَيْفون ومزرعة كَفر ذُبْيان ومَيْروبا وحْراجِلْ وفارَيّا وجونية وأنطلياس وغيرها. وامتدّت فروعهم إلى بيروت ووادي النّيل (مصر) وأميركا إلخ[1].

ب ـ آل وهيبة

كان ممّن انتزح مع آل الخازن إلى جاج ابن عمّهم «وهيبة» الذي انتقل بعد ذلك إلى عكّار، أمّا ابنه «غانم» فانتقل من جاج إلى كسروان، وانتشرت ذُرِّيَّتُهُ في قرى عجلتون وسهيلة وعشقوت وغوسطا وغدير إلخ[2]..

ج ـ أسرة آل ضَوّ الوافدة من غسّان

وضع «نصري لحّود» تاريخاً يتضمن أخباراً لأسرة آل «ضو» التي يمتّ بنسبه إليها، ولم يزل هذا التّاريخ مخطوطاً عند مؤلّفه. ونَشر عام ١٩٣٧م، نبذة عنوانها «جامعة بَني ضوّ» أودَعَها ما ورد عن أصل تلك الأسرة، فصرّح قائلاً: إنّها تتحدّر من «موسى غانم الغسّانيّ أحد أتباع الملك المنذر بن النّعمان. وقد هجر موسى وطنه إلى قرية يانوح في بلاد جُبَيْل ثمّ انتقل أولاده إلى قرية لِحْفِد[3]»[4].

واستناداً إلى انتساب آل ضوّ إلى جدّهم الأعلى موسى غانم الغسّانيّ قال الفيكنت فيليب دي طَرّازي: «إنّ الغساسنة كانوا قوماً من نصارى العرب تَوَلّوا حوران وبادية الشّام الممتدّة بين دمشق وتدمر حتّى سواحل الفرات». وأضاف «إنّ الغساسنة ظلّوا متمسّكين تمسّكاً شديداً بمعتقدهم المونوفيزي إلى ما بعد القرن الثّالث عشر، حتّى أصبح اسمهم مرادِفاً لاسم المونوفيزيين.

ويتأتّى من ذلك أنّ موسى غانم الغسّانيّ، جدّ آل ضوّ، لا يتسلسل أولاده وحُفَداؤه إلّا من أرومة سُريانيّة مونوفيزية استقرّت في مدينة النّبك بين دمشق وتدمر. وكانت النّبك داخلة في تخوم الغسانيّين كما أيّد ذلك ابن العِبْرِيّ في القرن الثّالث عشر الميلاديّ.

وعلى إثر انتزاح فريق منها عن النّبك إلى جبل لبنان هَجروا تدريجاً طَقْسَهُمُ السُّريانيّ وانضمّوا إلى المِلَّةِ المارونيّة».

(١) ألفيكنت فيليب دي طرّازي، م. س، ص٢٧ ـ ٢٨.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٧.
(٣) لِحْفِد: من قرى قضاء جبيل اللبناني.
(٤) ألفيكنت فيليب دي طرّازي، م. س، ص٢٨.

وبرز من آل ضوّ رجال في مجالات مختلفة، ومنهم:

١ ـ المطران ديوسقورس عيسى ضوّ النّبكي (١٤٤٥ ـ ١٤٧٧م):

عُرف بلقب «نَبكيّ» نسبة إلى النّبك وطن أجداده. ومكث المطران ديوسقورس ضوّ زماناً طويلاً في لبنان. وبعد سيامته مطراناً على أورشليم وطرابلس ظلّ يتردّد متفقّداً شؤون أبناء ملّته، حتّى قضى نحبه سنة ١٤٧٧م[1].

٢ ـ البطريرك يوياقيم الخامس ضوّ (١٥٨١ ـ ١٥٩٢م):

اتَّبَع فرعٌ من بني ضوّ الطّقس الملِكيّ، وقام «دوروثاوس ضوّ» مطران الرّوم الملِكيّين في طرابلس. وهو ارتقى بعد ذلك إلى السُّدَّةِ البطريركيّة باسم يوياقيم الخامس خلفاً لميخائيل السّابع (١٥٧٦ ـ ١٥٨١م)، الذي حطّه الدّمشقيّونَ من منصبه. وساس البطريرك يوياقيم كرسيّه الأنطاكيّ إحدى عشرة سنة ارتحل في خلالها إلى بلاد الفْلاخ[2] والبُغْدان[3] وروسية. وفي خلال تلك الرّحلة الشّهيرة كرّس في مدينة موسكو سنة ١٥٨٨م، أوّل بطريرك عرفه التّاريخ باسم «بطريرك روسية».

٣ ـ فرع لَبَكي وفرع لَحّود في بْعَبْدات[4]:

يُعتبر فرعا «لَبَكي» و«لَحّود» في بْعَبْدات في طليعة الأُسَرِ المنحدرة من آل ضوّ هناك.

ومن مشاهير فرع «لَبَكي»: «سمعان اللَّبَكيّ» أمين سرّ «الأمير حيدر» قائمقام النّصارى في جبل لبنان. ثمّ ابنه «غطّاس لبكي (١٨٤٨ ـ ١٩٠٢م)»، الذي تَوَلّى رئاسة القلم الأجنبيّ في متصرفيّة جبل لبنان، واتّخذه «رستم باشا» متصرِّف هذا الجبل (١٨٧٣ ـ ١٨٨٣م)، مستشاراً وترجماناً. ومنهم الدّكتور «بطرس بن إلياس لبكي» الذي تعاطى مهنة الطِّبِّ بمدينة آطنة وفيها حلَّت وفاته سنة ١٩١٢م، ومنهم أيضاً «نعّوم بك لبكي» ١٩٢٤م، رئيس المجلس النّيابيّ اللّبنانيّ، وقد نُصِبَ له تمثال في بعبدات مسقِط رأسه إحياءً لِذكراه.

(١) ألفيكنت فيليب دي طرّازي، م. س، ص٢٩ ـ ٣١.
(٢) الفلاخ: ترانسلفانيا.
(٣) البغدان: تقع في رومانيا شمال نهر الدانوب.
(٤) بعبدات: قرية في قضاء المتن في محافظة جبل لبنان.

أمّا من فرع «لَحّود» فهناك «ناصيف لَحّود» ١٩٠٤م، وشقيقه «جُرْجُس لحّود» ١٩١٤م، وكانا من تجّار الحرير في زمانهم.

ومن آل لحّود المعاصرين في بعبدات (المتن الشمالي في محافظة جبل لبنان) «نسيب لحّود» الذي كان نائباً في مجلس النّواب اللّبنانيّ، و«جميل لحّود» الضّابط الكبير في الجيش اللّبنانيّ، وابنه «نصري لحّود» أحد القضاة الكبار، وابنه الآخر «إميل لحّود» الضّابط في الجيش اللّبنانيّ الذي أصبح قائداً للجيش ثمّ رئيساً للجمهوريّة.

٤ ـ فروع آل ضوّ في دير القمر:

أ ـ أسرة نِعمة، التي تشعَّبت عدّة شُعَبٍ في بيروت وعشقوت وبُقعاتا وغِرْفين، وفي مصر وتونس وإسطنبول والمكسيك. وممّن اشتهر منها الدّكتور «وليم نعمة» عضو «المجمع العلميّ الطّبيّ» في المكسيك.

ب ـ أسرة أديب، وممّن اشتهر منها: «أوغست باشا أديب» رئيس الوزارة اللّبنانيّة (١٩٣٠ ـ ١٩٣٢م).

ج ـ أسرة شِدياق.

د ـ أسرة مَقْلَع.

هـ ـ أسرة صَفا[1].

٥ ـ فروع آل ضوّ في لِحْفِد وشْنَنْعير[2] وجونية وبْكاسين[3]:

أ ـ أسرة نصر، ومنها «بطرس نصر» الذي ابتنى في جونية مدرسة مار بطرس وحبس عليها بعض الأوقاف.

ب ـ أسرة أبي كرم، في جونية.

ج ـ أسرة صليبا، في جونية.

د ـ أسرة أبي زيد، في شْنَنْعير.

هـ ـ أسرة أبي عازار، في شْنَنْعير.

و ـ أسرة عرقتية، في شْنَنْعير.

---

(١) ألفيكنت فيليب دي طرّازي، م. س، ص٣١ ـ ٣٢.

(٢) شننعير: قرية في قضاء كسروان في محافظة جبل لبنان.

(٣) بكاسين: مَصيف لبنانيّ في قضاء جَزّين.

٦ ـ سائر فروع آل ضوّ:

من فروع آل ضوّ المتفرّقة في بعض أنحاء لبنان هناك:

أ ـ أسرة فرعون، في دير القمر، وفي الحدث بجوار بيروت.

ب ـ أسرة الفحل، في البْوار والعُقَيْبَة.

ج ـ أسرة التُّرك، في سنور والمُراديّة وسرعيتا وداريّا ويحشوش وجديدة غزير.

د ـ أسرة مطر، في مزرعة الجنديّ.

هـ ـ أسرة الجُرّ، في يحشوش.

و ـ أسرة تقور، في حارة حريك.

ز ـ أسرة النّصرانيّ، في غزير وجْدَيْدَة غزير.

ح ـ أسرة عبّود، في البترون.

ط ـ أسرة خليفة، في البترون.

٧ ـ القرى اللّبنانية المأهولة ببني ضوّ:

انتشرت سلالة آل ضوّ، ما عدا فروع آل ضوّ في بيروت وطرابلس ومصر وتونس وإسطنبول والمكسيك والقرى السّابقة الذِّكر، في قرى من لبنان، وأهمّها: لِحْفِد وفِتْري وحالات ونهر إبراهيم وجْعيتا وزوق ميكائيل (ذوق مكايل) وعَشْقوت وبَمْهْريّة وحومال وبداودن وكفرشيما والتَّحويطَة وبَطْشيّة والعاقورا (العاقورة) وبِشْلي وحَمّانا وبَلّونَة والكْنَيْسي (الكْنَيْسَة) والبترون وكَفْر قَطْرا وإدَّة وغِرْفين والقْلَيْعة والبْوار والمْغَيْرة (المْغَيْري) ومزرعة الجنديّ إلخ. وهؤلاء، وجدودهم قاطبة، قد انضووا بتعاقب الأيّام إلى الطَّقس المارونيّ[1].

بعض الأسر المتحدِّرة من موسى غانم الغسّانيّ

تتحدّر أسر عديدة، غير أسرة ضوّ وفروعها، من موسى غانم الغسّانيّ. وفي ذلك قال المؤرِّخ البطريرك «بولس مسعد»[2] في مجموعته المخطوطة: «إنّ

---

(١) ألفيكنت فيليب دي طرّازي، م. س، ص٣٢ ـ ٣٣.

(٢) البطريرك بولس مسعد: رعى الطائفة المارونية لمدة ٣٦ سنة وكانت وفاته في أواسط نيسان من سنة ١٨٩٠م وله من العمر ٨٥ سنة. وكان متضلعاً بالتاريخ الشرقي الديني والعالمي. ومن آثاره كتاب: التحفة الغراء في دوام بتولية العذراء، وكتاب: الدر المنظوم. رزق الله يوسف =

غانم ومطر وسعادة وضوّ، من سلالة موسى غانم، نزحوا من يانوح إلى لحفد في أوائل القرن الثّالث عشر (الميلادي). وتشعّب من تلك السلالة أسر عديدة، منها:

١ ـ أسرة كرم، في بَسْكِنْتا، وسليلها المطران «بطرس».

٢ ـ أسرة التّنّوريّ، في بَسْكِنْتا، وسليلها المطران «يواصاف».

٣ ـ أسرة صقر، في حَلَب ولبنان، وأساقفتها.

٤ ـ أسرة مراد، في عرامون[١]، وسليلها المطران «نقولا».

٥ ـ أسرة أبي منصور (شِبْلي)، في دُفون[٢]، وسليلها المطران «بطرس شِبلي»[٣].

وتحمل العديد من العائلات السُّنّيّة والشّيعيّة والدّرزيّة، في بيروت والشّوف والجنوب وغيرها من المناطق اللّبنانيّة، نفس أسماء العديد من فروع آل ضوّ، ومنها: الشِّدياق، صفا، أبي زيد، فرعون، الفحل، التُّرك، مطر، عبّود، خليفة، صقر، مراد، شِبلي.

غساسنة نصارى في الأردنّ وفلسطين

قام الأستاذ «بُرْهُمْ يوسف هيشان المَعْشَر» بالتّأريخ لعشائر وعائلات في الأردنّ وفلسطين من نسل الغساسنة في كتاب تحت عنوان «عشائر الدّبابِنَة أحفاد الغَساسِنَة» نشره في الأردنّ.

وجاء في الكتاب أنّه توجد حتّى الآن عائلات كثيرة من نسل الغساسنة في سورية ولبنان كآل معلوف، ومنهم الحَمايْرَة في النّاصرة (فلسطين) وآل عطيّة وعشيرة الخازن. كما أنّ منهم العُزيزات والحَدّاديّ والدَّبابِنَة والقعاوْرَة والمَدانات والعَمامِرَة وغيرهم من مسيحيّي شرق الأردنّ وفلسطين الذين

= شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت.، ص٢٣٨.

(١) عرامون: عَرَمون، قرية لبنانيّة في قضاء كسروان، وتوجد قرية أخرى بالاسم نفسه في قضاء عاليه، والاثنتان في محافظة جبل لبنان. **والمقصود هنا**: القرية الكسروانيّة لأنّ سكّانها نصارى، بينما القرية الأخرى الأشهر من الأولى سكّانها دُروز.

(٢) دفون: قرية لبنانية من قرى عاليه في محافظة جبل لبنان.

(٣) لمزيد من التّفصيل انظر: الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٣٣ ـ ٣٨.

يعودون بأنسابهم إلى الغساسنة[١].

ويستذكر المؤلّف أنّ العرب النّصارى شاركوا إخوانهم النّصارى في معارك أجنادين واليرموك التي كانت بداية نهاية الوجود البيزنطيّ في بلاد الشّام، بل كان لهم دور عسكريّ وسياسيّ بارز في فتح مدينة دمشق، وفي مشاركة صلاح الدّين الأيّوبيّ في حصار القدس الشّريف.

ويورد المؤلّف أنّ المطران «يوحَنّا بن رُؤْبَة (مطران العقبة)» كان أهدى النّبيّ محمّداً ﷺ بغلة بيضاء أُعجب بها، وبدوره أهدى النّبيُّ الكريم ﷺ المطران يوحنّا «بُرْدَة»[٢].

ويورد المؤلّف في توثيقه التّفصيليّ أنّ أربعة أشقّاء لـ«نمر بن سليمان بن نمر الخازن الغسّانيّ»، وهم «فرح» و«صالح» و«خليل» و«نُمَيْر»، هاجروا في أواسط القرن الرّابع عشر الميلاديّ من لبنان إلى الكَرَك، ثمّ اتّجهوا شمالاً حتّى حطّوا رِحالَهم في قرية «دِبّينَ» في الأردن ومنها أخذوا اسمهم «الدّبابِنَة». وقد بقي صالحٌ في الكرك لتتحدّر منه عشيرة «المَدانات»، فيما غادر فرحٌ ونُمَيْرٌ إلى «طيبة بَني سالم» في فلسطين و«بير زَيت» و«عين عريك» و«الزّبابِدَة» عام ١٧٠٠م، أمّا خليل فبقي في دِبّين، ثمّ رَحلت عشيرة الدّبابِنَة إلى السَّلْط، فيما اتّجَهَ الابن الثّاني من ذُرّيَّةِ خليل إلى الحصن وأنشأ عشيرة «العَمامِرَة».

وتشكّلت من أعقاب «موسى بن يعقوب بن نمر الخازن الغسّانيّ» عشيرة آل المَعْشَرِ «المَعاشير».

وبذلك فإنّ عشائر الدّبابِنَةِ التي تمتدّ إلى أسرة «بَني معلوف» اللّبنانيّة، هم، والمدانات والعمامرة ودار شاهين ودار عبد الله في بير زيت، وعشيرة الكركيّة في سورية، والشُّعور في الجَليل، ودار شحادة وسعادة في بير زيت، بالإضافة إلى العشائر الفلسطينيَّة النّصرانيَّة، من العرب الغساسنة.

(١) بُرْهُمُ المَعْشَرُ يؤرِّخ لعشائر الدَّبابِنَةِ ويُسجِّل الأنساب المشتركة لمسيحيّي الأردنّ وفلسطين من أحفاد الغساسنة.

http://sahafi.jo/files02f3649080efde4ab819d

في ١٠/١٠/٢٠١٣م.

(٢) البُرْدَة: كِساءٌ مُخَطَّطٌ يُلْتَحَفُ به. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٤.

غانم ومطر وسعادة وضوّ، من سلالة موسى غانم، نزحوا من يانوح إلى لحفد في أوائل القرن الثّالث عشر (الميلادي). وتشعّب من تلك السلالة أسر عديدة، منها:

١ ـ أسرة كرم، في بَسْكِنْتا، وسليلها المطران «بطرس».

٢ ـ أسرة التّنوريّ، في بَسْكِنْتا، وسليلها المطران «يواصاف».

٣ ـ أسرة صقر، في حَلَب ولبنان، وأساقفتها.

٤ ـ أسرة مراد، في عرامون[١]، وسليلها المطران «نقولا».

٥ ـ أسرة أبي منصور (شِبْلي)، في دُفون[٢]، وسليلها المطران «بطرس شِبلي»[٣].

وتحمل العديد من العائلات السُّنّيَّةِ والشّيعيَّةِ والدّرَزيَّة، في بيروت والشّوف والجنوب وغيرها من المناطق اللّبنانيّة، نفس أسماء العديد من فروع آل ضوّ، ومنها: الشِّدياق، صفا، أبي زيد، فرعون، الفحل، التُّرك، مطر، عبّود، خليفة، صقر، مراد، شِبلي.

غساسنة نصارى في الأردنّ وفلسطين

قام الأستاذ «بُرْهُمْ يوسف هيشان المَعْشَر» بالتّأريخ لعشائر وعائلات في الأردنّ وفلسطين من نسل الغساسنة في كتاب تحت عنوان «عشائر الدّبابِنَة أحفاد الغَساسِنَة» نشره في الأردنّ.

وجاء في الكتاب أنّه توجد حتّى الآن عائلات كثيرة من نسل الغساسنة في سورية ولبنان كآل معلوف، ومنهم الحَمايْرَة في النّاصرة (فلسطين) وآل عطيّة وعشيرة الخازن. كما أنّ منهم العُزيزات والحَدّاديّ والدَّبابِنَة والقعاوْرَة والمَدانات والعَمامِرَة وغيرهم من مسيحيّي شرق الأردنّ وفلسطين الذين

= شيخو، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت.، ص٢٣٨.

(١) عرامون: عَرَمون، قرية لبنانيّة في قضاء كسروان، وتوجد قرية أخرى بالاسم نفسه في قضاء عاليه، والاثنتان في محافظة جبل لبنان. **والمقصود هنا**: القرية الكسروانيّة لأنّ سكّانها نصارى، بينما القرية الأخرى الأشهر من الأولى سكّانها دُروز.

(٢) دفون: قرية لبنانية من قرى عاليه في محافظة جبل لبنان.

(٣) لمزيد من التّفصيل انظر: الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٣٣ ـ ٣٨.

يعودون بأنسابهم إلى الغساسنة[١].

ويستذكر المؤلّف أنّ العرب النّصارى شاركوا إخوانهم النّصارى في معارك أجنادين واليرموك التي كانت بداية نهاية الوجود البيزنطيّ في بلاد الشّام، بل كان لهم دور عسكريّ وسياسيّ بارز في فتح مدينة دمشق، وفي مشاركة صلاح الدّين الأيّوبيّ في حصار القدس الشّريف.

ويورد المؤلّف أنّ المطران «يوحَنّا بن رُؤْبَة (مطران العقبة)» كان أهدى النّبيّ محمّداً ﷺ بغلة بيضاء أُعجب بها، وبدوره أهدى النّبيُّ الكريم ﷺ المطران يوحنّا «بُرْدَة»[٢].

ويورد المؤلّف في توثيقه التّفصيليّ أنّ أربعة أشقّاء لـ«نمر بن سليمان بن نمر الخازن الغسّانيّ»، وهم «فرح» و«صالح» و«خليل» و«نُمَيْر»، هاجروا في أواسط القرن الرّابع عشر الميلاديّ من لبنان إلى الكَرَك، ثمّ اتّجهوا شمالاً حتّى حطّوا رِحالَهم في قرية «دِبّينَ» في الأردن ومنها أخذوا اسمهم «الدّبابِنَة». وقد بقي صالحٌ في الكرك لتتحدّر منه عشيرة «المَدانات»، فيما غادر فرحٌ ونُمَيْرٌ إلى «طيبة بَني سالم» في فلسطين و«بير زَيت» و«عين عريك» و«الزَّبابِدَة» عام ١٧٠٠م، أمّا خليل فبقي في دِبّين، ثمّ رَحلت عشيرة الدّبابِنَة إلى السَّلْط، فيما اتّجَهَ الابن الثّاني من ذُرِّيَّةِ خليل إلى الحصن وأنشأ عشيرة «العَمامِرَة».

وتشكّلت من أعقاب «موسى بن يعقوب بن نمر الخازن الغسّانيّ» عشيرة آل المَعْشَر «المَعاشير».

وبذلك فإنّ عشائر الدّبابِنَةِ التي تمتدّ إلى أسرة «بَني معلوف» اللّبنانيّة، هم، والمدانات والعمامرة ودار شاهين ودار عبد الله في بير زيت، وعشيرة الكركيّة في سورية، والشُّعور في الجَليل، ودار شحادة وسعادة في بير زيت، بالإضافة إلى العشائر الفلسطينيَّة النّصرانيَّة، من العرب الغساسنة.

(١) بُرْهُمُ المَعْشَرُ يؤرِّخ لعشائر الدَّبابِنَةِ ويُسجِّل الأنساب المشتركة لمسيحيّي الأردنّ وفلسطين من أحفاد الغساسنة.

http://sahafi.jo/files02f3649080efde4ab819d

في ١٠/١٠/٢٠١٣م.

(٢) البُرْدَة: كِساءٌ مُخَطَّطٌ يُلْتَحَفُ به. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٤.

ومن هذه العشائر: أبو جاسر، أبو دَيَّة، أبو غياظ، اللِّياسات، أمّ عيد، عائلة رزق، عائلة رَهْوَة، زهران، زيادة، سعيد، حجّة، عتيق، عابودي، عَرَنْكي، عوّاد، عبيد، فُلَيْحان، قِسّيس، كلية، مزيد، مشعور، مسلم، ناصر، عودة، أبو رمّان، أبو سليمة، أبو شريدة، أبو فرحة، أبو قُبع، إسحاق، الأعمى، أغبار، بابون، بدر، بلوط، بنو زيدان، جرايسة، حَتَّر، وعشائر الحدّادين[١].

تجمّعات لغساسنة بقوا على معتقدهم في مناطق مختلفة

إنّ أكبر تجمُّع لمن تَبَقّى على ديانة ومعتقد الغساسنة موجود في مدينة «خَبَبْ» وبعض بلدات محافظة درعا في سورية، وفي مدينَتَي الكرك[٢] ومأدبا في الأردنّ، وكذلك مدينة «زَحْلَة» في لبنان بعد أن انتقلوا من موطنهم في الأردنّ وجنوب سورية. وأحفاد الغساسنة في لبنان كانوا والسُّريان على مذهب واحد، هو المذهب المونوفيزي الذي يقول بالطّبيعة الواحدة[٣].

وللغساسنة بقايا معروفة إلى اليوم في بلاد الشّام والبلقاء واليرموك والفحيص وجنوب الأردنّ وفلسطين، وخاصّة في عين عريك وبير زيتّ و«بيت جالا»[٤].

(١) بُرْهُمُ المَعْشَر، م. س.
(٢) مع تحوّل الإمبراطور قسطنطين (٣٢٤ ـ ٣٣٧م) إلى النّصرانيّة، تحوّل معظم شرقيّ الأردنّ كذلك، وأصبحت الكرك جزءاً من بطريركيّة البتراء، ثمّ أصبحت في القرن السّادس الميلاديّ تحت حكم الغساسنة باعتبارها جزءاً من الإمبراطوريّة البيزنطيّة. بيتر جوبسر، السّياسة والتَّغَيُّر في الكرك ـ الأردن، دراسة لبلدة عربيّة صغيرة ومنطقتها، ترجمة خالد الكركيّ، مراجعة عدنان البخيت، منشورات الجامعة الأردنيّة، عمّان ـ الأردنّ، ١٤١٠هـ/١٩٨٨م، ص١٦. وسكنت جماعات من الغساسنة في الكرك. المصدر نفسه، ص١٨٠.
(٣) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٦.
(٤) بُرْهُمُ المَعْشَر، م. س.

الفَصْلُ الثّامِن

بعض تاريخ الغساسنة من خلال الشُّعراء

أهميّة الشِّعر والأدب في كتابة تاريخ الغساسنة

كانت إمارة الغساسنة مَعْبَراً لكثير من التّأثيرات العقليّة والحضاريَّة، وعَبَرَتْ عن طريقها إلى العرب، ووفَد إليها من شعرائهم في الجاهليَّة مَن كانوا يجدون في أمرائها أهلاً لمدائحهم ومُنادَمتهم؛ كالنّابغة الذُّبْيانيِّ وعَلْقَمَةَ وحسّانَ بن ثابت[١].

وكان للأدب والشِّعر حظٌّ في كتابة تاريخ الغساسنة لنُدرة المعلومات الواردة عنهم والمتناثرة في بطون الكتب. فقد دلّ الشِّعر على بعض مواقع الغساسنة ومُدُنِهِمْ التي عاشوا فيها، ومن ذلك ما قاله النّابغة الذّبيانيّ عندما ذكر مواطنهم المشهورة في حوران:

لَئِنْ كانَ لِلْقَبْرَيْنِ قَبْرٌ بِجِلِّقَ ... قَبْرُ بَيْداءَ التي عِنْدَ حارِبِ
ولِلْحارِثِ الجَفْنِيِّ سَيِّدِ قَوْمِهِ ... لَيَلْتَمِسَنَّ بِالجَيْشِ دارَ المُحارِبِ
وَثِقْتُ لَهُ بِالنَّصْرِ إذْ قيلَ قَدْ غَزَتْ ... كَتائِبُ مِنْ غَسّانَ غَيْرُ أشْيَبِ
بَنو عَمِّهِ دُنْيا وعَمْرو بْنُ عامِرِ ... أولَئِكَ قَوْمٌ بَأْسُهُمْ غَيْرُ كاذِبِ
إذا ما غَزَوْا بِالجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ ... كَتائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدي بِصائِبِ
ولا عَيْبَ فيهِمْ غَيْرَ أنَّ سُيوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكَتائِبِ
تورِّثْنَ مِنْ أزْمانِ يَوْمِ حَليمَةَ ... إلى اليَوْمِ قَدْ جَرَّبْنَ كُلَّ التَّجارُبِ[٢]

كما وصف الأدب بعض مجد الغساسنة وتاريخهم والنِّعَم التي أحاطت بهم في عهد جبلة بن الأيهم، وأورد كتاب «الأغاني» رواية لحسّان بن ثابت عن

(١) د. النُّعمان عبد المُتَعالِ القاضي، م. س، ص٦٩.
(٢) منير الذّيب، م. س، ص٦٥.

ذلك المجد وتلك النِّعم قال فيها: «لقد رأيتُ عشرَ قِيان[1]: خمسُ روميّات يُغنّين بالرّوميّة بالبَرابِط[2]، وخمسٌ يُغَنّينَ أهل الحيرة، وأهداهنّ إليه إياسُ بن قَبيصَة[3]، وكان يَفِدُ إليه مَن يُغَنّيهِ من العرب من مكّة وغيرها.

وكان إذا جلس للشّراب فُرِشَ تحته الآسُ والياسمينُ وأصناف الرّياحين، وضُرِبَ[4] له العَنبر والمِسك في صِحاف الفضّة والذّهب، وأُتِيَ بالمِسك الصّحيح في صِحاف الفضّة، وأوقِدَ له العودُ المُنَدّى[5] إن كان شاتِياً، وإن كان صائِفاً بُطِّنَ بالثّلج، وأُتِيَ هو وأصحابه بكِساء صيفيّة ينفصل هو وأصحابه بها في الصّيف، وفي الشّتاء الفِراءُ الفَنَكُ[6] وما أشبَهه. ولا والله ما جلستُ معه يوماً قطّ إلّا خَلَعَ عَلَيَّ ثيابه[7] التي عليه في ذلك اليوم، وعلى غيري من جلسائه، هذا مع حِلْم عَمَّنْ جَهِل، وضَحِكٍ وبَذْلٍ من غير مَسألة، مع حُسْنِ وَجْهٍ وحُسْنِ حديث»[8].

مكانة الشِّعر والشُّعراء

كان للشُّعراء مكانة مرموقة قديماً عند الملوك، فهم أشبَه بمحطّات إذاعة أو

(١) القَيْنَة: المُغَنِّيَة. المعجم الوجيز، م. س، ص٥٢٣.

(٢) البَرْبَط: آلة موسيقيّة وَتَرِيَّةٌ شاعَت في بلاد الإغريق، ويقصُّ علقمة بن عبدة أنّه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قِيانٍ بيزنطيّات يَضرِبن على البَرابِط. أحمد شوقي، م. س، ص١٩١.

(٣) إياس بن قبيصة: من أشراف طيء وفصحائها المشهورين وشجعانها الموصوفين. وكان إياس قد اتصل من مجالسة كسرى أبرويز إلى ما لم يتصل إليه أحد من الأعراب. وأقطعه كسرى ثلاثين قرية على شاطىء الفرات. وولاه على عين تمر وما والاها إلى الحيرة. وذلك ليد أسفلها إياس عند كسرى يوم واقعة بهرام على أبرويز. وطلب من النعمان فرسه ينجو عليها فأبى واعترضه حسان بن حنظلة بن جنة الطائي وهو ابن عم إياس بن قبيصة فأركبه فرسه ونجا عليه ومر في طريقه بإياس فأهدى له فرساً وجزوراً فرعى له أبرويز هذه الوسائل. رزق الله يوسف شيخو، شعراء النصرانية، م. س، ج١، ص١٣٥.

(٤) ضُرِبَ الشّيء بالشّيء: خُلِطَ ومزِج. المعجم الوجيز، م. س، ص٣٧٨.

(٥) العودُ المُنَدّى: طيبٌ يُتَبَخَّرُ به مبتلٌّ بالماء. المرجع نفسه، ص٤٤٠ و٦٠٩.

(٦) الفِراءُ الفَنَك: جلود نوع من الثّعالب يُسمّى: الفَنَك، وفَروته من أجود أنواع الفِراء، وتُدبَغ ويُتَّخذ منها ملابس للدِّفء والزّينة. المرجع نفسه، ص٤٧٠ و٤٨٢.

(٧) خَلَعَ عليه ثوبه: أعطاه إيّاه. المرجع نفسه، ص٢٠٨.

(٨) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢١٣.

صحف للتّرويج لسياسة ملِك، وللحَطّ من شأن خصمِه ومنافِسيه، وللرَّدِّ على الشُّعراء المعارِضين. وكان الملوك يُحسنون إلى مَن أجاد منهم، ويُعَدُّ ذلك الإحسان من العوامل المشجِّعة على نَظْمِ الشِّعر.

وكان ملوك الحيرة رُوّاداً في هذا المجال، ويليهم ملوك الغساسنة في عصرهم، حيث أضْحوا كعبةَ (قِبْلَةَ) الشِّعر والشُّعراء، يقصِدهم الشُّعراء لإنشاد أشعارهم أمامهم، ويقفون على أبوابهم ساعاتٍ وأيّاماً ليَسمح لهم «الحاجِب» بالدّخول على الملِك. وكان الملوك قد اتّخذوا أيّاماً يُسمح فيها للشُّعراء بالتّباري في إنشاد أشعارهم أمامهم، وعَرْضِ ما عندهم من بضاعة نفيسة في الشِّعر ليراها الشُّعراء المجتمِعون عندهم. وبذلك كان ملوك الحيرة وملوك الغساسنة قُدْوَةً لملوك بني أُمَيَّةَ وبني العبّاس في تَبَنّيهِمُ الشِّعر والشُّعراء[1].

غير أنّ السّبب في اهتمام أهل الحيرة بالشُّعراء أكثر من اهتمام الغساسنة بهم، يعود إلى أنّ الغساسنة كانوا قد تأثّروا بالحياة الحَضَرِيَّة أكثر من ملوك الحيرة، وتَشَرَّبوا بالثّقافة البيزنطيَّة، فعاشوا في أماكن قريبة من دمشق بين الحَضَر، وبَنوا القصور الكبيرة في القرى التّابعة لهم، وهي مواضع خصبة، وقد أثَّثوها على الطّريقة الرّوميَّة، وكانوا يَسمَعون الغناء الرّوميّ. كما كانت مصالحهم مع الأعراب وبجزيرة العرب غير ذات بال، ربّما لبُعْدِ المسافة، فلم يَحفَلوا بالشُّعراء الوافدين عليهم احتفال ملوك الحيرة بهم، ولم يُغدقوا إغداق المناذرة عليهم، فصار عدد الشُّعراء الوافدين عليهم قليلاً إذا قيس بعدد مَن كان يذهب منهم إلى قصور الحيرة، كما يظهر ذلك جليّاً من كتب الأخبار والأدب التي تحدَّثَت عن الشُّعراء الجاهليّين. ولعلّ هذا كان في جملة العوامل التي جعلت العراق يتقدّم على الشّام في رواية الشِّعر الجاهليّ وفي نَشره، فلم تشتهر دمشق، ولا غيرها من مدن بلاد الشّام، بما قامت به مدن العراق من جَمْعِ الشِّعر الجاهليّ على الرّغم من تحمُّس الأُمَويّينَ وكَلَفِهِمْ[2] في جمْعِهِ وتدوينه[3].

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج١٦، ص٢٨١.

(٢) الكَلَف: الوَلَع. المعجم الوجيز، م. س، ص٥٣٩.

(٣) د. جواد عليّ، م. س، ج١٧، ص٢٩٢.

ولعلّ من أهمّ ميزات الشّعر الجاهليّ في تلك الفترة أنّه شِعْرٌ بدويٌّ ظهر وترعرع بين الأعراب وفي البوادي، وكان أبطاله ورجاله يراجعون الإمارتَين الصّغيرتَين: إمارة المناذرة وإمارة الغساسنة. وظهر هذا الشّعر ونَما في قصور الخلفاء والولاة والحكّام، وهي كثيرة وفيها البذخ والمال والتّرف والنّعيم، ومن الطّبيعيّ أن تترك الحياة المُترَفة ونعيمها أثراً على مشاعر الشّاعر، فتجعل شِعره يختلف في معانيه وفي شعوره عن معاني وشعور الشِّعر الجاهليّ عموماً، وإن حاول الشُّعراء جَهدهم المحافظة على القوالب الجاهليّة للشّعر، والتّمسّك بجَزالَةِ[1] ذلك الشّعر[2].

شعراء في بلاط الغساسنة

خَلَّدَ ذِكْرَ أمراء الغساسنة في الأدب العربيّ شاعران، هما: النّابغة الذُّبيانيّ الذي جاءهم بعد خِصامه مع ملوك الحيرة، وحسّان بن ثابت الذي يَرجع نَسبه إليهم، وقد نزل بلاطهم قبل الإسلام وحَظِيَ بإنعاماتهم، ووَصَفَ نعيمهم وتَرفَهم، حتّى بعد أن خبا نجمُهم، وذَكَرَ أنّ نفوذهم كان لا يزال يمتدّ في أيّامه بين حوران وبين خليج العقبة[3].

ولمّا كان لهذان الشّاعران أهميّة عند الغساسنة، فسيتمّ الكلام عنهما فيما يلي بشيء من التّفصيل بإذن الله تعالى:

١ ـ النّابغة الذُّبيانيّ:

هو «أبو أُمامَة زياد بن معاوية الذُّبيانيّ» الملقّب بـ «النّابغة»، الذي شدّ رِحالَهُ إلى بلاط الغساسنة سنة ٥٨٧م، ووَفَدَ على عَمْرو بن الحارث السّادس الأصغر، ومدحه بقصائد عديدة، منها «بائيّتُهُ» المشهورة التي مَطْلَعُها:

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصِبٌ ... ولَيْلٍ أُقاسيهِ بَطيءُ الكَواكِبِ
عَلَيَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ ... لِوالِدِهِ لَيْسَتْ بِذاتِ عَقارِبِ[4]

ويبدو أنّ النّابغة الذّبيانيّ قد تردّد إلى بلاط الغساسنة عدّة مرّات، ويُروى

(١) الجَزْلُ من الكلام: القويّ الفصيح الجامع. المعجم الوجيز، م. س، ص١٠٤.
(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج١٧، ص٣٧٠.
(٣) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٦٢.
(٤) منير الذّيب، م. س، ص٦٥.

أنّه تَغَزَّلَ[1] بالمُتَجَرِّدَة[2] زوج الملك النّعمان بن المنذر ملك الحيرة، وما كان من غضب الملك عليه وتهديده له بالقتل، ممّا اضطرّه للهرب إلى الغساسنة أعداء النّعمان[3]. وقيل: إنّ النّابغة وصف زوج النّعمان المُتَجَرِّدَة وصفاً استقصى فيه أعضاءها، فغار منه «المنخل اليَشْكُرِيُّ»[4] وكان يهواها، فوسوس إلى الأمير أنّ هذا الوصف لا يقوله إلّا مَن جَرَّب، فغضب النّعمان، وعَلِمَ النّابغة فهرب إلى الغساسنة.

ولعلّ من أسباب النّفور بين ملك الحيرة والنّابغة الذُّبيانيّ أيضاً هو تلك الوسوسات التي عمِل بها وُشاةٌ أوقعوا بينه وبين النّعمان بن المنذر، ولم تكن هذه الوشاية إلّا بسبب وفوده على الغساسنة أعداء النّعمان وما صاغه من

(١) إنّ الطّابَعَ العامَّ في الغَزَلِ الجاهليِّ البراءة والعفّة وانتقاء الألفاظ المؤدَّبة، وقَلَّما يوجد في الشّعر الجاهليّ إقذاعٌ وفُحش. فالشّاعر متأدّب في شِعره، يَعرف حدوده في الغَزَل فلا يتجاوَزُها؛ لأنّه يعلم حقّاً أنه إذا ذَكر الفُحش في شِعره وتعرّض لامرأة معيّنة فأصابها بسوءِ قَوْلٍ فإنّها لن تسكت عنه، وإذا سكتت هي فلن يُفلت من عقاب أُسرتها، وقد يكون ذلك العقاب القتل. د. جواد عليّ، م. س، ج٨، ص٢٢٢.
(٢) المُتَجَرِّدَة: رُوي أنّها سُمِّيَتِ «المُتَجَرِّدَة» لفرط جمالها، وقيل: إنّها ابنة خالد بن جعفر بن كلاب، وقيل: بل كانت امرأة من بقايا «جُرْهُمْ» وهو الصحيح. وكانت تحت رجل جُرْهُمِيٍّ من قومها يقال له «جلم بن الضّهياء» أو «الضّحياء» نزل بها على النّعمان جاراً، فرآها النّعمان فهَوِيَها، وغلب عليه حبّها، فلم يدر كيف يحتال على زوجها في أمرها. فقال له يوماً: إنّ ها هنا عَيْراً (حماراً وحشيّاً) يأتي قيعانَه (السُّهول)، فيُفسد مجالسنا بظَهر (خارج) الحيرة، فلو ركبتَ فَرسي «اليحموم» فطردتَه رجوتُ أن تصرَعه. وكان «اليحموم» قلّ ما استحضَره أحدٌ إلّا صرّعه، وإنّما أراد بذلك قتله، فحمله عليه وأعطاه حربة، فخرج يطرُد العير، فجَمَحَ به الفَرس (خرج عن سيطرته)، فأحسّ بما أُريد به، فألقى الحربة وأمسك عِنانَ (لِجامَ) الفَرس وناصِيَتَهُ (مقدِّمة رأسه) بيديه جميعاً، وعاد وهو يقول:

نَحْنُ بِفَرَسي الوُدِّيِّ أعْلَمُ ... مِنّا بِرَكْضِ الجِيادِ في السُّلَفِ
أدْرَكَني بَعْدَ ما دَنا فَرَسي ... لِلصَّيْدِ أنّا مِنْ مَعْشَرٍ عُنُفِ
واخْتَلَطَ السَّوْطُ بِالعِنانِ وأمْسَكْـ ... ـتُ بِكِلْتا يَدَيَّ بِالعُرْفِ

ثمّ قال للنّعمان: أيّها الملِك، إنّا أصحابُ زرعٍ ونخل، ولسنا بأصحاب صيد. فلم يجد النّعمان عن المتجرِّدة صبراً، فجعل يدعو جلماً، ويناديمه ويسقيه حتّى يسكر، ويضع عليه مَن يخدَعه عن المتجرِّدة ليطلِّقَها، فلم يزل كذلك حتّى ظفر منه ببعض القول، فتزوّجها وافْتُتِنَ بها. أبو البقاء هِبة الله محمّد بن نما الحِلِّيّ، م. س، ج١، ص١٤٧ ـ ١٤٨.
(٣) د. جواد عليّ، م. س، ج٨، ص٢٢٢.
(٤) المنخل اليَشْكُرِيّ: من قدماء الشّعراء الجاهليّين. المصدر نفسه، ج٥، ص٢٤٧.

المديح فيهم، وقد كان يهمُّ النّعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بين الغساسنة وبين ذُبْيانَ وقبائل نَجْدٍ الغربيّة، ولهذا فلم يكن ذنب النّابغة عند النّعمان ذنباً شخصيّاً، وإنّما كان ذنباً سياسيّاً[1].

ومكث النّابغة في بلاط الغساسنة غير أنّه أراد العودة إلى الحيرة، فراح يطلب الصّفح والعفو من ملك الحيرة النّعمان بن المنذر، وأبدى له اعتذاره وقال:

أتاني أبَيْتَ اللَّعْنَ أنَّكَ لُمْتَني ... وتِلْكَ التي تَسْتَكُّ مِنْها المَسامِعُ

ولعل عدم الإغداق الكافي على النّابغة في بلاط الغساسنة هو الذي حمله على ألّا يمكث عند الغساسنة طويلاً، فحمَل حِمْلَهُ وعاد إلى الحيرة معتذراً إلى النّعمان عمّا بدر منه من خطأ، رامياً سبب ما وقع بينهما من قطيعة إلى عمَل الوُشاة الحُسّاد[2].

الموقف السّياسيّ للنّابغة الذُّبيانيّ:

لعب النّابغة الذُّبيانيّ دوراً سياسيّاً مُهِمّاً بين قبيلته وبين الغساسنة لصلته القويّة بملوك الغساسنة، إذ يبدو مرّة مُدافعاً عن قبيلته في بلاط الغساسنة ومُثَبِّطاً هِمَمَهُمْ عن غزو قومه ردّاً على غارات ذُبيان عليهم، ومرّة أخرى يُحَذِّرُ قومه من المخاطرة بمناوشة الغساسنة لأنّ ذلك خطر عليهم.

وحدث مرّة حادثٌ اضطرّه إلى مغادرة بلاط المناذرة والتّوجّه إلى بلاط الغساسنة، إذ أوقَع الغساسنة بذُبيان وأحلافِهم من بني أسد وقعةً مُنكَرةً على إثْرِ تَعَدّيهِمْ على وادي «أُقُرٍ» الخصيب، وكانوا قد حَموهُ ومنعوا أن ترتاده القبائل، وارتادَتْه ذُبيان وأسد، فنَكَّلوا بهما تنكيلاً فظيعاً، وسَبوا كثيراً منهما ومن نسائهما. فألِمَ النّابغة ألَماً شديداً صَوَّرَهُ في قصيدته التي قال فيها[3]:

(١) أحمد شوقي، م. س، ص٢٧٢.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج١٧، ص٢٩٢.

(٣) التَّرَبُّع: الإقامة في الرّبيع. أصقار: حين يصقُر (يتجمّع فلا يتبخَّر) الماء ويترَبَّل (ينمو) الشّجر، ويبرُد الماء، وذلك آخر الصيف. الرَّبْرَب: القطيع من البقر، شَبَّهَ النّساء به. حوراً: واضِحات البياض. العضاريط: الأتباع. الأقتاب: عيدان الرَّحْل. الأشفار: جمع شَفْر: هَدْبُ العَيْن. حِصْنٌ وابن سَيّار: عظيمَيِ القوم. اللِّصاب: جمع لَصَب، وهو الشِّعب في =

لَقَدْ نَهَيْتُ بَني ذُبْيانَ عَنْ أُقُرٍ ... وعَنْ تَرَبُّعِهِمْ في كُلِّ أصْقارِ

وقُلْتُ: يا قَوْمِ إنَّ اللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ ... عَلى بَراثِنِهِ لِلْوَثْبَةِ الضّاري

لا أعْرِفَنَّ رَبْرَباً حوراً مَدامِعُها[1] ... كَأنَّ أبْكارَها نِعاجُ دُوّارِ

يَنْظُرْنَ شَزْراً إلى مَنْ جاءَ عَنْ عُرُضٍ ... بِأوْجُهٍ مُنْكِراتِ الرِّقِّ أحْرارِ

خَلْفَ العَضاريطِ لا يُوقَيْنَ فاحِشَةً ... مُسْتَمْسِكاتٍ بأقْتابٍ وأكْوارِ

يُذْرِينَ دَمْعاً على الأشْفارِ مُنْحَدِراً ... يَأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وَابْنِ سَيّارِ

أمّا عُصيتُ فَإنّي غَيْرُ مُنْفَلِتٍ ... مِنّي اللِّصابُ فَجَنْبا حَرَّةِ النّارِ

أو أضَعُ البَيْتَ في سَوْداءَ مُظْلِمَةٍ ... تُقَيِّدُ العيرَ لا يَسْري بِها السّاري

تُدافِعُ النّاسَ عَنّا حينَ نَرْكَبُها ... مِنَ المَظالِمِ تُدْعى أُمَّ صَبّارِ

ساقَ الرُّفَيْداتِ مِنْ جَوْشٍ ومِنْ عَظمٍ ... وماشٍ مِنْ رَهْطِ رِبْعِيٍّ وحَجّارِ[2]

قَرْمى قُضاعَةَ حَلّاً حَوْلَ حُجْرَتِهِ ... مَدّاً عَلَيْهِ بِسُلافٍ وأنْفارِ

حَتّى اسْتَقَلَّ بِجَمْعٍ لا كَفاءَ لَهُ ... يَنْفي الوُحوشَ عَنِ الصَّحْراءِ جَرّارِ

لا يَخْفِضُ الرَّزَّ عَنْ أرْضٍ ألَمَّ بِها ... ولا يَضِلُّ عَلى مِصْباحِهِ السّاري[3]

= الجبل. جَنْبا حَرَّةِ النّار: ناحِيَتا حَرَّةِ النّار، وهي لِبَني مُرَّة فلا تصل إليه الخيل. سوداء مظلمة: حَرَّةٌ لا سبيل أن يطأها الجيش؛ لأنّ البَعير لا يقدر على المشي فيها. الرُّفَيْدات: بنو رُفَيْدَةَ من كلب. جَوْش: أرضٌ لِبَني القَيْن. رِبْعِيٌّ وحَجّار: رجلان من قُضاعة. الرَّزّ: الصّوت. د. عمر شرف الدّين، م. س، ص١٥١.

(١) يقف النّابغة في وجه قومه بصدد هزِّ مشاعِرهم للإحجام عن مناوشة الغساسنة التي قد تؤدي إلى الاسترقاق، وخاصّة استرقاق النّساء، ففي استرقاقِهنّ انتهاكٌ للحُرُمات وتلطيخٌ للشَّرف، نتيجة عدم الإصغاء إلى نُصحه. د. عمر شرف الدّين، م. س، ص١٥٢.

(٢) إنّ النّابغة، في معرض الشِّعر الذي يتوجّه به إلى غسّان، يُمَجِّدُ القوّة الحربيّة لملِك غسّان وبطولاته وانتصاراته. لقد قاد الملِك جيشاً كثيفاً تَجَمَّعَ له من قبائل عدّة تآزَرَت على نصرة الملِك وأسلَمَت له القيادة، ثِقَةً منها بالنّصر الذي يحالفه في حملاته وغاراته. واللّافت للنّظر هو عَدُّهُ للقبائل وذِكرها بأسمائها، بل إنّه لَيَمْهَرُ كلَّ قبيلة بصِفتها، ومن أيِّ الأماكن المتباعِدة أقدَمَت «ساق الرُّفَيْداتِ من جَوْشٍ ومن عَظْمٍ». المصدر نفسه، ص١٥٣.

(٣) ممّا هو معروف لقارئ الشِّعر الجاهليّ أنّ أكثر الصُّوَرِ «النّصرانيّة» تَرداداً في هذا الشِّعر هي صورة الرّاهب المُتَبَتِّلِ وصورة مصباحِه في جوف اللّيل. المصدر نفسه، ص١٥٤.

وعَيَّرْتَني بَنو ذُبيانَ خَشيَتَهُ … وهَلْ عَلَيَّ بأنْ أخْشاكَ مِنْ عارِ[1]

وواضح أنّه يُصَوِّرُ نساء ذُبيان وقد أُسِرْن، وهُنَّ يذرفن الدّموع ويتلفّتن يميناً وشمالاً، لعلّ بَطَلَيْ قومِهما «حِصْنُ بن عُيَيْنَة» و«زَبانُ بن سَيّار»[2] يَقْدِمانِ بالجيوش، فيخلّصانِهِنَّ من ذلك الأسْرِ والعار، وفي بعض الرّوايات أنّه كان بينهنّ إحدى بناته.

وعَرَضَ لِما صنعت جيوش الغساسنة ببني أسد، فقال في قصيدة أخرى مُصَوِّراً ما أصابهم من الجَهد والبلاء:

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ طَريدٍ غَيْرِ مُنفَلِتٍ … وَموثَقٍ في حِبالِ القِدِّ مَسْلوبِ
أَو حُرَّةٍ كَمَهاةِ الرَّمْلِ قَدْ كُبِّلَتْ … فَوْقَ المَعاصِمِ مِنْها وَالعَراقيبِ[3]

ولم يجد النّابغة بُدّاً من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم، حتّى يكفّوا عن قومه ويَرُدّوا الحرِّيَّة إلى مَن سَبَوْهُ منهم، فنزل بـ «عَمْرِو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة»، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النّعمان. فأكْبَرا سِفارته لديهما فعَفَوا عمّن أَسَراه، وكان جزاؤهما من النّابغة مديحه الرّائع لهما، وظلّ عندهما يُبالغان في إكرامه ويبالغ في مديحهما محاولاً بكلّ ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم.

وكانت «يَرْبوع»، عشيرة النّابغة، تنزل أحياناً في «بني ضَنَّةَ»[4] العُذْرِيّينَ» وعشائرها مثل «بني حُنّ»، فتُوَسِّعُ لهم في ديارها ومراعيها. وحَدَّثَتِ النّعمان نفسه بغزوهم، فتعرَّض له النّابغة يخوّفه مَنْعَتَهُمْ ومَنْعَةَ ديارهم، ولمّا رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تُعين بني حُنّ، فأعانَتها ومُنِيَتْ جيوش الغساسنة بالهزيمة، وفي ذلك يقول:

لَقَدْ قُلْتُ لِلنُّعْمانِ يَوْمَ لَقيتُهُ … يُريدُ بَني حُنٍّ بِبُرْقَةِ صادِرِ

(١) د. عمر شرف الدين، م. س، ص١٥٠ ـ ١٥٢.
(٢) زَبانُ بن سَيّار الفزاري: توفي نحو (١٠ ق هـ/٦١٣م)، شاعر جاهلي غير قديم. من أهل المنافرات. عاش قبيل الإسلام وتزوج مليكة بنت خارجة المزنية. ومات وهي شابة، فتزوجها ابنه منظور وأسلم ففرق الإسلام بينهما. وزبان، من شعراء المفضليات والحماسة الصغرى. الزركلي، م. س، ج٣، ص٤١.
(٣) أحمد شوقي، م. س، ص٢٧٠.
(٤) بني ضَنَّة: يَعدُّهم النَّسابون بطناً من عُذْرَة. د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٢٤٦.

تَجَنَّبْ بَني حُنٍّ فَإنَّ لِقاءَهُمْ … كَريهٌ وَإنْ لَمْ تَلْقَ إلّا بِصابِرِ
عِظامُ اللُّهى أوْلادُ عُذْرَةَ إنَّهُمْ … لَهاميمُ يَسْتَلْهونَها بِالحَناجِرِ
وهُمْ مَنَعوا وادي القُرى مِنْ عَدُوِّهِمْ … بِجَمْعٍ مُبيرٍ لِعَدُوٍّ المُكاثِرِ

وعلى هذا النّحو كانت سِفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافِهم، وما زال يرعى مصالحهم عندهم حتّى تُوفّي عَمْرٌو ثمّ أخوه النّعمان، فرأى أن يعود إلى النّعمان بن المنذر، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً، إذ كان يتّخذه داعيةً له في قومه، وكان يرى في نزوله بالغساسنة ما يدفع ذُبيان إلى أن تخرج على ولائها له، فهذا شاعرها وشريفها النّابغة يَلِجُ في مديح خصومه، وكأنّه يعلن بذلك ولاءه وولاءها لهم[1].

تنوّع أشعار النّابغة مع الغساسنة:

تنوّعت أشعار النّابغة الذُّبيانيّ مع الغساسنة في أكثر من مجال، فكان ممّا قاله في المدح مادحاً شجاعتهم في الحروب:

قادَ الجِيادَ مِنَ الجَولانِ قائِظَةً … مِنْ بَيْنِ مَنْمَلَةٍ تُزْجى ومَجْنوبِ[2]

وكان ممّا قاله في الرّثاء عندما رثى المَلِكَ الغسّانيَّ النُّعمانَ الذي دفن في الجولان:

دَعاكَ الهَوى واسْتَجْهَلَتْكَ المَنازِلُ … وكَيْفَ تَصابى المَرْءُ والشَّيْبُ شامِلُ

وأضاف قائلاً:

فَآبَ مُصَلّوهُ بِعَيْنٍ جَلِيَّةٍ … وغودِرَ بِالجَولانِ حَزْمٌ ونائِلُ
سَقى قَبْراً بَيْنَ بُصرى وجاسِمٍ … بِغَيْثٍ مِنَ الوَسْمِيِّ قَطْرٌ ووابِلُ
بَكى حارِثُ الجولانِ مِنْ فَقْدِ رَبِّهِ … وحورانَ مِنْهُ خاشِعٌ مُتَضائِلُ

وممّا قاله في وداع الغساسنة عندما قفل راجعاً من بلاطهم للالتحاق بقبيلته في قصيدة مؤثّرة:

لا يُبْعِدُ اللّهُ جيراناً تَرَكْتُهُمْ … مِثْلَ المَصابيحِ تَجْلو لَيْلَةَ الظُّلَمِ
هُمُ المُلوكُ وأبْناءُ المُلوكِ لَهُمْ … فَضْلٌ عَلى النّاسِ في اللَّأْواءِ والنِّعَمِ[3]

(١) أحمد شوقي، م. س، ص٢٧١.
(٢) منير الذّيب، م. س، ص٦٨.
(٣) المصدر نفسه، ص٦٥ ـ ٦٦.

الشِّعر الدِّينيّ:

قال النّابغة في معرِض مدحه الغساسنة النّصارى وعبادتهم وتكريمهم للسّيِّد المسيح ﷺ:

مَجلَّتُهُمْ ذاتَ الإلَهِ ودينُهُمْ   قويمٌ فما يَرْجونَ غَيْرَ العَواقِبِ[1]

كما وصف أجسادهم بالعفّة والطّهارة:

يَصونونَ أجْساداً قَديماً نَعيمُها   بِخالِصَةِ الأرْدانِ خُضْرِ المَناكِبِ[2]

كما ذكر في أشعاره الدّينيّة «عيد الشّعانينِ (السَّباسِب)»[3] الذي كانوا يحتفلون به، مشيراً إلى عفّتهم وطهارتهم بقوله:

رِقاقُ النِّعالِ طيبٌ حُجُزاتُهُم   يُحَيّونَ بِالرّيحانِ يَوْمَ السَّباسِبِ

تُحَيّيهِمْ بيضُ الوَلائِدِ بَيْنَهُم   وأكْسِيَةُ الأضْريجِ فَوْقَ المَشاجِبِ

وهذه العادة موجودة لدى العرب النّصارى في شبه الجزيرة العربيّة واليمن والعراق، وكانت قبائل مشهورة على تلك العادة، منهم آل جفنة في الشّام، وربيعة في الجزيرة، والعُبّاديّونَ في العراق، وبنو الحارث في اليمن والحجاز، وأهل نَجْران[4].

٢ ـ حسّان بن ثابت:

يأتي في الأهمّيّة من الشّعراء عند الغساسنة بعد النّابغة الذُّبْيانيِّ الشّاعر حسّان بن ثابِت، الذي كان له شأن مُهِمٌّ معهم، ويشهد لذلك ما قاله بديع

(١) ناصر الدّين الأسد، مصادر الشِّعر الجاهليّ، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ط٧، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٨م، ص٦٤.

(٢) منير الذّيب، م. س، ص٦٥.

(٣) عيد الشَّعانين: عيد السَّباسِب، وتفسيره بالعربيّة: «التّسبيح». ويعملونه في سابع أحَدٍ من صومهم (الأحد السّابق لعيد الفِصح)، وسُنَّتُهُمْ فيه أن يَخرجوا بسعف النّخيل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح ﷺ لليعفور، «وهو الحمار»، في القدس، ودخوله صِهْيَوْنَ (تلّة قرب القدس، عليها المسجد الأقصى اليوم) وهو راكب، والنّاس يُسبِّحون بين يديه، وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ومن عاداتهم فيه تزيين الكنائس. سليمان بن سالم السّحيميّ، الأعياد وأثرها على المسلمين، عمادة البحث العلميّ بالجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنوّرة، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٥٢.

(٤) منير الذّيب، م. س، ص٦٨.

الزّمان الهَمَذانِيّ في إحدى رسائله: «وما زالت جَفْنَةُ آلِ جَفْنَةَ تَدور على الضَّيف في الشّتاء والصّيف حتّى عثرَت بحسّان، فارتَهَنت ذلك اللّسان، فسَيَّرَ فيهم القصائد الحِسان»[1].

وكان حسّان في أوّل أيّامه يتنقّل في الأرض طلباً للمال والعطايا والهبات، فكان يراجع ملوك الحيرة ويعاوِد آل غسّان، وكان هواه مع الغساسنة أقوى منه مع آل لَخْم[2].

وقصد مرّة الدّخول على ملك الغساسنة «عَمْرو بن الحارث»، فاعْتاص الوصول إليه، فلمّا طال انتظاره قال للحاجب: «إن أذِنْتَ لي عليه، وإلّا هجوتُ اليمن كلّها، ثمّ انقلبتُ عنكم». فأذِن له ودخل عليه، فوجد عنده «النّابغة» وهو جالس عن يمينه، و«عَلْقَمَة بن عَبْدَة» وهو جالس عن يساره، فقال له عَمْرو: «يا ابن الفريعة[3]، قد عرفتُ عَيْصَكَ[4] ونَسَبَكَ في غسّان فارجِع، فإنّي باعثٌ إليك بصِلَةٍ سَنِيَّة[5]، ولا أحتاج إلى الشّعر، فإنّي أخاف عليك هذين السَّبُعَيْن: النّابغة وعلقمة، أن يفضحاك، وفضيحتك فضيحتي». ثمّ تلا عليه شِعراً ممّا قاله الشّاعران في مدحه. فأبى إلّا أن يقول شِعراً فيه، وطلب من الشّاعرَين أن يسمحا له بالقول، فقال فيه قصيدة مطلعها:

أسَألْتَ رَسْمَ الدّارِ أمْ لَمْ تَسْألِ   بَيْنَ الجَوابي فَالبَضيعِ فَحَوْمَلِ[6]

فَالمَرْجُ مَرْجُ الصَّفَرَيْنِ فَجاسِمٌ   فَدِيارُ سَلْمى دَرْساً لَمْ تَحْلُلِ

دَمَنٌ تَعْقِبُها الرِّياحُ دَوارِسُ   والمُدْجَناتُ مِنَ السِّماكِ الأعْزَلِ

(١) الثَّعالِبيّ، يتيمة الدّهر في محاسِن أهل العصر، تحقيق د. مفيد محمّد قمحيّة، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج٤، ص٣٢٤.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج١٨، ص٢٩٧.

(٣) الفريعة: والدة حسّان بن ثابت. واسمها الفريعة بنت خالد بن خُنَيْس. ابن عبد البَرّ، م. س، ج١، ص٣٤١.

(٤) العيص: الأصل. مرتضى الزَّبيدي، م. س، ج١٨، ص٥٣.

(٥) صِلَةٌ سَنِيَّة: عَطِيَّةٍ رفيعة (عظيمة الشّأن). المعجم الوجيز، م. س، ص٦٧١ و٣٢٥.

(٦) أورد في هذه القصيدة أسماء مواضع، منها: «الجوابي»؛ أي: «جابية الجولان»، و«البضيع» أو «البصيع»، وهو جبل قصير أسود على تلٍّ بأرض «البلسة» فيما بين «سيل» و«ذات الصّنمين» و«حومل» و«مرج الصّفرَين»، وهو موضع بغوطة دمشق، و«جاسم»، وهي قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ على يمين الطّريق إلى طبريّة. د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٢٦.

وتابع قصيدته ليتذكّر أيّامه الجميلة مع الغساسنة يوم كانوا في أرض جِلّق:

لِلَّهِ دَرُّ عِصابَةٍ نادَمْتُهُمْ   يَوْماً بِجِلِّقَ في الزَّمانِ الأوَّلِ
الضّارِبونَ الكَبْشَ يَبْرُقُ رَأْسُهُ   ضَرْباً يَطيحُ لَهُ بَنانُ المِفْصَلِ
والخالِطونَ فَقيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ   والمُنْعِمونَ عَلى الضَّعيفِ المُرَمَّلِ
أوْلادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أبيهِمْ   قَبْرُ ابْنُ مارِيَةَ الكَريمِ المُفْضِلِ
يُغْشَوْنَ حتّى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ   لا يَسْألونَ عن السَّوادِ المُقْبِلِ
يَسْقونَ مِنْ وَرْدِ البَريصِ عَلَيْهِمْ   بَرَدى يُصَفِّقُ بِالرَّحيقِ السَّلْسَلِ
بيضُ الوُجوهُ كَريمَةٌ أحْسابُهُمْ   شُمُّ الأُنوفِ مِنَ الطِّرازِ الأوَّلِ[1]

وقال في مدح ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم:

لِمَنِ الدّارُ أقْفَرَتْ بِمَعانِ   بيْنَ أعْلى اليَرْموكِ فَالخمانِ
فَالقُرَيّاتِ مِنْ بلاس فَدارَيّا   فَكِساءُ فالقُصورِ الدّواني
فَقَفا جاسِمٍ فَأوْدِيَةِ الصّفرف   عنا قنا بل وهجان[2]

وتكلَّم حسّان بن ثابت عن الغساسنة في عدّة مناسبات، ومن ذلك:

١ ـ وَصْفُهُ استعدادهم لعيد الفصح بقوله:

قَدْ دَنا الفُصْحُ فَالوَلائِدُ   يَنْظُمْنَ عُقوداً أكَلَةَ المُرْجانِ
يَجْتَنينَ الجادي في نَقْطِ   الرَّيْطِ عَلَيْها مَجاسِدُ الكِتّانِ
لَمْ يُعَلَّلْنَ بِالمَغافِرِ والصِّمْغِ   ولا نَقْفَ حَنْظَلِ الشِّرْيانِ[3]

٢ ـ وَصْفُهُ ضَعْفَ مُلْكِهِمْ عند مقتل أحد أمرائهم على يد ملك الفرس كسرى «خُسرَو الثّاني أبرويز». ويُستدلّ من قرائن الأحوال، ومن الرّواية الواردة في عنوان القصيدة، أنّ الأمير المقتول هو من أمراء بني غسّان. ومع أنّ هذه الحادثة لم تقع من زمن بعيد، فإنّ حسّاناً تكلّم عن سلطة الغساسنة كأنّها قد تهدّمت وانقضى أجَلُها.

دِيارُ مُلوكٍ قَدْ أراهُمْ بِغِبْطَةِ   زَمانَ عَمودِ المُلْكِ لَمْ يَتَهَدَّمِ[4]

٣ ـ وَصْفُهُ مجالسهم؛ كوَصْفِهِ مجلس جبلة بن الأيهم الذي قال فيه:

(١) منير الذّيب، م. س، ص٦١ ـ ٦٢.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢١١.
(٣) منير الذّيب، م. س، ص٦٨.
(٤) ثيودور نولدكة، م. س، ص٤٦.

إنْ كُنْتِ سائِلَةً والحَقَّ مُغْضِبَةً   فَالأزْدُ نِسْبَتُنا والماءُ غَسّانُ
شُمُّ الأُنوفِ لَهُمْ مَجْدٌ ومَكْرُمَةٌ   كانَتْ لَهُمْ كالجِبالِ الطّورِ أرْكانُ

وقال في جبلة بن الأيهم لمّا أرسل له خمسمائة دينار من ديار الرّوم:

إنَّ ابْنَ جَفْنَةَ مِنْ بَقِيَّةِ مَعْشَرٍ   لَمْ يُغَذِّهِمْ آباؤهُمْ بِاللَّوْمِ
لَمْ يَنْسَني بِالشّامِ إذْ هُوَ رَبُّها   كَلّا ولا مُتَنَصِّراً بِالرّومِ
يُعْطي الجَزيلَ ولا يَراهُ عِنْدَهُ   إلّا كَبَعْضِ عَطِيَّةِ المَذْمومِ[1]

٤ ـ وَصْفُهُ الفخرَ بالنَّفس عند قومه الغساسنة، ومن ذلك افتخارُه في شِعره بانتسابه إلى الغساسنة، حيث قال في قصيدة طويلة:

ألَمْ تَرَنا أوْلادَ عَمْرِو بْنِ عامِرٍ   لَنا شَرَفٌ يَعْلو عَلى كُلِّ مُرْتَقِ
رَسا في قَرارِ الأرْضِ ثُمَّ سَمَتْ لَهُ   فُروعٌ تُسامي كُلَّ نَجْمٍ مُحَلِّقِ
مُلوكٌ وأبْناءُ المُلوكِ كَأنَّنا   سَواري نُجوم طالِعاتٍ بِمَشْرِقِ
كَجَفْنَةَ والقَمْقامِ عَمْرِو بْنِ عامِرٍ   وأوْلادُ ماءِ المُزْنِ وابْنَيْ مُحَرِّقِ

٥ ـ وَصْفُهُ صفات قومه؛ كقوله في رثاء الحارث الجفنيّ:

إنّي حَلَفْتُ يَميناً غَيْرَ كاذِبَةٍ   لَوْ كانَ لِلْحارِثِ الجَفْنِيِّ أصْحابُ
مِنْ جِذْمِ غَسّانَ مُسْتَرْخي حَمائِلِهِمْ   لا يَغْبِقونَ مِنَ المِعْزى إذا آبوا
ولا يُذادونَ مُحْمَرّاً عُيونُهُمْ   إذا تَحَضَّرَ عِنْدَ الماجِدِ البابُ
كانوا إذا حَضَروا شِيبَ العَقارُ لَهُمْ   وطافَ فيهم بأكْواسٌ وأكْوابُ[2]

شعراء آخرون في بلاط الغساسنة

زار عدد من الشُّعراء بلاط الغساسنة إضافة إلى النّابغة الذّبيانيّ وحسّان بن ثابت، وكان منهم:

١ ـ **الأعْشى**: نال الأعشى بعضاً من أُعطياتِ الغساسنة للشُّعراء[3].

٢ ـ **المُتَلَمِّس**: كان المُتَلَمِّسُ من «الشُّعراء المُقِلّين»، وهم شُعَراءُ اشتهَر أمرهم وعُرِفَ ذِكرهم، إلّا أنّ معظم شِعرهم ذهب معهم، فلم يبقَ منه إلّا القليل، بحيث لا يتناسب هذا الباقي منه مع الشّهرة التي أحاطت بهم[4].

(١) منير الذّيب، م. س، ص٦٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٣.
(٣) د. جواد عليّ، م. س، ج١٧، ص٩٣.
(٤) من الشُّعراء المُقِلّينَ في الشِّعر طَرَفَةُ بن العبد، وعُبيد بن الأبرص، وعَدِيُّ بن زيد، ومن =

وممّا وصل من شِعره ذِكر قرع نواقيس الغساسنة، وفي ذلك قال:

حَنَّتْ قَلوصي بِها واللَّيْلُ مُطْرِقٌ ... بَعْدَ الهُدوءِ وشاقَتْها النّواقيسُ[1]

٣ ـ عَلْقَمَةُ الفَحْلُ التّميميّ: كان عَلْقَمَةُ من الشُّعراء المُقِلّينَ في الشِّعر أيضاً[2]، كما كان له دور مهمّ في بلاط الغساسنة، وكان ذلك يوم وفَد على الحارث ابن أبي شَمِرٍ ملك الغساسنة ليشفع في أخيه «شأس» الذي أسره الغساسنة يوم «عين أباغ»، حيث مدح الحارثَ بقصيدة كان من نتيجتها أن أطلَق له أخاه وأطلَق معه جميع أُسارى قومه من «بني تميم»[3].

وقد أنشده علقمة قائلاً:

فَلا تَحْرِمْني نائِلاً عَنْ جَنابةٍ ... فَإنّي امْرُؤٌ وَسْطَ القِبابِ غَريبُ
وأنْتَ امْرُؤٌ أفْضَتْ إلَيْكَ أمانَتي ... وقَبْلَكَ رَبَّتْني فَضِعْتُ رُبوبُ
ولَسْتَ لإنْسيٍّ ولَكِنْ لِمَلاكٍ ... تَنَزَّلَ مِنْ جَوِّ السَّماءِ يُصَوِّبُ
فَأدَّتْ بَنو كَعْبِ بْنِ عَوْفٍ رَبيبَها ... وغودِرَ في بَعْضِ الجُنودِ رَبيبُ
فَوَاللَّهِ لَوْلا فارِسُ الجونِ مِنْهُمْ ... لآبوا خَزايا والإيابُ حَبيبُ
تُقَدِّمُهُ حَتّى تَغيبَ حُجولُهُ ... وأنْتَ لِبيضِ الدّار عين ضَروبُ
مُظاهِرُ سِرْبالَيْن حَديدٌ، عَلَيْهِما ... عقيلا سيوفٍ مخذمٌ ورسوبُ
فَقاتَلْتَهُمْ حَتّى اتَّقوكَ بِكَبْشِهِمْ ... وقَدْ حانَ مِنْ شَمْسِ النَّهارِ غُروبُ
تَجودُ بِنَفْسٍ لا يُجاد بِمِثْلِها ... فَأنْتِ بِها عِنْدَ اللِّقاءِ خَصيبُ
تُخَشْخِشُ أبْدانُ الحَديدِ عَلَيْهِمْ ... كَما خَشْخَشَتْ يُبَسُ الحَصادِ جَنوبُ
وقاتَلَ مِنْ غَسّانَ أهْلُ حُفّاظِها ... وهِنْبٌ وقاسٌ جالَدَتْ وشَبيبُ
كَأنَّ رِجالَ الأوْسِ تَحْتَ لَبانِهِ ... وما جُمِعَتْ جَلٌّ مَعاً وعَتيبُ
رَغا فَوْقَهُمْ سَقَبُ السَّماءِ فَداحِضٌ ... بِشَكَّتِهِ لَمْ يُسْتَلَبْ وسَليبِ
كَأنَّهُمْ صابَتْ عَلَيْهِمْ سَحابَةٌ ... صَواعِقُها لِطَيْرِهِنَّ دَبيبُ

= المُقِلّينَ المحكمين بن جندل، وحُصَيْنُ بن الحُمام المريّ، والمتلَمِّس، والمُسَيِّبُ بن علس، ومنهم عنترة، والحارث بن حِلِّزَة، وعَمْرو بن كُلثوم، وعَمْرو بن مَعْدِ يكرب، والأسعر بن أبي حمران الجَعْفِيّ، وسُويد بن أبي كاهل، والأسود بن يَعْفُر. د. جواد عليّ، م. س، ج١٧، ص٢٤٣.

(١) منير الذّيب، م. س، ص٦٨.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج١٧، ص٢٤٣.   (٣) د. عمر شرف الدّين، م. س، ص١٤٣.

فَلَمْ تَنْجُ إلّا شَطْبَةٌ بِلِجامِها ... وإلّا طَمْرٌ كَالقَناةِ نَجيبُ
وإلّا كَمِيٌّ ذو حِفاظٍ كَأنَّهُ ... بِما ابْتَلَّ مِنْ حَدِّ الظُّبَأةِ خَضيبُ
وأنتَ أزَلْتَ الخُنْزُوانَةَ عَنْهُمْ ... بِضَرْبٍ لَهُ فَوْقَ الشُّؤونِ دَبيبُ
وأنتَ الذي آثارُهُ في عَدُوِّهِ ... مِنَ البُؤْسِ والنُّعْمى لَهُنَّ نُدوبُ
وفي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ ... فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَداكَ ذَنوبُ
وما مِثْلُهُ في النّاسِ إلّا أسيرُهُ ... مُدانٌ، ولا دانٍ لِذاكَ قَريبُ[1]

٤ ـ المُرَقَّشُ الأكْبَر[2]: تنقَّل المُرَقَّشُ الأكْبَرُ بين بلاطات كثيرة من بينها

---

(١) جَنابَة: بُعْدٌ وغُرْبَة. أفْضَتْ إليك: بَرَزَتْ نحوك وانتهت إليك. رُبوب: جمع «رَبّ»، وهو المالِك. قال الأصمعيّ: رَبيبُ بني عوف: الحارث بن أبي شَمِرٍ وقد عاد من المعركة ظافراً، أمّا الرَّبيبُ المغادر المنهزم فهو المنذر ابن ماء السّماء. فارِسُ الجون: هو الحارث الممدوح. والجون: فرسه. تُقَدِّمُه: أي في الحرب. حُجولُه: أي ما في قوائمه من بياض تغيب في الدّم حتّى يواريها. ضَروب: كثير الضَّرب. السِّرْبال: القميص، ويعني به ها هنا: الدِّرْع، ومُظاهِرٌ سِرْبالَيْن: أي لابساً واحداً على آخر. مخذم ورسوب: اسْمانِ لسَيْفَي الحارث. الكَبْش: المِلك، ويعني به المنذر ابن ماء السّماء، وقد قتله الحارث الغسّانيّ في يوم أباغ. أبْدانُ الحديد: جمع بَدَن، الدِّرع من الزَّرْد. يُبَسُ الحصاد: اليابس من الزّرع ما حان أن يُحصد. هِنْب: هو ابن أهوذ بن بهراء . . .بن قُضاعة. قاسٌ وشَبيب: ابنا دريم بن القين بن أهوذ. الأوْس: قال ابن الأنباريّ: والأوْسُ كلّهم ممّن كان من الأحياء في دين الحارث بن أبي شَمِر أي في طاعته ومُلكه. جَلّ: قبيلة من قُضاعة، عَتيب: قبيلة من جُذام. سَقَبُ السّماء: وَلَدُ النّاقة، أراد سَقَبَ ناقة صالِحِ النّبيّ عليه السلام، نَسبه إلى السّماء لأنّه كان معجزة، وضرب ثمود، قومُ صالِحٍ عليه السلام، مَثَلاً لهم. الدّاحض: الذي يَفحص الأرض برجله عند موته كالمذبوح. شَطْبَة: فَرَسٌ طويلة. الطَّمْر: المُشرف المُسْتَفِزُّ للوَثب. الظُّبَأة: جمع ظُبَة، وهي طرف السّيف وحَدُّه. الخُنْزَوانَةَ: الكِبر. من الخَنْز؛ لأنّها تُغَيِّرُ عن السَّمْتِ الصّالح. الشّؤون: جمع شأن، وهو ملتقى كلِّ عَظْمَيْنِ من عِظام الرّأس، وقيل: هي عظام الرأس وطرائِقه، وقيل: هي السّلاسل التي تَجمع بين القبائل. النُّدوب: آثار الجراح. خبطت خبطة بخير: أعطاه من غير معرفة بينهما. شَأْس: أخو علقمة. الذَّنوب: الدَّلْو، أراد حظّاً ونصيباً. وما مِثْلُهُ في النّاس إلا أسيرُه: ليس أحدٌ يُدانيهِ في عِزِّهِ إلّا أسيرُه، يريد أنّه لا يُذِلُّ أسيرَهُ ولا يُهينُه، ولكنّه يُشَرِّفُهُ ويُعِزُّه. د. عمر شرف الدين، م. س، ص١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) المُرَقَّشُ الأكْبَر: توفي نحو (٧٥ ق هـ/ ٥٥٠م) عوف (أو عمرو) بن سعد بن مالك بن ضبيعة من بني بكر بن وائل: شاعر جاهلي، من المتيمين الشجعان. عشق ابنة عم له اسمها «أسماء» وقال فيها شعراً كثيراً. وكان يحسن الكتابة. وشعره من الطبقة الأولى، ضاع أكثره. ولد باليمن، ونشأ بالعراق. واتصل مدة بالحارث أبي شمر الغساني ونادمه ومدحه. واتخذه الحارث كاتباً له. وتزوجت عشيقته أسماء برجل من بني مراد، فمرض المرقش زمناً، ثم قصدها فمات في حيها. وفي المؤرخين من يسميه عمرو بن سعد وربيعة بن سعد. وهو عمّ =

بلاط ملك الغساسنة وبلاط ملك الحيرة. وأورد في قصيدته، التي تَوجّه بها إلى ملِك الغساسنة، ذِكر أنّ قومه خُؤولَةُ هذا الملِك، مشيراً إلى ما للخُؤولة من تعظيم، فقال:

فَنَحْنُ أخْوالُكَ عَمْرَكَ والخالُ ... لَـهُ مَـعـاظِـمٌ وحُـرَم[1]

وقال في مستهلّ القصيدة:

هَلْ بِالدِّيارِ أنْ تُجيبَ صَمَمْ ... لَوْ كانَ رَسْمٌ ناطِقاً كَلَّمْ
الدّارُ قَفْرٌ والرُّسومُ كَما ... رَقَّشَ في ظَهْرِ الأديمِ قَلَمْ
دِيارُ أسْماءَ الّتي تَبَلَتْ ... قَلْبي فَعَيْني ماؤها يَسْجُمْ
أضْحَتْ خَلاءً نَبْتُها ثَئِدٌ ... نَوَّرَ فيها زَهْوُهُ فاعْتَمّ

وأضاف قائلاً:

ما ذَنْبُنا أنْ غَزا مَلِكٌ ... مِنْ آلِ جَفْنَةَ حازِمٍ مُرْغِم
مُقابِلٌ بَيْنَ العَواتِكِ ... والغُلْفِ لا نَكْسٍ ولا تَوْأم
حارَبَ واسْتَعْوى قَراضِيَةً ... لَيْسَ لَهُمْ مِمّا يُحازُ نَعَم
بيضٌ مَصاليتٌ وُجوهُهُمْ ... لَيْسَتْ مِياهُ بِحارِهِمْ بِعُمَم
فانْقَضَّ مِثْلَ الصَّقْرِ يَقْدُمُهُ ... جَيْشٌ كَغُلّانِ الشُّرَيْفِ لَهُم
إنْ يَغْضَبوا يَغْضَبْ لِذاكَ كما ... يَنْسَلُّ مِن خِرْشائِهِ الأرْقَمْ
فَنَحْنَ أخْوالُكَ عَمْرَكَ والخالُ ... لَـهُ مَـعـاظِـمٌ وحُـرَم
لَسْنا كَأقْوامٍ مَطاعِمُهُمْ ... كَسْبُ الخَنا ونَهْكَةُ المُحَرَّم
إنْ يُخْصِبوا يَعْيَوْا بِخَصْبِهِمْ ... أو يُجْدِبوا فَهُمْ بِهِ ألأم
عامٌ تَرى الطَّيْرَ دَواخِلَ في ... بُيوتِ قَوْمٍ مَعَهُمْ تَرْتَم
ويَخْرُجُ الدُّخانُ مِنْ خَلَلِ السَّتْرِ ... كَلَوْنِ الكَوْدَنِ الأصْحَم
حَتّى إذا ما الأرْضُ زَيَّنَها ... النَّبْتُ وجُنَّ رَوْضُها وأكَمّ
ذاقوا نَدامَةً فَلَوْ أكَلوا الخُطْبانَ ... لَمْ يوجَدْ لَهُ عَلْقَم
لَكِنّنا قَوْمٌ أهابَ بِنا ... في قَوْمِنا عَفافَةٌ وكَرَم[2]

= المرقش الأصغر، وهذا عم طرفة بن العبد. الزركلي، م. س، ج٥، ص٩٥.

(١) لمزيد من التفصيل انظر: د. عمر شرف الدّين، م. س، ص١٤١ ـ ١٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٤٠ ـ ١٤١.

٥ ـ **حاتِمٌ الطّائِيّ**: وفَد حاتِمٌ الطّائِيُّ على ملِك الغساسنة مستشفعاً ومتوسّطاً عنده لفكّ أسرى قومه وإطلاق سراحهم. وسبب ذلك أنّ طَيْئاً أغارت على ملِك غسّان وقتلت ابناً له، فخرج يريد طيئاً، فأصاب في «بَني عَدِيِّ بن أخْزَمَ» تسعين رجلاً وأخذهم أسرى، وأصابت مقدّمات الجند قوم حاتم، وكان حاتم غائباً. فلمّا قدِم جبل طيءٍ جعلت المرأة تأتيه بالصّبيّ من ولدها فتقول: يا حاتِم، أُسِرَ أبو هذا. فلم يلبث إلّا ليلةً حتّى سار إلى ملِك غسّان[1]، وأنشده شِعراً قال فيه:

أبى طولُ لَيْلِكَ إلّا سُهوداً ... فَما إنْ تَبَيَّنَ لِصُبْحٍ عَمودا
أبيتُ كَئيباً أُراعي النُّجومَ ... وأوجِعُ مِنْ ساعِدي الحَديدا
أرْجي فَواضِلَ ذي بَهْجَةٍ ... مِنَ النّاسِ يَجْمَعُ حَزْماً وجودا
نَمَّتْهُ أُمامَةُ والحارِثانِ ... حَتّى تَمَهَّلَ سَبْقاً جَديدا
كَسَبْقِ الجَوادِ غَداةَ الرِّها ... نِ أرْبى عَلى السِّنِّ شَأْواً مَديدا
فَأجْمَعُ فِداءً لَكَ الوالِداتِ ... لَمّا كُنْتَ فينا بِخَيْرٍ مُريدا
فَتَجْمَعُ نُعْمى عَلى حاتِمٍ ... وتَحْضُرُها مِنْ مَعَدٍّ شُهودا
أمِ الهَلْكُ أدْنى فَما أنْ عَلِمْتُ ... عَلَيَّ جُناحاً فَأخْشى الوَعيدا
فَأحْسِنْ فَلا عارٌ فيما صَنَعْتَ ... تُحْيي جُدوداً وتُبْري جُدودا

وكان حاتمٌ وهو يوجّه خطابه إلى ملِك الغساسنة العربيّ يدور في دائرة التّقاليد العربيّة، ويختار لمكوّنات صُوَرِهِ مفردات عربيّة في بيئة الغساسنة، ولا يرضى عنها بديلاً[2].

أدباء من الغساسنة

لمع عبر التّاريخ رجال ينتمون إلى الغساسنة في عالم الأدب، وربّما اشتهروا بأكثر من مجال، ومن هؤلاء:

١ ـ **جِذْعُ بن سِنانٍ الغَسّانيّ**: شهد صاحب «شرح شواهد الكشّاف»[3] على

(١) د. عمر شرف الدين، م. س، ص١٤٨. (٢) المصدر نفسه، ص١٤٨ ـ ١٥٠.

(٣) صاحب «شرح شواهد الكشّاف» هو الشيخ محمد عليان المرزوقي الشافعيّ توفي (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، فاضل مصري. ولد في كفر (علي غالي) بالشرقية، وتعلم بالأزهر، وتوفي بالقاهرة. له كتب، منها «اللؤلؤ المنظوم في مبادئ العلوم» و«مشاهد الإنصاف على شواهد =

شاعِرِيَّة جِذْعِ بن سِنانٍ الغَسّانيّ، وأكّد انتساب القصيدة الشّعريَّة التّالية إليه:

أتوا ناري فَقُلْتُ: مَنونُ أنْتُمْ؟ ... فَقالوا: الجِنُّ، قُلْتُ: عِموا صَباحا
نَزَلْتُ بِشِعْبِ وادي الجِنِّ لَمّا ... رَأَيْتُ اللّيْلَ قَدْ نَشَرَ الجَناحا
أتيتهم وللأقدار حتمٌ ... تلاقي المرء صبحاً أو رواحا
أتيتهم غريباً مستضيفاً ... رأوا قتلي إذا فعلوا جناحا
أتوني سافِرينَ فَقُلْتُ: أهْلاً ... رَأَيْتُ وجوهَهُمْ وَسْماً صَباحا
نَحَرْتُ لَهُمْ وقُلْتُ: ألا هَلُمّوا ... كُلوا مِمّا طَهَيْتُ لَكُمْ سَماحا
وحَذَّرَني أُموراً سَوْفَ تَأْتي ... أهُزُّ لَها الصَّوارِمَ والرِّماحا
وقَدْ تَأْتي إلى المَرْءِ المَنايا ... بِأبْوابِ الأمانِ سُدىً جِراحا
أثَعْلَبَةَ بْنَ عَمْرٍو لَيْسَ هَذا ... أوانُ السَّهَرِ فَاعْتَدِ السِّلاحا
ألَمْ تَعْلَمْ بِأنَّ الذُّلَّ مَوْتٌ ... يُتيحُ لِمَنْ ألَمَّ بِهِ اجْتِياحا
ولا يَبْقى نَعيمُ الدَّهْرِ إلّا ... لِقَرْمٍ ماجِدٍ صَدَقَ الكِفاحا[1]

٢ ـ الحارِثُ أبو شَمِرٍ الغَسّانيّ: اشْتُهِرَ الحارِثُ أبو شَمِرٍ الغَسّانيُّ بالأدب والذّكاء، وظهر ذلك عندما أوصى كاتبه «المُرَقَّشَ الأكبر» الشّاعر المشهور المُتَوَفّى سنة ٥٥٢م. بقوله، وفي هذا القول سِرُّ صناعة الإنشاء: «إذا نزع بك الكلام إلى ابتداء معنىً غير ما أنت فيه، فصِلْ بينه وبين ما تبتغيه من الألفاظ، فإنّك إن مَذَقْتَ (خَلَطْتَ) ألفاظك بغير ما يُحْسَنُ أن تُمْذَقَ به، نفرَت القلوب عن وعيِها[2] ومَلَّتْها الأسماع واسْتَثْقَلَتْها الرُّواة»[3].

٣ ـ السَّمَوْألُ بن عادِياء: ضُرِبَ المَثل بوفاء السَّمَوْألِ بن عادِياءَ، القائل في قصيدته الشّهيرة:

إذا المَرْءُ لَمْ يُدَنِّسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضَهُ ... فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَديهِ جَميلُ
وإنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلى النَّفْسِ ضَيْمَها ... فَلَيْسَ إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبيلُ
تُعَيِّرُنا أنّا قَليلٌ عَديدُنا ... فَقُلْتُ لَهُ: إنّ الكِرامَ قَليلُ

= الكشاف» و«خلاصة ما يرام من علم الكلام». الزركلي، م. س، ج٦، ص٣١٠.
(١) منير الذّيب، م. س، ص٧٢ ـ ٧٣.
(٢) الوَعْي: الفَهم وسلامة الإدراك. المعجم الوجيز، م. س، ص٦٧٥.
(٣) منير الذّيب، م. س، ص٧٣.

وما ضَرَّنا أنّا قَليلٌ وجارُنا ... عَزيزٌ وجارُ الأكْثَرينَ ذَليلُ[1]

٤ ـ عبدِ المُنْعِم المشهور بأبي الفَضْلِ الجلياني: وُلِدَ عبد المُنْعِمِ المشهور بأبي الفَضْلِ الجِلْيانيِّ، الطّبيب الغسّانيّ الأندلسيّ الملقَّب بـ «حكيم الزّمان»، في «وادي آش» بـ «الأندلس» سنة (٥٣١هـ/ ١١٣٧م) وتوفِّي في «دمشق» سنة (٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م)، وكان أديباً فاضلاً، وطبيباً نَطاسيّاً[2]، ونَظَمَ عشرة دواوين، ومن شِعره قوله:

كِليني لِمَتْنِ الخَيْلِ يا أُمَّ مالِكٍ ... فَما الأمْنُ إلّا في مُتونِ الصَّواهِلِ
فَبَحْرُ الوَغى لَوْلا السَّوابِحِ صادَرَتْ ... بنا لُجَّةٌ لَمْ يَحْظَ مِنْها بِساحِلِ

ومن لطيفِ نَظْمِهِ قوله:

لا بُدَّ لِلْجِسْمِ مِنْ قَوامٍ ... فَخُذْهُ مِنْ جانِبِ اعْتِدالِ
واقْرُبْ مِنَ العِزِّ في اتِّضاعٍ ... واهْرُبْ مِنَ الذُّلِّ في المَعالي[3]

٥ ـ القاضي أبو الحُسَيْنِ أحَمْدُ بن عَلِيّ الغَسّانِيِّ الأسْوانِيّ: تَوَلّى القاضي أحْمَدُ بن عَلِيٍّ النّظر، بثَغْرِ «الإسكندريّة»، في الدّواوين السّلطانيَّة، وقُتل سنة (٥٦٣هـ/ ١١٦٨م)، وله كتاب «الجنان ورياض الأذهان» الذي ذكر فيه جماعة من مشاهير الفضلاء، وكان أوْحَدَ عصره في علم الهندسة والرّياضيّات والعلوم الشَّرعيَّة والآداب الشِّعريَّة، وله ديوان شِعْرٍ جيّد فيه مَعانٍ حسنة، ومنها قوله:

إذا ما نَبَتْ بِالحُرِّ دارٌ يَوَدُّها ... ولَمْ يَرْتَحِلْ عَنْها فَلَيْسَ بِذي حَزْمِ
وهَبْهُ بِها صَبا ألَمْ يَدْرِ أنَّهُ ... سَيُزْعِجُهُ مِنْها الحِمامُ (الموت) عَلى رَغْمِ

وسافر القاضي أحمد بن عليّ إلى اليمن، ومدح جماعة من ملوكها[4].

٦ ـ أبو الحسن بن غسّان البَصْرِيّ: قدِم الشّاعر الطّبيب أبو الحسن بن غسّان البَصْرِيّ على أبي مُضَر، عامل «الأهْواز»، في جملة شعراء مدحوه، فمرض العامل في أثناء ذلك، فعالجه الغسّانيّ حتّى برئ، ولكنّه أبطأ بجوائزه للشّعراء، فكتب الغسّانيّ إليه:

هَبِ الشُّعَراءَ تُعْطيهِمْ رِقاعاً ... مُزَوَّرَةً كَلاماً مِنْ كَلامِ

(١) منير الذيب، م. س، ص٧٣ ـ ٧٤.
(٢) النَّطاسِيّ: العالِم الماهِر، والطّبيب الحاذق. المعجم الوجيز، م. س، ص٦٢١.
(٣) منير الذّيب، م. س، ص٧٤ ـ ٧٥. (٤) المصدر نفسه، ص٧٥.

فَلِمَ صِلَةُ الطَّبيبُ تَكونُ زوراً … وقَدْ أهدى الشِّفاءَ مِنَ السِّقامِ[1]

٧ ـ عبد البَرِّ بن فَرْسانَ بن إبْراهيمَ بن عبد الرَّحْمَنِ الغَسّانِيُّ الوادي آشِيِّ الأنْدَلُسِيّ[2]: كان عبد البَرِّ بن فَرْسانَ كاتباً ووزيراً في الأندلس، وله شعر بليغ، منه قوله متحمِّساً:

أَجْبنا ورُمْحي ناصِري وحُسامي … وعجزاً وعَزْمي قائِدي وإمامي
ولي مِنْكَ بَطّاشُ اليَدَيْنِ غَضَنْفَرٌ … يُحارِبُ عَنْ أشْبالِهِ ويُحامي[3]

٨ ـ كَعْبُ بن مالِكِ بن أبي كَعْب: ينتهي نَسَبُ كَعْبِ بن مالِكٍ إلى «الخَزْرَج»، و«الخَزْرَجُ» و«الأوْسُ» الذين سكنوا المدينة ينتهي نسبهم إلى«ثَعْلَبَة العَنْقاءِ ابن عَمْرِو بن عامِرِ ابن ماءِ السَّماء». وفي عامر ابن ماء السّماء يلتقي نسبهم مع قبيلة «خُزاعَةَ» التي سكنت مكّة المكرّمة، ويلتقي كذلك مع الغساسنة الذين مَلَكوا الشّام، ومع المناذرة الذين مَلَكوا الحيرة[4].

وكم من صورة أزْجَتْها شاعريّة كعبٍ تتدفّق بمفاخر الأنصار، وتحمل ما تحمل من تهديد للمشركين بالضّربات السّريعة التي يلاقونها من أولئك المحيطين برسول الله ﷺ، وهم من أصل الغساسنة (وكثيراً ما افتخر كعبٌ بهذا النّسب) وقد طالت حمائل سيوفهم، وهم ليسوا بالجبناء، ولا ممّن فقدوا التّروس والرّماح، وإنهم ليَمْشون في ظلمات غبار المعارك كما تمشي فحول الإبل البيض التي يمشي بعضها إثر بعض، أو كما تمشي بلَّلَها الرَّذاذ الذي

(١) الثَّعالِبيّ، يتيمة الدّهر في محاسِن أهل العصر، م. س، ج٣، ص٤٩٦. وانظر منير الذّيب، م. س، ص٧٦.

(٢) عبد البَرِّ بن فَرْسان الوادي آشِيِّ الأنْدَلُسِيّ: (ت٦١١هـ/ ١٢١٤م)، كاتب أندلسي، له شعر جيد. من أهل وادي آش. كان من رجالات وقته براعة وشجاعة. انتقل إلى إفريقية، فاستكتبه يحيى بن إسحاق (ابن غانية) وحضر معه حروبه. وأصابته في بعض الوقائع جراحة، فمات منها. الزركلي، م. س، ج٣، ص٢٧٣.
وادي آش: مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة كبيرة خطيرة تطرد حولها المياه والأنهار، وهي كثيرة الثمار والزيتون، والقطن بها كثير، وكان بها حمامات، ولها بابان: شرقي على النهر وغربي على خندق، وقصبتها مشرفة عليها، وعليها سور حجارة، وهو في ركنها الذي بين المغرب والقبلة. محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٩٨٠م، ص٦٠٤.

(٣) منير الذّيب، م. س، ص٧٦ ـ ٧٧.

(٤) مجلّة البحوث الإسلاميّة، م. س، ج١، ص١٠٩ ـ ١١٠.

أثارَتْه ريح الشّمال، وهم في دروع سابغة مُحكَمة، تلمع كالغدير، والقائم بها كالنّهر الأبيض. وتلك هي الصّور التي يقدّمها فيفخر بها ويهدِّد ويُرْهِب، ويثير الرّعب في قلوب المُناوِئينَ فيقول:

ولَوْ هَبَطْتُمْ بِبَطْنِ السَّيْلِ كافَحَكُمْ … ضَرْبٌ بِشاكِلَةِ البَطْحاءِ تَرْعيلُ
تَلْقاكُمْ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ … مِمّا يُعِدّونَ لِلْهَيْجا سَرابيلُ
مِنْ جِذْمِ غَسّانَ مُسْتَرْخٍ حَمائِلُهُمْ … لا جُبَناءَ ولا مِيلٌ مَعازيلُ
يَمْشونَ تَحْتَ عِماياتِ القِتالِ كَما … تَمْشي المَصاعِبَةُ الأُدْمُ المَراسيلُ
أَوْ مِثْلَ مَشْيِ أُسودِ الطَّلِّ أَلْثَقَها … يَوْمَ رَذاذٍ مِنَ الجَوْزاءِ مَشْمولُ
في كُلِّ سابِغَةٍ كَالنِّهْيِ مُحْكَمَةٍ … قِيامُها فَلْجٌ كَالسَّيْفِ بُهْلولُ[1]

(١) الشّاكِلة: الطَّرَف. التّرْعيل: الضّرب السّريع. الهَيْجاء: الحَرْب، وقُصِرَتِ الكلمة للضّرورة الشِّعريَّة. السَّرابيل: جمع سِرْبال: القميص، أو الدِّرع، أو كلُّ ما يُلبس. الجِذْم: الأصْل. الحَمائِل: عَلائِقُ السُّيوف. المِيل: جمع أمْيَل، وهو مَن لا تُرس له. والمَعازيل: مَن لا رِماح معهم. العِمايات: الظُّلُمات. المَصاعِبَة: فُحول الإبِل. الأُدُم: الإبِل البيض. المَراسيل: التي يمشي بعضها إثْرَ بعض. الطَّلّ: المطر الخفيف. ألْثَقَها: بَلَّلَها. الرّذاذ: المطر الضّعيف. الجَوْزاء: نَجْمٌ في السّماء. المَشْمول: الذي هَبَّتْ فيه ريح الشّمال. السّابغة: الدّرع. النِّهْي: النَّهْر. قِيامها: القائِمُ بها. الفَلْج: النَّهْر. البُهْلول: الأبيض. مجلّة البحوث الإسلاميّة، م .س، ج١، ص١١٩.

الفصل التاسع

الاقتصاد عند الغساسنة

تمهيد

يُعتبر الغساسنة من القبائل العربيّة التي عَرفت الحضارة بعد استقرارها في المناطق التي سيطرت عليها في بلاد الشّام.

واستقرّ الغساسنة في نواحي الجنوب الشّرقيّ من دمشق، على مقربة من الطّرف الشّماليّ لطريق النّقل المُهِمّ الذي كان يربط بين مَأْرِبَ (اليمن) في الجنوب، ودمشقَ (الشّام) في الشّمال[١].

ووصلت دولة الغساسنة إلى ذروة اتّساعها عندما كانت سلطتها تمتدّ من قرب البتراء إلى الرُّصافة شماليّ تدمر، وتشمل البلقاء والصّفا وحرّان[٢].

واهتمّ الغساسنة بمقوّمات الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، وكان جُلُّ اهتمامهم بالنّواحي التّجاريّة في هذا المجال وحِفْظ أمْنِ طرق التّجارة التي تصل بلادهم ببلدان أخرى، وفيما يلي نبذة عن كلّ منها.

١ ـ الزّراعة والرَّيّ

تُعدّ الأرض التي تَحِلُّ القبيلة بها منزلاً لها ولأبنائها حيث يَضربون بها خيامهم، فتكون الأرض مَضارِبَ لها تستوطنها وتقيم بها. ويُعتبر ما وقع خارجَ حدود نفوذ القبيلة خارجاً عن موطنها، وتُعَيَّنُ الحدود بالظّواهر الطّبيعيّة البارزة، مثل تلال أو أودية أو رمال أو ما شابه.

وتكون مواضع الماء في أرض القبيلة قِبلة أبنائها، يستقون منها ما يحتاجون إليه، وهذه المواضع هي آبارٌ أو عيونُ ماءٍ أو ما شابه. وللسّقي من هذه المواضع حقوق تتّفق عليها القبيلة فيما بينها، ويؤدي الإخلال بهذه الحقوق

(١) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥٠٦. (٢) المصدر نفسه، ص٥١٢.

إلى وقوع نزاع قد يؤدّي إلى قتال، ولا سيّما في أيّام القيظ وانحباس المطر، حيث تشتدّ الحاجة إلى الماء ويصير افتقاده سبباً لهلاك الأنفس والأموال.

والقاعدة المتّبَعة بين القبائل أنّ ماء القبيلة يُعتبر مَشاعاً لأفرادها جميعاً، أمّا المياه المحميَّة التي تُحمى للسّادة والرّؤساء، والمياه الخاصّة كالآبار التي يحفرها أصحابها، فتكون خاصّة بهم لا يجوز الاستقاء منها إلّا بإذن[١].

ولمّا استقرّ الغساسنة في بلاد الشّام كان لهم اهتمامٌ خاصٌّ بالزّراعة والرَّيّ، خاصّة أنّ الماء سبب وجود الإنسان على هذه الأرض، فأنشؤوا مشاريع رَيٍّ وزراعة في أماكن انتشارهم، خاصّة في إقليم حوران[٢].

وشجّعهم على الاهتمام بالزّراعة صلاحُ موقع بلادهم لهذا النّوع من العمل، إضافة إلى وجود أراضٍ خصبةٍ صالحة للزّراعة ضمن حدود سيطرتهم وتَوَفُّرِ العناصر المائيّة، كما استغلّوا المياه التي تتدفّق من أعلى جبال حوران في رَيِّ المزروعات، فعَمَرَتِ القرى والضِّياع التي بلغ عددها ثلاثين قرية[٣]، وقاموا ببناء قناطر المياه، وتُعتبر الحبوب أبرز إنتاجهم الزّراعي[٤].

واشتهرت مناطق بالنّخل والزّرع؛ كدومة الجندل التي كانت ضمن سلطة الغساسنة في بعض الأحيان، وكان أهلها أصحاب نخلٍ وزرعٍ يَسقون على النَّواضِح، واشتهروا بزراعة الشّعير[٥].

٢ ـ الصّناعة

اهتمّ الغساسنة بالصّناعة كما اهتموا بالزّراعة، خاصّة في حوران التي اشتهرت بعدد من الصّناعات، ولعلّ أشهرها صناعة الخمر الذي كان يُصَدَّرُ إلى الخارج، خاصة إلى مكّة المكرّمة، وذلك في العصر الجاهليّ قبل الإسلام.

كما ظهرت في حوران الصّناعات المعدنيَّة الثّمينة، وقد أُشير في كتاب «المُفَضَّلِيّاتِ»[٦] إلى أنّ أهل الجزيرة كانوا يشترون سيوفهم الفولاذيَّة من

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٣٤٢. (٢) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٦١.
(٣) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٧٢. وانظر أيضاً: أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢١٢.
(٤) توفيق بِرّو، م. س، ص١٥٠. (٥) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٤٣٧.
(٦) كتاب المُفَضَّلِيّاتِ: كتاب جمع أكبر مجموعة من شِعر العرب. وقام بجمعِها اللُّغويّ الكوفيّ =

«بُصرى» التي اشتهرت كذلك بصناعة الأجراس، وأيّد ذلك الكتابات المكتشفة في آثار القرون الثّاني والثّالث وحتّى السّادس الميلاديّة، وكذلك أكّدها الشّعر الجاهليّ. وقد اشتهرت صناعة الأجراس في بصرى عالمياً، وكانت لصُنّاعها جمعيّة خاصّة تضمُّ الحِرَفِيّينَ القائمين على هذه الصّناعة، وكان لهم مكان خاصّ في مسرح بصرى[1].

٣ ـ التجارة

المراكز التّجاريّة العربيّة المهمة

تعدّدت المراكز التّجاريّة على خطّ القوافل في العصر الجاهليّ في شبه الجزيرة العربيّة، ومن أهمّ تلك المراكز:

١ ـ مكّة المكرّمة: كانت مكّة المكرّمة مركزاً تجاريّاً مهمّاً إضافة إلى مركزها الدّينيّ. وعزّزت قبيلة «قُرَيْش»، ساكِنَةُ مكّة المكرّمة، مركزها الماليّ بكلّ قوّتها عبر استغلال مركز المدينة التّجاريّ، فنَظَّمَتِ القوافل التّجاريّة إلى أماكن عديدة، ولكنّ أهمّ هذه القوافل كانت القافلة التي تتّجه إلى اليمن، وتُسمّى «رحلة الشّتاء»، والقافلة التي تتّجه إلى الشّام، وتُسمّى «رحلة الصّيف»، عدا القوافل التي تتّجه إلى الحيرة، وقد تزايدت الرّحلات إلى اليمن مع الزّمن.

وعملت قريشٌ على حماية تجارتها من الغزو في الصّحراء بالمبالغة في نشر قداسة «البيت الحرام» من جهة، وبربط علاقاتها مع الأمم المجاورة باتّفاقات مع أمراء الغساسنة وملوك الرّوم، وملوك الحبشة، وملوك الحِمْيَرِيّينَ في اليمن، وأمراء المناذرة وملوك الفرس في العراق من جهة أخرى، وبذلك «نشأت في مكّة المكرّمة بيوت تجاريّة (وكالات) للحبشة وللرّوم، وبلغ من تغلغل التّجارة في قريش أنّه قيل: «مَن لم يكن من قريش تاجراً فليس بشيء»»[2].

٢ ـ البَتْراء: كانت البَتْراءُ عاصمة دولة تجاريّة عربيّة، وكانت في الجنوب.

= المُفَضَّلُ الضَّبِّيّ، توفّي نحو ٧٨٦م، للخليفة العبّاسيّ المهديّ. مصطفى الشكعة، م. س، ص٨٧.

(١) منير الذّيب، م. س، ص٥٩.

(٢) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٤٤٥ ـ ٤٤٦.

٣ ـ تَدْمُر: كانت تَدْمُرُ عاصمة تجاريّة عربيّة، وكانت في الشّمال.

٤ ـ بُصْرى: كانت بُصْرى عاصمة دولة الغساسنة وعاصمة إقليم حوران، وهي عاصمة تجاريّة عربيّة، وتقع بين البتراء وتدمر[1]. وقيل: إنّ رسول الله محمّد ﷺ قصدها للتّجارة مرّتين في شبابه وقابل فيها بَحيرا الرّاهب[2].

بُصرى أهمّ مركز تجاريّ للغساسنة

كانت بُصرى عاصمة الغساسنة ومركزها التّجاريّ الكبير، فضلاً عن شهرتها الدّينيّة[3].

وكانت هذه المدينة مستودَعاً لاستقبال البضائع القادمة من الخارج أو من الأرياف، وقد دلّ الشّعر الجاهليُّ على أنّ التّجارة كانت متبادلة بين مكّة المكرّمة وبصرى ودمشق، حيث كان التُّجّار يتزوّدون من أسواق بصرى بالحبوب والخمر والفواكه، والصّناعات المعدنيّة الثّمينة، والسّيوف الفولاذيّة، والمجوهرات... إلخ.

وتمحورت طرق القوافل حول بصرى، واكتسبت التّجارة المتّجهة شطر حوران أهميّة كبرى في القرنين السّادس والسّابع الميلاديّين، وكانت التّجارة الكبيرة المزدهرة عبر البادية تمرّ بين تدمر ومنطقة ما بين النّهرين (العراق)، ومع الخليج العربيّ من بصرى عن طريق دير الكهف والأزرق ووادي سرحان. وكانت اللّجان التّجاريّة تتردّد إلى نقاط العبور والمراكز الاستراتيجيّة، وتصل إلى مدينة بصرى وإلى غزّة وعلى الشّواطئ وغيرها من مدن الداخل، وكانت البضائع تصل إلى دمشق وصُورَ عبر طريق طَبَرَيّة ممّا أَوْجَبَ علاقات متينة بين الحَضَرِ والبادية.

وأضحت بصرى مكاناً مهمّاً لتَرحال القوافل التّجاريّة القادمة من الحجاز والمحمّلة بالبضائع المصدَّرة، من العطور العربيّة وزَبيبِ الطّائف وجلود ومنتجات الحجاز العديدة. وكان العرب يتزوّدون بالمنتجات السوريّة، من حِنطة وزيتِ زيتون وأسلحة... إلخ.

(١) محمد إبراهيم الفيوّمي، م. س، ص١٣٨. (٢) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٦١.

(٣) اشتهرت مدينة «بصرى» كمركز دينيّ مهمّ لدى الغساسنة بسبب «كاتدرائيّتها» التي بُنيت في عام ٥١٢م. محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥١٢.

ولأهمّيّة مواقع ومراكز التّبادل التّجاريّ في حوران، خضعت طرق حوران للمراقبة الشّديدة، كما خضعت القوافل التجاريَّة للتّفتيش الدّقيق من قبل القبائل الغسّانيَّة، بحسب الاتّفاقيّات التّجاريَّة المُبْرَمَةِ والقوانين المرعيَّة لدى دخولها إلى الولاية العربيَّة الرّومانية وبلوغها معابر التّنَقّلِ التّجاريَّة، ومن هذه القوانين أنّ الرّوم البيزنطيّين كانوا يَحظُرون تصدير المنتجات كثيرة الطّلب داخل البلاد؛ كالمجوهرات والذّهب والسّلاح والزّيوت والنّبيذ وغيرها. وقد استُخدِمت قديماً العربات ذات العجلتين للتّنَقّلِ والنَّقْلِ التّجاريّ.

ووصلت سورية الجنوبيَّة، في عهد يوستنيانوس، إلى أعلى درجة من الرُّقِيِّ والنّهضة التّجاريَّة والاقتصاديَّة والعمرانيَّة، فكانت مركز استقطابٍ تلتقي فيه النّشاطات من كلّ مدن الحجاز واليمن، ثمّ تذهب إلى البحر المتوسّط وأوروبا، ووصلت التّجارة إلى ضواحي «لِيونَ» بـ «فَرَنْسا»[١].

سوق دومة الجندل التّجاريّ

كانت توجد عند الغساسنة مراكز تجاريَّة غير مدينة بصرى، وكانت «دومة الجندل» مركزاً من تلك المراكز، وكان فيها سوقٌ يبدأ في أوّل يوم من شهر ربيع الأوّل وينتهي في النّصف منه. وكانت تسكن دومة الجندل قبل الإسلام قبائل كلب وجديلة وطيء، كما كان يتنازع السُّلْطانَ فيها «الأُكَيْدِرُ» و«قُنافَةُ الكَلْبِيُّ» الذي كان يتولّى الأمر فيها حين تكون الغلبة من نصيب الغساسنة، ممّا يدلُّ على التّنافس بين كندة وبني غسّان على الطّريق التّجاريّ، «وكانت مبايعة العرب في دومة إلقاء الحجارة، وذلك أنّه ربّما اجتمع على السِّلعة النَّفَرُ يساومون بها صاحبها، فأيُّهُمْ رَضِيَ ألقى حَجَرَه، فربّما اتَّفَقَ في السِّلعة الرّهط، فلا يجدون بُدّاً من أن يشتركوا وهم كارهون، وربّما اتّفقوا فألْقوا الحجارة جميعاً إذا كانوا عدداً على أمرٍ بينهم، فوَكَسوا[٢] صاحب السّلعة إذا طابَقوا[٣] عليه»[٤].

---

(١) منير الذّيب، م. س، ص٥٩ ـ ٦١.
(٢) الوَكْس: الغُبْن، النَّقص، الخسارة. المعجم الوجيز، م. س، ص٦٨٠.
(٣) المُطابَقَة: الموافقة، الاتّفاق على أمر ما. المرجع نفسه، ص٣٨٦.
(٤) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٤٣٧.

وقضى المسلمون على دومة الجندل عندما اقتضى الأمر ذلك، وهو ما يُعرف بغزوة دومة الجندل.

وكانت تلك الغزوة من ضمن حركة تثبيت أركان الدّولة الإسلاميَّة، وحدث ذلك عندما تحرَّكت القوّات الإسلاميَّة بقيادة رسول الله ﷺ نحو قضاعة التي كانت تنزل شمال قبائل أسد وغطفان، وفي حدود الغساسنة الموالين للدّولة الرّومية (بيزنطة) التي كان لها إشراف على سوق دومة الجندل الشّهير على بُعد ٤٥٠ كيلومتراً شمال المدينة المنوّرة (يثرب).

وكانت هذه القبيلة أوّل قبيلة احتكّ بها المسلمون، حين غزاها رسول الله ﷺ تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل في ربيع الأوّل سنة ٥هـ/أغسطس ٦٢٦م..

وكانت الأنباء، بتجمّع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل التي تمرّ بهم والتّعرُّض لِمَن فيها بالأذى والظّلم، قد وصلت إلى المدينة المنوّرة، كما وردت الأنباء بأنّهم يفكّرون في الاقتراب من المدينة لعَجْمِ عودها[١].

ولو أغفل المسلمون أمر دومة الجندل وسكتوا على وجود هذا التّجمُّع فيها، ما لامهم أحدٌ ولا ضَرَّهُمْ هذا التّجمُّع في شيء على المدى القريب؛ لأنّ دومة الجندل تُعتبر بلاداً نائية بالنّسبة للمدينة المنوّرة، فهي تقع على الحدود بين الحجاز والشّام، وفي منتصف الطّريق بين البحر الأحمر والخليج العربيّ، وهي على مسيرة ستّ عشرة ليلة من المدينة المنوّرة.

ولكنّ النّظرة السّياسيَّة البعيدة، والعقليَّة العسكريَّة الفذَّة، أوجَبت على المسلمين أن يتحرّكوا لفضّ هذا التّجمُّع والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنه[٢]. ويُقال: إنّ جبلة بن الأيهم بن جبلة الغسّانيّ، آخر ملوك الغساسنة،

---

(١) عَجْمُ العود: امتحان الأمر. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٠٨. **والمقصود هنا**: امتحان قوّة المسلمين في المدينة المنوّرة.
(٢) كان الهدف من القضاء على دومة الجندل تحقيقَ أمور عدّة، منها:
١ ـ إنّ السّكوت على هذا التّجمّع وما شاكَلَه، يؤدّي بلا شكّ إلى تطوُّره واستفحاله، ثمّ يؤدّي بعد ذلك إلى إضعاف قوّة المسلمين وإسقاط هيبتهم.

هو الذي قاتل المسلمين في دومة الجندل[1].

ارتباط طُرق التّجارة بالأمن

كانت مملكة الغساسنة، حليفة بيزنطة، بمثابة الحارس الرّئيس لطرق التّجارة، وكان البيزنطيّون قد أَوْلوا الولايات الشّرقيّة اهتماماً خاصّاً نظراً للتّهديد السّاسانيّ (الفرس) واللَّخْميّ (المناذرة).

وبرزت في القرن السّادس الميلاديّ ظاهرة السّيطرة على طُرق القوافل التّجاريّة بين الشّرق والغرب، إضافة إلى النّزاع بين الغساسنة التّابعين لبيزنطة والمناذرة التّابعين لفارس، فكان الاصطدام ضرورة سياسيّة واقتصاديّة.

وأدّت الحروب شبه المستمرّة بين الغساسنة والمناذرة إلى فقدان الأمن على الطّريق التّجاريّ الذي يربط الخليج العربيّ بصحراء بلاد الشّام عبر الفرات،

= ٢ ـ إنّ وجود مثل هذا التّجمّع في الطّريق إلى الشّام قد يؤثّر على الوضع الاقتصاديّ للمسلمين، فلو أنّ المسلمين سكتوا على هذا التّجمّع لتعرّضت قوافلهم، أو قوافل القبائل التي تحتمي بهم، للسّلب والنّهب، ممّا يُضعِف الاقتصاد ويؤدّي إلى حالة من التّذمّر والاضطراب.

٣ ـ إنّ فرض نفوذ المسلمين على المنطقة كلّها وإشعار سكّانها بأنّهم في حمايتهم وتحت مسؤوليّتهم، يؤمّنون لهم الطّرق، ويحمون لهم تجارتهم، ويحاربون كلّ إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرّضهم للخطر، يتطلّب ضرب هذا التّجمّع والقضاء عليه.

٤ ـ إنّ حرمان قريش من أيّ حليف تجاريّ قد يِمُدّها بما تحتاج إليه من التّجارة، وصرْف أنظارها عن هذه المنطقة التّجاريّة المهمّة، وظهور الدّولة الإسلاميّة بهذه القوّة، يؤثّر على نفسيّة قريش، العدوّ الأوّل للدّولة الإسلاميّة، ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها.

٥ ـ الحرص على إزالة الرّهبة النّفسيّة من الرّوم عند العرب الذين ما كانوا يحلُمون بمواجهة الرّوم، والتّأكيد عمليّاً للمسلمين بأنّ رسالتهم عالميّة وليست مقصورة على العرب فقط.

ورأى بعض المؤرّخين أنّ من أهداف تلك الغزوة إرهاب الرّوم، الذين تقع المنطقة التي وصل إليها ﷺ بجيشه على حدودهم، وعلى مسافة خمس ليالٍ من عاصمة مُلكهم الثّانية دمشق. لهذا ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج، وخرج في ألْفٍ من أصحابه، وكان يسير اللّيل ويكمُن النّهار حتّى يُخفي مسيره ولا تَشيعَ أخبارُه وتُنقل أسراره وتتعقبه عيون الأعداء. واتّخذ ﷺ له دليلاً من «بني عُذْرَةَ» يُسمى «مذكوراً»، وسار حتّى دنا من القوم وعندئذٍ تفرّقوا، ولم يَلْقَ رسول الله ﷺ منهم أحداً فقد وَلّوا مُدْبِرين، وتركوا نِعَمَهُمْ وماشيَتَهم غنيمة باردة للمسلمين. علي محمّد محمّد الصَّلاّبِيّ، السّيرة النّبويّة، عرضُ وقائعَ وتحليلُ أحداث، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ط٧، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٥٦٨ ـ ٥٦٩.

(١) الزِّرْكِلِيّ، م. س، ج٢، ص١١١ ـ ١١٢.

وفقدت المنطقة أهميّتها التّجاريّة ممّا أدّى إلى ضرورة تحويل طريق التّجارة إلى غربيّ شبه الجزيرة العربيّة، أو البحر الأحمر. لكن بيزنطة لم تيأس من احتمال تعزيز موقعها التّجاريّ باستعادة بلاد ما بين النّهرين (العراق)، كما أنّ تحويل طريق التّجارة إلى غربيّ شبه الجزيرة العربيّة أفْقَدَ الفرس عنصراً مهمّاً من قوّتهم، لذلك تطلّعوا إلى السّيطرة على بلاد الشّام ومصر، ملتقى جميع الطّرق الشّماليّة والجنوبيّة آنذاك.

وكان الحرير في ذلك الوقت قد أضحى أحد أهمّ عناصر التّجارة الشّرقيّة وأثْمَنِها، وأدّى احتكار الفرس لهذه التّجارة إلى إثارة قلق بيزنطة ورغبتها في البحث عن حلّ، لأنّها كانت تستورد الحرير وتستعمله في الصّناعة، كما كانت معظم مكاسب الفرس من هذه التّجارة تُنفق على الجيش السّاسانيّ، لذلك حاول يوستنيانوس أن يُقَلِّصَ هذه المكاسب، فخفّض أسعار الحرير، وردّ عليه الفرس بتقليص المبيعات.

لهذه الأسباب كان الصّراع بين الدّولتَين تجاريّاً في جانب مُهِمٍّ منه، وعمَدت الدّولتان إلى تقوية حلفائهما من البدو أو أنصاف البدو، واتّخاذِهما رأس حربة في هذا الصّراع، فكان الغساسنة حلفاء البيزنطيّين، والمناذرة حلفاء الفرس[1].

ولمّا كان الغساسنة هم المسيطرون على الطّريق التّجاريّ من الشّمال صوب الجنوب فقد كانوا بحاجة إلى من يساندهم في حماية الطّريق، ولذلك لا يُستبعد أن يكون السَّمَوْأَلُ بن عادِياء ممّن كانت لهم سلطة في هذه النّاحية مستمدّة من صلته بالغساسنة[2].

وبالمقابل فقد كان هناك من أراد أن يقطع الطّريق التّجاريّ بدل حمايته، مثل «عثمان بن الحُوَيْرِث»، الذي كان من أبناء مكّة المكرّمة في العصر الجاهليّ، كما كان من ذوي القرابة مع أُمّ المؤمنين السَّيِّدَةِ خديجةَ رضي الله عنها، فذهب إلى بيزنطة وتَنَصَّرَ وحَسُنَتْ مكانته عند «قيصر» ملك الرّوم. ويُقال: إنّه

---

(١) د. محمّد سهيل طقّوش، تاريخ الخلفاء الرّاشدين الفتوحات والإنجازات السّياسيّة، م. س، ص١٠٤.

(٢) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٤٣٣.

أراد أن يُخضع مكّة المكرّمة لحماية الرّوم وأن يكون عامل قيصر عليها، فطرده المَكّيّونَ فاحتمى بالغساسنة في الشّام. وأراد أن يقطع الطّريق على تجارة مكّة المكرّمة، فوَصَلَتْ إلى الغساسنة هدايا المَكّيّين، فمات ابن الحُوَيْرِثِ عندهم مسموماً[1].

أخذ إذن المرور في أراضي القبائل

كان لكلّ قبيلة حقّ حماية أرضها، شأنها في ذلك شأن الدّول، وإذا أراد غريب اجتياز أرضها فلا بد له أن يكون في حماية إنسان منها. وإذا كان المجتاز جماعة، قافلة أو قبيلة أو حَيّاً، يريدون الانتقال إلى أرض أخرى ولا بدّ لهم من المرور بأرض هذه القبيلة للوصول إلى هدفهم، فعليهم أخذ إذن من القبيلة يُخَوِّلُهُمْ جوازَ المرور بها، وإلّا تعرّضوا للمنع والقتال. لذلك كان لا بد للتُّجّار من ترضية سادات القبائل للسّماح لهم بالمرور، بدفع حقّ المرور، وهي إتاوات تعارَفت القبائل آنذاك على أخذِها من المارّة[2].

وعلى سبيل المثال، كان ملوك السّاسانيّين يُتاجِرونَ مع العرب، يَشترون منهم ويَبيعونهم، ويُرسلون القوافل بأسمائهم إلى مناطق شبه الجزيرة العربيّة الجنوبيّة لبيع ما تحمِلُه في أسواقها، ولشراء سِلَعِ المناطق العربيّة الجنوبيّة وحَمْلِها إلى أسواق العراق، وكانوا يوكِلون حراستها إلى جماعة يختارونهم من سادات القبائل المَهيبين المعروفين بِجُعْلٍ يدفعونه لهم[3].

العلاقات التّجاريّة

كانت أمور التّجارة تُعتبر جزءاً من العلاقات بين الدّول، ومن ذلك أنّ «هاشِمَ بن عبدِ مَنافَ» عَقَدَ عَقْداً مع أمراء الغساسنة ومع الرّوم، فأذِنوا له

---

(١) محمّد حسين هيكل، م. س، ص٩١.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ص٣٤٣. وانظر أيضاً: لطفي عبد الوهّاب، م. س، ص٣٥٥.

(٣) يظهر من روايات أهل الأخبار أنّ جماعة من أهل مكّة المكرّمة قد تخصّصت بالاتّجار مع العراق، وقد كان لها تَعامُلٌ مع «كسرى»، وربّما مع كبار رجال دولته أيضاً من أولئك الذين اقتدوا بملوكِهم في الاشتغال بالتّجارة وبالنّزول إلى الأسواق. فقد ذكر أهل الأخبار أنّ أناساً من كبار تجّار مكّة المكرّمة كانوا يَفِدونَ على «المدائن» ويتّصلون بديوان «كسرى»، ويتعاملون هناك بيعاً وشراءً. وكانت لهم دالّة على ملِك المدائن، وربّما كان يساعدهم هو نفسه في مال القوافل أو يجعل لهم نصيباً من الأرباح. محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٣٨٤.

ولقومه بالتّجارة مع الولاية العربيّة في بصرى ومع ولاية فلسطين في غزّة[1].

وعَرَفَتْ مكّة المكرّمة بعض النّصارى، ولعلّهم كانوا من التُّجّار، لكن المعروف أنّهم لم يكونوا مَكّيّين، كما كان المعروف كذلك أنّ الغساسنة، حلفاء بني أسد (القُرَشِيّين)، كان لهم موطئ قدم على مقربة من الكعبة (المشرّفة)[2].

ومن العلاقات الحسنة في التّجارة الغسّانيّة ما كان من علاقة اليهود معهم؛ لأنّ علاقة اليهود لم تكن سيّئة ببلاد الشّام، بل إنّها على الأرجح كانت حسنة، فكان بعض اليهود يُرسلون قوافلهم التّجاريّة إلى بلاد الغساسنة[3].

---

(١) محمد إبراهيم الفيّومي، م. س، ص٤٤٥.

(٢) د. نقولا زيادة، م. س، ص١٢٣.

(٣) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص٤٢٧.

الفَصْلُ العَاشِر

نظام الحُكم وأُبَّهَةُ المُلْك

تمهيد

يُعرف الملوك عموماً بامتيازاتهم البعيدة عن متناول بقيّة الشّعب؛ لأنّهم الحكّام على شعوبهم، ولذلك يتميّزون عنهم بأُبَّهَةِ المُلك، ومن ذلك الألقاب والتَّتْويج.

وعَرف العرب في العصر الجاهليّ ألقاب بعض القادة العسكريّين والإداريّين في الإمبراطوريَّتَين البيزنطيَّة والفارسيَّة، فأدخلوها في العربيَّة لأنّها ألقابٌ رسميَّة نُعِتَ بها أولئك الموظّفون الكبار، كما عَرفوا بعض الرُّتَب الكَنَسِيَّة كذلك. وورد في كتب السِّيَر: إنّ وفد نجران حين قدم على رسول الله ﷺ، كان يتألف من رؤساء المدينة أصحابِ الحَلِّ والعَقْد، ويُلَقَّبونَ بـ«السَّيِّد» و«العاقِب» و«الأُسْقُف». و«السَّيِّدُ» عندهم صاحبُ رِحلتهم، و«العاقِبُ» أميرُهم وصاحبُ مَشورتهم الذي يَصْدُرونَ عن رأيه، و«الأُسْقُفُ» حَبْرُهُمْ وإمامُهُمْ وصاحبُ مدارسهم[1]. ولفظة «أُسْقُفْ» من أصل يونانيّ هو Episkopos[2].

ولقد لُقِّبَتْ بعض القبائل بألقاب، فقد قيل: «مازِنُ غسّان أرباب الملوك، وحِمْيَرُ أرباب العرب، وكِنْدَةُ كِنْدَةُ الملوك، ومِذْحِجُ الطِّعان، وهَمَذانُ أحْلاسُ

(١) كتب رسول الله ﷺ إلى نجران كتاباً قال فيه: «أمّا بعد، فإنّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العِباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العِباد، فإن أبيتُم فالجزية، فإن أبيتُم آذَنْتُكُمْ بحرب، والسّلام». فلمّا أتى الأسقفَ الكتابُ جمع النّاس وقرأه عليهم وسألهم عن الرّأي فيه، فقرّروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكوّن من أربعة عشر من أشرافهم، وقيل: ستّين راكباً، منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقِب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذي يَصدُرون عن رأيه، والسَّيِّد، وهو صاحب رحلتهم، وأبو الحارث أُسقفهم وحَبرهم وصاحب مدارسهم. عليّ محمّد محمّد الصَّلّابي، م. س، ص٨٦٥.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج١٦، ص٣٥٤.

الخَيْل[1]، والأزْد أُسْدُ البَأْس»[2].

الألقاب عند الغساسنة

كان البيزنطيّون يخلَعون على ملوك الغساسنة، حلفاء الدّولة البيزنطيَّة، ألقاباً معيَّنة مكافأة لهم على شجاعتهم وخدَماتهم المتميِّزة لسادَتهم البيزنطيّين. ومن هذه الخِلَع:

١ ـ مَنْحُ الإمبراطور البيزنطيّ يوستنيانوس، في القرن السّادس الميلاديّ، ملك الغساسنة الحارث بن جبلة بن الأيهم (حوالي ٥٢٦ ـ ٥٦٩م) لقب «فيلاركوس»، أي رئيس قبيلة، وبَطريق[3]، وهو أسمى لقب في الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة بعد لقب الإمبراطور، كما عيَّنه في سنة ٥٢٩م. سيّداً على كلّ القبائل العربيَّة في سورية.

وقد كان ذلك لِما أظْهَرَهُ الحارث بن جبلة من الولاء للإمبراطور[4]، إضافة إلى انتصاره على المناذرة في معركة «قِنِّسْرِينَ» التي تُعرف بـ«يوم حليمة».

وكان الحارث بن جبلة قد لَقَّبَ نفسه بلقب «مَلِك»، وقيل: إنّه تَوَّجَ بـ«تاج» عِوَضاً عن «الإكليل» الذي سمح الرّوم به لأسلافه، حتّى لا تكون لخصومه

(١) أحْلاسُ الخَيْل: الملازِمون لظهورها أو رياضَتِها. **والمقصود هنا**: فرسان خبراء بركوب الخيل. المعجم الوجيز، م. س، ص١٦٧.

(٢) لمزيد من التّفصيل انظر: د. جواد عليّ، م. س، ج٧، ص٣٣٥ وما بعدها.

(٣) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٤١.

(٤) أدّى ملوك الغساسنة دورَهم الذي تقتضيه تبعيّة إمارتهم للإمبراطوريّة البيزنطيّة، فدافعوا عن حدود هذه الإمبراطوريّة. وكان من بين ما قاموا به في هذا المجال حرب شرسة مستطيلة قام بها الحارث بن جبلة في أواسط القرن السّادس الميلاديّ لصالح البيزنطيّين ضدّ المنذر الثّالث ملك الحيرة الذي كان بدوره يدافع عن حدود الإمبراطوريّة الفارسيّة. كذلك قام خَلَفُهُ المنذر الغسّانيّ بغارة أحرَق خلالها الحيرة عاصمة اللّخْمِيّين (المناذرة). إلّا أنّ البيزنطيّين كانوا قد بدؤوا يَشكّون في ولائه «لأسباب تتعلّق بالمذهب الدّينيّ الذي كان يعتنقه»، فأخذوه إلى القسطنطينيّة وسجنوه بعد ذلك في صِقِلِّيَة. أمّا ابنه النّعمان فقد حاول أن يُغير على بعض الأراضي التّابعة للإمبراطوريّة فاستاقوه كذلك إلى القسطنطينيّة. وبانتهاء حُكم النّعمان يَشيع في مملكة الغساسنة قَدْرٌ ظاهرٌ من التَّفَكُّكِ وعدم الاستقرار، ومن غير المستطاع التّحقّق الكامل من ظروف المملكة مُذ ذاك إلى أن تمّ فتح المنطقة في عصر الفتوح الإسلاميّة في سنة ٦٣٦م على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه في موقعة اليرموك. لطفي عبد الوهّاب، م. س، ص٣٥٠ ـ ٣٥١.

المناذرة ميّزة عليه، وربما أقرّه الإمبراطور البيزنطيّ على لقبه وتاجه حين زاره في القسطنطينيّة ليستأذِنَه في تعيين خليفته المنذر، وهذا الاحتمال اختلف المؤرّخون بشأنه[1].

٢ ـ إنْعامُ القيصر تيبيريوس على المنذر الغسّانيّ، بعد وصوله مع ابنَين له إلى القسطنطينيّة سنة ٥٨٠م. واسْتِقْباله فيها بكلّ احترام وتبجيل، بـ «التّاج»، مع أنّ الرّوم لم يكونوا يُنْعِمونَ قَبْلاً على «عمّالهم» من العرب إلّا بـ «الإكليل»[2].

ويظهر من الموارد[3] «البيزنطيّة»، ومن روايات أهل الأخبار، أنّ الملوك «الغساسنة» والملوك من «آل نصر»، أي ملوك الحيرة، لم يكونوا ملوكاً بالمعنى العلميّ الصّحيح المفهوم من الكلمة، وإنّما كانوا «عُمّالاً»، إذا كاتَبهم الرّوم أو الفرس لقَّبوهم بـ «عامِل»، إذ عيّنوهم عُمّالاً على الأعراب ولم يعيِّنوهم «ملوكاً». فلقَب «مَلِكٍ» من الألقاب الخاصّة بملوك الرّوم لم يمنحوه لغيرهم، وكذلك كان الشّأن عند الفرس[4].

والذي صَحَّ إطلاقه على أمراء الغساسنة، وثَبت وجوده في الوثائق الرسميّة، هو لقب «بَطريق Patricius»، ولقب «عامِل» أو «رئيس قبيلة Phylarcos, Phylarkos, Phylarchus» مقروناً بنَعْتٍ من النُّعوت التّابعة له أو مجرّداً منه؛ كالنّعت الذي جاء عن المنذر الذي حكم بعد الحارث بن جبلة: «فْلابْيوسُ المنذرُ البَطريق الفائِق المديح ورئيس القبيلة»، و«المنذرُ البَطريق الفائق المديح»، وما ورد عن الحارث: «الحارث البَطريق ورئيس القبيلة».

ولقب «البَطريق» من ألقاب الشّرف الفخمة عند الرّوم، ولذلك فلم يكن يُمنح إلّا لعدد قليل من الخاصّة، ولصاحبه امتيازات ومنزلة في الدّولة، حتّى أنّ بعض الملوك كانوا يُحَبِّذونَ الحصول على هذا اللّقب من القيصر، ويفضِّلونه على غيره من الألقاب.

---

(١) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٤١. وعبد العزيز صالح، م. س، ص١٥٩.

(٢) ثيودور نولدكة، م. س، ص٢٦.

(٣) المَوْرِد: المَنْهَل، الموضع الذي يُؤخذ منه المطلوب. **والمقصود هنا**: المصادر التّاريخيّة، المعجم الوجيز، م. س، ص٦٦٥ و٦٣٧.

(٤) د. جواد عليّ، م. س، ج٩، ص١٩٩.

ويلاحظ أنّ بعض كَتَبَةِ «اليونان» أطلقوا لقب «مَلِكٍ» على الأمراء العرب، مثل «ماوِيَةَ» التي لقّبوها بـ «مَلِكَة»، ولم يستعملوا كلمة «فيلاركوس» التي تعني «العامل» أو «سيّد قبيلة». والظّاهر أنّهم نهجوا في ذلك نهج الكَتَبَةِ «السُّرْيان» الذين لَقَّبوا سادات القبائل العربيّة بلقب «مَلِكٍ» على نحو ما يظهر في الشّعر العربيّ[1].

ولا ريب في أنّه كان لأمراء بني غسّان منزلة سامية جدّاً في مراتب الدّولة البيزنطيّة، كما أنّه لا ريب أيضاً في أنّ عامّة النّاس في الشّرق ما كانوا لِيُدَقِّقوا كثيراً في معنى هذه الألقاب ودرجاتها، فكانوا يُطلقون على مَن كانت له سلطة كسلطة بني غسّان، ووجاهة كَوَجاهتِهم، لقب «مَلِكٍ» وكفى[2].

نظام الحُكم

كان نظام الحُكم عند الغساسنة فرديّاً وراثيّاً، شأنه شأن نظام الحُكم عند المناذرة، وشأن نظام المُلْكِ في تدمر.

ويبدو أنّ الدّول الكبرى، التي كانت تتبعها هذه الإمارات، لم تتدخّل في هذا النّظام الوراثيّ، ولعلّ السّبب في ذلك هو أنّ هذا النّظام كان يُمَثِّلُ بالنّسبة لها شيئاً من الاستقرار الذي تَنشُده على حدودها، وحتّى حين كانت تشكّ في نوايا أو تصرّفات أحد هؤلاء الحكّام كانت تُبقي على نظام الوراثة كما هو، ولكنّها تتّخذ الإجراء الذي تراه مناسباً للمحافظة على مصالحها. ومن ذلك ما حدث حين لم ترْتَح الإمبراطوريّة البيزنطيّة إلى بعض تصرّفات المنذر الرّابع وابنه النّعمان، فأُخِذَ الأوّل سجيناً إلى القسطنطينيّة ثمّ سُجن بعد ذلك في صِقِلِّيَة، بينما اقْتيدَ الثّاني منفياً إلى القسطنطينيّة[3].

ولم يعثر المؤرّخون على نصوص تفيد بوجود قواعد يقوم عليها نظام الحكم، غير أنّه يمكن الاستنباط من بعض روايات أهل الأخبار أنّ ملوك المناذرة والغساسنة وغيرهم كانوا ملوكاً غلب على حكمهم الاستبداد بالرّأي، إذ لم يعملوا برأي أحد، ولم يأخذوا بمشورة مستشار إلّا إذا كانت المشورة

---

(١) د. جواد علي، م. س، ج٩، ص١٩٩ ـ ٢٠٠.

(٢) ثيودور نولدكة، م. س، ص١٦.

(٣) لطفي عبد الوهّاب، م. س، ص٣٦٣.

مُوافِقَةً لِهَواهم، ومن شخصٍ قريبٍ منهم، وله أثر فِعليّ عليهم.

كما يُستنبط من هذه الرّوايات أيضاً أنّ المقرَّبين من الملوك، لم يكونوا مُخلِصين لهم في تقديم النّصيحة، بل كانوا يبتغون من ورائها الحصول على منفعة وفائدة، أو ضرراً يَلحق بأعدائهم، وبالقبائلِ المعادية لقبائلهم في كثير من الأحيان. وأنّ بعض الملوك، ولا سيما المتأخِّرين منهم، كانوا قد تأثّروا بآرائهم فعَمِلوا بها، فأوْجَدَتْ لهم مشكلات خطيرة كان الملوك في غِنىً عنها لو أنّهم كَوّنوا مجالس استشاريّة، وأخذوا برأيها في تسيير أمور المملكة[1].

عقد الصُّلح

كان ملك الغساسنة هو من يقوم بعقد الصّلح مع الأطراف الخارجيَّة عندما يستدعي الأمر، ومن أمثلة ذلك حينما اضطرّ الإمبراطور البيزنطيّ في عام ٥٧٨م. إلى عقد صلح مع المنذر الغسّانيّ في مدينة الرُّصافة، وكان مؤرِّخو الرّوم يطلقون عليه «المنذر ملك العرب»[2].

من مظاهر أُبَّهَةِ المُلك

يُروى أنّ جبلة بن الأيهم عندما اعتنق الإسلام دخل المدينة المنوّرة بموكب فخم وعلى رأسه تاج أجداده الذي تزيِّنه لؤلؤتان كبيرتان بحجم بيضة الحمام، وأصبحت هاتان اللّؤلؤتان مَضرِب المَثل في الأدب العربيّ، وكانتا فيما مضى قِرطين لأُمِّ الحارث بن جبلة[3].

استقبال النّاس عند الملوك

تطبَّع الملوك الغساسنة والمناذرة بِطِباع الرّوم والفرس، وأخذوا عنهم أُبَّهَةَ المُلك، فحَجبوا أنفسهم عن رعيّتهم، مخالفين بذلك العُرف العربيّ، وحصروا أنفسهم في قصورهم وفي قِبابِهم[4]، حتّى أنّ مَن كان يريد الوصول

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٩، ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(٢) محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٥١٤. (٣) توفيق بِرّو، م. س، ص١٤٩.

(٤) كان من عادة الأعراب الطّواف حول قُبَّةِ المَلك مع رفع الصّوت بالرَّجَز (بحر من بحور الشِّعْر)، ليَسمع المَلك صوت الرّاجز، فإذا عرَفه، أو أعجبه رَجْزُه، أذِن له بالدّخول. وكان الملوك يضربون قبّة على أبوابهم، يَقعد فيها النّاس حتّى يُؤذَن لهم. وقد يكون هذا الرّجز =

إليهم من ذوي الحاجات كان عليه أن يقف أيّاماً أمام باب المَلِكِ حتّى يأتيه الإذن بالدّخول عليه، وهذا ما أزعج الوافدين عليهم كثيراً، وأدّى إلى تَجاسُرِ الشّعراء وذوي الألسنة الحادّة عليهم. وكان على أكثر الوافدين التَّقَرُّبَ إلى «الحاجِبِ» والتَّذَلُّلَ إليه ورِشوته لِيُعَجِّلَ لهم بالدّخول على الملوك، ومنهم مَن كان يتعهّد له بأن يجعل له نصيباً فيما قد يناله من جوائز المَلِكِ وهداياه، فيُسرع الحاجب عندئذ إلى المَلِك، لأخذ الإذن منه بدخول ذلك الوافد عليه.

وتوصف أخلاق الملوك بالتَّلَوُّنِ والتَّغَيُّر؛ لأنّ الملوك لهم بَدَوات (تَقَلُّبُ أهواء وأفكار)، حتّى ضُرِبَ بتَلَوُّنِ أخلاقِهم المَثل. فقيل:

وَيَـوْم كَـأَخْـلاقِ الـمُـلـوكِ مُـلَـوَّنٍ فَـشَـمْـسٌ ودَجَـنٌ ثُـمَّ طَـلٌّ ووابِـلُ

ولهذا حذِر أصحاب المكانة والجاه من الوصول إليهم في أيّام غضبهم وبؤسهم، خشية صدور شيء منهم قد يزعجهم فيغضبوا عليهم، أو يتفوّهوا بعبارات قد تخدش كرامتهم، وتسبِّب لهم الألم والأذى. وقد ورد في الحِكَم: «اتّقوا غضب الملوك ومَدَّ البحر»[1].

تحيَّة المَلِك

كانت لملوك الغساسنة، وغيرهم من ملوك الجاهليّة، تحيّات تختلف عن تحيّات سائر النّاس؛ لأنّ المَلِك يُحَيّا بتحيّة المُلك المعروفة للملوك التي يُباينون (يُخالِفون) فيها غيرهم. ومن تحيّاتهم: «أبَيْتَ اللَّعن»، و«اسْلَمْ وانْعَم»، و«أنْعِمْ صَباحاً»، و«عِشْ ألف سنة».

وذكر بعض علماء اللّغة أنّ «أبَيْتَ اللَّعْنَ»: كلمة كانت العرب تُحيّي بها ملوكها في الجاهليّة، تقول للمَلِك: أبَيْتَ اللَّعْن، ومعناها نزَّهك الله عن أن تأتي بما لا يَحْسُنُ منك.

وقد وردت تحيّة «أبَيْتَ اللَّعْنَ» في شِعْرٍ للنّابغة الذُّبيانيّ، يعتذر فيه للنّعمان بن المنذر:

= مقدّمة لدخول الشّاعر على المَلِكِ حتّى يُلقي عليه ما يكون نَظَمَهُ في مَدحه وفي مدح آلِهِ من شِعر. د. جواد عليّ، م. س، ج١٧، ص٨٧.

(١) المصدر نفسه، ج٩، ص٢١٨.

أتاني، أَبَيْتَ اللَّعْنَ، أنّكَ لُمْتَني   وتِلْكِ التي تَسْتَكُّ[1] منها المَسامِعُ[2]

الرّسول أو السّفير

الرّسول لغة: هو الذي يُتابع إخبار الذي بَعَثَه[3]، وهو الذي أمَرَهُ المُرْسِلُ بأداء الرّسالة، بالتّسليم أو القبض[4]. ولفظة «رسول»، والجمع «رُسُل»، هي من الألفاظ العربيّة القديمة المستعمَلة في عالم السّياسة عند العرب[5].

واصْطِلاحاً: يُطلق الرّسول على مَن أمَرَهُ المُرسِل بأداء الرّسالة في عقدٍ أو أمرٍ آخر، كتسليم المبيع وقبض الثّمن، فهو يبلِّغ الرّسالة فقط وليس وكيلاً، ولا يضيف العَقد إلى نفسه. وهو عند الملوك: رجلٌ يُرسَّل بين مَلِكَيْنِ في أمور خاصّة، من عقدِ صلحٍ أو هدنة أو فداء أو تَحالف، فيُمَثِّلُ المُرسِل كأنّه هو ويتكلّم باسمه[6].

والسّفير لغة: هو الرّسول المُصْلِحُ بين القوم، ويُقال: سَفَرْتُ بين القوم؛ إذا سَعَيْتُ بينهم في الإصلاح[7]، ومع الأيّام أصبحت كلمة «سفير» لقباً من ألقاب التّشريف في الدّولة الإسلاميّة[8]. ويُقال عن الملائكة «سَفَرَة» لأنّهم يَسْفِرونَ بين الله وبين أنبيائه[9]، قال تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۞ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس/ ١٥، ١٦].

---

(١) السَّكَكُ: الصَّمَمُ. ابن منظور، م. س، ج١٠، ص٤٣٩.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج٩، ص٢٢٣.

(٣) ابن منظور، م. س، ج١١، ص٨٤٢.

(٤) الجُرْجانيّ، التّعريفات، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ، القاهرة ـ مصر، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، ص٩٨.

(٥) ورد في نصّ «أبرهة» (عامل الحبشة على اليمن)، الذي أشار فيه إلى وفودٍ أتت إليه من مَأْرِب لتهنئته بمناسبة إتمامه «سَدَّ مَأْرِب»، أنّه كان من بينهم رُسُلُ ملك الحبشة «النّجاشيّ» وملك الرّوم وملك الفرس وملك الحيرة «المنذر» وملك الغساسنة «الحارث بن جبلة» و«أبو كَرْب بن جبلة». وفي هذا النّص ملاحظة مهمّة جدّاً جديرة بالعناية، إذ أطلق هذا النَّصُّ على مندوبَيّ النّجاشيّ وملك الرّوم لفظة: «مَحْشَكْت (سفير)»، أمّا رُسُلُ الملوك العرب المذكورين فقد أطلَق عليهم اللّفظة العربيّة: «رُسُل». د. جواد عليّ، م. س، ج٩، ص٣٢٨.

(٦) د. عثمان جمعة ضميريّة، أصول العلاقات الدّوليّة في فقه الإمام الشّيبانيّ، دراسة فقهيّة مقارنة، دار المعالي، عمّان ـ الأردنّ، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ج٢، ص٨٠٢.

(٧) ابن منظور، م. س، ج٤، ص٣٧٠.

(٨) د. عثمان جمعة ضميريّة، م. س، ج٢، ص٧٩٩.

(٩) ابن منظور، م. س، ج٤، ص٣٧٠.

واصطلاحاً: استُعمِلَت كلمتا «رسول» و«سفير» بمعنىً واحدٍ هو: «موفَدٌ دِبْلوماسِيٌّ» بالمفهوم المعاصر، وإن غلب أحياناً المدلول الدّينيّ في استعمال كلمة «رسول»، والوساطة والإصلاح في استعمال كلمة «سفير»[1].

والسِّفارة لغة: هي كشفُ ما في قلب هذا وقلب هذا للإصلاح بينهما، والجمع «سفراء»، و«سِفارة» و«سَفارة» بمعنى «أصْلَح»[2]، أي: التَّوَجُّهُ إلى القوم للقيام بينهم بالصّلح على وجه التّحديد. وتُطلق كلمة سفارة أيضاً على «مَقام السّفير»، أي الدّار التي يُقيم فيها، وتُجمع على «سفارات».

واصطلاحاً: بَعْثُ وَلِيِّ الأمر لشخص معتَمَد من قِبَلِهِ إلى جهة معيَّنة، لمباشرة مَهَمَّةٍ معيَّنة[3].

وفي هذا المَقام هناك ألفاظ في اللّغة العربيّة تؤدّي المعنى نفسه، مثل «الموفَدِ» و«المَبْعوثِ» على سبيل المِثال لا الحَصر، وتؤدّي غرضاً واحداً، وهي مصطلحات عربيّة تؤدّي معنى كلمة «دِبْلوماسِيَّة»، التي دَخَلَتْ إلى اللّغة العربيَّة حديثاً تَأثُّراً بالمصطلحات الأجنبيَّة[4].

وكلمة «دِبلوماسِيَّة» هي كلمة إنجليزيَّة «Diplomacy» تعني التّفاوض بين الدّول، وتعني اللّباقة وحُسْنَ التّدبير. وأصل الكلمة يونانيّ، و«الدّبلوماسيّ Diplomat» هو المشتغِل بالدّبلوماسيَّة، كالسّفير أو وزير الخارجيَّة... إلخ، وهو أيضاً اللَّبِقُ، وحَسَنُ التّدبير، والمعتَمَد السِّياسِيُّ في عاصمة ما.

هذا، وقد دوَّنت الموارد اليونانيَّة أسماء بعض الرّسل الذين أرسلهم ملوك البيزنطيّين إلى اليمن، أو إلى الغساسنة أو المناذرة، للقيام بمَهمّات خاصّة، ولإجراء مفاوضات في أمور تتعلّق بالمصالح اليونانيَّة العربيَّة، وقد نصّوا أيضاً على أسماء بعض المترجمين الذين رافقوهم إلى ملوك العرب أو إلى سادات القبائل. ويظهر من الأسماء أنّ الملوك البيزنطيّين كانوا كثيراً ما يختارون

---

(١) د. عثمان جمعة ضميريّة، م. س، ج٢، ص٨٠٢.

(٢) ابن منظور، م. س، ج٤، ص٣٧٠.

(٣) د. حسن محمّد سَفَر، السِّفارات في النّظام الإسلاميّ، مجلّة البحوث الفقهيّة المُعاصرة، بيروت ـ لبنان، السّنة٣، العدد ٩، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص١١٧.

(٤) د. عثمان جمعة ضميريّة، م. س، ج٢، ص٨٠٨.

رُسلهم من رجال الدّين النّصارى الذين كانت لهم صلات وعلاقات وثيقة بالعرب، ومنهم مَن كان مِن أصل عربيّ.

وكان من عادة سادات القبائل والملوك العرب أنّهم كانوا إذا أرادوا إرسال ممثّل عنهم إلى الحكّام الأجانب، لمفاوضتهم في أمور تخصُّهم، اختاروا مَن عُرِفَ بالذّكاء والدّهاء من أتباعهم للقيام بهذه المَهمّات التي تحتاج إلى ذكاء ولباقة وحُسْنَ تَصَرُّف. كما كانوا، مثل غيرهم، يُراعون أن يكون رسولُهم ممّن يتقن لغةَ مَن سيُرسَل إليه، وأن يكون من خواصّهم ومن أتباعهم، حتّى لا يبوح بأسرار مَهمّته لأعدائهم. وأمّا إذا تَعَذَّرَ هذا الشّرط، فقد كانوا يختارون مترجمين ثِقات، عرباً أو عجَماً، لمرافقة الرّسول وللتّكلّم بلسانه، ولنقل ما يقوله الأعاجم للرّسول. وظهر في الموارد اليونانيَّة أنّ عرب بلاد الشّام أرسلوا رجال دين عنهم إلى حكّام بلاد الشّام، أو إلى القسطنطينيَّة، لمفاوضة الرّوم في المَهمّات التي كانوا يُكلَّفون بها. ويظهر أنّهم إنّما لجؤوا إلى هؤلاء لأنّهم كانوا يُتقنون اليونانيَّة، ولأنّهم نصارى والرّوم نصارى كذلك، ولبعضهم صِلات برجال الكنيسة في القسطنطينيَّة، فيُساعد الدّين المشترك في تسهيل حَلّ المشكلات.

وقد يذهب مَلِكٌ عربيّ، أو سيِّد قبيلة، لزيارة الحكّام الأعاجم في مواضع حُكمهم، أو في أماكن أخرى يتّفقون عليها. فإذا لم يكن ذلك المَلك، أو سيِّد القبيلة، مُتقِناً للغة الحاكم الذي سيزوره أخذ مترجماً معه ليكون لسانه النّاطق باسمه، وأُذُنَهُ التي تُفسّر له أقوال الحكّام والأجانب. ويظهر من الموارد اليونانيَّة أنّ مِن الملوك الغساسنة مَن كان يُتقن اليونانيَّة، فلمّا زار بعض منهم القسطنطينيَّة، تكلّم بها وتباحث مع رجال الدّين البيزنطيّين في أمور اللّاهوت بهذه اللّغة.

وكانت القاعدة العامّة في العُرف السّياسيّ عند الجاهليّين أنّ الموفَد لا يُهان ولا يُعتدى عليه ولا يُقتل، وكذلك كان هذا العُرف سارياً على رُسل الملوك إلى سادات القبائل، وعلى الوفود التي تُرسلها القبائل إلى الملوك، أو الرّسل الذين يُرسلهم سادات القبائل بعضهم إلى بعض. وورد في المَثل: «لولا أنّك رسولٌ لقتلناك»، ويشير ذلك إلى احترام العرب لرسالة الرّسل والموفَدين. وقد

كان بعض الرّسل يُسيؤون الأدب، أو لا يُحسِنون التَّصرُّف، مع مَن أُرسلوا إليه، فيثيرونهم، ومع ذلك، فإنّ مَن يُهاج منهم يُحاول جَهد إمكانه ضبط نفسه، والتَّحكُّم في أعصابه، حتّى لا يَتهوَّر على الرّسول، فيُتَّهَمُ بسوء الأدب بإهانته ضيفاً، أو يُتَّهَمُ بالغدر. وإذا كان بعض المُرْسَلِ إليهم قد غَدَرَ بالرّسل، فإنّ هذا الغَدْرَ لا يُمثِّل العُرف العامّ[1].

القضاء

لم يكن الحكّام، الذين كان يقصِدهم النّاس للفصل في قضاياهم، يحكُمون بقانون مُدوَّن، وإنّما يَرجعون في أحكامهم إلى عُرفهم وتقاليدهم التي كوَّنَتْها تجاربهم أحياناً، وما وصل إليهم عن طريق «اليهوديّة» أحياناً أخرى، وكان الحكم في القضايا يجري أحياناً ثالثة بتوجيه من الغريزة والفِطرة.

وكان النّاس يرتضون نظاماً يتّفق ومفاهيمهم السّاذجة، فيَصير بمرور السّنين «عُرفاً» لا يستطيع فرد أن يغيِّر منه شيئاً بسهولة، وسواءٌ في هذا العرب الذين كانوا يعيشون في الصحراء، مثل: نَجْدٍ وأطراف الحجاز، والعرب الذين أخذوا بشيء من الحضارة، الذين كانوا يقطنون في المدن، مثل: مكّة المكرّمة ويَثْرِب (المدينة المنوّرة)، أو في أطراف شبه الجزيرة العربيَّة، كممالك اليمن في الجنوب، ومملكة الحيرة في الشّمال الشّرقيّ، ودولة الغساسنة في الشّمال الغربيّ.

وكان لكلّ قبيلة عُرْفٌ وتقاليد خاصّة قد تُخالف ما للقبائل الأخرى من أعراف وتقاليد، وقد تتّفق معها في كثير أو قليل[2].

الجيش

لم يكن لدى القبائل جنود نظاميّون مدرّبون، وإنّما كان كلّ فرد من رجال القبيلة متمكّناً وذا قدرة على القتال، وجنديّاً مُحارباً عليه تلبية النّداء حين يُدعى إلى الدّفاع عن قبيلته أو لغزو قبيلة أخرى. وكانت العصبيّة تدعو العربيّ إلى

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٩، ص٣٢٦ - ٣٢٧.

(٢) محمّد رأفت عثمان، النّظام القضائيّ في الفقه الإسلاميّ، دار البيان، الإسكندريّة - مصر، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٣٥.

الوقوف في صفوف عشيرته إذا كانت القبيلة تقاتل قبيلةً أخرى، وفي صفوف قبيلته إذا كان هناك قتال تشترك فيه قبائل متعدّدة. هذا في القبائل المُتَبَدِّيَة[1]، أمّا في أماكن الحضارة والاستقرار، كما هو الحال في اليمن أو في الحيرة أو عند الغساسنة، فقد كانت المَشْيَخات أو الإمارات تعتَمِد، في الدّفاع أو الهجوم، على قبائلها، كما كان على القبائل أن تُقَدِّمَ للملِك عدداً معيّناً من الرّجال للخدمة العسكريَّة، كما هو الحال في المنطقة الغربيَّة الجنوبيَّة «مملكة اليمن» أو في مملكة الحيرة، ومن هؤلاء يتألف الجيش النظامي للدولة وهو جيش دائم يُستخدم في السلم والحرب، أما في أيام الحروب فتشترك القبائل المتحالفة والمؤيدة للدولة كلها في الحرب[2].

ولا توجد نصوص واضحة حول تنظيم الجيش في العصر الجاهليّ، ولعلّ صِلة ملوك الحيرة بالفرس، وصِلة ملوك الغساسنة بالرّوم، كان لها أثرٌ في تدريب الفرس لجيش الحيرة وتقسيمه وإعداده وَفْقَ نَظْم الجيوش الفارسيَّة وأساليبها على القتال، وتدريب الرّوم لجيش الغساسنة وَفْقَ أنظمة الرّوم وقوانينهم العسكريّة[3].

ونتيجة لمخالطة الغساسنة للرّوم واشتراكهم في قتال الفرس، فقد أجادوا الفنون الحربيَّة ووسائل الدّفاع، واكتسبوا خبرة عسكريَّة فائقة[4] وشجاعة نادرة، حتّى وصف النّابغة شجاعتهم في الحروب فقال:

قادَ الجِيادَ مِنَ الجولانِ قائِطَةً   مِنْ بَيْنِ مَنْمَلَةٍ تُزْجى ومَجْنوبِ[5]

ضَرب النُّقود

يعتبر ضَرب النّقود من سِمات المُلك، غير أنّه لم يتمّ العثور على أيّ من النّقود التي قد تكون ضُربت عند الغساسنة والمناذرة. ولعلّ سبب ذلك، إن لم يكونوا قد ضربوا نقوداً باسمهم، يعود إلى أنّهم كانوا يتعاملون بالعُملات

(١) المُتَبَدِّيَة: التي تعيش في البادية.
(٢) أحمد إبراهيم الشّريف، م. س، ص٧٠ ـ ٧١.
(٣) د. جواد عليّ، م. س، ج١٠، ص٨٢.
(٤) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٧٢.
(٥) منير الذّيب، م. س، ص٦٨.

الفارسيَّة والرّوميَّة، أو أنّ الفرس والرّوم منعوا أولئك الملوك من ضرب النقود، لبواعث سياسيَّة واقتصاديَّة[1].

حياة التّرف في القصور (مجالس الشّراب والجواري)

امتاز الغساسنة بثقافتهم الرّاقية، إذ أقاموا حضارةً نَمَتْ وتَرَعْرَعَتْ في سورية بفضل العناصر الرّوميَّة والآراميَّة واليونانيَّة، وكانت مزيجاً من تأثيرات بيزنطيَّة وساسانيَّة.

ومن حياة التّرف في بلاط الغساسنة أنّه حَفِلَ بكثير من الجواري الرّوميّات والمُغنّين[2]، من مَكّيّينَ وبابِليّينَ ويونان، وبموسيقيّين من كِلا الجنسين[3].

وقد وصف حسّان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم فقال: «لقد رأيتُ عشرَ قِيان: خمسٌ روميّات يُغنّين بالرّوميَّة بالبَرابِط، وخمسٌ يُغنّين غناءَ أهل الحيرة... وكان يَفِدُ إليه مَن يُغَنّيه من العرب من مكّة (المكرّمة) وغيرها. وكان إذا جلس للشّراب فُرش تحته الآسُ والياسمينُ وأصنافُ الرّياحين، وضُرب له العَنْبَرُ والمِسْكُ في صِحافِ الفضّة والذّهب، وأُتِي بالمِسك الصّحيح في صِحافِ الفضّة، وأوقِدَ له العودُ المُنَدّى إن كان شاتياً، وإن كان صائفاً بُطِّنَ بالثّلج، وأُتِيَ هو وأصحابه بكساءٍ صيفيَّة، يتفضَّل هو وأصحابه بها في الصّيف، وفي الشّتاء الفِراءُ الفَنَكُ وما أشْبَهَه. ولا والله ما جلستُ معه يوماً قطُّ إلّا خلع عليَّ ثيابه التي عليه في ذلك اليوم»[4].

وكانوا يشربون بالآنِيَةِ الغالية المصنوعة من الزُّجاج[5] والبِلَّوْرِ[6] والذّهب

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٩، ص٣٢٤ ـ ٣٢٥.
(٢) كان مِن شعراء الجاهليّة مَن يُنشدون أشعارهم على نغمات الموسيقى، فجمعوا بذلك بين الشّعر والموسيقى في صورة واحدة، وكان النّايُ والمِزْهِرُ والدُّفُّ أحَبَّ الآلات الموسيقيّة إليهم. وكثيراً ما كانت الفتيات المُغنِّيات يُسْتَدْعَيْنَ لتسلية الأضياف في الولائم، وكان في مجال الشّراب عدد منهنّ، وكان عند ملوك الغساسنة عدد كبير من الفتيات لِيُفَرِّجْنَ عنهم متاعب المُلك. وِلْ دْيورَانْت، م. س، ج١٣، ص١٧.
(٣) توفيق بِرّو، م. س، ص١٤٨.
(٤) أحمد شوقي، م. س، ص٤٣. وانظر أيضاً: د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٧١.
(٥) الزُّجاج: جوهر صَلْبٌ شفّاف سَهْلُ الكسر. المعجم الوجيز، م. س، ص٢٨٦.
(٦) البِلَّوْر: حجر أبيض شفّاف، وهو نوع من الزّجاج. المرجع نفسه، ص٦٠.

والفضّة، وبعضها منقوش، واستعملوا أوانيَ أخرى تتناسب مع منزلة الشّارب ومكانته[1].

وكانت لهم عادات وتقاليد في مجالس الشُّرب وفي مجالس الطّعام، على نحو ما يتمّ اليوم في المآدب الرّسميَّة، فكان من عادة ملوك الغساسنة والمناذرة إجلاس السّادة الرّؤساء والمقرَّبين إليهم على يمينهم وعلى مقرُبة منهم، تعظيماً لشأنهم ودلالة على مكانة الشّخص عندهم. فإذا قُدِّمَ الشّراب أو الطّعام، قُدِّمَ إلى المَلك أوّلاً، فإذا شرب منه، أو ذاقه، أَمَرَ فقُدِّمَ الشّراب أو الطّعام إلى مَن هو في يمينه. وقد اتُّبِعَتْ هذه العادة عند سائر النّاس في الولائم والدّعوات، فكان «النّعمان بن المنذر»، مَثلاً، إذا هَمَّتِ الوفود التي تَفِدُ إليه بالانصراف أَمَرَ باتِّخاذِ مجلس لهم يَطعَمون فيه معه ويَشربون، وكان إذا وُضِعَ الشّراب سُقِي النُّعمان، فمَن بدأ به على إثْرِهِ فهو أفضَل الوفد[2].

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٨، ص٢٦١.

(٢) المصدر نفسه، ج٩، ص٣٩.

الفَصْلُ الحادي عَشَر

العَمائِر

تمهيد

دلّت آثار المدن والمسارح والحمّامات[1] في سورية على أنّ تَطوُّراً حضاريّاً واسعاً كان ينتشر في كلّ مدينة وقرية، ودلّت الثّقافة والتّقاليد المدنيَّة والمراسلات والأزياء على ذروة الحضارة التي وصلَت إليها البلاد الشّاميَّة السّوريَّة الغسّانيَّة[2].

واهتمّ أمراء الغساسنة بإقامة القصور والقناطر والأبراج والقِلاع وغيرها من المنشآت العامّة في أماكن تَواجُدِهِم.

أماكن تَواجُدِ الغساسنة

امتدّ سلطان الغساسنة على قسم كبير من بلاد الشّام، كتدمر والرُّصافة في وسط سورية، والبلقاء والكرك في الأردنّ، وإلى البحر، وكانت عاصمتهم الجابية في الجولان.

ومن أماكنهم التي بَنوا فيها منازلهم والتي وردت في شعر حسّان بن ثابت:

(١) عن أبي المليح، قال: دخل نسوة من أهل الشّام على عائشة ﵂، قالت: لعلّكنّ من الكورة التي تَدخل نساؤها الحمّام، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**أيّما امرأة وضَعَت ثيابها في غير بيت زوجها فقد هتكت سِترها فيما بينها وبين الله** ﷻ). الحاكم النَّيْسابورِيّ، المُستدرَك على الصَّحيحَين، تحقيق مُقْبِلْ بن هادي الوادِعِيّ، دار الحَرَمَيْن، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٤، ص٤٢٦، حديث رقم ٧٨٦١. والحمّام. **المقصود هنا**: الحمّامات العامّة في الأسواق، التي يمكن أن يحدث فيها الكشف عن العورات بشكل مقصود أو غير مقصود أمام الآخرين، وليس حمّامات البيوت المستخدَمة بشكل إفراديّ.

(٢) ويُستنبط من الحديث أنّه كانت توجد حمّامات في الشّام أيّام النُّبُوَّة، وفي تلك الفترة كانت الشّام تحت سلطان الغساسنة. منير الذّيب، م. س، ص٦١.

«الجَواء» و«عذراء»، وهما موضِعان بالشّام بأكتاف دمشق. وإلى عذراء هذه يُضاف «مرج عذراء»، وكانت في هذه المواضع منازل بني جفنة.

وذُكر من أماكنهم بطن جِلّق والبلقاء والمَحبس والسّند وبُصرى وجبل الثّلج[1].

ومن أماكنهم أيضاً «ذات الأصابع»، وهو موضِع في ديار الشّام سكنه الغساسنة، وذَكره حسّان بن ثابت رضي الله عنه في قصيدة أنشدها قبل فتح مكّة المكرّمة، ومَطلعها:

عَفَتْ ذاتُ الأصابِعِ فَالجَواءُ   إلى عَذراءَ مَنْزِلُها خَلاءُ[2]

المُنشَآت العُمرانيّة

أقام الغساسنة عدداً من المُنشئات العُمرانيَة في عدد من أماكن تواجدهم، ومنها:

١ ـ مُنشَآت عسكريَّة.

٢ ـ مُنشَآت مدنيَّة.

٣ ـ مُنشَآت دينيَّة.

وكانت المباني التي شيّدها الغساسنة، بوجه عامّ، متأثِّرة بالفنون السّاسانيَّة أكثر من الفنون البيزنطيَّة. ومعظم هذه المباني كانت مبنِيَّة بالحجر الأبيض الذي يُجلب من الجبال القريبة منها[3].

١ ـ مُنشَآت عسكريَّة

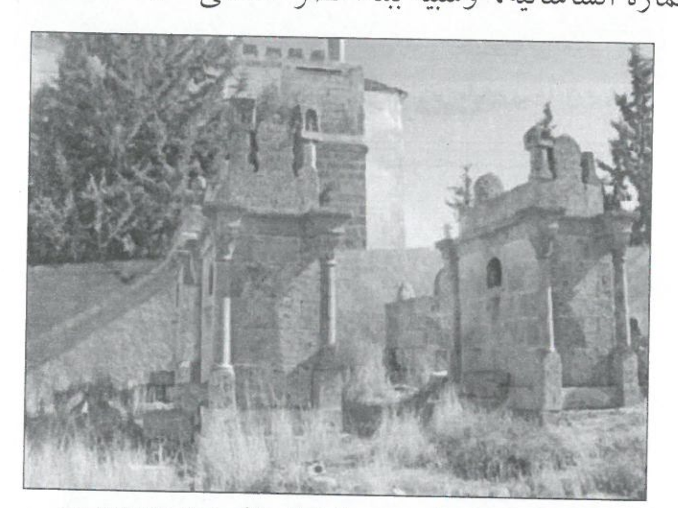
يُنسب للغساسنة بناء مُنشئات عسكريّة، ومن ذلك:

أ ـ قلعة القسطل:

يَنسب حمزة الأصفهانيّ تشييد «قلعة القسطل» إلى الملِك الغسّانيّ الحارث بن جبلة[4]. وتقع «القسطل» على مقرُبة من أخربَة «قصر المُشَتّى»، واتَّخذَها الرّوم معسكراً لجنودهم[5] وتقع على مسافة ٣٠ كم جنوب العاصمة

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٢٨.
(٢) محمّد بن محمّد حسن شُرّاب، المعالم الأثيرة في السُّنَّةِ والسّيرة، دار القلم، دمشق ـ سورية، الدّار الشّاميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص١١٩.
(٣) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٧٢.
(٤) المصدر نفسه   (٥) الزِّرْكِليّ، م. س، ج٢، ص١١٢.

الأردنيّة عمّان. و«القسطل» تحريف لكلمة «Castle» الإفرنجيَّة بمعنى «القلعة»، وأمّا بقايا حِصنها فيعود إلى قلعة روميَّة شُيِّدَتْ من الحجارة الضّخمة، وأضاف الأُمَويّونَ على القسطل أبنية تتماشى مع عصرهم بحيث أضحى أقدم القصور الأُمَويَّة. وقد جاء وصف القسطل في العصر الأُمَوِيّ في كتاب «المعالم الأثرِيَّة» لـ «منى الطّائيّ»: «القسطل واحد من أقدَم القصور الأُمويَّة وأفضلِها من حيث الصّيانة. وتشمل آثار القسطل مجموعة واسعة من المواقع، مثل القصر المركزيّ والحمّامات، بالإضافة إلى خزّان ومسجد وبيوت صغيرة ومقبرة وسدّ، وبه أقدَم مقبرة إسلاميَّة في الأردنّ. والقصر المركزيّ مزخرف بالنّقوش الحجريَّة وفيه اثنَا عشر برجاً شبه دائريٍّ لدعم وحماية الجدران. وتضمّ ساحة القصر خزّاناً مركزيّاً للماء، وتُشاهد بقايا المسجد شمال القصر المركزيّ. ويُرجَّح أنّ موقع القصر الأصليّ كان غسّانيّاً، وأنّ جبلة بن الحارث، الأمير الغسّانيّ، هو بانيه. وكشفت أعمال التّنقيب في الموقع عن بقايا مسجد ومئذنة، وقد تكون أقدم المآذن في المملكة الأردنيَّة للفترة الأُمويَّة»[1]. وبناء القلعة متأثِّر إلى حدّ كبير بفنّ العمارة السّاسانيّة، وشبيه ببناء قصر المُشَتّى[2].



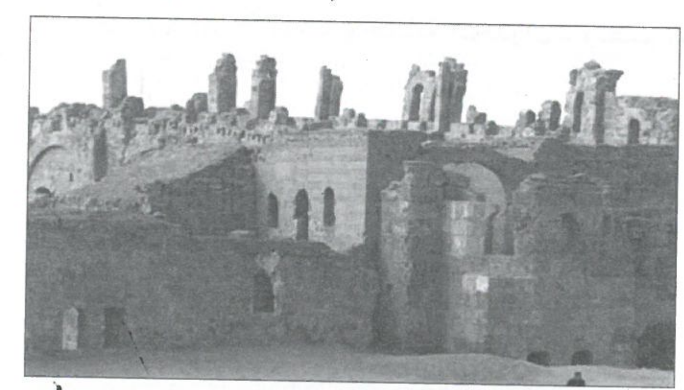
بقايا قصر القسطل، جريدة الرأي الأردنية، ٢٠١٣/١٢/٣م.

(١) مفلح العدوان، القسطل... قصر الغبار السّاطع (٢)، جريدة الرّأي الأردنية.
www.alrai.com/article/556218.html
في ٢٠١٣/١٢/٣م.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢١٢.

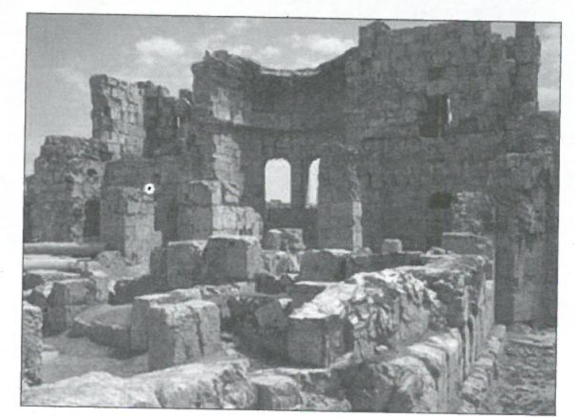
ويُنسب إلى الملِك الغسّانيّ هذا عدّة آثار أخرى، كبلدة أذْرُع في شماليّ «مَعان» جنوب العاصمة الأردنيَّة عمّان[1]، والزّرقاء، والحفير، ومصنعة، وقصر المُشَتّى[2]، وبناء القناطر[3] وحمّام الصّرح في البلقاء، والجرباء[4].

ب ـ تجديد أسوار الرُّصافة:

يُنسب إلى الحارث الثّاني ترميم أسوار مدينة الرُّصافة التي تقع على بُعد ثلاثين كيلومتراً من مدينة الرَّقَّة في شمال سورية على الفرات، ويُنسب إليه أيضاً تشييد كاتدرائيَّة كبيرة فيها، كما يُنسب إلى ابنه المنذر بن الحارث الثّاني الفضلُ بتشييد خزّانات المياه في المدينة، وبناء قصر كبير له، ودارٍ للضّيافة خارج سورها الشّماليّ[5].



جانب من عمارة الرصافة



جانب من عمارة الرصافة

---

(١) الزِّرِكْلِيّ، م. س، ج٢، ص١١٢.
(٢) بُرْهُمُ المَعْشَر، م. س.
(٣) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٨.
(٤) مفلح العدوان، م. س.
(٥) مجلّة البحوث الإسلاميّة، م. س، ص٢٠٤.

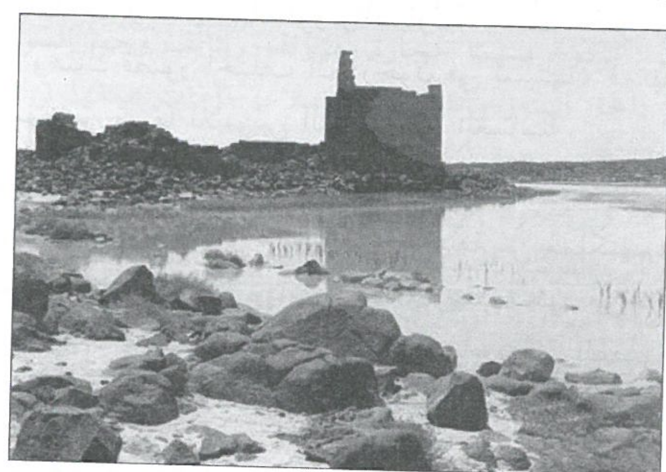
ج ـ الأبراج:

اهتمّ الغساسنة ضمن عمائرِهم ببناء الأبراج، ومن ذلك برج حجريّ قرب قرية الضّمير الحاليَّة، وهو برج جانبيّ لبناءٍ زالَ ولم يبقَ له من أثَر[1].

د ـ الحصن العسكريّ قصر بُرْقُع:

إنّ بناء «قصر بُرْقُع» يرجع إلى تاريخ الفترة الرّوميَّة كغيره من القصور والحصون التي بُنيت بغرض مراقبة الطّرق التّجاريَّة التي تمرُّ عبر الصّحراء في شمال شبه الجزيرة العربيَّة باتّجاه مدينة تدمر وبُصرى. وذُكر أنّ هذه الحصون العسكريَّة وقصورَها كانت ذات صفة عسكريَّة، وكان يقطنها الجنود الرّوم لحماية طُرق القوافل التّجاريَّة من اعتداءات قطّاع الطّرق. وأشار إلى أنّ المُسوحات الأثَريَّة أثبَتَت أنّ منطقة «بُرْقُع» سكنها أيضاً العرب الغساسنة الذين يُعتقد أنّهم أوّل مَن بنى هذا القصر، وذلك خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثّالث والرّابع الميلاديّين.

وأُعيد استخدام القصر في الفترة الإسلاميَّة، خاصّة في العصر الأُمويّ، حيث بُنيت عليه بعض الإضافات داخله وخارجه، ويدلّ على ذلك النّقش الكتابيّ فوق مدخل القصر الذي كُتب عليه: «بسم الله الرّحمٰن الرّحيم... الوليد ابن أمير المؤمنين»، ويُعتقد أنّ المقصود هو الخليفة «الوليد بن عبد الملِك».



بقايا قصر برقع الأثري

---

(١) توفيق بِرّو، م. س، ص١٥٠.

ويضمّ القصر، الذي شُيِّدَ على سَدٍّ بُرْقُع من الجهة الشّرقيّة، مَرافِقَ مختلفة وسَكَناً للجنود، ويتألّف من بناءٍ عالٍ ضخمٍ من ثلاثة طوابق بُنيت من الحجر البازَلْتِيّ الأسود المتوفِّر في تلك المنطقة. وكانت المياه تُنقل إلى القصر بطريقة مُثلى تُضاهي التَّقَنِيَّةَ الهندسيَّة الحديثة في طُرق نَقل المياه، حيث تمّ تزويد القصر بالمياه الباردة والسّاخنة من خلال قنوات رَيٍّ حجريَّة وفخّاريَّة تصل إلى جميع الحجرات والمَرافق[1].

هـ ـ أبنية متفرّقة لملوك الغساسنة:

تُنسب أبنية متفرقة لملوك الغساسنة، ومن ذلك أنّ أوّل أمراء الغساسنة، وَفْقاً للائحة حمزة الأصفهانيّ، وهو جفنة بن عَمْرٍو مَزَيقياء، بنى جِلّقَ والقرية وعدّة مصانع[2].

ويُنسب لثَعْلَبَة بن عَمْرو بن جفنة بناء صرح «السّدير» في أطراف حوران ممّا يلي البلقاء[3].

وبنى جبلة بن الأيهم بن جبلة الغسّانيّ، آخر ملوك الغساسنة من آل جفنة، مدينة «جبلة» الموجودة اليوم في سورية[4].

٢ ـ مُنشآت مدنيّة

تشمل المُنشآت المدنيَّة القصور والمنازل، وهناك قصور كانت خاصّة بالغساسنة، وهناك قصور اختلَف المؤرّخون في نِسبتها، فمنهم مَن نَسبها للغساسنة ومنهم مَن نَسبها للأُمويّين الذين خلَفوا الغساسنة.

أ ـ قصور كانت خاصّة بالغساسنة:

كان لملوك الغساسنة قصور في مواضع مختلفة من مملكتهم، وقصور في دمشق يُمضون فيها أيّاماً عند زيارتهم لها، وعند وجود مراجعات لهم مع حكّامها من الرّوم. وقد ذكر أهل الأخبار أسماء بعض القصور التي بناها

(١) قصر بُرْقُع، م. س.
(٢) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص١٩٨.
(٣) د. محمود عرفة محمود، م. س، ص١٢٨ ـ ١٢٩.
(٤) ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق د. نصرت عبد الرحمٰن، مكتبة الأقصى، عمان ـ الأردن، ص٢٠٥.

الغساسنة في مواضع متفرّقة من الأرَضين التي خضعت لحُكمهم[1].

ومن هذه القصور:

١ ـ قصر حارِب:

نَسب حمزة الأصفهانيّ بناء قصر «حارِبَ» إلى النّعمان بن عَمْرو بن المنذر الغسّانيّ. وورد اسم موضع «حارب» في شِعر يُنسب إلى النّابغة حيث يقول:

لَئِنْ كانَ لِلْقَبرينِ قَبْرٌ بِجِلِّقَ ... وقَبْرٌ بصَيْداءَ[2] التي عند حارِبِ[3]

٢ ـ القصر الأبيض:

«القصر الأبيض» هو اليوم خربة أثريَّة في بادية الشّام، ناحية الضّمير، منطقة دوما، محافظة ريف دمشق.

وزار هذه الخربة الأثريَّة كثير من الرّحّالة والأثَريّين وكتبوا عنها، وأوّلهم «دوسو» وآخرهم «هاينس جاوبيه»، الذي نشر دراسته في مجلة «الحَوْليّاتِ الأثريَّة»[4] عام ١٩٧٤م.. وتتألّف الخربة من قصر مربّع الشّكل، شُيِّدَ من حجارة البازَلْت، وطول كلٍّ من أضلاعه ٦٠م، وله أبراج مستديرة في زواياه، وأبراج نصف دائرية في منتصف أسواره الجنوبيّة والغربيّة والشّماليَّة، أمّا ضِلعه الشّرقيّ ففي وسطه بوابة عرضها ٣,٨٥م، توصِل إلى ساحته الدّاخليَّة. وارتفاع بقايا السّور الخارجيّ حاليّاً يراوح بين المترين والسّبعة أمتار. وتتألّف جدران السّور من سور مزدوج بينهما حجارة ومؤونة، ويتألّف وَجْها السّور من أحجار مكعّبة. وفي داخل السّور وعلى طول أضلاعه قاعات عمقها ٧,٦م، أمّا على الضِّلع الشّرقيّ فيصبح عمقها ٧م. ويمكن تمييز مرحلَتين للبناء المستحدث في هذا القصر: الأولى تعود إلى القرنين الثّاني عشر والثّالث عشر الميلاديّين، وتعود الثّانية إلى القرنين الخامس عشر والسّادس عشر الميلاديّين. وتميّز في المرحلة الأخيرة أسوار الزّاوية الجنوبيّة الشّرقيّة والضِّلع الغربيّ. وتتميّز قاعات

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٩، ص٢١٢.
(٢) صيداء: تقع في محافظة القنيطرة السورية.
(٣) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٢٩. تقع قرية كفر حارب على أطراف مرتفعات الجولان السورية.
(٤) مجلة الحوليّات الأثريّة السّوريّة: تبحث في آثار سورية وتاريخها، وتصدرها مديريّة الآثار العامّة، دمشق ـ سورية.

المبنى الأصليّ بانتظامِها بجانب بعضها على طول الأضلاع الجنوبيَّة والغربيَّة والشّماليَّة، وقد كانت تُستخدم للطّعام والطّهي والتّموين. وهناك قاعة حراسة قرب الأبراج عند المدخل. ولم يُستخدم هذا البناء للأغراض العسكريّة، بخلاف عدد كبير من الأبنية الأثَريَّة المنتشرة في بادية الشّام[١].

ب ـ قصور اختلَف المؤرِّخون في نِسبتها:

انتفعت حضارة الغساسنة بالحضارات الشّاميَّة المحليَّة والبيزنطيَّة والسّاسانيَّة، وكان شأنها في ذلك شأنَ الحضارة الأُمويَّة فيما بعد، حينما اسْتَكْمَلَتْ عناصِرَها المتعدّدة في دمشق وما حولها. وترتّب على ذلك أن نَسب المؤرِّخون المسلمون آثار كلٍّ من الغساسنة والأُمويّين إلى الآخر.

ومن أشهر هذه الآثار «قصر المُشتّى»[٢]، وهو من القصور التي أقامها أمراء الغساسنة، وغلب عليه فنّ العمارة السّاسانيّة، ويَنسب بعض الأثريّين هذا القصر إلى الخلفاء الأُمويّين[٣].

ويقع قصر المُشَتّى في النّاحية الشّرقيَّة من نهر الأردن، ونُقلت بعض أحجاره إلى متحف «برلين» وأعيد تركيبها فيه في أوائل القرن العشرين الميلاديّ. ويذهب بعض المستشرقين إلى إرجاع المراحل الأولى في بنائه إلى ما قبل استقرار الغساسنة في الشّام[٤].

وفي البرج الخاصّ بالقصر عُثر على كتابة يونانيَّة جاء فيها: «البَطريق الشّريف والأمير المنذر» ويدلّ ذلك على أنّه من آثار المنذر[٥].

وعموماً يعود بناء قصر المُشَتّى إلى القرن الخامس الميلاديّ، أو ما قبل القرن السّادس الميلاديّ، وهو بناء متأثّر إلى حدّ كبير بفنّ العمارة السّاسانيَّة

---

(١) استفاد الأُمويّون من طراز بناء القصر الأبيض في بناء القصور التي بنوها في البادية. ويختلف القصر الأبيض عن قصور الأُمويّين بكونه مؤلّفاً من طابق واحد، وقاعاته قليلة الطّول، وليس فيه أروقة تحيط بباحته، ولا سقوف معقودة. قصر الأبيض، مجلة الحوليات الأثرية، م. س.

(٢) ينفي العالِم «كريزول» أن يكون قصر المُشَتّى من آثار الغساسنة، ويُدلي بحجج غير كافية للإقناع، منها أنّه لا يحتوي على أيّ رمز نصرانيّ، وأنّه من الضّخامة بحيث لم يكن باستطاعة الغساسنة القيام بنفقات بُنيانه. توفيق برّو، م. س، ص١٥٠.

(٣) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٧٢.

(٤) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٦١ ـ ١٦٢.

(٥) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٣١.

الذي كان يمارسه العرب في الحيرة[١].

ومن المُنشَآت المدنيَّة التي اهتمّ بها الغساسنة كان بناء المنازل، ومنها:

أ ـ حوران:

يوجد منزل في منحدرات حوران الشّماليَّة جاء في نقش فيه أنّه بُني في عهد المنذر بن الحارث[٢].

ب ـ جوار الجابِية:

تشير دراسة لمنازل الغساسنة إلى رُقيّ فنِّ البناء من خلال دراسة للبيوت القديمة في قرى: نَوى وكفر شمس وأنخِل وجاسم، المجاورة للجابِية، وفيها بيوت كبيرة ما تزال قائمة حتى الآن، والمعتقَد أنها كانت قصوراً لأمراء بني جفنة الذين تَوزّعوا في أنحاء البلاد وحيثما حلّوا، واعتُبرت مقرّاً لبني غسّان. ويروي حمزة الأصفهانيّ، في تاريخه المدوّن عام ٩٦١م، أنّ أمراء الغساسنة قد بَنوا العديد من القصور والأبنية العامّة في أماكن عدّة ذَكرها، ومن هذه الأماكن المدن والقرى التّالية: نَوى وأنخِل وجاسم وكفر شمس وكفر ناسج والكرك والمُسَيْفِرَة وأمّ الزّيتون والهَيات التي تعود إلى القرن السّادس في مساكنها[٣].

ج ـ نَوى:

وُصف منزل في «نَوى» بأنّه ربّما كان يتضمّن ثلاثة أجنحة، وباحة كبيرة مُبَلَّطَةً قد تكون مربّعة. ووجود الرُّواق مؤكّد تقريباً أمام الواجهة الشّرقيّة، ومشكوك فيه أمام الجناح الآخر. ويبدو في الطّابق الأرضيّ في الجناح الشّماليّ أنّه بدون زريبة (حظيرة ماشية)، والجناح الشّرقيّ بزريبة، وفي الجناح الشّرقيّ غرفة كبيرة ذات قنطرة تفتح على زريبة يوجد فيها ١٢ مَعْلَفاً، ويبدو ظهور منافذ خلفية للزّرائب ولكن لا يُعرف فيما إذا كان يتمّ الاتّصال مع الخارج، أو مع غرفة مطمورة قد تكون مستودع قمح. ويوجد كوّتان في الواجهة، الأولى مُقبَّبَة، والأخرى على مستوى الجوائز التي تعلو الأبواب، مستطيلة، ومجهّزة بشِقٍّ يوهِمُ بأنّه باب، ومحاطة ببروز زُخْرُفيّ، وقد كانوا

---

(١) أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم، م. س، ص٢١٢.

(٢) توفيق برّو، م. س، ص١٥٠.

(٣) منير الذّيب، م. س، ص٦٩.

يضعون فيها ما هو أَنْفَسُ من جرار الماء: تمثال، ذخيرة، أو ما يَهُمُّ العبادة. ويوجد دَرج، يقود إلى مستودع للجناح الشّرقيّ، يَصعد بمحاذاة الحائط الجنوبيّ للباحة، ومن ثَمَّ يحاذي واجهة الجناح الشّرقيّ فوق الرُّواق المُعاد ترميمه. أمّا الرُّواق المُقَنْطَرُ والكائن أمام واجهة الجناح الشّماليّ فهو مُلحق متواضع ضُمَّ مؤخّراً لتوظيفات جديدة[1].

د ـ الجابِية:

يذكر المؤرِّخ حمزة الأصفهانيّ أنّ الجابِية كانت منزل الحارث الأصغر بن جبلة[2].

٣ ـ مُنشَآت دينيّة

اهتمّ الغساسنة ببناء مُنشَآت دينيّة بإقامة كثير من البِيَع والكنائس[3] والأدْيِرَة. ومن هذه المُنشَآت:

أ ـ كنيسة الرُّصافة وأديرتها:

تُعتبر كنيسة الرُّصافة من أهمّ كنائس الغساسنة، وتَحمل كتابة ذُكِرَ فيها اسم المنذر بن الحارث (٥٦٨ ـ ٥٨٢م) ممّا يدلّ على أنّه هو الذي بناها، وهي مبنيَّة على الطّراز السّوريّ الصِّرْف، وتُشبه قواعدُ أعمِدتها قواعِد أعمِدة «جبل سِمْعان»[4].

واشتهرت مدينة الرصافة بقدّيسها «مار سِرجيوس» الذي خلع اسمه عليها فسُمِّيَتْ: «سِرجِيوبوليس Sargio-Plors». وكان نصارى الشّام يَتَيَمَّنونَ به وبصورته، ويُعَمِّدونَ أبناءهم في كنيسته. ولا زالت أطلال بوّابات الرُّصافة القديمة وصهاريج مياهها قائمة، على الرّغم من تخريب جيوش الحيرة لها أكثر من مرّة، وفِعْلِ توالي الأزمان عليها[5].

(١) مجموعة من الباحثين بإشراف: ج. م. دانتزر، سورية الجنوبيّة (حوران)، بحوث أثريّة في العهدَين الهِلّينيّ والرّومانيّ، تعريب أحمد عبد الكريم وآخرون، دار الأهالي، دمشق ـ سورية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص١٥١ ـ ١٥٢. ولمزيد من التّفصيل عن منازل في كفر شمس ومعربة انظر: المصدر نفسه، ص١٥٣ ـ ١٥٨.

(٢) ثيودور نولدكة، م. س، ص٥٦.

(٣) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٧٢.

(٤) توفيق بِرّو، م. س، ص١٥٠.

(٥) عبد العزيز صالح، م. س، ص١٦١.

ب ـ بناء الكنائس:

بنى الغساسنة كنائس في حوران واللّجاة والصّفا، وضمّوا إليها عدّة أديار[1]. ومن كنائسهم: كنيسة مأدبا، وكنيسة الرّفيد، وكنيسة بريقة، وكنيسة كفر ناسج، وكنيسة كفر شمس، وكنيسة القديس سِرجيوس في التّل.

وهناك كنيسة في جمرين، وكنيسة نوى، وكنيسة الطّيبة وغصم، وكنيسة ناحتة.

وبُنيت في جبل حوران كنائس كثيرة في أمتان، والقديس إلياس في سالة، وكنيسة عمرة، وكنيسة القديس جورج في شقا، وكنيسة القديس إلياس في نجران، وكنيسة القديس ليون تيوس في الدّور، وكنيسة القديس يوحنا في حَرّان سنة ٥٦٧ ـ ٥٧٨م..

وهناك مواقع أثريّة تابعة للغساسنة ما زالت غير مدروسة، حيث يوجد خرائب وتلول كثيرة تتحدّث عن تاريخ مطمور، ففي شمال الأردنّ كُشفت أعظم الكنائس في إرْبِدَ التّابعة لحوران تاريخيّاً، وكذلك كُشفت كنائس في جرش وعجلون والسَّلْط، ومأدبا التي عُرضت فيها أعظم فسيفساء في كنائس الشّرق، والتي دلّت على خريطة لمواقع فلسطين وسورية المقدّسة، وحُدِّدَتْ فيها نقاط مُهمّة من نهر الأردنّ التي غُسِّلَ وعُمِّدَ فيها السَّيِّدُ المسيحُ ﵇ على يد النّبيّ يحيى ﵇، وسُمِّيَ هذا المكان بالمَغطس، وهو من جهة حوران الجنوبيَّة[2].

ج ـ البِيَع:

كانت النّصرانيّة متأصِّلة عند الغساسنة، وكانت لهم بِيَعٌ وكنائس بَنوها لهم ولرعيّتهم[3]، حتّى أنّهم كانوا يتبارون في البِيَع وزَيِّها[4] بالشّام[5].

وقد ورد في بعض المصادر ذِكر رجل عُرف بـ «أرطبان المرنيّ»، قيل إنّه

(١) الفيكُنْتُ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٦.

(٢) منير الذّيب، م. س، ص٧٠.

(٣) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٢٩.

(٤) الزّيّ: **المقصود هنا**: المنظر والهيئة من الدّاخل والخارج ونوعيّة الأثاث.

(٥) عمر رضا كحّالة، م. س، ج٣، ص٨٨٥.

كان «شمّاساً» في «بَيْعَةِ غسّان»، ممّا يدلّ على أنّها كانت بَيْعَةً خاصّة بآل غسّان[1].

د ـ الأديرة:

اشتهر الغساسنة بعمارة الأديرة في الجزء الذي ارتفع سلطانهم عليه في الجنوب على عهد ملوك الرّوم، وكانوا يعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشّجر والرّياض والمياه، ويجعلون في حيطانها وسقوفها الفَسافِس[2] الذّهب[3].

وقد شادوا عدداً من الأديرة، ومن ذلك: الدّير ذو البرج الموجود في «قصر الحَيْرِ الغربيّ» وهو من بناء الحارث بن جبلة (٥٥٩م)[4]، ودير حالي، ودير أيوب، ودير الدّهناء، ودير ضخم، ودير النُّبُوَّة[5].

ومن أديرتهم:

١ ـ **دير جفنة:** تولّى رئاسة هذا الدّير في القرن السّادس الميلاديّ الأنبا قونون. واشتهر الدّير بهذا الاسم تَيَمُّناً ببني جفنة ملوك غسّان.

٢ ـ **دير حالي:** تولّى رئاسة هذا الدّير القسّ جورجيس، وفيه تثقّف سرجيس التَّلِّيُّ أوّل بطاركة السُّريان. وقد ابْتَناهُ عَمْرو بن جبلة ملك غسّان.

٣ ـ **دير اليمن:** كان رئيس هذا الدّير في أواسط القرن السّادس الميلاديّ القسّ يوحَنّا.

٤ ـ **دير طيّ:** دُعِيَ هذا الدّير بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة طيّ (طيء). وجاء ذِكر رئيسه القسّيس أنطيوخ. ويُعَدُّ هذا الدّير من أقدم الأديار العربيَّة.

٥ ـ **دير عمرو:** كان القسّ جرجس رئيساً على هذا الدّير، وهو لا يقلّ قِدَماً عن الأديار السّابقة الذِّكر.

٦ ـ **دير حنينا:** كان هذا الدّير من أفخم أديار السُّريان في بلاد غسّان.

---

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٢٩.

(٢) الفَسافِس: الفُسَيْفِساء، قطع صِغار ملوّنة من الرُّخام أو الحَصْباء أو الخرز أو نحوها، التي يُضمّ بعضها إلى بعض لتتكوَّن منها صور ورسوم تُزيِّن أرض البيت وجدرانه. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٧١.

(٣) محمّد كُرْدْ عليّ، م. س، ج٦، ص٥.

(٤) توفيق بِرّو، م. س، ص١٥٠ ـ ١٥١.

(٥) محمّد كُرْدْ عليّ، م. س، ج٦، ص٥.

وعقد فيه المنذر بن الحارث سنة ٥٨٠م مَجْمَعاً لإلقاء الصّلح والسّلام بين القلوب المتنافِرة[1].

٧ ـ **دير زُغبة:** أُسِّسَ هذا الدّير على اسم مار يوحنا. واشتهر شهرة خاصّة في عهد رئيسه ربولا الذي كتب بخط يده ذلك الإنجيل السَّطْرَنْجيلِيّ[2] البديع. وعن زُغبة انتزح بنو زُغبي إلى لبنان، واندمجوا مع كُرور الأيّام في الملّة المارونيّة.

٨ ـ **دير بيثونية:** ظلّ هذا الدّير عامراً بالرّهبان ومزدهراً بالعلوم حتّى القرن الثّاني عشر الميلاديّ. وقام منه[3] فريق من الأساقفة. ولعلّ هذا الدّير هو «دير قثرا» نفسه الذي ابتناه في أرض بيثونية «نَرْسي» كاتب الدّيوان الملكيّ كي يقضي فيه بقيّة حياته، وأسّس بجانبه كنيسة عجيبة دُفِن فيها بعد وفاته.

٩ ـ **دير العرب:** قام من هذا الدّير جورجي أسقف درعا في القرن الثّامن الميلاديّ.

١٠ ـ **دير شَلمون:** كان هذا الدّير من أشهر أديار العرب وأفخمها. ومن رؤسائه الأنبا قرياقس الذي تولّى أسقفيَّة بيثونية.

١١ ـ ذكر مؤرِّخو العرب، كالمسعوديّ والنُّوَيْريّ وأبي الفداء وحمزة الأصفهانيّ وغيرهم، خمسة أديار للعرب الغسّانيّين عدا دير «حالي»، فأثْبَتوا أنّ عَمْرَو الثّاني بن جبلة ملك غسّان «بَنى بالشّام دير هند ودير حالي ودير أيّوب». وقالوا أيضاً: إنّ الأيهم بن الحارث بن جبلة، أخا المنذر الأكبر، «بَنى دير ضخم ودير النُّبُوَّة». وابْتَنى مِلِكهم «ضجعم» ديراً يُقال له «دير داود»[4].

١٢ ـ **دير الأكراح:** تمّ تشييد هذا الدّير على شاطئ الفرات بجوار الرَّقَّة في القرن السّادس الميلادي على يد المِلِكة السُّريانيّة ثيودورة، وبتوالي الأيّام أُطلق

---

(١) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص١٦ ـ ١٧.

(٢) الإنجيل السَّطْرَنْجيلِيّ: استعمل نصارى العراق في كتبهم الطقوسية القلم «السطرنجيلي»، المشتق من القلم التدمري. وكتبوا به الأناجيل والكتب المقدسة. د. جواد علي، م. س، ج١، ص١٦٣.

(٣) قام منه: **المقصود هنا**: نشأ وتعلَّم وتَخَرَّج منه.

(٤) الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص١٧.

عليه اسم «دير العمود» و«دير مار زكّي». وفيه تهذّب رهبان عديدون ارتقوا إلى الدّرجات الأسقفيّة والبطريركيّة[1].

١٣ ـ دير العقبة: هذا الدّير هو الدّير السّادس عشر بين الأديار الوافرة العدد التي أنشأها بنو غسّان وملوكُهم أيّام عزِّهم. وجاء ذِكر رئيسه سرجيس بين الرؤساء الذين اجتمعوا بين السّنتَين ٥٧٠ و٥٧٨م من مائة وسبعة وثلاثين ديراً وقرّروا عقيدة الطّبيعة الواحدة. وناب عن سرجيس في المَجْمَع المذكور القسّ أوسطات الذي كان متولّياً خدمة «المجيد مُحِبّ المسيح البطريق المنذر».

وكان للسُّريان في بلاد الغساسنة أديار أخرى ابْتَنوها في أطراف يبرود وتدمر وحوّارين والنّبك وصدد والقريتَين حتّى قِنّسْرينَ والرُّصافة على شاطئ الفرات[2].

كما تُعزى أديرة عديدة إلى العصر الغسّانيّ، ومنها دير أيّوب في الشّيخ سعد. ويُنسب إلى هذا العصر أديرة كثيرة، مثل دير البخت ودير العدس وكفر شمس وعقربا ونامر وجاسم وكفر ناسج ودير ماكر، وفي منطقة اللّجاة الزّبايِر والزّبيرة ضمن حدود أراضي خبب، وعريقة التي هي «آريتا» نفسها، ودير داما ودير الأسمر، والدّير القريب من بصرى، ودير سمج.

أمّا في حوران، فهناك دير تليل بين قريتي مَفعلة ومَردك إلى الشّرق من قَرية سليم، ودير ناسج قرب قرية قنوات، ودير الكهف إلى الجنوب الشّرقيّ من ملح، ودير أُمّ عويني بعد خازمة، ودير الشّاعر قرب أمتان، ودير الميّاس جنوبيّ الغاريّة، والدّير في شقّا.

وتُشاهد أديرة أخرى قرب دمشق إلى الشّرق شمال بادية الصّفا، مثل الدّير الشّماليّ والدّير الوسطانيّ والدّير الجنوبيّ، وقد استعملها أمراء غسّان للوقوف على الأحوال السّياسيّة والعسكريّة التي كانت تَحْدُثُ بينهم وبين المناذرة أخصامِهم السّياسيّين على حدود بادية تدمر. ويجب إضافة أسماء أخرى إلى القائمة تقع على حدود دمشق، مثل الضّمير وحرستا ودوما، ومنها مواقع أخرى تقع على نهر بَرَدى، ويضاف إلى ذلك المعابد في إزرع، ومنها أقدم الكنائس، إضافة إلى الأديرة العديدة الواقعة في قلب المدينة[3].

(١) ألفكنت فيليب دي طرّازي، م. س، ج٢، ص١٧ ـ ١٨.
(٢) المرجع نفسه، ص١٨.
(٣) منير الذّيب، م. س، ص٧٠.

الفَصْل الثّاني عَشر

الدّيانة ـ اللّغة ـ متفرّقات

تمهيد

كان أهمّ دَوْرٍ لَعِبَتْهُ حضارتا الغساسنة والمناذرة أنّهما كانتا جسراً عبرت عليه ألوان من حضارة الفرس والرّوم إلى شبه الجزيرة العربيّة.

وأهمّ هذه الألوان الحضاريّة هي: الأديان، وضروب من المعارف العامّة، والفنون الحربيّة وغيرها[1].

الدّيانة الوثَنِيّة

كانت الدّيانة الوَثَنِيَّةُ شائعة عند العرب، وعلى رأس الأوثان كانت «اللّات» و«العُزّى» و«مَناة».

وكان العرب يتقرّبون لهذه الآلهة، بزعمهم، بالقرابين والهدايا، بعد أن شاعت عبادتها بين القبائل.

وكانت القبائل تُعظِّم هذه الأوثان، ولا سيّما الأوس والخزرج، إذ كانتا تَخُصّانِها بالتّعظيم، كخاصّة ثَقيفٍ للّات وقريشٍ للعُزّى، فإذا حَجّوا إلى مكّة المكرّمة، عادوا إلى «مَناة»، ليحلِقوا شعرَهم عندها، وربّما اعتُبرت «مَناةُ» إلهة القضاء والقَدَر، أو ما يُقابل الحَظَّ المُخَلِّص عند الإغريق (اليونانيّين). وأمّا تحطيم صنمها، فكان في السّنة الثّامنة للهجرة/ ٦٢٩م. عندما سار رسول الله محمّد بن عبد الله ﷺ لفتح مكّة المكرّمة، فأرسلَ عليَّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه للقيام بهذه المَهَمَّة، فهدمها وأخذ ما كان لها، ومن ذلك «سَيْفانِ» رُوِيَ أنّ الحارث بن أبي شَمِرٍ الغسّانيّ ملك الغساسنة كان قد أهداهما إليها، ويُقال: إنّ «ذا الفقار» سيف عليٍّ كرّم الله وجهه أحدُهما[2].

(١) أحمد معمور العَسيريّ، م. س، ص٤٥.
(٢) توفيق بِرّو، م. س، ص٢٩٥.

ومن القرابين التي قُدِّمَتْ للعُزّى: الأشخاص، ومن ذلك أنّ المنذر اللّخْمِيَّ أَسَرَ في عام ٥٤٤م. أحد أبناء الحارث الغسّانيّ وقَدَّمَهُ ضحيّة للإلهة العُزّى، وانتقم «الحارث» لنفسه بعد عشر سنوات في معركة حاسمة جرت قرب «قِنَّسْرينَ» حين قتل غريمه اللّخميّ[١].

الدّيانة النّصرانيّة

انتشرت النّصرانيّة عند الغساسنة في الشّام، وعند المناذرة حكّام الحيرة في العراق، وفي قبائل تَغْلِبَ وإيّاد وقُضاعة، وفي وادي القرى وأيْلَةَ واليمامة ودومة الجندل ويثرب (المدينة المنوّرة)، ونجران في اليمن، وعند أفراد من أهل الحجاز ولا سيما في مكّة المكرّمة. ومن المؤكّد أنّ قرب الأُمَمِ التي تعتنق هذه الدّيانة من شبه جزيرة العرب، كالرّوم في الشّام، والحبشة ومصر في الغرب، كان له أثر كبير على العرب. وكان أقْرَب إلى شبه الجزيرة العربيّة من هؤلاء، الغساسنة في جنوبيّ الشّام، والمناذرة في جنوبيّ العراق، وكان هؤلاء قد اعتنقوا النّصرانيّة على المذهبَين: اليعقوبيّ في الشّام، والنِّسطوريّ في الحيرة[٢].

وقد تَنَصَّرَ الغساسنة خلال القرن الرّابع الميلاديّ[٣]، واعتنقوا النّصرانيّة على مذهب الطّبيعة الواحدة[٤].

تكريم الغساسنة للمسيح ﵇

وصف النّابغة الذُّبيانيّ عبادة الغساسنة وتكريمهم للمسيح ﵇ بقوله:

مَجَلَّتُهُمْ ذاتَ الإلَـهِ ودينُـهُمْ ... قَويمٌ فما يَرْجون غَيْرَ العَواقِبِ

ووصف أجسادهم بالعِفَّةِ والطّهارة

يَصونونَ أجْساداً قَديماً نَعيمُها ... بِخالِصَةِ الأرْدانِ خُضرِ المَناكِبِ[٥]

حَجُّ النّصارى

اتَّخَذَ النّصارى زياراتٍ كثيرة، حَجّاً، أشهرُها زياراتهم لمنازل ولادة

(١) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٢١.
(٢) توفيق برّو، م. س، ص٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(٣) محمّد إبراهيم الفيّوميّ، م. س، ص١٢١.
(٤) توفيق برّو، م. س، ص١٥١.
(٥) منير الذّيب، م. س، ص٦٥.

عيسى ﵇ وزيارة أورْشَليم (القدس)، وكذا زيارة قبر «مار بولس» وقبر «مار بطرس» برومة (روما).

ومن حَجِّ النّصارى الذي لا يعرفه كثير من النّاس، وهو أقْدَمُ حَجِّهِم، أنّهم كانوا قبل الإسلام يَحُجّونَ إلى مدينة «عَسْقَلانَ» من بلاد السّواحل الشّاميّة (شاطئ فلسطين)، والمَظْنونُ أنّ الذين ابْتَدَعوا حَجَّها هم نصارى الشّام من الغساسنة لِقَصْدِ صَرْفِ النّاس عن زيارة الكعبة المشرّفة. وقد ذَكَرَ هذا الأمر «سُحَيْمٌ عَبْدُ بَني الحِسْحاس»[١]، وهو من المُخَضْرَمين[٢]، في قوله يَصِفُ وحوشاً جرفها السَّيْل:

كَـأنَّ الـوُحـوشَ بِـهِ عَـسْـقَـلا ... نُ، صادَفْنَ في قَرْنِ حَجٍّ ذِيافا[٣]

مَزارُ القدّيس سِرجِيوس في الرُّصافة

يُعَدُّ مشهد القدّيس سِرجِيوس في الرُّصافة، من أهمّ المزارات التي قصَدها نصارى عرب الشّام، كالغساسنة وتَغْلِب. وقد تقرَّب بعض ملوك الغساسنة إلى المشهد بتقديم الهدايا والنُّذور، وبتزيينه، وبزيارته، وبالاعتناء بالمدينة وبصهاريجها، تكريماً له، وتقرُّباً إليه، وظلّ هذا المزار مقصوداً مدّة في الإسلام. وقد عَدَّ التّغلبيّون هذا القدّيس شفيعَهم، وجعلوا له راية حَمَلوها معهم في الحروب، وكانوا يحملونها مع الصّليب تبرُّكاً وتيمُّناً بالنّصر[٤].

وذكر المُتَلَمِّسُ قرع الغساسنة للنّواقيس فقال:

حَنَّتْ قَلوصي[٥] بِها واللَّيْلُ مُطْرِقٌ ... بَعْدَ الهُدوءِ وشاقَتْها النَّواقيسُ[٦]

(١) سُحَيْم عَبْدُ بَني الحِسْحاس: اشتراه عَبْد اللهِ بن عامر، فأهداه إلى عُثْمان بن عَفّانَ، فردَّه عليه وقال: لا حاجة لنا فيه، وله أشعار كثيرة وأخبار. ابن الجوزيّ، المنتظِم في تاريخ الأُمَمِ والملوك، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج٥، ص١٤١.
(٢) المُخَضْرَم: مَن أدرك الجاهليّة والإسلام. المعجم الوجيز، م. س، ص٢٠١.
(٣) محمّد الطّاهر بن عاشور التّونسيّ، التّحرير والتّنوير «تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدّار التّونسيّة، تونس ـ تونس، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج٢، ص٢١٨. صادَفْنَ في قَرْنِ حجٍّ ذِيافا: أي أصابهنّ سُمٌّ فقتلهنّ.
(٤) د. جواد عليّ، م. س، ج١٢، ص١٦٩.
(٥) القَلوص: الإبل الفتيَّة المجتمعة الخَلْق، وذلك من حين تُرْكَبْ إلى التّاسعة من عُمُرِها، ثمّ هي ناقة. المعجم الوجيز، م. س، ص٥١٢.
(٦) منير الذّيب، م. س، ص٦٨.

الأعياد

كان للغساسنة أعياد يحتفلون بها، ومن ذلك أنّهم:

١ ـ كانوا يحتفلون في الرُّصافة بعيد القديس سِرجِيوس[1].

٢ ـ كانوا يحتفلون بعيد الشّعانين المعروف عندهم بـ «السَّباسِب».

وأشار النّابغة الذُّبيانيّ إلى ذلك فقال:

رِقاقُ النِّعالِ طيبٌ حُجُزاتهم ... يُحَيّونَ بالرّيحانِ يَوْمَ السَّباسِبِ
تُحَيّيهِمْ بيضُ الوَلائِدِ بَيْنَهُمْ ... وأَكْسِيَةُ الأضْرِيجِ فَوْقَ المَشاجِبِ

٣ ـ كانوا يحتفلون بعيد الفِصْح[2]، ووصف حسّان بن ثابتٍ استعدادَهم لهذا العيد فقال:

قَـدْ دَنـا الـفُـصْـحُ فـالـوَلائِـدُ ... يَـنْـظِـمْـنَ عُـقـوداً أكْـلَـةَ الـمُـرْجـانِ
يَـجـتَـنـيـنَ الـجـادي فـي نَـقْـطِ ... الـرَّيْـطِ عَـلَـيْـهـا مَـجـاسِـدُ الـكِـتّـانِ
لَـمْ يُـعَـلَّـلْـنَ بِـالـمَـغـافِـرِ والـصَّـمْـغِ ... ولا نَـقْـفِ حَـنْـظَـلِ الـشِّـرْيـانِ[3]

اللّغة ولهجات القبائل العربيّة

كان العرب الجنوبيّون يُدَوِّنونَ بلَهْجاتِهِمُ المعروفة، وهي: المَعينيَّةُ والسَّبَئِيَّةُ والحَضْرَميَّةُ والقَتْبانِيَّة، وَفْقاً لقواعد لهْجاتهم وبألفاظهم، فهي بالنّسبة لهم لغاتهم الفصيحة، لغة التّدوين والكلام. ولمّا قضى «السَّبَئِيّونَ» على استقلال حكومات مَعينَ وحَضْرَمَوْتَ وقَتْبانَ[4] ....

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٩، ص١٠٤.

(٢) عيد الفِصْح: هو عند اليهود عيد ذكرى خروجهم من مصر. وعند النّصارى عيد ذكرى قيامة السَّيِّد المسيح عليه السلام من الموت في اعتقادهم. المعجم الوجيز، م. س، ص٤٧٢.

(٣) منير الذّيب، م. س، ص٦٨.

(٤) قَتبان: تقع دولة قَتْبانَ في الأقسام الغربيّة من العربيّة الجنوبيّة، وفي جنوب السَّبْئِيّينَ وجنوبهم الغربيّ، وقد امتدّت منازلهم حتّى بلغت باب المندب، إلّا أنّ قتبان كانت مبتعدة عن السّاحل الهنديّ إلى الداخل، حيث كانت تقوم بينها وبين البحر مملكة «أوْسانَ» الصّغيرة. وأهمّ بلادها «شقرة» على ساحل المحيط الهنديّ، ثمّ تنتهي إلى إمارة عَدَن. محمّد بيّومي مَهْران، م. س، ص٢١٩. وقد عُثر على كتابات من أيّام «سمه عليّ وتر» كُتبت بشكل حلزونيّ، يبدأ السّطر منها من جهة اليمين إلى جهة اليسار، ثمّ يبدأ السّطر الثّاني من جهة اليسار وينتهي في جهة اليمين، وهكذا فقارئ الكتابة يقرأ السّطر الأوّل من اليمين على نحو ما يُقرأ في العربيّة، غير أنّه يقرأ السّطر الثّاني من جهة اليسار مُتَّجِهاً نحو اليمين؛ أي: على طريقة الكتابة =

وأوْسانَ[1] وتكوّنت منها حكومة واحدة، ضَعُفَتِ الخصائص اللُّغويَّة التي ميَّزت لهجات هذه القبائل بعضها عن بعض، واندمجت بلغة السَّبَئِيّينَ التي صارت لغة الحكومة، وصار العرب الجنوبيّون يكتبون بها إلى ظهور الإسلام، وأصبحت هذه اللّغة هي اللّغة الفُصحى عندهم، وقَلَمُها هو «المُسْنَد[2]»[3].

أمّا بالنّسبة إلى العرب الآخرين، فالظّاهر أنّ عربيّة «ال»، كانت قد تغلّبت عند ظهور الإسلام على العربيّات الأخرى، وفي ضمنها عربيّة الـ «هـ» «ها»، وذلك بقوة وضخامة القبائل المتكلِّمة بها، وباستعمال حكومة الحيرة وحكومة الغساسنة وحكومة كِندة لها، ممّا حمَل الخطباء والشُّعراء والكهنة والسَّحَرَةَ على النُّطق بها، وبلهجاتهم الخاصّة بهم، وهي لهجات كانت متقاربة لكنّها تختلف فيما بينها في استعمال بعض الألفاظ وفي كيفيَّة النُّطق بالكَلِم، أي: في مخارج الحروف، وفي خصائصَ نَحويَّةٍ وصَرْفِيَّة. إلّا أنّ هذه الفروق والاختلافات لم تُخرجها مع ذلك عن وَحدة اللّغة، وهي كلّها في نظر أصحابها عربيَّة فصيحة، وقد كانت تتقارب باحتكاك القبائل بعضها ببعض، وبتَوسُّع نفوذ ملوك الحيرة في جزيرة العرب، وبتَنقُّل الشُّعراء والخطباء بين القبائل يدعونهم إلى النّصرانيّة، التي كانت قد جاءت من الحيرة بنصرانيَّة شرقيَّة عربيَّة متأثّرة بالآراميَّة، لكنّها اضطرّت إلى التَّعرُّبِ بالتّدريج. وبقي الحال على هذا المنوال إلى أن ظهرت كلمة الإسلام بلغة «ال»، فصارت بنزول الوحي بها أفْصَحَ ألْسِنَةِ العرب، وصار قَلَمُها قَلَمَ الإسلام المقرِّر.

= اللّاتينيّة، ويقال لهذا النّوع من الكتابات في الإنكليزيّة: Boustrophedonlnscriptins، وتُعَدُّ في نظر علماء الخطّ والآثار أقدَم عهداً من الكتابات الأخرى التي تسير على نسق واحد من اليمين إلى اليسار، أو من اليسار إلى اليمين، ويرى «أُلْبْرايْت» أنّ هذا المكرَّب قد حكم في القرن السّادس قبل الميلاد. د. جواد عليّ، م. س، ج٣، ص١٧٩ ـ ١٨٠.

(١) دولة أوْسان: نشأت إلى الجنوب من قَتْبانَ وامتدَّت في عصور مجدها حتّى حدود حَضْرَمَوْت. وبقي اسمها حيّاً في ألقاب بعض مواطنيها إلى ما بعد ظهور الإسلام. عبد العزيز صالح، م .س، ص٩٣.

(٢) الخط المسند: كان نشر الأبجدية الآرامية في بلاد اليمن، وهي الأبجدية التي نشأ منها «الخط المسند»، وهو الخط الذي أُخِذَ منه «الخط العربي» بعد تعديله، وإضافة ستة أحرف، التي تسمى الأحرف الروادف التي يجمعها قول: «ثخذ ضظغ». محمد إبراهيم الفيومي، م .س، ص١١٦.

(٣) د. جواد عليّ، م. س، ج١٦، ص٣٢٠ ـ ٣٢١.

وبذلك نُبِذَ المُسْنَدُ وماتت الكتابة به منذ ذلك الحين، ومات التّراث العربيّ الجنوبيّ بموت لسانه وقَلَمِه.

وبانتصار الإسلام على الشِّرك، والإسلام دين ودولة، دَعْوَتُهُ إلى «أُمَّةٍ» المواطنون فيها إخوة، وله لسان هو اللّسان الذي نزل به القرآن الكريم، صار هذا اللّسان أفْصَحَ منذ ذلك الحين، بل لسانَ أهل الجنّة، وصار من الواجب على المسلمين تثبيت قواعده ودراسته لفهم كتاب الله المُنْزَلِ به، خدمة لدين الله الذي شَرَّفَ هذا اللّسان باتّخاذه لساناً له، ورعاية قلمه الذي ثَبَّتَ كتاب الله، وقام العلماء بضبط قواعده وجَمْعِ مفرداته، والبحث في كل ما يتعلّق بهذا اللّسان من عِلم، وقام بهذه المَهمّة علماءُ المِصْرَيْن[1]: البصرة والكوفة[2].

لسان الغساسنة وكتابتهم

تكلّم كلّ من المناذرة والغساسنة اللّغة العربيَّة الشّماليَّة، واتّخَذَ كُلٌّ منهما الكتابة الآراميَّة السُّريانيَّة في مراسلاتهما[3]. وممّا لا ريب فيه أنّ العرب الغساسنة لمّا بلغوا حوران وبادية الشّام لاقوا فيها سكّاناً آراميّين يتكلّمون بالآراميَّة السُّريانيَّة[4] فامتزجوا بهم وتلقّنوا لغتهم[5].

وقد عُثر على كتابة وُجدت على قبر امْرِئِ القَيْسِ[6] بين آثار الغساسنة في حوران، وهم الذين كانوا يتولّون للرّوم على مشارق الشّام، والكتابة بالحرف النَّبَطِيّ، ويُؤخذ منها أنّها كُتبت سنة ٣٢٨م، وهي لغة عربيَّة تَشوبها صِبغة

(١) المِصْر: المدينة الكبيرة التي تُقام فيها الدّور والأسواق والمدارس وغيرها من المرافق العامّة. المعجم الوجيز، م. س، ص٥٨٤.

(٢) د. جواد عليّ، م. س، ج١٦، ص٣٢١.

(٣) توفيق بِرّو، م. س، ص١٥١.

(٤) كان سكّان حوران وبادية الشّام، مونوفيزيين وملكانيين، يَستعملون اللّسان السُّريانيَّ في كنائسهم ومنازلهم. وقد أثبت ذلك بطريرك المَلِكيّين مكاريوس الثّالث (١٦٤٧م ـ ١٦٧٢م) المعروف بـ «ابن الزّعيم» في تقريره سنة ١٦٧١م عن الكَلْوِينيّين. الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي، م. س، م٢، ص٧.

(٥) المرجع نفسه، ص٦.

(٦) امْرُؤ القَيْسِ بن عَمْرٍو من ملوك اللَّخْمِيّين الذين كانوا يتولّون الحكم للفرس، ومقرُّهم الحيرة على طرف العراق. مصطفى صادق الرّافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربيّ، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ج١، ص٥٧.

آراميّة، ونصّها بالحرف العربيّ (الأرقام هي أرقام الأسطر):

١ ـ تي نفس مر القيس بن عَمْرو ملك العرب كلّه ذو اسر التّاج

٢ ـ وملك الأسدين ونزور وملوكهم وهرب مذحجو عكدي وجاء

٣ ـ يزجو في حبج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزول بنيه

٤ ـ الشعوب ووكله لفرس ولروم فلم يبلغ ملك مبلغ

٥ ـ عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بسكسول بلسعد ذو ولده.

وترجمتها:

١ ـ هذا قبر امْرِئِ القَيْسِ مِلِك العرب كلّهم، الذي تقلّد التّاج

٢ ـ وأخضع قبيلتَي أسدٍ ونزار وملوكِهم، وهزم مِذْحِجَ إلى اليوم، وقاد

٣ ـ الظَّفْرَ إلى أسوار نجران مدينة شَمِر، وأخضع مَعْداً، واستعمل بَنيه

٤ ـ على القبائل، وأنابهم عنه لدى الفرس والرّوم، فلم يبلُغ مَلِكٌ مَبلغه

٥ ـ إلى اليوم، هلك سنة ٢٢٣ في اليوم السّابع من أيلول، وُفِّقَ بَنوه للسّعادة.

وهذه اللّغة تكاد تكون الحلقة المتوسِّطة بين الآراميَّة والعربيَّة، أو هي أقدم ما يمكن أن يُسمّى عربيَّة في اللّغات الشّماليَّة. أمّا البادية لذلك العهد فلا شكّ في أنّ لغتها كانت أخلَص منطِقاً وأعذَب بياناً وأدنى إلى عهد الجاهليَّة التي أدركَها التّاريخ، والفرق في ذلك بين اللّغتَين، طبيعةُ الفرق بين الجهتَين[1].

كلمات غير عربيَّة في لغة الغساسنة

استعمل النّاس عبر الزَّمن كلمات تعطي دلالات معيَّنة لحاجاتهم زمن استعمالها، وقد اندثر قسم من هذه الكلمات عندما انتفت الحاجة إليها، أو عندما استُبدِلت بكلمات أخرى تعطي المعنى نفسه، أو معنىً أدقّ لتطوُّر ما تدلُّ عليه، فيما بقيت كلمات أخرى تدلُّ على المعنى القديم نفسه أو مع تعديل له، بسيط أو كبير، وصولاً إلى إعطاء معنىً عكسيٍّ تماماً. وليس هنا مجال التّوسّع وعرض الأمثلة عن كلّ هذه الحالات، ولذلك سيتمّ هنا عرض بعض الأمثلة المتعلّقة بهذا البحث.

(١) مصطفى صادق الرّافعي، م. س، ج١، ص٥٧ ـ ٥٨.

ومن الكلمات التي بقيت من عهد الغساسنة إلى اليوم ويحسَبها السّامع كلمات عربيّة، بينما هي تعود بجذورها إلى اللّغة اللّاتينيّة كلمة «الكورَة (اسم منطقة)»، وهي في أصلِها كلمة لاتينيّة. وكان للرّومان في ديار العرب «كورَةٌ» عرَفها التّاريخ باسم «الكورَة الرّومانيّة»، وقد بدأ إنشاؤها في عهد دولة «ملخس الثّاني (في نحو سنة ٤٥، وعلى رأيٍ آخر في سنة ٤٨ للميلاد)»، وثبتَت بأيديهم في سنة ١٠٥ للميلاد.

ثمّ امتدّ ظِلُّ صَوْلَجانِهِمْ[1] فيها في عهد الغساسنة، ولم يتقلّص منها إلّا عند فتوح الإسلام مع انتهاء عهد الغساسنة، الذين كان آخر أمرائهم جبلة بن الأيهم في نحو أواخر المائة السّادسة للميلاد[2].

ويوجد في اللّغة العربيّة، إلى الآن، كلمات أصلُها لاتينيٌّ رومانيّ، مثل: قِنْطار، ودِرْهَم، ودينار، وبَلّان، ودَمَسْتَق، وقيصر، ووُقِيَّة، وحَقَّة، ورِطْل، وقَيْطَس، وقُمْس، وقَنْديد، وانْبِراذور (انْبراطور)... إلخ[3].

كما أخذ الغساسنة من اللّغة اليونانيّة كثيراً من الكلمات، مثل: الكنيسة والرّاهب، واستخدموها في كتاباتهم ومخاطباتهم[4]، ولا تزال هذه الكلمات مستعملة حتّى اليوم.

ومن الكلمات غير العربيّة التي لا زالت مستعملة أيضاً، كلمة «حَرْثا (معسكر)» التي استعملها يوحنا الأَفَسُسِيّ، وهي تدلّ بصراحة على أنّ الغساسنة لم يكونوا قد انفصلوا تماماً عن حياة البداوة، إذ إنّ معنى هذه الكلمة في السُّريانيَّة هو «حظيرة» أو شيءٌ من هذا القَبيل. وقد استعمل المناذرة هذه الكلمة، فظهرت عندهم تارة «حَرْثا النُّعمان» وطَوراً «حَرْثا»، وهي ولا شكّ تلك المدينة التي عُرفت عند العرب باسم «الحيرة»[5].

---

(١) الصَّوْلَجان: عصا يحملها الملِك وترمز إلى سلطانه. المعجم الوجيز، م. س، ص٣٧٤. **والمقصود هنا:** امتدّ سلطانهم.

(٢) أنِسْتاس ماري الألياوي الكَرْمِلي، بطرس يوسف عوّاد، مجلة لغة العرب العراقيّة، وزارة الإعلام، الجمهوريّة العراقيّة، مديريّة الثّقافة العامّة، مطبعة الآداب، بغداد ـ العراق، ج٦، ص٥٤٠.

(٣) المصدر نفسه

(٤) د. حلمي محروس إسماعيل، م. س، ص٣٧٢.

(٥) لمزيد من التّفصيل انظر: ثيودور نولدكة، م. س، ص٥٢ ـ ٥٣.

تأريخ الغسّانيّين

كان أهل الشّام وحوران في عهد الغساسنة يؤرِّخون من دخول بصرى عاصمة حوران في حوزة الرّوم، سنة ١٠٥ للميلاد[1].

خبرة الغسّانيّين بأخبار جيرانهم

كان الغساسنة خبيرين بأخبار الرّوم، وبني إسرائيل، واليونانيّين[2].

الرّسم

يُعتبر الرّسم إحدى الأشياء التي كانت مشهورة عند الغساسنة، ومن ذلك رسم صور الأنبياء عليهم السلام على الثّياب. وقد أوْرَدَ أبو نُعَيْم في مُصَنَّفِهِ رواية في هذا الشّأن، وانْفَرَدَ بها، وهي رواية الصُّوَرِ التي وُجدتْ على ثياب جبلة بن الأيهم الغسّانيّ، جدّ الغساسنة، وفيها صُوَرُ كلِّ نَبِيٍّ من آدم عليه السلام إلى محمّد صلى الله عليه وآله[3].

الطعام

كان الغساسنة يَخْتَصّونَ من بين العرب بالطَّيِّبات، ولهم «الثَّريدة»[4] التي يُضرب بها المَثل[5].

دفن الموتى

كان من أشهر ما بقي ذِكره عن مقابر الغساسنة، المقبرتان التّاليتان:

١ ـ المَوْصِل (الحَدْباء): توجد في المَوْصِلِ المقبرة المسمّاة «تُرْبَةُ غسّان»، وقد اختطّها الغساسنة عندما اختطّوا في الموصل خُطَطَهُم.

٢ ـ جِلِّق: يوجد للغساسنة ضريح في جِلِّقَ ضَمَّ رُفات ملوكهم. ومع شهرة

---

(١) مصطفى صادق الرّافعي، م. س، ج١، ص٥٨.

(٢) عمر رضا كحّالة، م. س، ج٣، ص٨٨٥.

(٣) عمّار عبّودي نصّار، تطوُّر كتابة السّيرة النّبويّة، الدّار الثقافيّة العامّة، بغداد ـ العراق، ط١، ١٤١٨هـ، ص٣٧٤.

(٤) الثَّريد: ما يُفَتُّ من الخبز، ثمَّ يُبَلُّ بمَرَق. والمَرَقُ هو الماء الذي أُغْلِيَ فيه اللّحم فصار دَسِماً. المعجم الوجيز، م. س، ص٨٣ و٥٧٩.

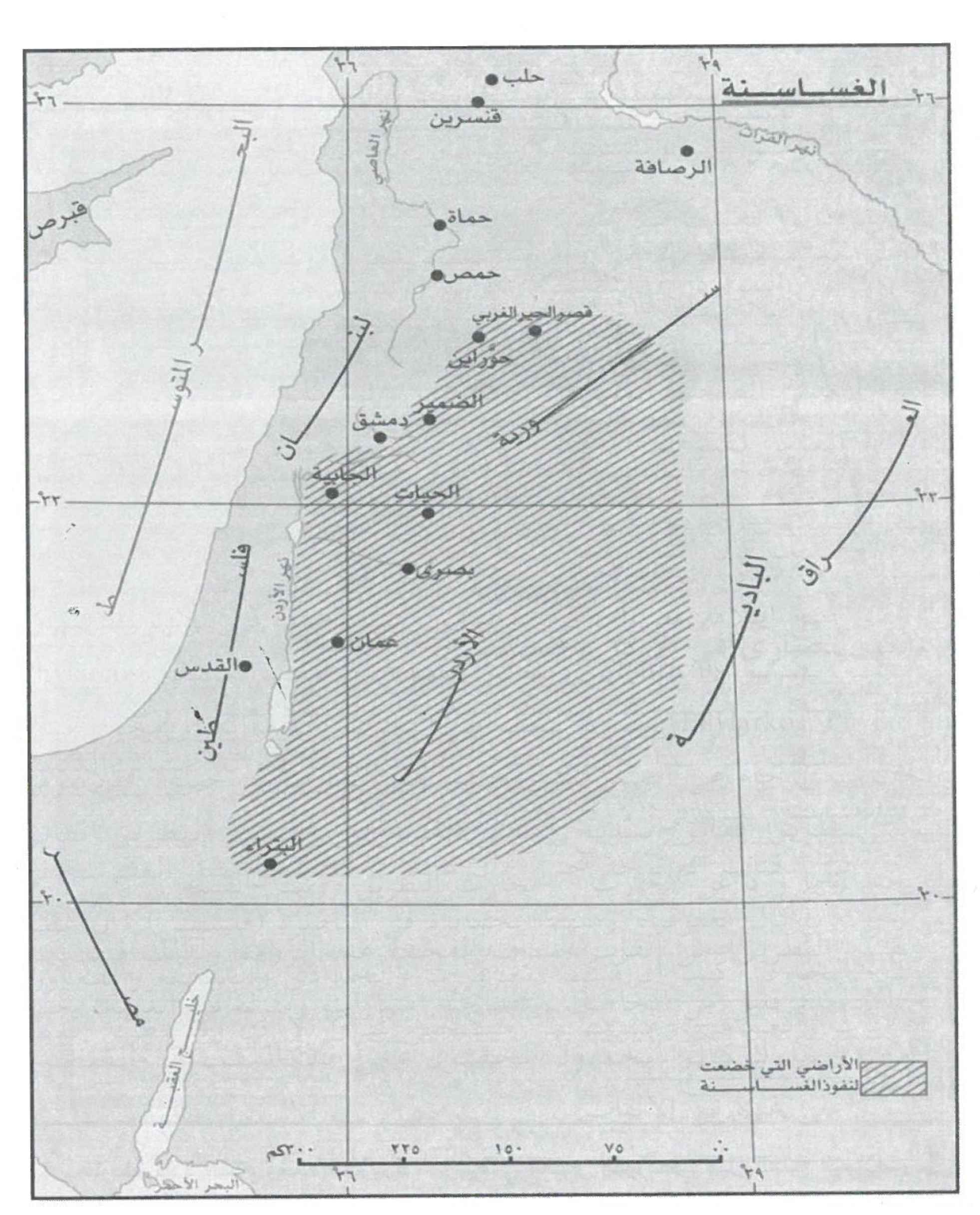
(٥) عمر رضا كحّالة، م. س، ج٣، ص٨٨٥.

المكان فقد اختلف النّاس في تثبيت موضِعه وتعيينه، والرّأي الغالب أنّه ليس من أطراف دمشق كما ذهب إلى ذلك بعض أهل الأخبار[1]. وتضمّ جِلِّقَ أيضاً قبر «ابن مارِيَةَ» كما ورد من أخبار حسّان بن ثابِت[2].

(١) د. جواد عليّ، م. س، ج٦، ص١٢٧.

(٢) ثيودور نولدكة، م. س، ص٥١.

خارطة بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية في العصر البيزنطي قبل الفتح الإسلامي



حدود دولة الغساسنة

المصادر والمراجع

أ ـ الكتب

١ ـ **إبراهيم بن عمر البقاعيّ**، نَظْمُ الدُّرَرِ في تَناسُبِ الآيات والسُّوَر، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة ـ مصر، د. ت.

٢ ـ **ابن الأثير**، أُسْدُ الغابة في معرفة الصّحابة، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٣ ـ **ابن إسحاق**، أخبار مكّة في قديم الدَّهر وحَديثِه، تحقيق د. عبد الملِك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٤ ـ **ابن بطّوطة**، رحلة ابن بطّوطة «المُسَمّاة تحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، دار الشّرق العربيّ، د. ت.

٥ ـ **ابن الجوزيّ**، غريب الحديث، تحقيق د. عبد المعطي أمين القلعجيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٦ ـ **ابن الجوزيّ**، المُنتظِم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٧ ـ **ابن الحائك**، صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل ـ ليدن، ١٨٨٤م.

٨ ـ **ابن حِبّان**، الثّقات، دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد الدّكن الهند، ط١، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٩ ـ **ابن حجر العسقلانيّ**، الإصابة في تمييز الصّحابة، تحقيق مركز هَجَر للبحوث، دار هَجَر، القاهرة ـ مصر، د. ت.

١٠ ـ **ابن حجر العسقلاني**، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ. .

١١ ـ **ابن حجر العسقلاني**، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد/ الهند، ط٢، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

١٢ ـ **ابن حديدة**، المصباح المُضيء في كُتّابِ النبيّ الأُمّيّ ورُسُلِهِ إلى ملوك الأرض من عربيّ وعجميّ، تحقيق محمّد عظيم الدّين، عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت.

١٣ ـ **ابن حزم**، جَمهرة أنساب العرب، تحقيق لجنة من العلماء، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٤ ـ **ابن حزم**، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

١٥ ـ **ابن حزم**، الفَصل في المِلَلِ والأهواء والنِّحَل، مكتبة الخانجي، القاهرة ـ مصر، ط١، د. ت.

١٦ ـ **ابن خِرْداذَبَة**، المسالك والممالك، دار صادر، أفست ليدن، بيروت ـ لبنان، ١٨٨٩م.

١٧ ـ **ابن خلدون**، كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٨ ـ **ابن سعد**، الطّبقات الكبرى، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٦٨م.

١٩ ـ **ابن سعيد الأندلسي**، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق د. نصرت عبد الرحمٰن، مكتبة الأقصى، عمان ـ الأردن، د. ت.

٢٠ ـ **ابن عبد البَرّ**، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمّد البجاويّ، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٢١ ـ **ابن العِبْريّ**، تاريخ مختصر الدّول، تحقيق أنطون صالحانيّ اليسوعيّ، دار الشّرق، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٩٩٢م.

٢٢ ـ **ابن عساكر**، تاريخ دمشق، تحقيق عَمْرو بن غرامة العمرويّ، دار الفكر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٣ ـ **ابن قيّم الجوزيّة**، زاد المَعاد في هَدْي خير العباد، مؤسّسة الرّسالة، بيروت ـ لبنان، مكتبة المنار الإسلاميّة، الكويت ـ الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢٤ ـ **ابن كثير**، البداية والنّهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المُحسِن التّركيّ، دار هَجَر، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٥ ـ **ابن كثير**، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٢٦ ـ **ابن منظور**، لسان العرب، دار صادر/ دار بيروت، بيروت ـ لبنان، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٢٧ ـ **ابن هشام**، السّيرة النّبويّة، دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٢٨ ـ **ابن هشام**، السّيرة النّبويّة، تحقيق مصطفى السَّقّا وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٢٩ ـ **ابن وَهْب**، الجامع في الحديث، تحقيق د. مصطفى حسن حسين محمّد أبو الخير، دار ابن الجوزيّ، الرّياض ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٣٠ ـ **أبو البقاء هِبة الله محمّد بن نما الحِلّيّ**، المناقب المَزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة، تحقيق محمّد عبد القادر خريسات، صالح موسى درادكة، كليّة الآداب ـ الجامعة الأردنيّة، مكتبة الرّسالة الحديثة، عمّان ـ الأردن، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٣١ ـ **أبو جعفر البغداديّ**، المُحَبَّر، تحقيق إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان، د. ت.

٣٢ ـ **أبو الحسن النَّدْوِيّ**، السّيرة النّبويّة، دار ابن كثير، دمشق ـ سورية، ط١٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٣ ـ **أبو عُبَيْدٍ البَكْرِيّ الأندلسيّ**، مُعجم ما اسْتَعْجَمَ من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٣٤ ـ **أحمد إبراهيم الشّريف**، مكّة والمدينة في الجاهليّة وعهد الرّسول ﷺ، دار الفكر العربيّ، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٥ ـ **أحمد أحمد غَلْوَش**، السّيرة النّبويّة والدّعوة في العهد المَكّيّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٦ ـ **أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي**، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت.

٣٧ ـ **أحمد بن يحيى القُرَشِيّ**، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثّقافيّ، أبو ظبي ـ الإمارات العربيّة المتّحدة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٣٨ ـ **أحمد شوقي**، تاريخ الأدب العربيّ العصر الجاهليّ، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، د. ت.

٣٩ ـ **أحمد عادل كمال**، الطّريق إلى دمشق (فتح بلاد الشّام)، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٤٠ ـ **أحمد عجّاج كرمى**، الإدارة في عصر الرّسول ﷺ، دار السّلام، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٤١ ـ **أحمد معمور العَسيريّ**، موجز التّاريخ الإسلاميّ منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧م)، د. ن.، الرّياض ـ السّعوديّة، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٤٢ ـ **إدوارد كرنيليوس فانْدَيْك**، اكتفاء القَنوع بما هو مطبوع، صحّحه وزاد عليه السَّيِّد محمّد عليّ البِبْلاوي، مطبعة التّأليف (الهلال)، القاهرة ـ مصر، ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م.

٤٣ ـ **أرنولد تويْنْبي**، تاريخ البشريّة، نقله إلى العربيّة د. نقولا زيادة، الأعمال الكاملة، الدّار الأهليّة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٨م.

٤٤ ـ **د. أسد رستم**، الرّوم (في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم وصِلاتهم بالعرب)، دار المكشوف، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٥٥م.

٤٥ ـ **أغناطيوس غويدي**، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربيَّة قبل الإسلام، ترجمه وقدَّم له إبراهيم السّامرّائيّ، دار الحداثة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٨٦م.

٤٦ ـ **أنِسْتاس ماري الألياوي الكَرْمِلي**، بطرس يوسف عوّاد، مجلة لغة العرب العراقيّة، وزارة الإعلام، الجمهوريّة العراقيّة ـ مديريّة الثّقافة العامّة، مطبعة الآداب، بغداد ـ العراق، د. ت.

٤٧ ـ **البخاريّ**، صحيح البخاريّ، تحقيق محمّد زهير بن ناصر النّاصر، دار طوق النّجاة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٠م.

٤٨ ـ **بريك بن محمد بريك**، غزوة مؤتة والسرايا والبعوث النبوية الشمالية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة ـ المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٤٩ ـ **البَلاذُرِيّ**، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكّار ورياض الزِّرْكِلِيّ، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٥٠ ـ **البَلاذُرِيّ**، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٥١ ـ **بيتر جوبسر**، السّياسة والتّغَيُّر في الكرك ـ الأردن، دراسة لبلدة عربيّة صغيرة ومنطقتها، ترجمة خالد الكركيّ، مراجعة عدنان البخيت، منشورات الجامعة الأردنيّة، عمّان ـ الأردن، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

٥٢ ـ **توفيق برّو**، تاريخ العرب القديم، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٥٣ ـ **توفيق بن عبد العزيز السُّدَيْريّ**، الإسلام والدّستور، وكالة المطبوعات والبحث العلميّ وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، الرّياض ـ السّعوديّة، ط١، ١٤٢٥هـ.

٥٤ ـ **الثّعالِبِيّ**، يتيمة الدّهر في محاسِن أهل العصر، تحقيق د. مفيد محمّد قمحيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٥٥ ـ **ثيودور نولدكة**، أمراء غسّان، وهي رسالته «أمراء غسّان من آل جَفْنَة»، نشرَتها أكاديميّة العلوم البْروسْيانِيَّة في برلين، نقلَها إلى العربيّة وأضاف إليها تصحيحات مؤلِّفها الأخيرة د. بيدلي جوري، د. قسطنطين زريق، المطبعة الكاثوليكيّة، منشورات كليّة العلوم والآداب، الجامعة الأميركيّة في بيروت، بيروت ـ لبنان، ١٩٣٣م.

٥٦ ـ **الجُرجانيّ**، التّعريفات، مطبعة مصطفى البابِيّ الحلبيّ، القاهرة ـ مصر، ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

٥٧ ـ **د. جواد عليّ**، المفصّل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، دار السّاقي، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٥٨ ـ **الحاكم النَّيْسابوريّ**، المُستدرَك على الصَّحيحَين، تحقيق مُقْبِلْ بن هادي الوادِعِيّ، دار الحَرَمَيْن، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٥٩ ـ **د. حسن محمّد سَفَر**، السِّفارات في النّظام الإسلاميّ، مجلّة البحوث الفقهيّة المُعاصرة، السّنة ٣، العدد ٩، بيروت ـ لبنان، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٦٠ ـ **حسين بن محمّد بن الحسن الدِّيار بَكْريّ**، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النّفيس، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت.

٦١ ـ **د. حسين مؤنس**، أطلس تاريخ الإسلام، الزّهراء للإعلام العربيّ، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٦٢ ـ **د. حلمي محروس إسماعيل**، الشّرق العربيّ القديم وحضاراته (بلاد ما بين النَّهْرَيْن والشّام والجزيرة العربيّة القديمة)، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة ـ مصر، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٦٣ ـ **د. حمّود بن أحمد بن فرج الرُّحَيْلِيّ**، منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنوّرة ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٦٤ ـ **الحِمْيَريّ (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)**، الرّوض المِعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبّاس، مؤسسة ناصر للثّقافة، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٩٨٠م.

٦٥ ـ **خير الدّين الزِّرْكِلِيّ**، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط١٥، ٢٠٠٢م.

٦٦ ـ **الدينوري**، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ مصر، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٦٧ ـ **الرّازي**، مختار الصّحاح، تحقيق يوسف الشّيخ محمد، المكتبة العصريّة، الدّار النّموذجيّة، بيروت، صيدا ـ لبنان، ط٥، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٦٨ ـ **رزق الله يوسف شيخو**، تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت.

٦٩ ـ **رزق الله يوسف شيخو**، شعراء النصرانية، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيّين، بيروت ـ لبنان، ١٨٩٠م.

٧٠ ـ **رزق الله يوسف شيخو**، مَجاني الأدب في حدائق العرب، مطبعة الآباء اليَسوعِيّين، بيروت ـ لبنان، ١٩١٣م.

٧١ ـ **الزّيلعيّ**، نَصْبُ الرّاية لأحاديث الهداية مع حاشيته بُغية الألمعيّ في تخريج الزّيلعيّ، تحقيق محمّد عوّامة، مؤسّسة الرّيّان، بيروت ـ لبنان، دار القِبلة للثّقافة الإسلاميّة، جدّة ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧٢ ـ **د. سلمان أبو سته**، حدود فلسطين مدخل إلى الاستعمار، مجلة عالم الفكر، الكويت ـ الكويت، العدد ٤، المجلد ٣٢، ابريل، ويوليو ٢٠٠٤م.

٧٣ ـ **سليمان بن سالم السّحيميّ**، الأعياد وأثرها على المسلمين، الجامعة الإسلاميّة المدينة المنوّرة، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط٢، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٧٤ ـ **سليمان بن موسى الكلاعيّ الحِمْيَريّ**، الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله، ﷺ، والثّلاثة الخلفاء، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٧٥ ـ **السمعاني**، الأنساب، تحقيق عبد الرحمٰن بن يحيى المعلمي اليماني وآخرون، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ـ الهند، ط١، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

٧٦ ـ **أ. د. السَّيِّد عبد العزيز سالِم**، تاريخ العرب في عصر الجاهليّة، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندرية ـ مصر، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٧٧ ـ **سيف الدّين الكاتب**، أطلس التّاريخ القديم، سلسلة أطلس تاريخ الحضارات، دار الشّرق العربيّ، بيروت ـ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٧٨ ـ **صالح بن الحسين الجعفريّ أبو البقاء الهاشميّ**، تخجيل مَن حرَّف التّوراة والإنجيل، تحقيق محمود عبد الرّحمٰن قدح، مكتبة العبيكان، الرّياض ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٧٩ ـ **صفيّ الرّحمٰن المُباركفوريّ**، الرّحيق المختوم، دار العصماء، دمشق ـ سورية، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٨٠ ـ **الطَّبَرانيّ**، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السَّلَفِيّ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة ـ مصر، ط٢، د. ت.

٨١ ـ **الطَّبَرِيّ**، تاريخ الطَّبَرِيّ، دار التّراث، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٣٨٧هـ/ ١٩٥٣م.

٨٢ ـ **عاتق بن غيث**، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، المكرمة ـ المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٨٣ ـ **عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري**، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق ـ سورية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٨٤ ـ **عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي**، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٨٥ ـ **عبد الله بن عبد المُحْسِنِ التُّرْكِيّ**، الملك عبد العزيز آل سعود أُمَّةٌ في رجل، وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السعوديّة، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٨٦ ـ **عبد الرّؤوف بن تاج العارفين بن عليّ بن زين العابدين الحدّاديّ**، التّيسير بشرح الجامع الصّغير، مكتبة الإمام الشّافعيّ، الرّياض ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٨٧ ـ **عبد الشّافي محمّد عبد اللّطيف**، السّيرة النّبويّة والتّاريخ الإسلاميّ، دار السّلام، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

٨٨ ـ **عبد العزيز صالح**، تاريخ شبه الجزيرة العربيّة في عصورها القديمة، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ـ مصر، ط١، د. ت.

٨٩ ـ **عبد المؤمن بن عبد الحق**، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٩٠ ـ **د. عثمان جمعة ضميريّة**، أصول العلاقات الدّوليّة في فقه الإمام الشّيْبانيّ، دراسة فقهيّة مقارنة، دار المعالي، عمّان ـ الأردنّ، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٩١ ـ **عدنان العطار**، الأطلس التّاريخيّ للعالمَين العربيّ والإسلاميّ من أقدم العصور إلى اليوم، دار سعد الدّين، دمشق ـ سورية، ط٣، ١٩٩٢م.

٩٢ ـ **عليّ بن إبراهيم بن أحمد الحلبيّ**، السّيرة الحلبيّة، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٩٣ ـ **عليّ بن الحسن الخزرجيّ الزّبيديّ**، العقود اللّؤلؤيّة في تاريخ الدّولة الرّسوليّة، تحقيق محمّد بن عليّ الأكوع الحواليّ، مركز الدّراسات والبحوث اليمنيّ، صنعاء ـ اليمن، دار الآداب، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٩٤ ـ **عَلي محمد محمد الصَّلَّابي**، الدولَة الأمويَّة عَوامِلُ الازدهارِ وَتَداعيات الانهيار، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٩٥ ـ **عليّ محمّد محمّد الصَّلّابِيّ**، السّيرة النّبويّة، عرضُ وقائعَ وتَحليلُ أحداث، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ط٧، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٩٦ ـ **عماد الدّين خليل**، دراسة في السّيرة، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٩٧ ـ **عمّار عبّودي نصّار**، تطوُّر كتابة السّيرة النّبويّة، الدّار الثّقافيّة العامّة، بغداد ـ العراق، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٩٨ ـ **عمر رضا كحّالة**، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت ـ لبنان، ط٧، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٩٩ ـ **د. عمر شرف الدّين**، الشّعر في ظلال المناذرة والغساسنة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٠٠ ـ **الفيكُنْتْ فيليب دي طَرّازي**، أصدَق ما كان عن تاريخ لبنان وصفحة من أخبار السُّريان، مطابع جوزف سليم صيقلي، بيروت ـ لبنان، ١٩٤٨م.

١٠١ ـ **د. فيليب حتّي وآخرون**، تاريخ العرب، بيت الحكمة للتّأليف والطّباعة، بيروت ـ لبنان، ط٥، ١٩٧٤م.

١٠٢ ـ **القزوينيّ**، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ـ لبنان، د. ت.

١٠٣ ـ **القلقشندي**، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

١٠٤ ـ **لطفي عبد الوهّاب**، العرب في العصور القديمة، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة ـ مصر، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٠٥ ـ **الماورديّ**، تفسير الماورديّ، تحقيق السَّيِّد بن عبد المقصود بن عبد الرّحيم، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، د. ت.

١٠٦ ـ **مجلّة البحوث الإسلاميّة**، الرّئاسة العامّة لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدّعوة والإرشاد، الرّياض ـ المملكة العربيّة السّعوديّة.

١٠٧ ـ **مجمع اللّغة العربيّة**، المعجم الوجيز، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٠٨ ـ **مجموعة من الباحثين بإشراف: ج. م. دانتزر**، سورية الجنوبيّة (حوران)، بحوث أثريّة في العهدَين الهِلّينِيّ والرّومانيّ، تعريب أحمد عبد الكريم وآخرون، دار الأهالي، دمشق ـ سورية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

١٠٩ ـ **محمّد إبراهيم الفيّوميّ**، تاريخ الفكر الدّينيّ الجاهليّ، دار الفكر العربيّ، القاهرة ـ مصر، ط٤، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١١٠ ـ **محمّد أحمد درنيقة**، معجم أعلام شعراء المدح النّبويّ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١١١ ـ **محمّد أحمد محمّد ملكاوي**، عقيدة التّوحيد في القرآن الكريم، مكتبة دار الزّمان، المدينة المنوّرة ـ المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١١٢ ـ **محمّد بن عبد الله المعافريّ الإشبيليّ المالكيّ**، العَواصِم من القَواصِم، تحقيق مُحِبّ الدّين الخطيب، وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السّعوديّة، ط١، ١٤١٩هـ.

١١٣ ـ **د. محمد بن عبد الكريم بن عبيد**، روايات ونسخ الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري «دراسة وتحليل»، دار إمام الدعوة، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٦هـ..

١١٤ ـ **محمّد بن محمّد بن محمّد بن أحمد**، عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسِّير، تعليق إبراهيم محمّد رمضان، دار القلم، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

١١٥ ـ **محمّد بن محمّد حسن شُرّاب**، المعالم الأثيرة في السُّنَّةِ والسّيرة، دار القلم، دمشق ـ سورية، الدّار الشّاميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

١١٦ ـ **محمّد بيّومي مَهْران**، دراسات في تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية ـ مصر، ط٢، د. ت.

١١٧ ـ **د. محمد جميل غازي وآخرون**، مناظرة بين الإسلام والنصرانية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١١٨ ـ **د. محمّد حسن العَيْدَروس**، دراسات في الخليج العربيّ، دار الكتاب الحديث، الكويت ـ الكويت، القاهرة ـ مصر، الجزائر ـ الجزائر، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

١١٩ ـ **محمّد حسين هيكل**، حياة محمّد ﷺ، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ط١٩، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٢٠ ـ **محمّد حميد الله الحيدر آباديّ الهنديّ**، مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبويّ والخلافة الرّاشدة، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط٦، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

١٢١ ـ **محمّد رأفت عثمان**، النّظام القضائيّ في الفقه الإسلاميّ، دار البيان، الإسكندريّة ـ مصر، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٢٢ ـ **محمّد رشيد رضا**، مجلّة المنار (صدرت أعدادها بدءاً من عام ١٨٩٩م في المنصورة ـ مصر، وتوقّفت عام ١٩٤٠م)، القاهرة ـ مصر.

١٢٣ ـ **د. محمّد سهيل طقّوش**، تاريخ الخلفاء الرّاشدين الفتوحات والإنجازات السّياسيَّة، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٢٤ ـ **د. محمّد سهيل طقّوش**، السّيرة النّبويّة الشّريفة، دار النّفائس، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٢٥ ـ **محمد عزّت دروزة**، التّفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

١٢٦ ـ **محمّد الطّاهر بن عاشور التّونسيّ**، التّحرير والتّنوير «تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدّار التّونسيّة، تونس ـ تونس، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٢٧ ـ **محمّد علي الصّابوني**، صفوة التّفاسير، دار الصّابوني، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٢٨ ـ **محمد علي الصابوني**، مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت ـ لبنان، ط٧، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

١٢٩ ـ **محمّد كُرْدْ عليّ**، خُطَطُ الشّام، مكتبة النّوريّ، ط٣، دمشق ـ سورية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٣٠ ـ **محمود شيت خطاب**، الرسول القائد، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ط٦، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٣١ ـ **محمود شيت خطّاب**، قادة فتح الأندلس، مؤسّسة علوم القرآن، بيروت ـ لبنان، منار للنّشر والتّوزيع، دمشق ـ سورية، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٣٢ ـ **د. محمود عرفة محمود**، العرب قبل الإسلام، أحوالهم السِّياسيَّة والدّينيَّة وأهمّ مظاهر حضارتهم، عين للدّراسات والأبحاث، القاهرة ـ مصر، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٣٣ ـ **مرتضى الزَّبيديّ**، تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحقّقين، دار الهداية، القاهرة ـ مصر، د. ت.

١٣٤ ـ **مصطفى الشكعه**، مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط١٥، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٣٥ ـ **مصطفى صادق الرّافعي**، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربيّ، بيروت ـ لبنان، ط٤، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

١٣٦ ـ **المَسْعوديّ (عليّ بن الحسين بن عليّ المسعوديّ)**، مروج الذّهب ومعادن الجوهر، شرحه وقدّم له د. مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١٣٧ ـ معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٩٩١م.

١٣٨ ـ **مغلطاي ابن قليج**، إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق عادل ابن محمد وأسامة بن إبراهيم، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٣٩ ـ **المَقريزيّ**، إمتاع الأسماع بما للنّبيّ من الأحوال والأموال والحَفَدَةِ والمتاع، تحقيق محمّد عبد الحميد النّميسيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٤٠ ـ **المقريزي**، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٤١ ـ المُنجِد في اللّغة والأعلام، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، ط٣٥، ١٩٩٦م.

١٤٢ ـ **منير الذّيب**، سورية الجنوبيّة حَوران منذ عهد الكنعانيّين حتّى عهد الاستقلال، الجذور التّاريخيَّة الانتماء الوطن والتّراث، نينَوى للدّراسات والنّشر والتّوزيع، دمشق ـ سورية، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٤٣ ـ موسوعة الأديان (الميسرة)، دار النفائس، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

١٤٤ ـ الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة د. مانع بن حماد الجُهَنِيّ، دار النّدوة العالميّة، المملكة العربية السعودية، ط٤، ١٤٢٠هـ.، ١٩٩٩م.

١٤٥ ـ **ناصر الدّين الأسد**، مصادر الشّعر الجاهليّ، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، ط٧، ١٤١٠هـ/١٩٨٨م.

١٤٦ ـ **نَشوان بن سعيد الحِمْيَرِيِّ اليَمَنِيّ**، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكُلوم، تحقيق د. حسين بن عبد الله العُمَرِيِّ وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت ـ لبنان، دار الفكر، دمشق ـ سورية، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٤٧ ـ د. **النُّعمان عبد المُتَعالِ القاضي**، شِعر الفتوح الإسلاميّة في صدر الإسلام، مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

١٤٨ ـ د. **نقولا زيادة**، المسيحيّة والعرب، الأعمال الكاملة، الدّار الأهليّة، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٢م.

١٤٩ ـ **النويري**، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ـ مصر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

١٥٠ ـ **الواقديّ**، فتوح الشّام، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٥١ ـ **الواقديّ**، المغازي، تحقيق مارسدن جونس، دار الأعلميّ، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

١٥٢ ـ **وِلْ ديورانْت (ويليام جَيْمْسْ ديورَانْت)**، قصّة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، المنظّمة العربيّة للتّربية والثّقافة والعلوم، تونس ـ تونس، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٥٣ ـ **ياقوت الحَمَويّ**، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

١٥٤ ـ **يوسف بن تغري بردي**، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة ـ مصر، ط١، د. ت.

ب ـ المراجع الإلكترونيّة

١ ـ بُرْهُمُ المَعْشَرُ يؤرِّخ لعشائر الدَّبابِنَةِ ويُسجِّل الأنساب المشتركة لمسيحيّي الأردنّ وفلسطين من أحفاد الغساسنة.
http://sahafi.jo/files02f3649080efde4ab819d

٢ ـ قصر الأبيض، موقع اكتشف سورية.
www.discover-syria.com/bank/5765

٣ ـ قصر بُرْقُع: حصن قديم، وواحة استجمام وصيد لأمراء الأمويّين.
www.startimes.com/f.aspx?t=2996177

٤ ـ مفلح العدوان، القسطل... قصر الغبار السّاطع (٢)، جريدة الرّأي الأردنية.
www.alrai.com/article/ 556218.html

محتوى الكتاب

الفصل الثّالث
الحارِثُ بن جَبَلَةَ أعظم ملوك الغساسنة

الفصل الرّابع
خلفاء الحارث بن جبلة

الفصل الخامس
الغساسنة والنّصرانيّة

الموضوع | الصفحة

الفصل السّادس

نهاية حكم الغساسنة في ظلّ الإسلام

الموضوع | الصفحة

الفصل السّابع

الغساسنة بعد انقراض دولتهم

الفصل الثّامن

بعض تاريخ الغساسنة من خلال الشُّعراء

الموضوع — الصفحة

الفصل التّاسع
الاقتصاد عند الغساسنة

الفصل العاشر
نظام الحُكم وأُبّهَةُ المُلْك

الفصل الحادي عشر
العَمائِر

الفصل الثّاني عشر
الدّيانة ـ اللُّغة ـ متفرّقات

رقم: 613 - 15



الغساسنة قبائل عربية قحطانيّة، ملَك جدُهم "قحطان" اليمن، وإليه يُنسب العرب القحطانيون. وهو الذي بنى سدَّ مأرب. ولما انهدم السَّدُّ هاجرت القبائل التي تأثَّرت بانهدامه شمالاً، فكان نصيب "بني غسّان" جنوب بلاد الشام. وأسَّسوا هناك ما عُرف بـ "مملكة الغساسنة" الذين أصبحوا حلفاء الروم "الدولة البيزنطية"، وللمؤرخين والنسَّابين أقوال في تاريخهم.

ونظراً لأهميَّة مملكة الغساسنة في التاريخ العربي، والتي استمرَّ وجودها مئات السنين، حتى قضى عليها الفاتحون المسلمون، فقد أفردناها بكتاب ضمن مجموعة "المكتبة التّاريخيَّة".

وتولَّت كتابة هذا البحث أ.د. حنان قرقوتي، الأستاذة الجامعيَّة المختصَّة بالدراسات الإسلاميَّة والتّاريخيَّة. وتناولت في بحثها أصل الغساسنة وظروف قيام دولتهم، والملوك الذين توالوا على الحكم فيها، وعلاقتهم مع الروم، واعتناقهم النصرانيَّة، وحروبهم، ونهاية دولتهم.

كما تناولت في البحث إضافة إلى تاريخهم السِّياسيّ، تاريخهم الثقافيّ والحضاريّ، فتحدثت عن الأدب والشعر، ونظام الحكم، والعمارة، والإدارة، والحياة الاقتصاديّة. وبذلك فقد استوفى البحث تاريخ مملكة الغساسنة السّياسيّ والحضاريّ بشكل مفصَّل لم تُسبَق إليه.

الناشر


ISBN 978-9953-18-546-0
9 789953 185460